

سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

تأليف : جوزيف داهموس

ترجمة : د. محمد فتحي الشاعر





سَبْعَةٌ مُؤَرِّخِينَ
فِي الْعَصْرِ الْوَسْطَى

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان
رئيسة مجلة البادئة

رئيس التحرير

لمنحى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

سَبْعَةُ مَوْرخين في العَصُور الوَسْطَى

تأليف

جوزيف داهموس

ترجمة

د. محمد فتحى الشاعر

كلية الآداب - جامعة المنوفية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

مكتبة دار الفکر
١٠٠ شارع
القاهرة



مقدمة

جرت العادة على تحديد العصور الوسطى من تدهور روما حتى سنة ١٥٠٠ م ، وتشمل حضارات أوروبا الغربية ، والاسلام ، والامبراطورية البيزنطية . ان مؤلفات العلماء السبعة الذين تقدم دراسة عنهم في هذا الكتاب تمثل نموذجا لأفضل الكتابة التاريخية التي صدرت في تلك المجالات . وتساعد كتاباتهم على حفظ ذكرى الحوادث التاريخية التي تمت ، والشعوب التي عاشت ، ابان حوالى ألف سنة منذ القرن السادس الى القرن الخامس عشر الميلادى .

ويتصدر بروكوبيوس **Procopius** ، المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية ، القائمة بالنسبة الى عصره وأسهم الاسلام بمؤرخين عن هذه الدراسة : الطبرى ، وهو أول المؤرخين للتاريخ الاسلامى فى الأهمية وأكثرهم تمثيلا له ، وكذلك ابن خلدون أشهر المؤرخين فى التاريخ الاسلامى بكل الحسابات . ثم يأتى دور المؤرخين الأربعة لأوروبا الغربية ، بيده المبجل . . **Venerable Bede** ، وأوتو الفريزينجى **Otto of Freising** ومتى باريس **Matthew Paris** ، وفرواسار **Froissart** الذين عاشوا فى قلب العصور الوسطى بدءا من بيده فى القرن الثامن الى فرواسار فى القرن الخامس عشر .

وتتضمن هذه الدراسة كتابات هؤلاء المؤرخين السبعة ، ووصفا موجزا عن سيرة كل عالم منهم ، وبحثا مفصلا عن مكانته فى عالم العصور الوسطى على عهده . ثم يلى ذلك تحليل لمؤهلات كل كاتب باعتباره مؤرخا . وورد ذكر مقتطفات كثيرة من أعمال كل كاتب لالقاء الضوء على

أسلوبه في الكتابة ، ولاضافة الصفة الغالبة على شخصيته ، وهو ما يتضح بشكل أفضل في الوثائق التاريخية .

ونظرا لأن توالي القرون والأزمنة دفع المؤرخين الى الاهتمام بها ، فان الحاجة حتمت التركيز على الانجاز الثقافي لكل عصر في شكل أو قالب واحد حتى يسهل ادراكه . ولم تكن هناك فرصة سوى للنزعات ، وللتقييم العام إذا ما كان عصر قائم بذاته قد ساهم في الفن ، والفكر والعلوم ، وتطور نمو أنماط السلوك الاجتماعي ولم تخصص فترة محددة للفرد ، أو لحدث تاريخي له خصائص نادرة يمكن أن تكون قد غيرت مجرى التاريخ ، أو عن أى مفكر فاق عصره . وهذا أمر يؤسف له . ان التاريخ يبحث في الرجال والنساء الذين فكروا ، وتصرفوا كأفراد ، والذين أفرزت أفكارهم وأعمالهم ثقافة العصر الذي عاشوه ، باثراء وتنوع للحد الذي تحقق معه محاولات عرضها بطريقة مبسطة .

وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمؤرخين في العصور الوسطى . فعلى الرغم من أنهم عاشوا في نفس الفترة وتعرضوا للتهديد ، ووفقا لذلك - تحظر الوقوع في التماثل المتكرر - فانهم لم يكونوا كتابا للتاريخ يصعب تحديد هويتهم . وظلوا شخصيات قائمة بذاتها ، اذ عبرت كتاباتهم عن شخصيات مختلفة ، وعن فلسفات للحياة الى حد ما . لقد كان بروكوبيوس مؤرخا من نوع يختلف عن بيده ، ويبدو من أول وهلة أن متى باريس ، وفرواسار عاش كل منهما حياة مختلفة عن الآخر اختلافا بعيدا ، وربما مثل الخلاف في الحياة الذي باعد بين الطبرى وأوتو الفريزنجى . ومن ناحيه أخرى كان كل من بروكوبيوس الذى عاش فى القرن السادس الميلادى ، وابن خلدون الذى مات فى القرن الخامس الميلادى هما اللذان انتهجا الطريقة الحديثة وغير الدينية عند تدوينهما وتحليلهما للحوادث التاريخية ، ولم يكن هناك فاصل زمنى يقارب الألف عام فحسب ، وانما بيئتهما الثقافية لم يوجد بهما ما هو متشابه الا القليل أيضا .

ومع ذلك ، فمازال كل من بروكوبيوس وابن خلدون لانظير لهما . فالكثير من كتاباتهما تقريبا ليست متعلقة بالقرون الوسطى بشكل دقيق . ولا يمكن أن يقال نفس الكلام عن المؤرخين الخمسة على وجه السرعة . اذ انتهى حديث فرواسار عن الفروسية الى حد كبير بنهاية العصور الوسطى ، بالرغم من أن السير ولتر سكوت **Sir Walter Scott** وجد جمهورا من القراء المتلهفين على قراءة القصص الخيالية الرومانسية التى كتبها عن عصر الفروسية ، وكان هناك من يؤمنون بفلسفة فريزنج عن الحياة المتعلقة بعالم غير العالم الواقعى ، عاشوا بعد انتهاء العصور الوسطى بوقت طويل ، بيد أنهم ظلوا فى أديرتهم أو كتبوا

بمساءة قليلة التزمت بطريقة العصور الوسطى عند كتابة التاريخ .
أما عن الطريقة الحولية التي سار عليها الطبري ، فانها لم تعد شائعة
قبل نهاية العصور الوسطى بزمان طويل ، ويمكن أن يقال نفس الشيء
بالنسبة للتفسير الديني للحوادث التاريخية الذي سار عليه المؤرخ بيده
بتحمس شديد . على أن الشيء الذي يربط متى باريس بالعصور الوسطى
هو حرصه على الحفاظ على استقلال الكنيسة الانجليزية ، والطبقة
الأرستقراطية ضد تدخلات البابوية والتاج ، وهو صراع ينتمي الى العصور
الوسطى بكل وضوح على مثال الأنماط الاجتماعية مثل المواطن من سكان
المدينة والقن .

وعلى الرغم من أن شخصيات هؤلاء الكتاب كانت متميزة ، فانهم
كانوا يحملون جميعا طابع العصور الوسطى . وكان ايمانهم بالعناية
الالهية ، من بين الخصائص التي ميزتهم كعلماء متخصصين في تاريخ العصور
الوسطى وحضارتها . ويؤمن العلماء السبعة بأن الله الواحد الأحد فوق
كل البشر ، وكل القوى ولا تخفى عليه خافية . وكان هناك أناس في
العصور القديمة ، بل حتى مؤرخين في القرون الحديثة سلموا بتدخل
القوى الخارقة للطبيعة في شئون البشر ، بيد أنهم لم يكونوا على الاطلاق
على النمط اليقيني والشامل كما فعل انسان العصور الوسطى . لقد آمن
المؤرخون السبعة ياله واحد وعبوده . وعلى الأرجح فانهم سمحوا للايمان
أن يؤثر في سلوكهم ، ويصنع تفكيرهم بالصيغة الدينية ، وأن يوجههم
في تحليلهم للحوادث التاريخية .

ان تأثير هذا الايمان بالله العلي القدير والعالم بكل شيء ، ظهر
بوضوح أكثر عند المؤرخ بيده البندكتي (*) .

وعند أوتو الفريزنجي السيسترشيني Cistercian (**). بل ان
بروكوبيوس أقر بقدرة العناية الالهية ، وكذلك فعل ابن خلدون ، ان
الله هو الذي جنب هونوريوس Honorius غير المقتدر ، المعاناة من العواقب
الوخيمة لسياسته الرعناء ، ووفقا لما ذكره بروكوبيوس : « ان الله يدافع
عن الضعفاء ، ويأخذ بأيديهم ، اذا ما كانوا غير أشرار » (١) .

وعلق ابن خلدون على القرار المصري الذي نفذه السلطان أبو سعيد ،
والسلطان أبو ثابت Abu Tsabil لمهاجمة ملك المغرب قائلا : « اذا كانت

(*) البندكتي نسبة الى القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٥٣ م) ونظامه الديري - المترجم .

(**) السيسترشيني نسبة الى العنصرية في نظام الرهبان الذي ظهر في غابة

(Citeaux Clerefum) فرنسا سنة ١٠٩٨م - المترجم .

هذه هي إرادة الله ، ما كان في استطاعتهما رد القضاء ، وان الأيام تكشف بوضوح كل شيء قدرة الله لعباده « (٢) » .

ان فرواسار ، الذي سنحت له الفرصة لفترة قصيرة فحسب ليلحظ أعمال القتال والشجاعة ، أدرك في مناسبات عديدة تدخل العناية الالهية في شئون البشر بكل وضوح . فهناك مثل واضح للعقاب العاجل والرادع الذي أنزله الله بأحد الاقطاعيين الانجليز ، الذي اعتدى بالضرب على قسيس في مذبح الكنيسة ، ثم ولى هاربا على صهوة جواده بعد أن أخذ معه الأواني المقدسة . ولم يكده يصل هذا الاقطاعي الى تل قريب من الكنيسة حتى بدأ فرسه يثب بطريقة غامضة جدا ، مما ترتب عليه سقوط هذا الرجل وجواده أرضا ، ودق عنق كل منهما ، وبعد ذلك « تحول كل منهما على الفور الى جمرات من النار والرماد » (*) (٣) . ويبدو في مقدمة الطبرى لتاريخه العالمى تشابهه للتعليق المفسر لسفر التكوين ، فى حين ان سمة الحزن التى وردت ، الى حد ما ، فى العديد من كتابات متى باريس تظهر ايمان هذا المؤرخ للحوليات - بأن العصر السادس على وشك الانتهاء ، ويشير الى اقتراب الساعة .

ان الله والدين لهما الأهمية الأولى عند هؤلاء المؤرخين . فمن بين المؤرخين السبعة ، أربعة من القساوسة أو الرهبان - بيده ، وأوتو الفريزنجى ، ومتى الباريسى وفرواسار - وكان الطبرى عالما من علماء الدين له مكانة عالية . وأما عن المؤرخين الآخرين فقد وعد بروكوبيوس باصدار كتاب عن الدين ، وهو الذى لم تتح له الفرصة لكتابته ، أما ابن خلدون فقد أصر على أن الدين ، ولا شيء غيره هو القادر على التصدى لقوى الانحلال المتأصلة فى أى أمة . ولقد سلم كل هؤلاء المؤرخين السبعة بوجود المعجزات باعتبارها الرمز المحسوس لقدرة العناية الالهية .

ان ايمان هؤلاء الكتاب السبعة بالله والعناية الالهية يفسر تأييدهم للفكرة التاريخية التى تؤمن بأن كل شيء فى الطبيعة مقصود به غاية معينة . على أن المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس كان أقلهم صراحة فى الأخذ بتلك الفكرة ، اذ أخذ على عاتقه محاكاة طريقة ثيوكديد *Thucydides* الدنيوية ، وهو الوحيد الذى نال الاعجاب الأكبر لبروكوبيوس من بين المؤرخين القدامى . ولولا وجود الاشارات المتكررة عن الله والشيطان فى كتابه « التاريخ السرى » ، وكتابه الآخر « المنشآت المعمارية الضخمة » ،

(*) لا يخفى على القارئ الكريم ان هذه الرواية لا يمكن أن يقبلها العقل او المنطق ومن المهم القول ان المصادر التاريخية الأوربية فى العصور الوسطى تزخر بالحرفات والخزعبلات والأساطير الكثيرة - المترجم .

لأن المرء الى اعتبار بروكوبيوس حالة شاذة بين كتاب العصور الوسطى ، ولقال أنه كان متشبها بالدوران فى فلك أسلافه الوثنيين وكمسيحي صادق الايمان ، لم يكن لدى بروكوبيوس من الخيار الا الاعتقاد بأن الله مدبر الأمر فى السموات والأرض .

وينطبق نفس القول على فرواسار ، الذى ورد فى كتاباته القليل الذى يكشف على نحو لا يعتريه الشك ، عن أسلوبه المعبر عن الايمان بأن كل شىء فى الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة . أما عن الكتاب الغربيين الثلاثة ، بيده وأوتو الفريزنجى ، ومتى الباريسى ، فلا شك فى ايمانهم بأن الحوادث التاريخية تسير وفقا لارادة الله . وكذلك كان حال الطبرى ، الذى وضع موقفه فى الجملة الأولى من تاريخه العالمى حيث أشار بوضوح الى أن الله خلق المخلوقات ، وهو الغنى عنهم جميعا ، وانما ليبلونهم أيهم أحسن عملا (٤) .

ان هؤلاء المؤرخين السبعة الذين آمنوا بعدالة الله ومحبه الأبوية ، اعتبروا أنه ليس أمرا مثيرا للدهشة أن يستخلصوا الدروس الأخلاقية . وذهب متى الباريسى أبعد من أوتو ، وبيده ، فى رغبته فى الحكم على دوافع المسئولين عما قد حدث . أما الطبرى فلم يكن لديه فرصة لاستخلاص الدروس الأخلاقية لأنه حصر عمله فى تدوين ما كتبه الآخرون .

وأما عن ابن خلدون فمن النادر أن مارس دور القاضى ، على الرغم من أن انتحار عدو السلطان أبو ثابت ، الذى خانته ، وألقى القبض عليه ، ثم ذبح نفسه بالسجن ، استرعى منه هذه الملاحظة ، « ان الشيطان هو الذى حرك يده » (٥) . أما بروكوبيوس فقد ورد فى كتبه عن الحروب استخلاصا للدروس الأخلاقية أكثر مما أبداه المؤرخ الموضوعى ثيوكديد **Thucydides** . ومن النادر أن أعلن بروكوبيوس موافقته بكل قوة على أمر ما ، مثال ذلك المبرر الذى قدمه توتيل **Totila** الى قواته عندما استفسروا عن الطريقة الوحشية التى عاقب بها أحد حرسه الخاص لاغتصابه فتاة رومانية . وحذرهم توتيل أن الله مع المحاربين الأطهار (٦) . أما فرواسار ، فبصرف النظر عن ميله نحو تسليط الأضواء على النقائص ، ومواطن الضعف عند الاسكتلنديين والانجليز ، فانه امتنع عن استخلاص الدروس الأخلاقية . اذ كتب فرواسار بهدف تسلية قرائه ، لا لكى يقدم الموعدة ، برغم أن ما قام به حنا لامب **John Lambe** من عمل مشين عندما طعن ايفان **Evan** البطل الويلزى **Welsh** فى ظهره ، كان عملا شجبه الجميع .

ان ميل المؤرخين فى العصور الوسطى تجاه استخلاص الدروس الأخلاقية أثار مشكلة الموضوعية . فالى أى مدى استطاع المؤرخ الذى

التزم باستخلاص الدروس الأخلاقية كان صادقا ، وموضوعيا ، وغير متميز من الناحية العملية ؟ ان هؤلاء المؤرخين السبعة لم يسلموا بوجود أى مشكلة . اذ كانوا يعتقدون أن المسئولية الوحيدة للملقة على عاتق المؤرخ هي العمل على ذكر الحقيقة ، وفيما يلي ما يؤكد هذه الآراء . اذ يذكر بروكوبيوس أن « الحقيقة دون غيرها مناسبة للتاريخ » . ثم أعلن بيده تأييده لهذا القول .

وفي خطاب أوتو الفريزنجي الى رينولد Rainold ، مستشار فريدريك الأول برباروسا ، اعترف بأن مزاولة المؤرخين للكتابة التي تسر رجال السلطة أمر له اغراء كبير ، بيد أنه صرح قائلا : « انه لمن الأفضل أن يحرم المؤرخ من حريته الشخصية عن أن يتخلى عن مهمة المؤرخ باخفائه المشاهد التاريخية الكريهة بتقديم الذرائع التي تخفي الحقيقة » . أما فرواسار فقد انفجر غضبا ، عندما اقترح عليه أحد الأفراد أن يحرف في كتابة حولياته ارضاء لاحدى الشخصيات المهمة . أما الطبرى فلم ير في مسئوليته سوى أن ينقل بكل أمانة وحرص ما كتبه من سبقوه . وعلى الرغم من مقدرة ابن خلدون على أن يكون مع انجانب الفائز ، في كثير من المتغيرات السياسية التي واجهته ، فانه يستوقف القارئ كمؤرخ أمين ومدقق ، في معالجته للماضى . أما عن أكثر المؤرخين ميلا الى استخلاص الدروس الأخلاقية . . فهو متى الباريسى ، فلدينا نصيحته الى الكتاب بضرورة الالتزام بالصدق ، حتى لو أغضب ذلك الآخرين ، « واذا ما دونوا مادة تاريخية غير صحيحة ، فلن ينعموا برضى الله عليهم » .

وبصفة عامة أصر المؤرخون السبعة على ابلاغ القارئ عن مصادرهم التي استنقوا منها مادتهم التاريخية ، كأنهم يقدمون الدليل على ايمانهم بتصريحاتهم عن أنهم يكتبون بكل صدق . وكان بيده أكثرهم تفصيلا في هذا المجال . ويقرر بروكوبيوس في مقدمته ما كتبه « عن الحروب » أنه كان شاهد عيان لما كتبه ، وهو ما يعتبره دليلا كافيا على صحة ما كتب . أما الطبرى فقد اعتاد الاستشهاد بمصادره . وقام أوتو الفريزنجي بوضع قائمة لاعلام المؤرخين القدامى ، وللمؤرخين المعاصرين له ، الذين تبادل الرأي معهم . واعتاد متى الباريسى على الاشارة الى المصادر التي أمدته بالمعلومة التي تحت يديه وعلى سبيل المثال . خطاب من فريدريك الثاني Frederick II الى هنرى الثالث Henry III ، أو زائر قادم من سوريا ويتم كتابه « كتاب الاضافات Liber Additamentorum عن ادراكه العميق لقيمة الوثائق . ويبدو في مناسبات عديدة أنه يرغب في أن يبدد الشكوك عند القارئ بالتأكيد له ، انه استقى معلوماته عن أى حادثة معينة من كلا الجانبين ، وعلاوة

على ذلك وجوده في انجلترا لمدة خمس سنوات بالإضافة الى معرفته الشخصية لملوك فرتسا ، كل ذلك مكنه من أن يكتب دراسة صادقة عن الحروب ، التي نشبت بين ملوك البلدين . على أن ابن خلدون هو الوحيد ، الذي أبدى اهتماما قليلا بذكر المصادر ، وهو الشيء الواضح بجلاء ، في مقدمته ، لأنها قائمة على التحليل للشخصيات الى حد كبير . وفي تاريخه العالمي ، فان تناوله للتاريخ الغربي باستثناء أسبانيا ، يوحى اما بأنه لم تتوفر لديه من المصادر سوى القليل ، أو أنه لم يبذل جهودا كبيرة بغية الحصول على مصادر أفضل .

كان متى الباريسي أكثر من عبر عن اهتمام العصور الوسطى الفريد بالظواهر الطبيعية . وشاركه كتاب العصور الوسطى في هذا المجال ، عندما كانوا يعزون أشد تلك الظواهر الطبيعية اثارا للرعب ، والذعر ، والخراب ، والدمار ، الى غضب الله . وعندما كانت الحيوانات الغريبة هي موضوع الظاهرة الطبيعية ، وكان من النادر مشاهدتها ، فلقد أثار اهتمام انسان العصور الوسطى ، عدم توافر معلومات عنها . على أن ظهور تلك الحيوانات الغريبة يمكن أن يكون نذير شر أيضا ، وببساطة تكون موضع اهتمام ، وعلى مثال ذلك الفيل الذي قال عنه متى الباريسي ، أن لويس التاسع أهداه الى هنرى الثالث . وشعر كل من شاهده من الانجليز بدهشة لضخامة حجم ذلك الفيل (٧) . بيد أن ذلك كان هو كل ما حدث . ومع ذلك فان أى شيء غير عادى على نحو مزعج كان كافيا لدفع البشر على التفكير ، بل أن بروكويوس المؤرخ الغير اكليريكى من بين المؤرخين المسيحيين ربط بين دلالة التنبؤ بالمستقبل ، وبين مولد طفل له رأسين فى مدينة الرها Edessa عند ذلك أعلن بروكويوس مؤكدا أن هذا الحدث ينبىء بحدوث قتال بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على اراضى الرها ، وفى « الجزء الأكبر من شمال حدود الامبراطورية الرومانية » .

على أن ما يجده القارىء فى العصر الحديث أكثر اثارا لعنصر التشويق فى حويلات العصور الوسطى عن ملاحظة الظواهر الطبيعية ، هو رغبة كتاب تلك الحويلات ، فى ذكر القصص الخيالية ، والنوادر المسلية . انها عادة مارسها الكتاب القدامى . وكذلك سار بروكويوس على نهج هيروdot ، عندما سرد قصة الطفل الذى حملته عنزة على ظهرها ، كحديث عرضى لا علاقة له بالموضوع الاصلى عندما يصف الحرب فى ايطاليا بين الرومان والقوط . واعتاد بيده على نسج قصص من بنات أفكاره ، فى كتاباته التاريخية ، كما ظهر عند اعتناق نورثومبريا Northumbria للمسيحية ، عندما ذكر أنه اجبر كويفى Coifi ، ومستشارى الملك ادوين Edwin على تحديده وواقفهم .

وعلى الرغم من أن الطبرى يكتب فى اطار المصادر التى ذكرها ، فانه لا بد أن يكون سعيدا ، لأنه أورد ذكر الحادثة العرضية المتعلقة بالعباسة وجعفر . وكان لدى أوتو الفريزنجى ، أهل فى أن يجد قراؤه المتعة ، والعظة الأخلاقية فى قصة بيريلوس Perillus والشور النحاسى . أما متى الباريسى فقد تحدث عن مقتل بن نيو وليولين . Llewelyn ، الذى سقط من برج ، وقال أن الفتى صنع حبلا من مفارش السرير ، ومائدة للطعام ، والستائر التى وجدها فى مسكنه ، ثم سقط رأسا على عقب عندما تقطع الحبل - وكان رجلا بدينا - مرتطما بالأرض بعنف شديد لدرجة أن رأسه وعنقه ، « غاصتا فى صدره بين كفيه » (٨) . أما فرواسار فقد ذكر نوادر لا حصر لها ، ومن بينها الطريقة البارعة التى سلكها بيرترانت دو جيوسكلين Bertrand du Guesclin للحصول على حريته : ويروى عن الأمير الأسود أن الناس رددوا أنه كان خائفا من شخص أسره ولذلك لم يسمح له بدفع الفدية . بل أن العلامة ابن خلدون ، الذى لم يكن يهتم بذكر النوادر والحكايات الا قليلا ، أورد بعضها فى مقدمته ، عندما أراد أن يوضح احدى النقاط . فيحكى ابن خلدون أن أحد أبناء الوزراء عاش منذ الصغر فى سجن ، ولذلك فانه لم يكن يتصور أن يختلف الكبش عن الفئران ، التى كانت تعيش معه فى زنزانته ، اذ كانت الحيوانات الوحيدة ، من ذوات الأربع المعروفة له .

واعتماد المؤرخون فى العصور الوسطى على جعل الشخصيات البارزة تلقى الخطب ، أو تجرى المحادثات مع من حولهم وذلك استمرارا لعادة الكتاب القدامى هذا من ناحية ، وعلى أهل جذب انتباه قرائهم من ناحية ثانية . ولجأ كل من بروكوبيوس مؤرخ القرن السادس ، وفرواسار مؤرخ العصور الوسطى المتأخرة الى ممارسة تلك العادة المتبعة كثيرا . ونظرا لأن الطبرى قام بدور المسجل للوثائق فى المقام الأول ، لذلك لا نجد سوى القليل من الخطب فى أعماله ، على الرغم من أنه جعل شخصياته تسرد الروايات بضمير الفاعل ، فى عدة حالات . وهناك مثال على ذلك فى حالة كاتب كسرى الذى تجاوز حده عندما لفت انتباه ملكه الى أهمية احترام سلطته الرسمية .

واذا ما اندهش القارىء الحديث لوجود خطب ، ومحادثات ، ونوادر مسلية ، ودروس أخلاقية ، ومعجزات فى كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى فسيندهش لعدم وجود شيء له طبيعة اقتصادية أو اجتماعية . فاعتبر المؤرخون فى العصور الوسطى أن مهماتهم انتهت بتدوين المعلومات السياسية أو الدينية المهمة ، باستثناء ابن خلدون العالم الفذ بل ويمكن ارجاع وصف الظواهر الطبيعية الى أنها تحمل بعض الأهمية التنبؤية

ولم يجد المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون سوى شذرات من المعلومات في صفحات حوليات العصور الوسطى ، مثل البنائين الذين دعاهم بيده إلى الحضور في دير وير ماوث **Wearmouth** ، من بلاد الغال ، أو ثمن الخبز في إنجلترا في عهد متي الباريسي ، أو عن الأسلحة التي استخدمها المحاربون على عهد فرواسار . وكان المؤرخون في العصور الوسطى أقل تمشياً مع متطلبات العصر في هذه الناحية . ومع ذلك فقد ظل قراؤهم يتوقعون منهم تقديم معلومات عن الحروب ، وعن الشعوب القريبة خلف الحدود التي صارت مصدر تهديد ، أكثر من الأنباء عن الشخصيات السياسية والكنسية . وكان من الأفضل أن يفعم كتاب الحوليات في العصور الوسطى كتاباتهم بالحياة والحيوية والبهجة ، وذلك بذكر القصص المسلية . على أية حال فإن نوعية المعلومات التي بنى المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون ، في العصر الحديث دراساتهم عليها ، لم تظهر إلا في عصر متأخر .



بروكوبيوس

« كان هذا الرجل شريرا ويمكن تحريضه للفعل الشر بسهولة ، فهو من النوع الذي يطلق عليه مارق من الفضيلة . . . ويبدو أن الله نزع كل النقائص من سائر الجنس البشرى وجمعها في نفس هذا الرجل » (١) . هكذا كتب بروكوبيوس عن جوستينيان الشهير ، الذي حكم الامبراطورية البيزنطية (٥٢٧ - ٥٦٥ م) . ويظهر تحامل بروكوبيوس الشديد في أسلوبه ، بكل وضوح ، للقراء الذين لم يسمعوا عن جوستينيان ولذا لم يثبت ، يعتبر بروكوبيوس المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية وأقرب مؤرخ يوناني بعد بوليبيوس Polybius (ت حوالى ١١٨ ق . م) .

ان الإجابة عن هذا السؤال في عصرنا الحالي أكثر صعوبة من الإجابة منذ جيل مضى فمئذ سنوات قلائل مال الباحثون الى عدم الاعتراف بأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب التاريخ السرى ، الذي ورد فيه النص الأول في الفقرة السابقة بسبب تطرفه الشديد في الأسلوب . وكانوا قد تذرعوا بأنه لا يمكن أن يكون الرجل الذي كتب هذا الكتاب الزاخر بالقذف والافتراء هو نفس الرجل الذي كتب المجلدات الشامخة عن الحروب . غير أن الباحثين على أيامنا وافقوا على أن بروكوبيوس هو كاتب ومؤلف الحروب وكذلك التاريخ السرى . ويحتل بروكوبيوس مكانة سامية نظرا لربوغة مجلداته عن الحروب وهي التي حققت له سمعة عالية ، برغم السمة المريبة التي اتصفت بها كتابه عن التاريخ السرى .

ولد بروكوبيوس حوالى سنة ٥٠٠ م في قيصرية عاصمة فلسطين . وأما عن المكان الذي تلقى فيه تعليمه فهي مسألة تتوقف على التخمين ،

يرغم أن جزءا من تعليقه ، من المحتمل أنه تلقاه في القسطنطينية . ويبدو أكيدا أنه أعد نفسه لكي يكون رجل قانون أو ليشغل إحدى الوظائف الإدارية . وتكشف كتاباته عن الملم كبير بالأدب الاغريقي القديم . وتعلم اللغة اللاتينية أيضا لأن رجل القانون لا يمكنه الاستغناء عن هذه اللغة في أى مكان بالامبراطورية . ويستطيع المرء أن يستخلص من آرائه التي أفصح عنها في كتاباته بين الفينة والفينة أنه ينتمى الى الطبقة الارستقراطية السناتوروية المحلية التي كانت أكثر العناصر محافظة على القديم ومقاومة للتغيير في المجتمع البيزنطى .

ولا بد أن بروكوبيوس كان محاميا ناشئا في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات عندما لفت انتباه البلاط الامبراطورى اليه . لأنه في تلك الفترة تم تعيينه سكرتيرا ومستشارا قانونيا لبليزارىوس القائد الشاب المقتدر ، الذى عهد عليه جوستينيان بقيادة الجيش البيزنطى فى الشرق فى مواجهة الفرس الساسانيين . إذ كان سكان غرب آسيا يتحدثون اللغة الآرامية بجانب اللغة اليونانية . ولا بد أن تمكنه من عدة لغات كان مظهرا جديرا بالتقدير إذ أثنى عليه الباحثون لمعرفة الشيء اليسير من الآرامية ، والعبرية ، والقوطية ، والسلافية ، والفارسية .

وفى سنة ٥٢٧ م ، وهى السنة التى تم فيها تعيينه سكرتيرا لبليزارىوس ، ذهب بروكوبيوس فى صحبة القائد فى حملاته فى سوريا وبلاد ما بين النهرين . وبعد ذلك بست سنوات ذهب بروكوبيوس مع بليزارىوس الى أفريقيا فى حملة ناجحة وقصيرة ضد الوندال . وفى سنة ٥٣٦ م عبر بروكوبيوس البحر الى ايطاليا حيث انضم الى بليزارىوس لقضاء سنوات من أطول وأقسى سنين الحرب فى شبه الجزيرة الايطالية . ولم يقتصر دور بروكوبيوس على ملازمة القائد وإنما تولى مهامها أسندها لبليزارىوس اليه ويؤكد بروكوبيوس للقارىء أنه أنجزها كلها بكل نجاح ، وفى إحدى المناسبات اقترح على بليزارىوس اجراء مناورة حربية قام القائد بتنفيذها (٢) .

وعاد بروكوبيوس الى القسطنطينية بعد الاستيلاء على روما سنة ٥٤٠ م ، ويبدو أنه كان شاهد عيان للوباء الرهيب الذى داهم المدينة سنة ٥٤٢ م . وبعد تلك المرحلة اكتنف الغموض تحركاته . ويمكن للمرء أن يفترض أن القرار الامبراطورى المتعلق بعزل بليزارىوس عن أصدقائه سنة ٥٤٢ م ، شمل بروكوبيوس أيضا . وربما قطع بروكوبيوس علاقاته مع بليزارىوس بمحض اختياره لأن مطالعة التاريخ السرى تترك الانطباع بتعرض رأيه فى القائد الى تغير جوهرى فى ذلك الحين .

على أن الأمر الذي لا ريب فيه هو اتخاذ بروكوبيوس القسطنطينية مقرا دائما له بقية حياته . ومن المرجح أن بروكوبيوس ظل ينعم بعطف جوستنيان برغم تعرض الأخير للتشهير اللاذع على يد الأول في كتاب التاريخ السرى . وفي مقدمة كتاب بروكوبيوس الذي كان عن الانشاءات المعمارية الضخمة كتب يقول : « ان الشعوب التي أظلتها رعاية الامبراطور قه عبروا عن عرفانهم بالجميل تجاه ولي نعمتهم » (٣) ، وهي فقرة تم تفسيرها على أساس أنها تشير الى الكاتب نفسه . واذا كان الأمر كذلك ، فان هذا التفسير يؤكد قيام جوستنيان بمنح بروكوبيوس لقب اللامع أو الشهير أو النبيل *illustris* سنة ٥٦٠ م ، وقد مكن هذا اللقب بروكوبيوس من الانضمام الى الطبقة الأرستقراطية ، وأتاح له فرصة الحصول على منصب ادارى مرموق . ويعتقد بعض الكتاب أن بروكوبيوس هو الذي ورد ذكره كوال للقسطنطينية سنة ٥٦٢ م برغم أن هذا قد يكون مجرد تخمين . اننا لا نعرف شيئا عن سنواته الأخيرة . وربما مات بعد سنة ٥٦٠ م بوقت قصير ، أو سنة ٥٦٥ م .

وتتكون مؤلفات بروكوبيوس من كتب عن الحروب ، والتاريخ السرى والانجازات المعمارية الضخمة وهي مجموعة في سبعة مجلدات في طبعة *Loeb Classical Library* . وأثيرت خلافات كثيرة حول تحديد تواريخ كتابة أعمال هذا المؤرخ . وكان كتاب التاريخ السرى هو المتسبب في حدوث هذه المشكلة بأكملها الى حد كبير . ولولا ظهور كتاب التاريخ السرى المتسم بالافتراء والتشهير لكانت مسألة تحديد مواعيد ظهور أعمال بروكوبيوس عن الحروب وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، مسألة لا تشكل أدنى مشكلة أو أهمية . ونظرا لأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب التاريخ السرى ، فان بعض الباحثين مالوا الى اظهار النقد المقنع ، الموجه للامبراطور جوستنيان ، من بين سطور مجلدات بروكوبيوس عن الحروب، مفترضين أن هذا المؤرخ كان منهمكا في تأليف كتبه عن انحروب وكذلك التاريخ السرى في الوقت نفسه (٤) .

ظهرت الكتب السبعة الأولى عن الحروب حوالي سنة ٥٥٠ م ، أما الكتاب الثامن فقد ظهر بعد سنة ٥٥٤ م بقليل . أما الكتاب الخاص بالانجازات المعمارية الضخمة فقد أصبح تحديد سنة ٥٦٠ م كتاريخ لصدوره باعتبارها أسرا في حكم المتفق عليه . ونظرا لأن العالم لم يكن على معرفة بوجود كتاب التاريخ السرى قبل تنوينه ضمن دائرة المعارف البيزنطية في القرن العاشر الميلادي ، والمعروفة باسم سيوداس *Suidas* ، فلم يكن لدى الباحثين مشكلة نشر تعرضهم للمضايقة . بيد أن هؤلاء الباحثين اختلفوا حول تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب .

وأحد الأدلة المشيرة لذلك هو الجملة التي أشار فيها بروكوبيوس الى أن جوستينيان ظل يدير دفة الأمور بالامبراطورية لمدة اثنتين وثلاثين عاما . ونظرا لأن الامبراطور بدأ حكم الامبراطورية بصفة رسمية سنة ٥٢٧ م ، فان فترة اثنتين وثلاثين عاما تشير الى أن فترة اعداد كتاب التاريخ السرى كانت ما بين ٥٥٨ - ٥٥٩ م . ويميل الباحثون بصفة عامة الى تحديد سنة ٥٥٠ م على اعتبار أن بروكوبيوس أسقط جوستين ، خال جوستينيان من حساباته ، والذي كان قد حكم (٥١٨ - ٥٢٧ م) ، باعتبار أنه كان مجرد امبراطور صوري ، في الوقت الذي كن فيه جوستينيان يحكم الامبراطورية من الناحية العملية .

واحتوت كتب بروكوبيوس عن الحروب ، على كل الصراعات الحربية ضد الفرس الساسانيين وضد الوندال في ليبيا ، وضد القوط الغربيين في إيطاليا . وحاول بروكوبيوس تقديم الدليل على أنه كان شاهد عيان للأحداث ، وأنه كان أمينا في سردها ، ودقيقا في وصفه للحملات والمعارك الحربية ومن ناحية أخرى ، فانه اتخذ موقفا مختلفا في كتبه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى . ففي كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة كان بروكوبيوس مفرطا في الثناء والمدح للامبراطور جوستينيان ، أما في كتابه عن التاريخ السرى ، فانه كان أشد الناس عداوة له وحقدا ، بما كتبه من قذح وهجاء لم يسبق له مثيل .

ويجد القارئ في الوقت الحاضر ، والذي يضيق ذرعا بالدعاية ، حتى لو كانت في أبسط صورها ، أن كتاب بروكوبيوس الخاص بالانجازات المعمارية الضخمة ، لا يستحق الاهتمام ، وأن هذا اللون من الدعاية غير مقبول . بيد أنه اذا كان بروكوبيوس ومعاصروه قد قبلوا ما احتواه هذا الكتاب من اطراء على مستوى الانتاج الأدبي الرفيع ، فانه احتوى على معلومات قيمة في الوقت نفسه أيضا . فعلى سبيل المثال ، يوجد في ذلك الكتاب معلومات يقينية ولا ريب فيها عن الانشاءات المعمارية التي تمت في عصر جوستينيان تفوق المعلومات عن أي عهد قبل القرن الثاني عشر . ويمدنا الكتاب بقدر هائل من المعرفة عن الكنائس ، والتحصينات ، وخزانات المياه ، وينابيع المياه المعدنية ، وصوامع الغلال التي أقامها جوستينيان أو أمر باصلاحها وترميمها . وفيما يلي الوصف الشعري لكنيسة أيا صوفيا Higia Sophia من الداخل ، وهي الكنيسة الضخمة بقبتها الرائعة التي ما زالت أعلى المباني في مدينة استانبول . . « يغطي الذهب الخالص كل سقف القبة ، مضييفا روعة لجمالها ، ويعمل الضوء المنعكس على الأحجار على زيادة لمعان الذهب . وبداخل الكنيسة عمودان من الأعمدة المقنطرة ملتصقان ببنيان الكنيسة ، ويوحيان للرائي بزيادة

عرض وطول وارتفاع الكنيسة . ولهذه الأعمدة سقوف معقودة ومزينة بالذهب . وبالكنيسة مكان مخصص للرجال لتأدية الصلوات ، وآخر للنساء للغرض نفسه . وان كان لا يوجد هناك ما يميز أحدهما عن الآخر ، كما لا يوجد خلاف بين المكانين . وإنما عملا على روعة الكنيسة وبهجتها . ولكن من ذا الذى فى استطاعته وصف القاعات التى بالجانب المخصص للنساء على نحو دقيق ، أو أن يحصر عدد الأعمدة الكثيرة والطرقات المزدانة بالأعمدة التى تحيط بالكنيسة ؟ أو من ذا الذى يستطيع أن يتحدث عن جمال الأعمدة والأحجار التى تزين الكنيسة ؟ وللمرء أن يتصور أنه قد شاهد روضة بها أزهار متفتحة . وبكل تأكيد سيصاب المرء بالدهشة عند مشاهدته الألوان الأرجوانية ، والخضراء ، والقرمزية التى تتألق ، والبيضاء الناصعة البياض ، وسيختلط عليه الأمر من شدة تباين الألوان ، وكلما دخل أى فرد تلك الكنيسة للصلاة أدرك على الفور أن ما شاهده ليس من صنع بشر ، وإنما من صنع الله ، وأن هذا العمل قد أحسن صنعا . وعندما يتجه المرء بقلبه الى الله ، ويتعبد ، يشعر بوجود الله الذى رضى عن هذا المكان ، واختاره لعبادته . على أن هذا الشعور يتكرر فى كل مرة لمن قدر له أن يزور تلك الكنيسة عدة مرات ، وكأنه يزورها للمرة الأولى . والواقع أن المناظر التى بتلك الكنيسة تجعل المرء يشعر بأنه قد شاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت من قبل ، ولذلك يشعر الناس بالبهجة الجارفة ، وهم فى داخلها ، وعندما يغادروها يتحدثون عنها بكل الغبطة والحبور . وبالإضافة الى ذلك ففيما يتعلق بكنوز هذه الكنيسة - الأواني المصنوعة من الذهب والفضة وكل الأشياء المطعمة بالأحجار الكريمة والتى أهداها الامبراطور جوستينيان للكنيسة - فانه من المستحيل تقديم وصف دقيق لها جميعا . بيد أنى سأتيح للقراء تكوين رأى من خلال مثال واحد فحسب . وهو أن المحراب الداخلى ، الذى لا يدخله سوى القساوسة ، قد احتوى على زخارف من الفضة بلغ وزنها أربعة آلاف رطل . (٥)

وإذا كان بروكوبيوس قد استهدف من كتاب التاريخ السرى محاولة تصحيح ما ورد فى كتبه عن الحروب من معلومات تاريخية ، على حد قوله ، الا أنه من النادر أن التزم بذلك الهدف : فالكتاب لا يحتوى على شئ أكثر من محاولة متعمدة للاساءة الى سمعة جوستينيان وزوجته ثيودورا ، وبليزاريوس وزوجته أنطونينا Antonina وخلع بروكوبيوس على كل من جوستينيان وثيودورا ، وأنطونينا قدرات شيطانية ، اذا لم يكن قد ادعى أنهم كانوا حقيقة شياطين .

أما بالنسبة الى بليزاريوس فقد نعته بروكوبيوس بممارسة دور ديوث حقير . ونظرا للبون الشاسع بين الصور التى رسمها بروكوبيوس

عن تلك الشخصيات الأربع في كتبه عن الحروب ، والصور التي قدمها عنهم في كتاب التاريخ السرى ، فقد مال الكثير من الباحثين الى الشك في اعتبار بروكوبيوس مؤلفا لكتاب التاريخ السرى .

وفيما يتعلق بمصادر معلومات بروكوبيوس التي أوردتها في كتبه عن الحروب ، وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى ، كان هذا المؤرخ ملتزما بكتابة كل ما هو معروف مثلما فعل أسلافه القدامى الذين سار على هدايتهم في فن الكتابة التاريخية . على ان البيان الوحيد والصريح الذي تركه لنا بروكوبيوس بخصوص ذلك هو مقدمته في كتبه عن الحروب . فبعد أن كتب كلمة عن هدفه من تأليف ذلك الكتاب صرح قائلا : « وبالإضافة الى ذلك فانه كانت لديه القناعة بالمقدرة ، أكثر من غيره ، على الكتابة في تلك الأحداث لأن قدره شاء له أن يعين مستشارا للقائد بليزاريوس ، فكان بذلك شاهد عيان لكل الأحداث من الناحية الواقعية مما مكنه من انكتابة عنها » . (٦)

ومن المؤكد تقريبا أن بروكوبيوس حصل على حق الاطلاع على السجلات التاريخية الخاصة بالامبراطورية عند اعداده كتابه الذي تحدث فيه عن الانجازات المعمارية الضخمة . فالوصف الذي قدمه بروكوبيوس للانشاءات العديدة ، والمتنوعة والتي ليس من اليسير حصرها بسهولة يجعل هذا الاستنتاج أمرا لا بد من التسليم به . واذا كان جوستينيان قد عهد بالفعل الى بروكوبيوس باعداد هذا الكتاب ، كما يعتقد بعض الباحثين ، فلا شك أنه استطاع الاعتماد على الحكومة في تزويده بهذه المعلومات . أما فيما يتعلق بالمصادر الخاصة بالنوادير المشينة والتفاصيل التي تثير التقزز والتي تمس ثيودورا ، زوجة جوستينيان ، وانطونينا زوجة بليزاريوس ، والتي أثار بها بروكوبيوس كل قارئ لكتاب التاريخ السرى ، فيستطيع المرء الافتراض بأن مصدرها هو مروجى الشائعات الذين كانوا على استعداد لعرض سلعتهم لكل من يرغب في الحصول عليها . نظرا لقربهم دائما من بلاط القصر وبالإضافة الى ذلك فقد أدى خيال بروكوبيوس السوداوى الى الصاق أفظع الأسباب والدوافع الممكنة الى الشخصيات التي عمل بكل جهده على القضاء عليها . ويظهر أقوى دليل على أنه درس قواعد علم البلاغة في التكرار الذي قدمه على لسان شخصياته في الخطب وفي الجمل السديدة . وهناك دليل آخر على استخدامه الأساليب البلاغية في ذلك الوقت وهو اقتباسه لأساليب البيان والمجاز التي ذكرها أبناء بلده في العصور القديمة ، من أمثال هيرودوت Herodotus و ثيوكديد Thucydides وبعض تلك الأساليب كان مناسبا لعصر بروكوبيوس ، أما البعض الآخر فكان من الأفضل تركه لعصوره القديمة . فقد يستمتع المرء بالقول المأثور الذي قاله هوميروس

Homer وهو : « ان كل شيء قدرته الآلهة بقدر » . وعندما كتب بروكوبيوس أن حنا القبدوقى اللثيم والوغد قال : « ان الله شاء لهذه الأمور أن تحدث » (V) هنا ربما يشعر القارىء بشيء من عدم الارتياح .

وسيجد الباحث الحريص على معرفة الدوافع التى حدثت ببروكوبيوس الى كتابه عن الحروب ، وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى ، أنه كانت لديه شخصية قادرة على التكيف وفقا للمواقف . ففي بداية كل كتاب أفصح بروكوبيوس عن حافزه للكتابة . ف فيما يتعلق بكتابه عن الحروب كتب يقول : « لكى لا يدفع مرور الوقت الأعمال التى لها أهمية الى أن تصير أعمالا مغمورة نظرا لعدم وجود سجل رسمى يتضمن ذكرها ، وبذلك يعرضها الى النسيان وعدم الذكر كليا » لذلك اعتقد بروكوبيوس أن العمل على احياء ذكرى تلك الأحداث عمل عظيم ، ومفيد للغاية لأهل عصره ، وللأجيال القادمة أيضا ، اذا ما أجبرتهم الأيام على التعرض لموقف صعب مشابه » .

ووضع بروكوبيوس فى اعتباره الظروف التى دفعت الناس الى شن الحروب ، ولذلك ذكر الكثير منها فى كتبه عن الحروب ، بعد أن وجد الناس أن الحرب تحقق مصالحهم . « فقد يستطيع الناس الذين يعقدون العزم على بدء حرب أو الاستعداد لأى نوع من الصراع أن يجنوا بعض الفائدة من قصة موقف مشابه فى التاريخ ، بقدر ما تكشفه هذه القصة على ضوء ما أحرزه من سبقوهم من نتائج نهائية ، كما أنها تشير الى مدى ما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون ببعد النظر » . (A)

ولم يفصح بروكوبيوس بوضوح عن الدرس الجدير بالذكر الذى استخلصه الناس الذين عقدوا العزم على الدخول فى الحرب ، من التاريخ ، برغم أن هذا صار واضحا فى النهاية . إذ لا شك أنه ترك انطبعا فى فكر القارىء أن الحرب شر . وبالإضافة الى تعلم هذا الدرس فيحقق التاريخ أهدافا أخرى . وأدرك بروكوبيوس ادراكا كاملا أهمية عنصر التشويق الذى يمكن أن تحققه دراسة الحروب . ولهذا السبب يعلن بروكوبيوس بكل اصرار أن الحروب السابقة : « لم تشهد أعمالا أكثر أهمية أو أكثر شراسة عبر التاريخ مثلما حدث فى الحروب التى جرت فى عهدنا . . . ذلك لكثرة ما بها من أعمال بطولية فذة ، جديرة بالاشادة بها على نحو يفوق ما حدث فى أى حرب من الحروب السابقة التى علمنا بتفاصيلها » . (9)

ويقدم بروكوبيوس الدليل القوى ، فى مقدمة كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، على أهمية كتابة التاريخ لما يحفظه من عبرة تتعلق

بالفضيلة والرذيلة . وقال أنه من الواجب على الأجيال القادمة أن تقتدى بالأعمال الفاضلة ، وتتجنب الأعمال الشريرة ، ثم قال متعجبا : « ما أكثر الفوائد التي من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ ! وما أعظمها ! ان التاريخ ينقل الى الأجيال التالية ذكرى الذين رحلوا ، ويقف بثبات ضد عوامل النسيان . ويحض الذين يطلعون عليه من حين إلى آخر ، على الفضيلة ، بفضل الشناء الذي يطرحه عليها ويهاجم التاريخ الرذيلة باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها . وهكذا يجب أن يكون ذلك هو اهتمامنا الكلي - فكل أعمال الماضي ستوضح بجلاء ، مع ذكر فاعلها ، أيا كانت شخصيته » (١٠) .

وكان هدف بروكوبيوس من كتابة التاريخ السرى أن يقدم سجلا مفصلا يتضمن معلومات مؤذية تتعلق برجال ونساء في مواقع السلطة ، لأنه لم تكن لديه الجرأة على ذكر تلك المعلومات في كتبه عن الحروب . ويفسر بروكوبيوس عدم تمكنه من ذكرها في كتبه عن الحروب قائلا : « طالما ظل الفاعلون على قيد الحياة لأنه لم يكن من الممكن مراوغة يقظة حشد الجواسيس الضخم ، أو النجاة من موت في أبشع الصور في حالة الضبط - في حالة تلبس لذلك من المحتمل أن تكشف الستار عن الأفعال التي ظلت حتى اليوم في طي الكتمان ، بل وأن أذكر أسباب تلك الأحداث التي وصفتها من قبل » (١١) .

ويعترف بروكوبيوس بأن ما يكتبه في كتاب التاريخ السرى « سيبدو للانسان في جيل لاحق أنه أبناء لا يمكن تصديقها أو ممكن حدوثها » . وكان بروكوبيوس قد تردد في اماطة اللثام عن الأعمال الاجرامية التي اقترفها الحكام في عهده خشية أن يقلدهم أصحاب الأفكار والنوايا الشريرة . وأخيرا قرر بروكوبيوس ما يخالف ذلك ، « بدافع الاقتناع بأن تلك الأعمال الاجرامية ستكون واضحة تماما لكل من يتولى السلطة الملكية فيما بعد ، وأن العقاب سيحل بهم بكل الاحتمالات أيضا ، بنفس القدر الذي فعلوه مع هؤلاء الناس ، وان أفعالهم وشخصياتهم ستدون في سجل التاريخ للأجيال القادمة ونتيجة ذلك أنهم ربما سيكونون أكثر حذرا اذا ما حاولوا الميل الى الطغيان » (١٢) .

ان سمة التباين في كتابات بروكوبيوس تجعل من المحتمل علينا أن ندرس كل كتاب من كتبه على حدة اذا ما أردنا تقييم مصداقية هذا المؤرخ . فعلى سبيل المثال ، يستطيع المرء القول بأن كثيرا من مخالفات قواعد الصدق تتضح في كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، لان هذا الكتاب كتبه بروكوبيوس بقصد الشناء على جوستينيان . وتظهر صورة واضحة لابتعاد بروكوبيوس عن الحقيقة عند وصفه لبناء كنيسة أيا صوفيا

Hagia Sophia اذ كتب أنه قبل أن توضع ركيزة أحد عقود البناء الكبرى في موضعها ، بدأت الدعائم التي ترتكز عليها في أن تحدث بها شروخا ، « لعدم قدرتها على حمل الكتلة التي ترتكز عليها ٠٠٠ عند ذلك أصاب الفرع كلا من أنثيميوس Anthemius وأيزيدوروس Isidorus (١٣) ، نتيجة لما قد حدث ، وأبلغوا الامبراطور بالموقف بعد أن خذلتهم مهارتهم الفنية . وعلى ما أعتقد فبالهام من الله (لأن الامبراطور لم تكن لديه معرفة بعمليات البناء) أمر جوستنيان المهندسين باكمال بناء العقد الى أن يصل الى نهايته . اذ قال لهم « عندما يستقر العقد في موضعه فلن يحتاج الى الدعائم التي من تحته » ٠٠٠٠ وعلى ذلك نفذ البنائون تعليمات الامبراطور ، وظل العقد كله قائما في امان ، مؤكدا بالتجربة على صدق هذه الفكرة » (١٤) .

وفيما عدا تلك التصريحات التي حملت سمة المديح والاطراء في كتاب الانجازات المعمارية الضخمة والتي قبلها معاصروه دون اعتراض ، فليس هناك داع للشك في مدى دقة المعلومات التي أوردها بروكوبيوس المتعلقة بالكنائس والتحصينات التي أمر الامبراطور جوستنيان باقامتها أو بترميمها . ونظرا لأن بروكوبيوس قضى بعض الوقت في كثير من الأماكن التي ذكرها في كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، فللقارىء أن يقبل بشيء من الثقة الأوصاف التي ذكرها ، والمتعلقة بالطبوغرافيا والمناخ أيضا .

وللقارىء أن يقبل نفس الوضع فيما يتعلق بمصداقية كتب بروكوبيوس عن الحروب الى حد كبير . وحرص بروكوبيوس على أن يؤكد للقارىء في المقدمة أنه : « كان قادرا على كتابة تلك الأحداث التاريخية باعتباره كان شاهد عيان لكل أحداثها من الناحية الواقعية » . وفي الجملة التالية تقريبا حدد بروكوبيوس المبدأ الأول عند المؤرخ ، ونعنى بذلك : « أن الحقيقة دون غيرها هي الأمر الذي لا بد أن يؤخذ به عند كتابة التاريخ » . وعلى الرغم من اصرار بعض الباحثين على وجود انتقادات غير مباشرة ضد الامبراطور جوستنيان في كتب بروكوبيوس عن الحروب ، فان تلك المجلدات لها تأثير شديد على القارىء العادي باعتبارها من تأليف كاتب كان شاهد عيان ، كل همه تقديم رواية صادقة لكل ما حدث . ومع ذلك توجد بعض الأخطاء في المجلدات الخاصة بالحروب ، وقليل منها لا يمكن أن يتوقع المرء حدوثها من كاتب على قدر عال من الثقافة مثل بروكوبيوس . فعلى سبيل المثال كتب أن أتिला Attila مات بعد أتيسوس Aetius (١٥) ، وذكر أن استيلاء توتيلا Totila على الأعلام الرومانية : « كان حدثا لم يشهده الرومان من قبل » (١٦) .

وعلى ما يتوقع المرء من مؤرخ قديم ، فقد وقع بروكوبيوس في أخطاء جغرافية . اذ قال : « ان الأرض يحيطها محيط مستدير » . وكتب يقول : « يمتد المحيط حول الأرض اما كلية أو في معظم أجزائها (لأن معلوماتنا ليست واضحة تماما عن هذا الموضوع) ، وتنقسم الأرض الى قارتين بواسطة جريان مياه المحيط ، وتدخل مياه هذا المحيط الجزء الغربى وتكون هذا البحر الذى نعرفه ، والذى يبدأ من جاديرا **Gadira** (قادش **Cadiz**) ، ويمتد حتى بحيرة مايوتيك **Maeotic Lake** (بحر آزوف **Sea of Azov**) . ويطلق على القارة الأولى آسيا وتقع على يمين المرء الذى يبحر حتى بحر آزوف ، بعد أن يبدأ الإبحار من مضيق جبل طارق **The two Pillars of Heracles** أما القارة المواجهة للأولى فيطلق عليها أوروبا » (١٧) .

ان مسألة مصداقية ما ورد فى التاريخ السرى موضوع قائم بذاته والوحيد الذى حظى باهتمام شديد عند تقييم بروكوبيوس كمؤرخ . وان كان بروكوبيوس قد توقع أن يترك هذا الكتاب فى عقول قرائه شكوكا تتعلق بمدى صحة ما تضمنه من معلومات . اذ كتب محذرا : « ان ما أكتبه لن يصدقه جيل فى المستقبل ، بل ولن يقبل أن من الممكن حدوثه » (١٨) . ولما كان هناك اعتقادا بأن هذا الأسلوب المتطرف لا يمكن أن يصدر عن كاتب مسئول ، لذلك تردد الباحثون طويلا أمام الاعتراف به كأحد أعمال بروكوبيوس . واذا كان هناك قدر من الصحة فيما كتبه بروكوبيوس ، فان التحريف الذى لا يقبله عقل ، والذى وقع فيه ، يجعل من الصعب التعرف على الشخصيات . فكما قال أحد الباحثين : « ان الصورة غير المهذبة (عن ثيودورا) لم تترك شيئا عن الفساد الذى يمكن أن تنحدر اليه أشد النساء فجورا ، ولقد نجح المؤلف فى الحط من قدر أدلته وبراهينه ، والتي اعتقد أنه قدمها بكل ثقة ، بيد أنها ظهرت كأدلة واهية نتيجة لشدة المبالغة فيها » (١٩) .

ونجد أن بروكوبيوس هو المصدر الوحيد الذى يمكن للمرء الرجوع اليه لاستقاء المعلومات عن ثيودورا فى فترة صباها ، وأنه تحدث عنها باعتبارها نشأت وترعرعت فى محيط ميدان سباق الخيل المملوء بالمسايوى . وكان ذلك بعد موت والدها الذى عمل حارسا للحيوانات فى السيرك . ولما كانت والدتها تعاني من ظروف مالية صعبة لذلك اضطرت الى ارسالها ومعها أختها للعمل على خشبة المسرح بمجرد سماح أعمارهن بذلك . « فأما عن كوميتو **Comito** ، الابنة الكبرى ، فكانت قد حققت نجاحا باهرا بين بنات الهوى ، أما ثيودورا الابنة الوسطى ، فكانت ترتدى جلبابا له أكمام قصيرة يناسب إحدى الجوارى ، وكانت تسير خلف أختها

الكبرى ، وتؤدي خدمات عديدة ، وبصفة خاصة كانت تحمل مقعدا صغيرا على كتفها لتجلس عليه أختها الكبرى في الحفلات . ولما كانت ثيودورا لم تبلغ سن النضج بعد ، فانها كانت غير قادرة تماما على النوم مع رجل أو ممارسة ما تفعله امرأة مع رجل ، ومع ذلك مارست تلك العملية الجنسية كما يفعل الذكور من السفلة ، والعبيد الذين يتبعون ساداتهم الى المسرح ، حيث تتاح لهم الفرصة ، على نحو عرضي ، لممارسة هذه العملية الشاذة ، وكانت تقضى وقتا طويلا في مكان الدعارة تباع جسدها على هذا النحو الشاذ . بيد أنها ما أن وصلت الى سن النضج ، وصارت في كامل أنوثتها حتى انضمت الى نساء المسرح وأصبحت احسدى المنحرفات « (٢٠) .

وكتب بروكوبيوس أنه بقدر ما ازدادت ثيودورا نضجا وخبرة ، بقدر ما ازدادت فسقا وانغماسا في الشهوات ومع ذلك فقد صارت أدلة وبراهين بروكوبيوس غير منطقية لدرجة أنها انهارت من شدة كونها منيرة للسخرية وعلاوة على ذلك فان ما قلل من قدر مصداقية بروكوبيوس في كتابه التاريخ السرى هي جهوده في تصوير أنطونينا Antonina ، زوجة بليزاريوس باعتبارها من نفس نوع النساء الفاسقات . ويبدو أن بروكوبيوس اعتقد أن لا شيء أكثر شناعة يمكن أن يقال عن امرأة من اثبات أنها مصابة بالشبق ، على الرغم من أنه في حالتى ثيودورا وأنطونينا قد حاول اثبات أن حدة الرغبة الجنسية عندهما كانت أمرا متأصلا لديهما .

وعمل بروكوبيوس على تشويه سمعة جوستينيان تشويها كاملا في كتابه التاريخ السرى ، ووصفه بأنه ابنا للشيطان ولتقديم المزيد من امكانية ذلك ، فقد ذكر بروكوبيوس أن والده جوستينيان شهدت ضد ابنها . اذ كتب بروكوبيوس يقول : « ويقال ان والده جوستينيان صرحت للمقربات اليها أنه ليس ابنا لزوجها ساباتيوس Sabbatius أو لآى رجل آخر . لأنها عندما كانت على وشك أن تحبل به زارها عفريت غير منظور ، غير أنه حرك مشاعرها على نحو ما يفعل الرجل مع المرأة ابان ممارسة العملية الجنسية ثم اختفى كما لو كان الأمر حلما » (٢١) .

وإذا ما كان القارىء لديه الاستعداد على الاعتقاد بأن جوستينيان كان ابنا لشيطان ، فانه سيكون مستعدا لقبول ما استمر بروكوبيوس يقوله عن الامبراطور .

« كان هذا الرجل شريرا ويمكن تحريضه لفعل الشر بسهولة ، فهو من النوع الذى يطلق عليه مارق عن الفضيلة ، ولم يحدث على الإطلاق

أن تكلم بصدق ، وعن طواعية مع من يتحدث اليهم ، وانما كانت لديه نوايا مضللة وماكرة خلف كل كلمة وعمل . . . وكان جوستينيان غير مخلص ، ومتظاهرا كذبا بالفضيلة والدين ومخفيا غضبه بقصد الخداع ، ومنافقا ، وذكيا ، ومخادعا بكل معنى الكلمة ، في التعبير عن أى رأى تظاهر بالاعتقاد به ، بل وكان قادرا على زرف الدموع ، ليس من قبيل التعبير عن الفرح الشديد أو الحزن ، وانما تسيل تلك الدموع على الفور وفقا للموقف ، وكان يتصرف دائما على نحو ينم على الغدر والخداع ، ومع ذلك كان يضيف توقيعه وأغلظ القسم للتأكيد على موافقته على اتفاقاته ، وكان كذلك فى تعامله مع رعاياه . بيد أنه كان ينكت بعهوده واتفاقاته وقسمه على الفور كما يفعل أحقر العبيد . . . وكان جوستينيان صديقا متقلبا ، وعدوا غير مهادن ، وكان فى غاية التعطش للاغتيال والسلب والنهب ، ومولعا بالنزاع والحصام ، ومبتكرا مبتدعا ، ومن السهل قيادته ليحيد عن الصراط المستقيم ، بيد أنه لم يكن يتأثر بنصيحة تجعله يفعل الخير . . . وكيف يستطيع أى انسان أن يكون قادرا على وصف شخصية جوستينيان على نحو كاف ؟ تلك النقائص وأكثر منها اتصف بها جوستينيان بوضوح الى حد جعلها لا تتفق مع الطبيعة البشرية . ويبدو أن الله قد نزع كل النقائص من سائر الجنس البشرى وجمعها فى نفس هذا الرجل ، (٢٢) .

وعلى الرغم من الاعتراف بالمبالغة الشديدة فى أسلوب كتاب التاريخ السرى ، فان بعض الباحثين يحاولون الدفاع عن معظم هذا الكتاب باعتباره جدير بالثقة على أساس عدم ظهور تناقض مباشر مع ما كتبه بروكوبيوس فى كتبه عن الحروب (٢٣) . ولاريب أن فى ذلك مبالغة فى الرأى .

فعلى سبيل المثال نسب بروكوبيوس فى كتبه عن الحروب مقتل أمالاسونثا Amalasantha ، ملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا الى بعض القوط من أقاربها ، الذين كانت قد أمرت باغتيالهم (٢٤) . أما فى كتابه عن التاريخ السرى فقد أشار بكل وضوح الى ثيودورا باعتبارها المجرم الحقيقى ، وأنها تأمرت على اغتيال أمالاسونثا خشية أن يفتتن بها زوجها جوستينيان السريع التأثر ، الشدة جمالها وجاذبية قوامها ! (٢٥) . ويظهر جوستينيان محبا للسلام من حين الى آخر فى كتب بروكوبيوس عن الحروب (٢٦) . أما فى كتاب التاريخ السرى اتخذ جوستينيان موقف مثير الحرب العنيد الذى لن يتوقف الا بعد أن يقضى على كل الجنس البشرى قضاء تاما (٢٧) . ويتحدث بروكوبيوس فى كتابه عن الحروب

عن سجية ثيودورا العظوفة والتي « كانت تدفعها دائما الى مساعدة النسوة المنبوذات (المنحرفات) (٢٨) » . وعندما تحدث في كتاب التاريخ السرى كيف قامت ثيودورا بجمع تلك النسوة من شوارع القسطنطينية . وأسكنتهن في بيت التوبة الذي شيده لهن على الشاطئ الآخسر من البسفور ، نجد أن بروكوبيوس يترك انطبعا عند القارىء بأنها لم تفعل ذلك الا بدافع الحقد . (٢٩) وبالإضافة الى المظاهر الواضحة لعدم الترابط بين كتبه عن الحروب وكتاب التاريخ السرى فان التناقض الصارخ يكمن فى وصف بروكوبيوس لجوستينيان وبليزاريوس وثيودورا ، وأنطونينا فى كتبه عن الحروب كشخصيات سوية تماما . أما فى كتاب التاريخ السرى فقد وصفهم بروكوبيوس بأنهم شياطين أو منبوذون خلقيا وأنهم يتصرفون وفقا لذلك .

لقد ترك المؤرخون الاغريق القدامى من أمثال هيروdot وThucydides أثرا واضحا عند بروكوبيوس . ويستطيع المرء ، بكل تأكيد ، أن يستشف اتباع بروكوبيوس لطريقة هيروdot فى صياغة القصص القصيرة الشيقة أو المسلية عن الشخصيات أو الأحداث ، وكذلك الحوادث العارضة العنيفة ، فى سرده التاريخي ، بالإضافة الى الأمور غير المهمة ، عن العرف وعادات الجماعات ، وعن الجغرافيا ، وعن الأساطير ، وكلها مرتبطة بموضوع الكتابة التى قدمها بروكوبيوس ، وهو أسلوب لا يمكن للمؤرخ فى عصرنا اللجوء اليه . ولم ينس « أبو التاريخ » أو بروكوبيوس أن القارىء يريد أن يشعر بالمتعة والتسلية بقدر رغبته فى أن يعلم ويتعلم . وعلى ذلك فعند وصف بروكوبيوس لتحركات الجيش البيزنطى فى المناطق المجاورة لمدينة بيسينوم Picenum ، كتب كثيرا عن حادثة جانبية تتعلق بطفل تخلت عنه أمه بصفة نهائية . « وفى هذا الوقت حدث أن أنجبت إحدى سيدات هذه المدينة طفلا ، وتركت الرضيع فى قماطه على الأرض ، وسواء اضطرت الى أن تنشده السلامة فى الهرب ، أو أسرها أحد الأشخاص فانها لم تتمكن من الرجوع الى المكان الذى تركت به الطفل ، لأنها اختفت من الدنيا أو على الأقل من ايطاليا . وبدأ الرضيع فى البكاء بعد أن تركته أمه على هذا النحو . بيد أن عنزة وحيدة شاهدت الرضيع ، وأشفقت عليه ، وأرضعته من ضربها وتولت رعايته بكل حرص ، خشية أن يصيبه كلب أو حيوان مفترس بأى أذى . ونظرا لأن حالة الاضطراب والفوضى طالت مدتها فقد حدث أن استمرأ الطفل لبن العنزة وعاش عليه ولما علم سكان مدينة بيسينوم ، فيما بعد ، أن الجيش الامبراطورى قد جاء للقضاء على القوط ، وأنه لن يصيب الرومان من الأهالى بأى أذى ، سارع هؤلاء السكان

بالعودة الى ديارهم • وعندما عادت النسوة الرومانيات الى اقليم يورفيزاليا
 Urvisalia مع أزواجهن ، وشاهدن الطفل الرضيع ما يزال على
 قيد الحياة ، وفي قماطه ، لم يستطعن فهم ما حدث على الاطلاق ، واعتبرن
 بقاء الطفل على هذا النحو أمرا عجيبا جدا ومثيرا للدهشة • وعرضت كل
 منهن تدييها على الطفل • بيد أن الطفل لم يكن راغبا في لبن الرضاعة ،
 كما كانت العنزة غير راضية على الاطلاق عن حدوث ذلك ، وانما ظلت
 تشغو حول الطفل دون توقف ، حتى بدا الأمر للنسوة اللاتي تجمعن حوله
 وكأنهن شعرن بالاحباط وأنهن قد أزعجن الطفل ، وخلاصة القول ، أصرت
 العنزة على التعبير عن أن الطفل الرضيع يخصها وحدها ودون غيرها •
 ونتيجة لذلك توقفت النسوة عن ازعاج الطفل ، واستمرت العنزة في
 ارضاعه دون خوف ، وترعاه بكل عناية • ثم أطلق سكان المنطقة على الطفل
 اسم ايجيستوس Aegisthus (٣٠) ولما ذهبت الى ذلك المكان لأقيم به
 بصفة مؤقتة ، بقصد القاء نظرة على هذا المشهد المدهش ، تعمدت أن
 أحدث ألما جسديا بالطفل كي يبكي وبدأ الطفل فى البكاء ، وعندئذ جرت
 العنزة صوب الطفل بمجرد سماعها بكاءه ، واستمرت فى الثغاء بصوت
 عال بجواره ، ووقفت فوقه حتى لا يتمكن أى فرد من الحاق أى أذى به •
 تلك كانت قصة الطفل ايجيستوس « (٣١) »

واستطاع بروكوبيوس أن يؤكد على صدق هذه القصة المهمة -
 اذ يقول أنه شاهد الطفل الرضيع بنفسه • ولم تحمل كل القصص القصيرة
 الشيقة أو المسلية التي أورد ذكرها مثل هذا التأكيد • وكما فعل
 هيرودوت ترك بروكوبيوس مسألة الحكم على مدى مصداقية أى قصة الى
 القارئ نفسه (٣٢) •

على أن الطريقة الموضوعية التي انتهجها بروكوبيوس فى كتبه عن
 الحروب ربما كانت احدى الأساليب التي أخذها عن ثوكيديد فى الكتابة •
 فيذكر أن ثوكيديد لم يشر الى نفسه سوى مرة واحدة فى الحرب
 البلوبونيزية مستخدما ضمير الغائب المفرد ، ومن قبيل الصدفة ، حتى
 أن القارئ قد لا يدرك فى العادة ، أنه يتحدث عن نفسه • ولم يكن
 بروكوبيوس موضوعيا غاية الموضوعية ، على الرغم من أنه من النادر أن
 استخدم ضمير الفاعل ويمثل وصفه للمهمة التي كلفه بها بليزارىوس
 عندما حاصر القوط روما ، السمة الموضوعية التقليدية عنده ، عندما فضل
 الا يفصح عن شخصيته • وكان بليزارىوس قد وجه خطابا الى الرومان
 الذين كانوا يتضورون جوعا ، والذين طالبوه باتخاذ موقف ، بشأن وضع
 حد للمصير السيئ الذى يتعرضون له ، وذلك بشن معركة واحدة
 ضد العدو •

« وبتلك الكلمات شجع بليزارىوس جماهير الشعب الرومانى ثم سمح لهم بالانصراف . وأمر بروكوبيوس ، كاتب هذا التاريخ ، بالذهاب الى نابلى فوراً . وكلفه بأن يشحن أكبر عدد ممكن من السفن بالحبوب ، وأن يحشد كل الجنود الذين وصلوا من مدينة بيزنطة فى تلك الفترة ، وكذلك كل الجنود الذين تولوا رعاية الخيول بالقرب من نابلى أو الذين كانوا يؤدون مهاماً أخرى . ورافق بروكوبيوس مونديلاس Mundilas وهو أحد الحراس ، هذا بالإضافة الى عدد قليل من الفرسان . ثم رحلوا جميعاً ليلاً عبر بوابة بولس الرسول ، مارين خلسة بالعدو دون أن يراهم ، والذي أقام معسكره على مشارف طريق آبيان Appian Way لحراسته » (٣٣) .

كانت الكتابة بموضوعية الطابع العام للمؤرخين العلمانيين فى الماضى . وتجنبوا أيضاً الاشارات الى القوى الخارقة للطبيعة ، وأعنى بذلك ، الآلهة باعتبارها قوى حركت مجرى الأحداث . ونظراً لأن بروكوبيوس كان مسيحياً فإنه كان من المستحيل عليه أن يجارى أسلافه المؤرخين فى تجاهل قدرة الله العلى القدير . ومع ذلك فاذا كان بروكوبيوس راغباً فى أن يظل متمتعاً بسمعة حسنة بين جمهور الطبقة المثقفة فى القسطنطينية الذين كان يكتب اليهم ، فقد كان عليه أن يحاول ذلك . وعلى الرغم من أنه تحدث عن الله وعن العناية الالهية ، فإنه فضل أن يخفى ارادة السماء تحت عباءة القضاء والقدر والحظ والصدفة . وكان بروكوبيوس حريصاً على أن يظل بعيداً عن المنازعات اللاهوتية التى سادت عصره ، وهو ، بالطبع ، الاجراء الصحيح الوحيد ، الذى كان يتحتم على المؤرخ العلمانى اتخاذه .

وعلى الرغم من أن لقب « أبو التاريخ » ينسب فى العادة الى هيرودوت فحسب ، فان ثوكيديد يطلق عليه من باب التشريف لقب أبى التاريخ « العلمى » ولا ريب أن ثوكيديد هو أول من قدم بحثاً مستفيضاً عن الحرب . فقد حاول عند كتابته عن الحرب البيلوبونيزية أن يثبت أن الحرب عديمة الجدوى ومحفوفة بالمخاطر ومدمرة للقيم والامكانات المادية والمعنوية . ولاشك أن بروكوبيوس الذى شارك الرأى أولئك الذين عارضوا الحرب ، عندما أرشك على الانتهاء من كتابة عن الحروب ، وبذلك يكون قد شارك ذلك المؤرخ القديم فى شجب الحرب منذ بداية كتابته . وفى الفقرات الأولى من كتبه عن الحروب ، عبر بروكوبيوس عن رأيه ، بالمعنى الضمنى على الأقل ، عن الأدلة والبراهين التى تعارض قيام الحرب ، والتى كان ثوكيديد قد عرضها منذ القرن الخامس الميلادى : فى كثير

من الأحوال يعجز الذين يشعلون نيران الحرب عن إحراز النصر بعد أن أقحموا أنفسهم فيها عن جهالة (٣٤) .

ومن بين العادات التي أخذها بروكوبيوس على المؤرخين الأول ، وبصفة أساسية عن ثيوكديد ، كانت احتواء كتاباته على خطب من بنات أفكاره ، أقحمها ، وقطع بها تسلسل عرضه للأحداث التاريخية . وبالمقارنة فإن قليلا من تلك الخطب ظهرت في كتبه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، وفي كتابه عن التاريخ السرى ، في الوقت الذي احتوت فيه كتبه عن الحروب على الكثير منها . وتخدم تلك الخطب أهدافا متعددة . فربما قصد بروكوبيوس من تقديم تلك الخطب محاولة التخفيف من حدة الرتبة المجردة الناجمة عن سرده للأحداث التاريخية . وعندما يجعل بروكوبيوس الشخص الذي يلقي الخطبة يعبر عن أفكار لها طبيعة فلسفية ، فللقارئ الحق في الميل الى الاعتقاد بأن بروكوبيوس كان يعبر عن وجهات نظره الشخصية . واذا ما أثار متحدنه الذي يلقي الخطبة قضايا يمكن أن تكون تهجما على الامبراطور ، فللمرء أن يفترض أن بروكوبيوس وظف الخطبة للتعبير عن نقده لبعض السياسات والتصرفات الامبراطورية دون عقاب .

ان أفضل تعليل للعدد الكبير من الخطب هو أن هذا النمط من الكتابة كان على الأرجح مألوفا في تلك الأزمنة . والواقع أن هذا النمط من الكتابة كان موجودا لعدة قرون ، واستمر كلون من الأدب الشعبي حتى العصور الحديثة . وقد يرفض القارئ في عصرنا تلك الخطب لاعتبارات عديدة . اذ غالبا ما تعترض تلك الخطب تسلسل سرد الأحداث التاريخية من الناحيتين الأدبية والمنطقية . بيد أن المعاصرين لبروكوبيوس قبلوا تلك الخطب كقبولهم للمديح والاطراء ، بكل ارتياح واطمئنان . ومنذ عصر بروكوبيوس أصبح التاريخ علما ، في مختلف الأحوال والظروف . ولم يعد من الممكن السماح بوجود مثل تلك « الانحرافات » الأدبية .

ويمكن توضيح احدى الخطب التي أوردها بروكوبيوس والتي ربما تكون قد استوقفت القارئ الحديث ، بالمشال التالي . وهذه الخطبة ألقاها بليزارىوس على مسمع من ربيبه عندما نما الى علمه خيانة زوجته أنطونينا للحياة الزوجية . اذ لم تكتف هذه السيدة بعرض مفاتنها على الآخرين ، وانما قامت بتبديد ثروة زوجها ومن ثم ناشد القائد ربيبه ، فوتيوس Photius التصدى لهذه الحالة : « أيها الابن العزيز ، ليست لديك معرفة عن أحوال والدك ، اذ أنه قد فارق الحياة وأنت في سن الرضاعة ولم يترك لك شيئا لثرته عنه ، لأنه لم يكن محفوظا فيما يتعلق

باعتناء الممتلكات • بيد أنك نشأت وترعرت في كنفى ، باعتبارى زوجا ،
لوالدتك منذ طفولتك ، والآن وقد أصبحت في عنفوان شبابك فان الواجب
يحتم عليك أن تدافع عنى بكل جهدك ، اذا ما تعرضت لأى ظلم ، ولاسيما
أنك تملك ثروة ضخمة ، يا ولدى الشهم ، الواقع أننى أستطيع القول ،
بكل حق وصدق أننى والد لك ، ولوالدتك ، ولكل عشيرتك • ذلك لان
الرباط الذى يربطنا جميعا ليس مجرد رباط الدم ، وانما رباط الأفعال .
بكل الحقيقة المطلقة ، والتي يعبر عنها الناس بحبهم لبعضهم البعض •
ولقد حان الوقت الذى لا يصح فيه أن تتخذ موقف المتفرج ، وتتركنى
وحدى فى اللحظة التى يتعرض فيها بيتى للخراب ، بالاضافة الى حرمانى من
ثروتى الضخمة ، بالاضافة الى أن والدتك جلبت على نفسها العار والشنار
فى أعين كل الناس وضع فى اعتبارك أن خطايا النساء لاتسبى الى أزواجهن .
فحسب ، وانما تلحق الأذى الأشد بذريتهن ، لأنه سيكون قدرهم حمل
وزر أمهاتهن فى السمعة السيئة التى تلتصق بهم أينما ذهبوا وكانهم
يشابهون أمهاتهم • ومن ثم أرانى أطلب منك الاستشارة فى أمر يخصنى ،
وهو أنى أحب زوجتى حبا جما ، واذا ما سمح لى أن أثار للفساد الذى
دب فى بيتى ، فانى لن أصيبها بأذى ، بيد أنه فى وجود ثيودوسيوس
Theodosius فانى لن أستطيع أن أعفيها من الاتهامات الموجهة
ضدها » (٣٥) •

ويبدو أن بروكوبيوس لجأ الى ذكر الخطب ، من حين الى آخر ،
كوسيلة للتعبير عن وجهة نظره فى مسألة معينة • ومن الراجع أن تكون
الخطبة التى ألقاها حنا القبدوقى John the Cappadocian مثلا موضعا
لهذا النوع من الخطب عندما أراد أن يشنيه عن القيام بحملة عسكرية ،
استهدفت اخضاع مملكة الوندال فى شمال أفريقيا وحذره من
نتيجة مثل تلك الحملة الطموحة والمشكوك فى نجاحها ، وتساءل قائلا :
« ولناخذ عبرة مما حدث فى الماضى ، أو ليس من الأفضل أن نحب الهدوء
عن مخاطر الحرب الضروس » (٣٦) •

ولا يخامر قارى الخطبة التى ألقاها بليزارىوس على مسمع
ستيفانوس Stephanus . المبعوث المفوض من قبل أهالى مدينة نابلى ،
فى أن بروكوبيوس كان يعبر عن وجهة نظره القائله نفسه
وكان بليزارىوس قد أحكم الحصار حول مدينة نابلى لفترة من الوقت وقد
أدى فشل بليزارىوس فى الاستيلاء على المدينة الى شد أزر المدافعين عنها
والاعتقاد بأن مدينتهم ليس من السهل سقوطها ، ثم تم اكتشاف قناة
للمياه بمحض الصدفة ، وأمكن زحزحة أحد الأحجار الضخمة ، واستطاعت

فرقة من الجنود الانطلاق الى داخل المدينة وأصبح فى الامكان فتح ابواب المدينة بسهولة ، وأخذ المدافعين على حين غرة . وما أن دخلت قوات بليزاريوس على هذا النحو حتى تعرض كل سكان المدينة لأهوال « عمليات السلب والنهب » ومن أجل نجنب حدوث مثل تلك الكارثة فقد تحدث بليزاريوس الى ستيفانوس عن العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنجم ، وكان بليزاريوس يأمل فى أن يكون ستيفانوس قادرا على اقناع المدينة بالاستسلام .

« لقد شاهدت سقوط العديد من المدن ، وانى لعلى بينة بما حدث فى مثل تلك الظروف . اذ يقوم جنودى بذبح الذكور من كل الأعمار ، وأما عن النساء ، فبرغم أنهم يتمنون الموت ، فانهم لاينعمون بنعمة الموت ، وانما ينقلن عنوة لاغتصابهن ، ويتعرضن لمعاملة لا انسانية ومثيرة للرتاء . وأما عن الأطفال الذين قد حرموا من التربية والاعالة المناسبة فيتحولون الى رقيق رغم أنوفهم ، أما الرجال فتتلطخ أيديهم بدماء آبائهم ويا عزيزى ستيفانوس ، ليس هذا هو كل شىء - ، اذ أننى لم أذكر لك شيئا عن الحريق الضخم الذى يلتهم كل الممتلكات ، ويقضى على جمال المدينة قضاء مبرما . وانى لأشفق عليك وعلى مواطنى نابلى ، عندما يجول بخاطرى صورة المدن التى استوليت عليها فيما مضى ، وأتصور المصير الذى ستعرض له نابلى ، عندما نفتحها عنوة . ان مثل تلك الأساليب تلقى استحسانى ضد أى مدينة نجد صعوبة فى الاستيلاء عليها . بيد أننى أتمنى لهذه المدينة القديمة ، والتى يسكنها المسيحيون والرومان منذ عصور طويلة ألا تتعرض لمثل هذا المصير ، وبخاصة على يدي باعتبارى قائدا للقوات الرومانية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان بجيشى أعدادا كبيرة من البرابرة ، الذين فقدوا أخوتهم وأقاربهم أمام سور هذه المدينة ، وليس فى استطاعتى كبح غضبهم الشديد ، اذا ما استولوا على المدينة بقوة السلاح . وعلى ذلك فما زال الأمر بين يديك لتختار وتدل بدلوك بما يعود عليك بالخير ، وأن تسلك طريق النجاة وتتجنب الضياع ، لأنه اذا ما دارت عليك الدائرة ، فلا تلومن الا نفسك » (٣٧) .

ان كتب بروكوبيوس عن الحروب هى أروع أعماله بلا جدال . ومن بين الخصائص التى ساهمت فى علو مكانة كتبه عن الحروب ، كانت الطريقة الموضوعية التى عرض بها المؤرخ مادته التاريخية . وربما عمل على زيادة روعة كتبه عن الحروب الافتقار الشديد للاستقلال بالرأى فى كتابه عن التاريخ السرى ، وكتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، والذى ظهر بكل وضوح فيهما . وعلى سبيل المثال ، لا يستطيع الانسان أن يستشعر

قنوة قلم بروكوبيوس اللاذع سوى مرة واحدة في كتبه عن الحروب -
عندما تحدث عن حنسا القيدوتي ، أمين خزانة الامبراطور جوستينيان ،
اذ كان حنسا هذا متحجر القلب ، « وأندل مخلوقات الله » (٣٨) وأظهر
بروكوبيوس أيضا ، في كتبه عن الحروب ، قدراته على الملاحظة ، ومعرفة
لأنواع الأسلحة ، والنظم والترتيبات الحربية ، ومهارته في وصف مظاهر
الطوبوغرافيا ، والأحوال المشابهة التي مكنت القارىء من متابعة قراءة
سرده للأحداث التاريخية بذهن متقد وكان بروكوبيوس يكتب بإدراك
حسى كبير عن النظم والترتيبات الحربية يجعل القارىء يفترض أن المؤرخ
كان يحظى بثقة بليزارىوس عندما كان يضع الخطط الحربية .

ونظرا لأن بليزارىوس وجد أن الجيوش القوطية تفوقه عدداً أبان
حروبه في إيطاليا ، فإنه كان مستعداً على الدوام أن يخلص نفسه من أى
موقف خطير ، أو أن ينتهز أى فرصة طيبة ممكن استغلالها . والحادثة
التي عرضها بروكوبيوس هنا حدثت عندما كانت مدينة روما فى أيدي
القوط ، وكان جيش بليزارىوس واقفاً تحت الحصار ، بيد أن وصول
ستمائة وألف من الفرسان « الرومان » مكن القائد من أن يتخذ موقفاً
هجومياً . على أن طبيعة وصف بروكوبيوس توحى بشدة أنه كان على
بينة تامة بخطط بليزارىوس ، أو على الأقل على علم بها .

« وكان بليزارىوس فى غاية السرور لقدم الفرسان وفكر بمجرد
وصولهم فى قيام جيشه بشن هجوم على العدو . وبناء على ذلك ، وفى
اليوم التالى لقدم النجدة ، أمر بليزارىوس تراجان Trajan أحد
رجال حرسه الشخصى ، والذي كان محارباً مقداماً ومفعماً بالنشاط ، أن
يصطحب معه مائتين من الفرسان من الحرس ، وأن ينطلقوا جميعاً على
الفور صوب العدو وعليهم وبمجرد وصولهم الى مقربة من معسكرات
العدو ، احتلال قل عال (أشار بليزارىوس إليه) ، وأن يظلوا هناك
دون أدنى حركة واذا ما حاول العدو مهاجمتهم ، فلا يسمح بتحول المعركة
الى حد التلاحم مع العدو ، وليس عليه استخدام السيف أو الحربة بأى
حال من الأحوال ، وإنما عليه أن يستخدم الأقواس فحسب ، وعندما
يشعر بأن كنيته لم يعد بها سهام ، فإن عليه أن يلوذ بالفرار بأقصى
ما يمكن دون التفكير فى الخزي أو العار ، وأن يعود ثانية الى الاستحكامات
بكل قوة ونشاط . ووضع تراجان كل المعدات اللازمة لاطلاق السهام
والرجال المهرة فى استخدامهما فى حالة استعداد . ثم خرج تراجان ومعه
مائتان من الفرسان من بوابة سالاريان Salarian Gate صوب معسكر
العدو . ولكن العدو أخذت منه الدهشة كل ماخذ بسبب سرعة حدوث

الموقف المفاجيء ، وانطلقوا من معسكرهم على وجه السرعة ، بعد ان حمل كل منهم ما استطاع حمله من سلاح . بيد أن الرجال التابعين لتراجان انطلقوا بسرعة صوب قمة التل وبدأوا يمطرون العدو بالقذائف . ونظراً لسقوط سهامهم بين حشد كثيف من العدو ، فانها كانت موفقة في أغلب الأحوال ، في إصابة أحد رجال العدو أو أحد خيوله . بيد أنه عندما نفذت سهامهم ، ولوا الادبار الى الخلف بأقصى سرعة ممكنة ، في الوقت الذي ظل فيه القوط يهاجمونهم ويطاردونهم . وعندما اقترب القوط من الاستحكامات ، أمطرهم الرماحون بوابل من السهام فشعر البرابرة بالخوف وتوقفوا عن المطاردة . ويقال ان ما لا يقل عن ألف من القوط لقوا حتفهم في هذه العملية . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل بليزاريوس كلا من مونديلاس Mundilas ، وديوجينيز Diogenes ، وهما من المحاربين الذين تميزوا بالشجاعة الفائقة ، وهما من بين حرسه الشخصي ، ومعهما ثلاثمائة من الحرس الشخصي أيضا ، وأمرهم جميعا بالقيام بمهمة مماثلة للمهمة السابقة . وتصرفوا وفقا للتعليمات التي صدرت اليهم . وعندما التقى العدو بهم كانت نتيجة هذا اللقاء لا تقل عن اللقاء السابق ، بل ربما كانت خسائر العدو تفوق خسائره في المرة الأولى بكثير . وللمرة الثالثة أرسل بليزاريوس أحد حرسه ، أويلاس Oilas ، ومعها ثلاثمائة من الفرسان ، وزوده بالتعليمات عن كيفية التعامل مع العدو ، وتمكن من احراز نفس النتيجة . واستطاع بليزاريوس القضاء على أربعة آلاف من أعدائه ، في تلك الهجمات الثلاث ، (٣٩) .

وأينما كان بروكوبيوس فانه حرص على تقديم وصف دقيق للمراحل المتعددة التي تمر بها أي معركة . وأبدى مقدرة أصيلة عند وصفه للأسلحة التي استخدمت في تلك المعارك أيضا . وفي الوصف التالي قدم بروكوبيوس للقارئ وصفا للمعدات الحربية التي تستخدم في اقتحام الاستحكامات ، أو في الدفاع عنها ضد المهاجمين . ويتحدث الوصف عن الملك القوطي فينجيز Vittigis الذي كان على وشك شن هجوم على الاستحكامات التي كانت تحمي مدينة روما .

« وشيد أبراجا خشبية في مستوى ارتفاع سور العدو ، وعرف الحجم الحقيقي للسور من خلال حسابات عديدة مبنية على طريقة تركيب الأحجار . وكانت تلك الأبراج الخشبية لها عجلات مثبتة تحت أرضيتها ، ليتمكن الجيش المهاجم من تحريكها الى أي منطقة وفقا لرغبتهم ، في أي وقت ، وتجرت تلك الأبراج ثيران مرتبطة ببعضها البعض . وبعد ذلك أعد عددا كبيرا من السلالم ، التي يمكن أن تصل الى متراس سور المدينة ،

وأعد أربعة من آلات الحرب التي يطلق عليها منجنيقات . وكان المنجنيق على النحو التالي : أربع دعائم خشبية عمودية ، متساوية في الطول تقام في مواجهة بعضها البعض ، ويثبت بها ثمانية قطع من الخشب أفقية ، أربع قطع فوق ، وعدد مساو لها في القاعدة ، وبذلك يشد الخشب بعضه بعضا . وبعد أن يأخذ المنجنيق شكل المبنى الذي له أربعة جوانب ، فانهم لا يحيطونه من جوانبه بالجدران الخشبية أو الحجرية ، وإنما يغطونه بالجلد ، لكي يظل المنجنيق خفيفا ولا يجد من يجره صعوبة ، كما يسهل على من يرغب الاختباء بداخله حتى لا يتعرض لأدنى خطر من جراء قذائف العدو . وفي داخل المنجنيق يعلقون دعامة خشبية كبيرة في السقف بواسطة سلاسل حيث تتحرك تلك الخشبية بسهولة ويكون موضعها في منتصف المنجنيق من الداخل . ثم يجعلون طرف هذه القطعة الخشبية مديبا ، ويغطون هذا الطرف برأس ضخمة من الحديد وعلى النحو نفسه يغطون الطرف المستدير للقذائف ، وأحيانا يجعلون الرأس الحديدية على شكل مربع مثل سندان الحداد . وتحمل هذا المنجنيق أربع عجلات مثبتة كل واحدة منها في العمود الأفقي ، وتحركه مالا يقل عن خمسين رجلا وهم بداخله . وعند استخدام المنجنيق لهدم أحد الأسوار ، فانهم يقلومون بسحب الدعامة الخشبية المعلقة الى الخلف بتحريكها بحركة آلية معينة ، ثم يتركون تلك الدعامة تتأرجح الى الامام بقوة شديدة تجاه العدو . وبذلك تستطيع تلك الدعامة الخشبية عن طريق الضربات المتكررة أن تحطم أي سور وتحدث به فجوة بسهولة تامة ، ولهذا السبب تحمل هذه الآلة اسمها ، لأن الطرف الذي يسدد الضربات من الدعامة قادر على أن يهشم أي شيء يصطدم به ويجعله يتناثر في كل اتجاه ، تماما كما يفعل الذكور بين النعاج . تلك هي المنجنيقات التي يستخدمها المغيرون على أي سور من أسوار المدن أو القلاع . وكان عند القوط أعداد لا حصر لها من مجموعات الحزم من الأخشاب والغاب لكي يلقوا بها في أي خندق مائي يوجد حول حصن أو قلعة حتى يجعلوا هذا الخندق مساويا للأرض ، وحتى تستطيع منجنيقاتهم المرور فوق الخندق وبعد أن أعد القوط عدتهم، كانوا متلهفين على شن هجوم على سور مدينة روما .

وفي الوقت نفسه أعد بليزاريوس أسلحة مضادة وآلات حربية على أمل المقدرة على صد الهجوم المتوقع .

« وضع بليزاريوس آلة حرب في أبراج السور يطلق عليها ، القذافة ballistae » وكانت تلك الآلات على شكل قوس ، ومن تحتها قصبه رمح ومصنوعة من الخشب ، وهذه القصبه تسمح للقوس بالتحرك

بسهولة ، ويرتكز القوس على قاعدة حديدية مستقيمة . وعندما يرغب المحاربون في استخدام هذه الآلة الحربية ضد العدو ، يعملون على انحناء طرفي القوس تجاه بعضها بواسطة حبل قصير مثبت بطرفي القوس ، ويضعون السهم في قصبه الرمح المجوفة ، الذي كان طوله نصف طول القذيفة العادية ، التي يطلقونها من أي قوس ، ولكن عرضه كان يعادل أربعة أضعاف عرض القوس العادي . ومع ذلك فانهم لا يضعون ريش السهام من النوع العادي الذي يثبت بها ، وإنما يضعون رقائق صغيرة من الخشب بدلا من الريش ، وتعطى هذه الرقائق السهم شكله المألوف ، مع جعل المنطقة التي بها الرقائق كبيرة جدا ومتناسبة مع حجمه الضخم ويعمل الرجال الذين يقفون على جانبي تلك الآلة على اعدادها للعمل باحكام بواسطة أدوات معينة ، ثم تنطلق القصبه المجوفة الى الأمام وتقف، بيد أن القذيفة تنطلق من القصبه بشده ، وتقطع مسافة لاتقل عن ضعف مسافة ضربتي قوسين ، وعندما تصطدم القذيفة بشجرة أو بصخرة فانها تخرق أيا منهما بسهولة . تلك هي الآلة التي تحمل الاسم السابق ذكره لأنها تنطلق بقوة شديدة جدا . ويثبتون آلات حربية أخرى على امتداد متراس السور ، معدة لالقاء الأحجار . وتشبه تلك الآلات النبال التي يستخدمها الأطفال ويطلقون عليها اسم « الحمير المتوحشة Wild Asses » أما خارج بوابات السور ، فقد وضعوا استحكامات أطلقوا عليها اسم « ذئاب Wolves » ، وأعدوها على النحو التالي : أقاموا اثنين من قطع الخشب الكبيرة والتي امتدت من الأرض حتى فتحات السور التي تنطلق منها القذائف ، ثم ثبتوا الدعائم الخشبية ، الواحدة بالأخرى ، بعضها في وضع عمودي والبعض الآخر في وضع مستعرض ، حتى بدت المسافات بينها في نقطة التقاطع وكأنها سلسلة من الثقوب . وتبرز منطقة مستدقة الطرف بين كل وصلة ، وهي تشبه شوكة سميكة الى حد كبير . ثم يربطون القطع الخشبية المتعامدة بقطع الخشب الكبيرة العمودية ، مبتدئين من أعلى حتى المنتصف ، ثم يسندون قطع الخشب الضخمة على بوابات السور . وعندما يصعد العدو بالقرب منها ، يقوم من يتولون الحماية فوق السور بالامساك بأطراف الألواح الخشبية ودفعها ، فتسقط تلك الألواح ، الضخمة ، فجأة ، على المهاجمين ، وتقضى عليهم النتوعات المديبة . تلك كانت الأعمال التي انهمك بليزار يوس في انجازها « (٤٠) » .

وبناء على ماورد بعاليه ، فان بروكوبيوس لم ينس على الاطلاق أن كاتب التاريخ يجب الا يكون هدفه مجرد تقديم المعلومة التاريخية للقارئ فحسب ، وإنما عليه أن يعمل على اشاعة المتعة والتسلية في نفسه أيضا . ومن أجل تحقيق هذا الهدف سعى بروكوبيوس الى جعل سرده التاريخي

مفعما بالحيوية والبهجة كلما كان ذلك ممكنا ، بتقديمه القصص والأحداث العرضية المرتبطة بالأفراد ، الذين شاركوا في الأنشطة التي يأمل في أن تحظى باهتمام قارئه . مثل الحادثة التي تطورت الى معركة قرب دارا Daras ، احدى القلاع الحربية الكبرى في شمال بلاد ما بين النهرين . ففي ذلك المكان استطاع بليزاريوس سنة ٥٣٠ م أن يحقق لنفسه مجدا وشهرة بانتصاره على جيش فارسي يفوقه عددا . فقد استعد الجيشان للحرب ولكن لم يكن أحدهما راغبا في أن يكون البادئ للقتال . فقام أحد المحاربين الفرس بالعمل على الخروج من هذا الطريق المسدود « اذ امتطى صهوة جواده واقترب من المعسكر الروماني ، وبدأ في تحدى الجميع طالبا من أي جندي القدوم لمبارزته . ولم يجرؤ أحد من الجيش الروماني على مواجهة الخطر باستثناء شخص يدعى أندريس Andreas ، أحد الحرس الشخصي للقائد بوزيس Bauzes ، ولم يكن جنديا أو لديه دراية بأساليب القتال على الاطلاق ، وانما كان يعمل مدربا للشباب على المصارعة ، في احدى مدارس مدينة بيزنطة Byzantium ، وكانت مهمته رعاية القائد بوزيس في الحمام وكان من مواليد مدينة بيزنطة . وكان هذا الرجل هو الوحيد الذي لديه الشجاعة في الذهاب بمحض ارادته للقاء الشاب الفارسي في قتال فردي ، دون أن يأمره بوزيس أو أي شخص آخر . واستطاع أندريس أن يأخذ البربرى على حين غرة ، وأن يطعنه بحربته في صدره الأيمن ، في اللحظة التي كان يفكر فيها هذا الفارسي في كيفية مهاجمة أندريس . ولم يحتمل الفارسي الطعنة التي سددها أندريس صاحب القوة الفائقة اليه ، وسقط الفارسي أرضا من على جواده . ثم قام أندريس بذبح الفارسي كما يذبح حيوان الضحية بمدينة صغيرة ، في الوقت الذي كان فيه هذا الفارسي مستلقيا على الأرض ، وصدرت صيحة عالية من سور مدينة دارا ومن الجيش الروماني . وكان الفرس قد استشاطوا غضبا لتلك النتيجة ، وأرسلوا على الفور فارسا آخر ، لنفس الغرض وكان رجلا متمتعا بكل صفات الشجاعة والقوة واللياقة البدنية ، بيد أنه لم يكن في سن الشباب ، اذ علا الشيب رأسه . واقترب هذا الفارسي من الجيش الروماني ، وظل يلوح بشدة بالسوط الذي يضرب به جواده ، ودعا للمبارزة أي روماني يقبل هذا التحدى . وعندما لم يتقدم أحد لقبول هذا التحدى ، ذهب اليه أندريس للمرة الثانية ، دون أن يلحظه أحد ، وبرغم محاولة هيرموجينيز Hermogenes ثنيه عن ذلك . وانقض المبارزان على بعضهما البعض بعنف شديد ، واستخدم كل منهم حربته ، بيد أن سلاحيهما اصطدم بدرعيهما ، فاندفع

المتبارزان بعيدا عن بعضهما البعض واصطدم رأسا جواديهما ببعضهما البعض ، وسقط الجواد على الأرض بعد أن طرحا راكبيهما من فوق ظهريهما . وسقط المتبارزان بجوار بعضهما ، وسارعا في النهوض ، بيد أن الفارسي لم يتمكن من ذلك لأن ضخامة جسده لم تسعفه ، في الوقت الذي تفوق عليه أندريس في سرعة الحركة (لأن تدريبه في مدرسة المصارعة أعطاه تلك الميزة) ، وسدد أندريس ضربة عنيفة للفارسي ، الذي حاول النهوض ، وعندما سقط الفارسي على الأرض للمرة الثانية قتله أندريس . ثم انطلقت صيحة الابتهاج عالية من السور ومن الجيش الروماني ، وكانت أكثر علوا عن ذي قبل وقوض الفرس خيام معسكرهم ، وانسحبوا الى بلدة أموديوس Ammodios ، في الوقت الذي غنى فيه الرومان أنشودة الشكر والتسبيح والنصر ، وذهبوا الى الاستحكامات ، لأن الظلام كان قد حل بالفعل وهكذا قضى الجيشان الليل ، (٤١) .

وعادة ما يثار جدل عند الدراسة لأي مؤرخ يتعلق بتفسيره للتاريخ . وما هي وجهات نظر الكاتب فيما يتعلق بالقوى التي تشكل الأحداث ، سواء كانت تلك القوى تخص : حاكما فردا ، أم شعبا ، أم عصرا ؟ وباختصار فما هي فلسفته عن التاريخ ، وبالنسبة لبروكوبيوس ، هل التزم بأي فلسفة معينة ؟ هل يؤمن بروكوبيوس بأن العوامل والقوى هي التي تحدد أو تؤثر في حركة التاريخ ؟ أم أنه أحجم عن التعبير عن أي أفكار تتعلق بهذا الموضوع كما فعل المؤرخون الأول ؟ هل كان التاريخ بالنسبة لبروكوبيوس مجرد تتابع للأحداث وأن من واجبه تسجيلها بأقصى ما يمكن من الدقة والموضوعية ؟ وإذا كان بروكوبيوس قد ظل صامتا بشأن القوى العسكرية التي أثرت في التاريخ ، فهل في استطاعة القارئ ملاحظة وجود أي فكرة في الطريقة التي عرض بها روايته التاريخية أو سرده للأحداث ؟

ويبدو أن أسلاف بروكوبيوس ، وعلى رأسهم هيروdot و ثوكيديد قد أخذوا بفكرة التفسير العصري للتاريخ عند معالجتهم للكتابة التاريخية . فاعتقدوا أن للدول مدى حياة مثل الشعوب . فالدول تظهر ، وتقوى ، وتتدهور ، وفي الوقت الذي تأخذ فيه تلك الدول في الضعف والاختفاء من مسرح الحياة تبدأ دول أخرى في أخذ مكانها - وهكذا حتى آخر الزمان . ويبدو أن كلا من بوليبيوس Polybius وليفي Livy لم يعبرا عن موافقتهما على هذا الرأي بالكامل . وإنما اعتقدا أن القضاء والقدر أو الآلهة أرادا أمرا غير عادي ، وأن الامبراطورية الرومانية ربما تتعرض للمحن في المستقبل الذي لا يعلمه أحد . ولم يفاخر بروكوبيوس

باعتباره مواطن في امبراطورية رومانية هلينية وبرغم أحوال الامبراطورية في عصره ، عندما كان معظم القسم الغربي من المتعذر استرداد والحرب المستمرة في ايطاليا قد حولت شبه الجزيرة الى أرض مخضبة بدماء القتلى ، فنادرا ما أخذ بوجهتي نظر بوليبيوس وليفي .

ويستطيع المرء أن يجد تطابقا شديدا بين وجهتي نظر هيروdot و ثوكيديد ووجهة نظر بروكوبيوس فيما يتعلق بالحركة التاريخية . ذلك لأن الثلاثة لم يدافعوا عن وجهات نظرهم على نحو منهجي . وكان بروكوبيوس على اتفاق مع أسلافه القدامى من المؤرخين في الاعتقاد بأن التاريخ له استمرارية في المستقبل كما حدث في الماضي ، وأن الدول تقوم وتسقط وبعضها أقوى من غيرها وأكثر بقاء ، بيد أنها جميعا تتعرض لمرحلتى التدهور والزوال حتما . وكان هيروdot مستعدا لقبول عامل غير الأفعال التي يمارسها الجنس البشري له القدرة على التأثير على نمط الأحداث أو تغييرها . إذ كان يرى أن مشيئة الآلهة قد تتدخل . وتدخلت الآلهة في الحرب بين الاغريق والفرس عندما منحت النصر للاغريق عقابا للأسويين على صلفهم وكبريائهم .

تعهد ثوكيديد عدم ذكر الآلهة ، ولذلك صار المثل المحتذى عند المؤرخين العلمانيين ، بما فيهم بروكوبيوس . وكان ثوكيديد يرى أنه إذا كانت تلك الآلهة موجودة ، فإنها تعيش حياتها الخاصة بعيدا عن حياة عالم البشر . ويرى ثوكيديد أن التاريخ يكشف عن تغيراته التي لا نهاية لها وفقا لما تفرضه ارادة البشر ، والمواقف مع وجود استثناء واحد - ألا وهو عامل الصدفة . والواقع أن الصدفة لها وجود ، وربما وجد دورها في أفضل الخطط ، وكثيرا ما تلعب الصدفة دورها . ومع وجود هذين الاستثناءين ، وهما تدخل آلهة هيروdot ، وصدفة ثوكيديد ، ستظل الحركة التاريخية مستمرة وبدون توقف .

ولما كان بروكوبيوس مسيحيا ، فلم يكن في استطاعته قبول آلهة هيروdot أو فرصة ثوكيديد بنفس الطريقة التي عرضها كل منهما . على أن الشيء الذي قام به هو ضم أفكار هذين المؤرخين ووضعها في قالب مسيحي . وكان تحويل آلهة هيروdot الى الله الواحد الذي يعبده المسيحيون أمرا يسيرا . وماذا يستطيع أن يفعله مع صدفة ثوكيديد؟ احتفظ بروكوبيوس بالصدفة ، ولكن لكي يعيد الطمأنينة الى قرائه المسيحيين ، وحتى لاينفر أصدقاءه العلمانيين ، رمز الى العناية الالهية باعتبارها القوة الأساسية خلف الصدفة . ونظرا لأن بروكوبيوس كان مقتنعا تماما بأن الله قادر على كل شيء ، وأنه مدبر الأمر ، فللمرء أن

يعترف بأنه لم يرفض عامل الفرصة عند توكيده لمحاولته الاحتفاظ بعطف القراء المثقفين عليه وتأييدهم له . على أية حال ، فلما كان بروكوبيوس مؤرخا علمانيا ، فمن المستحيل عليه قبول وجهة النظر القائلة بأن التاريخ يسير لتحقيق غاية أو هدف ، وهي الفكرة التي أخذ بها كتاب الحوليات الغربيون فيما بعد .

ومن حين إلى آخر كتب بروكوبيوس كمسيحي ملتزم غاية الالتزام دون الأخذ في الاعتبار لرد فعل أصدقائه العلمانيين ، الممكن حدوثه . وعلى ذلك فعند كتابته عن الامبراطور هونوريوس Honorius الضعيف الذي وجد أن امكانياته المحدودة دون مستوى التعامل مع الارك Alaric في جنوب إيطاليا وتحقيق السلام للأقاليم الغربية ، ذكر أن الله أنقذ الامبراطور . « وفي الوقت الذي كان فيه هونوريوس ينتظر ما يمكن أن تتمخض عنه تلك الأحداث من نتائج ، وهو على أحر من الجمر ، وتتقاذفه أمواج المصير المجهول ، هبطت عليه ضربات حظ رائعة بمحض الصدفة . ولما كان الله في عون العاجزين عن تدبير أمورهم والمستسلمين لقضائهم هبطت رحمة الله على هذا الامبراطور بعد أن أخذ منه القنوط كل ما أخذ » (٤٢) .

وبعد ذلك بقليل يجد القارئ لكتب بروكوبيوس عن الحروب نفسه في مواجهة فقرة يعالج فيها هذا المؤرخ مجرى الحوادث التاريخية على النحو الذي يفعله باحث وثني وفي هذا المثل الشخصي يناجي بروكوبيوس نفسه بشأن احتلال نارسيس Narses لمدينة روما . إذ كتب يقول : « لقد جال بخاطري أن أعلق على الطريقة التي تسخر بها الهة الحظ Fortune من أحوال البشر ، فأنها لا تزور الناس بحالة واحدة دائما ، أو تنظر اليهم بنظرة متمائلة وإنما تغير طريقتها بتغير الزمن والمكان فالهة الحظ تمارس معهم طريقة معينة ، إذ تعز من تشاء من التعساء ، وفقا لتغير الزمان ، والمكان ، أو الظروف . فلقد حدث أن فقد القائد بيساس Bessas روما ، وبعد ذلك بوقت قصير استرد مدينة البتراء Petra في اقليم لازيقا Lazica لصالح الرومان ، وعلى العكس من ذلك فإن داجيشيوس (٤٣) Dagisthaeus الذي تخلى عن البتراء للأعداء ، استرد روما في وقت قصير . على أن مثل تلك الأمور تحدث منذ بدء الخليقة وستبقى طالما ظلت الهة الحظ ذاتها تتحكم في مصائر البشر » (٤٤) .

وعبر بروكوبيوس عن رأيه مستخدما الطريقة العلمانية تقريبا عندما علق على موت توتيليا Totila ، ملك القوط الشجاع ، ففي قمة نجاح

توتيليا استطاع أن يسترد كل شسبه الجزيرة الايطالية من بليزارايوس بما فى ذلك مدينة روما . ثم صار فى عداد الموتى واندحر جيشه . ودفنه أتباعه ورحلوا . « تلك كانت نهاية عهد وحياة توتيليا ، الذى حكم القوط لمدة احدى عشرة سنة . غير أن النهاية التى حلت به لم تكن تتناسب مع انجازاته السابقة ، لأن الأمور سارت وفقا لما اشتهى هذا الرجل ، الى أن حدثت له تلك النهاية التى لا يمكن أن تكون مكافأة له على مآثره وأعماله ، وللمرة الثانية يبدو واضحا أن الهة الحظ كانت تمرح ، وتلهو ، وتبلد جهود البشر ، وتحولها هباء منثورا بغية استعراض طبيعتها المشاكسة واراقتها التى يصعب تفسيرها ، اذ بعد أن أسبغت النعم على توتيليا بمحض ارادتها دون سبب محدد ولفترة طويلة من الوقت ، أنهت حياة الرجل نفسه ، حيث مات مذعورا وموصوما بالجبن والضياع ، دون سبب مقبول . ولكنى أعتقد أن تلك الأمور لم يدركها الانسان على الاطلاق ، ولن يدركها فى أى وقت فى المستقبل . ومع ذلك فهناك على الدوام كثير من الأحاديث والآراء المتبادلة وفقا لنيل واتجاه كل فرد عندما ينشده السلوى لعدم معرفته التفسير الذى يبدو معقولا » (٤٥) .

ويعترف بروكوبيوس أيضا بعزوفه عن تفسير سبب الوباء ، الذى اجتاح القسطنطينية « والعالم كله » سنة ٥٤٢ م ، « وحصد أرواح الناس » ، بغض النظر عن العمر ، أو الجنس ، أو الوضع الاجتماعى . بيد أنه استطاع أن يصف ما أحدثه الوباء . فكتب بروكوبيوس يقول : « والآن فلندع كل امرئ يعبر عن رأيه فيما يتعلق بهذا الأمر ، سواء كان فيلسوفا أم منجما ، أما بالنسبة الى ، فانى سأروى عن المكان الذى بدأ فيه هذا المرض وعن الطريقة التى قضى بها على الناس » (٤٦) .

وليس فى استطاعة الانسان تفسير تسلسل الحوادث ، بل أنه غير قادر على ايقاف مجرى الحوادث ، اذا شاء القدر أو شاءت ارادة الله أن يستمر جريانها ويقول ان الانسان قد يصبح مشهورا رغم أنه طالما كانت تلك هى ارادة الهة الحظ Fortune رعى الحالة التى مر بها كسرى ملك الفرس ، الذى استولى على مدينة انطاكية الكبرى ونجح فى تدميرها . « فكل مرة أرادت الهة الحظ أن تجعل من انسان ما رجلا عظيما ، فانها تفعل أمورا فى الوقت المناسب وفقا لتحديداتها ، دون استطاعة أحد التصدى لاراقتها ، ولا تنظر الى وضع هذا الانسان أو محاولاته لمنع حدوث تلك الأمور ، ولاتبالي باللعنات التى ينزلها عليها الكثيرون بسبب

تلك الأمور ، وهم يسخرون باستهزاء لما فعله لعدم استحقاق الانسان
للنعم التي أسبغتها عليه ، ولاتضع في الاعتبار أى شيء على الاطلاق ،
إذا ما تحقق الأمر الذى قررت حدوثه أما فيما يتعلق بتلك الأمور فلا بد
أنها ارادة الله ، (٤٧) .

ومن الواضح أن بروكوبيوس يجعل مشيئة الله فوق مشيئة انهة الحظ
وفقا لما ذكره فى السطر الأخير فى الفقرة السابقة . وكان هذا موقفه
بلا ريب ، برغم أنه كان يروق له أن يكتب عن الصدفة على نحو يذكرنا
بالمؤرخ ثوكيديد . وحيث ترك ثوكيديد الصدفة والتقدير يعملان وفقا
لما يتمخض عن الظروف أو الهوى ، وضع بروكوبيوس الله فوقهم جميعا ،
ووضعه فى جانب العدل أيضا (٤٨) . وجعل بروكوبيوس قائده
بليزارىوس يقول نفس الأفكار فى الحالة التى تورط فيها اثنان من جنوده
اللذان كانا من أفراد شعب الماساجيتاى *Massagetae - قتلا زميلا
لهما لمجرد أنه سخر منهما « فقام بليزارىوس بإعدامهما على خازوق عند
تل قريب من مدينة أبيدوس Abydus ** وعندما اعترض زملاء
الجنديين اللذين أعدمهما بليزارىوس ، على القسوة الشديدة التى عاملهما
بها القائد (كان الخمر قد لعب بلبيهما) ، عند ذلك استدعى بليزارىوس
الجميع وتحدث اليهم عن أهمية أن يكون الله راضيا على الانسان على الدوام .
« لو أن كلمتى القيتها على رجال يخوضون الحرب للمرة الأولى ، لاستغرق
ذلك وقتا طويلا لاقتناعكم بالأهمية القصوى لتحقيق العدل من أجل احراز
النصر . ان أولئك الذين لا يدركون ما يمكن أن تتمخض عنه تلك الصراعات
الدموية يعتقدون أن نتيجة الحرب تحسمها قوة السلاح فحسب .
ولكنكم هزمتم مرارا عدوا لا يقل عنكم فى القوة أو الشجاعة ، وأنكم غالبا
ما جربتم قوتكم ضد أعدائكم . وأعتقد أنه يغيب عن خاطركم أنه اذا
كانت الحرب تدور بجهد الرجال فى الجيرش المتصارعة ، فان الله هو الذى
يحدد مصير المعركة وفقا لمشيئته ، وهو الذى يمنح النصر فى المعركة .
ولما كان الأمر كذلك فمن المناسب القول بأن اللياقة البدنية الفاتحة
والتدريب على السلاح وكل مستلزمات الحرب الأخرى أقل أهمية من
تحقيق العدل وكل الأمور التى ترضى الله » (٤٩) .

وأبدى بروكوبيوس تحفظا فاق فيه غالبية معاصريه بشأن استعداده
للاعتقاد فى أقوال المتنبيين . فعند كتابته عما فسره كثير من الناس

(*) الماساجيتاى هو شعب كان يعيش فى شرق بحر قزوين فى القرن السادس
الميلادى - المترجم .

(**) أبيدوس هى مدينة تقع فى آسيا الصغرى - المترجم .

باعتباره أقوال متنبئين أحجم عن ابداء رأيه وترك الأمر للقراء . ففي سنة ٣٤٩ م عجل ظهور المذنب بحدوث فيض وافر من النبوءات العادية ، بيد أن بروكوبيوس لم يتأثر بذلك . وكتب يقول : « وفي ذلك الحين ظهر المذنب ، وكان طوله مساو لقامة رجل في بداية الأمر ، ثم ازداد طوله فيما بعد . وكانت نهايته تجاه الغرب وبدايته تجاه الشرق . وكان موقعه خلف الشمس ، إذ كانت الشمس في برج الجدى Capricorn أما المذنب فكان في برج القوس والرامي Sagittarius ويطلق عليه البعض « أبو سيف » بسبب طوله الكبير ولوجود طرفه المدبب ، ويطلق عليه البعض الآخر « النجم الملتحي » ، وتمكن الناس من مشاهدته لمدة أربعين يوما متصلة . وفي ذلك الحين اختلف المتخصصون في علم الفلك مع بعضهم البعض كلية ، وأعلن كل منهم رأيا مخالفا لرأى الآخر بشأن ما يشير اليه هذا النجم . بيد أنى أكتب ما حدث ، وأترك لكل فرد مسألة تكوين رأيه وفقا لما تتمخض عنه قريحته » (٥٠) .

وفي سنة ٥٤٧ م حدثت سلسلة من الظواهر الطبيعية جعلت الناس في حيرة من أمرهم بخصوص احتمال حدوث شيء غير عادى . وبالإضافة الى حدوث عدد من الزلازل ، فاض نهر النيل وارتفع منسوب مياهه الى مستويات لم تسجل من قبل . ثم ظهر حوت ضخم ، طوله حوالى خمسة وأربعين قدما ، ظل يحدث اتلافات شديدة بالسفن ، وعرقلة بالغة لحركتها في المنطقة القريبة من القسطنطينية لمدة خمسين عاما . وأخيرا جنح هذا الحوت فى الوحل وتم قتله . وبعد أن انتهى بروكوبيوس من عرض وصف مفصل لحادثة الحوت قدم الملخص التالى : « والآن وقد شاهد البيزنطيون الزلازل وعلموا بالتفاصيل التامة عن فيضان نهر النيل واصطياد هذا الحوت ، بدأوا يتنبئون على الفور بأن مثل تلك الأمور يمكن أن تحدث وفقا لظروف كل منها . وعندما تأخذ تلك الحوادث من الناس كل مأخذ ، ينزعون الى اطلاق النبوءات المروعة ، وعندما يكونون فى حيرة من أمرهم بسبب الحوادث غير المتوقعة ، والتى تصيبهم بالقلق والاضطراب يطلقون العنان للتخمين بما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل . أما بالنسبة الى ، فسأترك لغيرى ما شاء له من نبوءات وتفسيرات » (٥١) .

ويقودنا ذكر موقف بروكوبيوس بخصوص أقوال المتنبئين الى مسألة تتعلق بموقفه من الميثولوجيا (*) وهل سلم بروكوبيوس بالقصص الخيالية الرومانتيكية التى كتبها الشاعر الاغريقى هوميروس Homer ، أو القصص التى احتوت على حوادث واقعية أو خيالية للكاتب المسرحى

(*) الميثولوجيا هى مجموعة الاساطير المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والابطال

الخرافيين عند شعب ما - المترجم .

الاغريقي سوفوكليس Sophocles ، والتي استمد منها كتاب المسرح
الاغريقي حبكة مسرحياتهم ؟ ان الاجابة على مثل هذا السؤال بالاجاب
أو بالنفي . فالاجابة بالاجاب تعنى أنه اعتقد ، أو بدا أنه مال الى الاعتقاد ،
أن هؤلاء الناس كانوا موجودين بالفعل ، أما اذا كانت الاجابة بالنفي ،
وأنه لم يقبل بتلك القصص ، أو على الأقل لم يبدو أنه قد قبل القصص
الخيالية المتضمنة للمخاطر وغيرها . ويجد مثل هذا التحليل ما يؤيده
فيما كتبه بروكوبيوس عن اقليم تيراكينا Terracina (٥٢) اذ تحدث
عن المراعى الوافرة النماء هناك والتي جعلت من ذلك المكان معسكرا مثاليا
للجيش الرومانى . ثم أشار الى جبل كيركيوم Mt. Circaum
القريب من ذلك المكان والنهر الذى يجرى هناك . ويقولون أن أوديسيوس
Odysseus قابل كيركى Circe ، بالرغم من أن ذلك يبدو
غير جدير بالثقة ، ذلك لان هوميروس أعلن أن محل اقامة كيركى كان
فى احدى الجزر . ومع ذلك أستطيع القول أن جبل كيركيوم يمتد داخل
مياه البحر ، ويشابه الجزيرة ، فالذين يبحرون بحذائه وكذلك الذين
يمشون الى الشاطئ بالقرب منه يبدو اليهم كل مظهر من مظاهر الجزيرة .
وعندما يصل الانسان الى ذلك الجبل يدرك أنه قد انخدع عندما اصدر
رأيه السابق . وربما أطلق هوميروس على المكان اسم جزيرة لهذا السبب
نفسه ، (٥٣) .

لفت بروكوبيوس الانتباه الى وجود بون شاسع بين التاريخ
والميثولوجيا . وفعل بروكوبيوس ذلك أثناء ذكره للسماة الجغرافية
والتوبوغرافية لاقليم لازيقا Lazica ، الذى يطل على الشاطئ
الشرقى للبحر الأسود . وقدم الدليل والحجة بهدف التأكيد على أن
اللازيين Lazi الذين شغلوا هذا الاقليم على عصره ليسوا سوى
الكولخيان Colchians القدامى ، « الذين قاموا بمجرد تغيير اسمهم
فى الوقت الحاضر الى لازى . كما تفعل أمم البشر ، وكما يحدث تماما لكثير
من الأشياء » . ولهذا السبب لم تعد الروايات التاريخية المتعلقة بهذا
الاقليم موضع قبول . اذ ظهرت هناك أحوال جديدة ، وانتقلت الى
تلك المنطقة شعوب أخرى . وكان لابد أن تخضع كل تلك التغيرات
للدراسة والبحث ، « انى لا أروى قصصا ميثولوجية عنهم أو معلومات
قديمة ، أو حتى أحكى عن أى جزء فى البحر الأسود مثل قول الشعراء
ان بروميشيوس Prometheus (*) كان موثوقا هناك ، لأنى أعتبر أن

(*) تحكى الميثولوجيا أن بروميشيوس هو سارق النار من السماء ومعلم البشر
استعمالها ومن أجل ذلك تم ربطه فى احدى الصخور فى بلاد القوقاز الى أن التهم أحد
النسور كبده - المترجم .

التاريخ بعيد كل البعد عن الميثولوجيا ، وإنما أعرض بكل دقة وتنسيق أسماء تلك الأماكن والحقائق التي تتعلق بها في الوقت الحاضر ، (٥٤) .

رفض بروكوبيوس قبول الأعمال المخارقة للعادة في الميثولوجيا القديمة ، بيد أنه اعتقد اعتقاداً جازماً أن إله المسيحيين قادر على صنع المعجزات . ويصف بروكوبيوس كيف أن جوستينيان نفسه أصبح مستفيداً من المعجزة . وكان الامبراطور قد أصيب بمرض في ركبته سبب له ألماً مبرحاً . وكنت بروكوبيوس أن الامبراطور جلب هذا المرض لنفسه بسبب الطريقة الصارمة التي اتبعها إبان الصوم الكبير . إذ عاش الامبراطور دون تناول للطعام لعدة أيام ، ونادراً ما كان يذهب إلى الفراش ، وإذا ما أراد أن يأكل فإنه « امتنع عن تناول الخبز والخمر وكل أنواع الطعام الأخرى ، واكتفى بأكل الأعشاب البرية فحسب والمنقوعة تماماً في الملح والخل » . واستمر بروكوبيوس يقول : « ولهذا السبب تمكن المرض من الامبراطور وصار خارج نطاق قدرة الأطباء ، وظل جوستينيان يعاني بشدة من تلك الآلام ، لفترة طويلة من الوقت . ولكن إبان ذلك الحين سمع جوستينيان عن رفات مقدسة تم الكشف عنها ، والتمس عندها العلاج بفضل إيمانه بها ، وبعد أن قطع الأمل في المقدرة البشرية ، وفي لحظة من الضرورة الملحة ، حقق ثمار إيمانه الصادق بها . لأنه ما أن وضع القساوسة المنذر الذي به رفات الموتى *reliquary* على ركة الامبراطور حتى زال المرض المزمع ، بفعل رفات الرجال الذين كانوا قد نذروا أنفسهم لاعلاء كلمة الله ، (٥٥) .

على أن ذكر هذه المعجزة في كتاب بروكوبيوس عن الانجازات المعمارية الضخمة ربما يجعل القارئ في ريبة بشأن إذا ما كان بروكوبيوس مؤمناً حقاً بما كتبه . بيد أنه كتب عن معجزة أخرى في كتبه عن الحروب ، وتزيل هذه المعجزة أي شك بهذا الخصوص . وتتعلق هذه المعجزة بأحد النساك السريان . « كان هذا السرياني يدعى يعقوب ، الذي وطد نفسه على الالتزام الشديد بالأمور الدينية . وعاش هذا الناسك منفرداً لعدة سنوات في مكان يدعى انديلون *Endielon* ، على بعد مسافة يوم من مدينة آمد *Amida* ، حتى يتمكن من التفرغ للتأمل الروحي في أمان . ولكي يعاونه سكان ذلك المكان على تحقيق هدفه ، قاموا بإقامة سياج حوله ، ولم تكن الأوتاد متصلة ، وإنما أقيمت على مسافات متباعدة حتى تسمح لمن يقترب منه من مشاهدته والتحدث إليه . وأقاموا له سقفاً صغيراً فوق رأسه كاف لحمايته من الأمطار والجليد . وظل الرجل هناك قابلاً لفترة طويلة من الوقت ، دون أن يستسلم لحرارة الجو أو للبرد

على الاطلاق ، وظل مقيما أوده على القليل من الحبوب النباتية التي اعتاد على تناولها على فترات متباعدة وليس كل يوم . وما أن شاهد بعض الهياطة Ephtholitae ، الذين اجتأحوا الاقليم بالقرب من ذلك المكان ، يعقوب حتى استلوا أقواسهم بتلف شديد لاصابته . بيد أن الشلل أصاب أيديهم جميعا وأصبحت غير قادرة على استخدام الأقواس كلية ، (٥٦) .

ولا بد أن هذه الفقرة قد دحضت افتراض هؤلاء الباحثين الذين حاولوا وصف بروكوبيوس بأنه كان صاحب فكر متحرر فيما يتعلق بالشئون الدينية . على أن ترك بروكوبيوس عمل القضاء والقدر والحظ لإرادة الله يجب أن يدحض زعمهم بأن إشاراتهِ عن القضاء والقدر كانت وفقا لطريقة ثوكيديد الى حد كبير . كما أن حديث بروكوبيوس عن البابا على أنه « الأسقف الأكبر في روما » لا يمكن اعتباره دليلا على دهريته agnosticism المزعومة . إذ ربما استخدم هذا التعبير لمجرد ارضاء قرائه العلمانيين . ولاشك أن تلك الإشارة المتعلقة بالبابا انما كانت لارضاء السواد الأعظم في القسطنطينية الذين كانوا غير مؤيدين لادعاء روما بحقها في الأولوية في المنزلة والأهمية . ومن المحتمل أن تلك الأغلبية اشتملت على عدد من رجال الدين والعلمانيين ، ومعهم بروكوبيوس ، وكلهم جميعا لم يؤيدوا بالكامل التعاليم البطرسية (٥٧) Petrine Doctrine على النحو الذي قدمه المدافعون عن تلك التعاليم بالغرب .

عبر بروكوبيوس عن بعض الضيق بالناس الذين كثر جدلهم حول المسائل اللاهوتية الدقيقة إذ جعله الخلاف حول طبيعة المسيح ، والذي طال مداه ييى برودا تاما فقد كتب يقول : « أما بخصوص النقاط المتنازع عليها فبرغم أنى على بينة تامة بها ، فانى لن أذكرها على الاطلاق ، لأنى أعتبر الخوض فى محاولة معرفة طبيعة الله للوصول الى ماهيته ، ضربا من الحماسة الجنونية ، لأنى أعتقد أن الانسان لا يمكن أن يدرك الأمور البشرية بكل دقة ، فما بالك عن قصوره فى محاولة ادراك الأمور التى تخص طبيعة الله . ولذلك فانى سالتزم الصمت المطبق فيما يتعلق بتلك الأمور ، من منطلق دافع واحد فحسب ، وهو أن المعتقدات المبجلة والقديمة لا يمكن أن تكون غير مترابطة ولا يمكن لى أن أقول شيئا عن الله سوى أنه فعال للخير ووسعت رحمته كل شىء » (٥٨) .

ومن الثابت أن بروكوبيوس لم يوافق على الاجراءات الصارمة التى اتخذها جوستينيان لقمع الآراء الدينية المخالفة لمذهب الدولة ، وكذلك

فعل الكثيرون من رعايا الامبراطور ولو قدر لبروكوبيوس اصدار الكتاب الخاص بالموضوعات الدينية الذي كان قد اعتزم اعداده في وقت ما ، لكان من المحتمل أن يجيب عن القضايا المتعلقة بوجهات نظره الدينية . وعلى الرغم من أن بروكوبيوس لم يكن دهريا أو ملحدا ، فان هناك دليلا ضعيفا في كتاباته عن أنه كان رجلا مؤمنا ايمانا عميقا . فلم يعبر عن مشاعره الدينية عندما كتب عن المسيح أو القديسين أو الكنيسة . فعندما كان يكتب عن أمر يبدو مكتنفا بالأسرار ، مثل عدم محاولة القوط التوغل داخل مدينة روما من خلال « السور المكسور » Broken Wall حيث قيل أن بطرس الرسول هو الذي دافع عن المدينة ، فان بروكوبيوس اكتفى بذكر تلك الرواية وأنه كان من بين الذين « أصابتهم الدهشة » من حدوث هذا الأمر (٥٩) . وربما توقع القارىء أن يقدم بروكوبيوس شيئا من الاعتراف بالأعمال التي تمت باذن الله ، والتي فاقت طاقة البشر . بيد أنه لم يذكر شيئا لأنه كان مؤرخا « علمانيا » .



بيده المبجل

ان (بيده) هو ، « المؤرخ الأول لأوروبا فى العصور الوسطى ، ومعلمها فى تعيين التواريخ الدقيقة ، للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمنى » (١) . وربما كان ميلاده سنة ٦٧٣ م بجانب الشاطئ المنعزل لشمال شرق انجلترا حيث ارتفعت الأسوار المتواضعة لدير ويرمارث Wearmouth ، على مقربة من ذلك المكان ، بعد سنة من ميلاد (بيده) . وهذا القدر الضئيل عن بيده Bede ، وما لا يزيد كثيرا عنه ، فيما يتعلق بحياته الشخصية الذى أضافه المؤرخ الى تاريخه الكنسى عن حياة الشعب الانجليزى ويحكى (بيده) ، أن أقاربه وضعوه تحت رعاية الرهبان ، وهو فى السابعة من عمره . وبعد ذلك بعامين ، أى سنة ٦٨٢ م ، أرسله بندكت بيسكوب Benidict Biscop رئيس الدير ، مع حوالى عشرين من جماعة رهبان دير ماوث الى دير جارو Jarrow على بعد عدة أميال من ديرهم الأول ، ويقع ديرهم الجديد على الضفة اليمنى لنهر تاين Tyne . وفى دير جارو قضى (بيده) طيلة حياته ، باستثناء زيارة واحدة ، الى لنديسفرين Lindisfrane ، التى تبعد مسافة خمسين ميلا الى الشمال ، وزيارة أخرى الى يورك York ، التى تقع جنوبا ، وعلى مسافة أبعد قليلا عن مسافة زيارته الأولى . ولا يمكن لأحد أن يجزم بأنه قام برحلات أخرى ، بخلاف الرحلة التى تصر الأسطورة ، على أنه قام بها الى روما .

وبالنسبة لبيده كانت الفترة ما بين سنة ٦٧٣ م وحتى وفاته سنة ٧٣٥ م فترة شغلها كطالب علم ، وراهب ، ومعلم ، وكاتب . وحصلنا على تلك المعلومة من شهادته . « ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، ، وأعنى

بذلك ، منذ الوقت الذي صار فيه عُضوا في الأخوة الديرية في ديرى ويرماوث ، وجارو ، « فقد قضيت كل حياتى فى ذلك الدير ، وانهمكت كلية فى دراسة الكتاب المقدس ، ومراعاة النظام الديرى » (٢) ، وفى الانشاد اليومى فى الكنيسة ، « وكان من بواعث سرورى على الدوام ، أن أتعلم ، أو أعلم ، أو أكتب » (٣) . وفى التاسعة عشرة من عمره ، أى قبل أن يصل الى الخامسة والعشرين ، وهى السن القانونية تمت رسامته شماسا . وكانت رسامته فى الكهنوت ، وهو فى الثلاثين تماما . وتعلم على يد العالم المشهور بندكت بسكوب **Benedict Biscop** ، مؤسس الدير لمدة اثنى عشر عاما . وجاءت وفاة (بيده) ، بعد أن انتهى من ترجمة آخر سفر فى انجيل القديس حنا ، الى اللغة الانجليزية . ووفقا للراهب الذى لازم (بيده) فى ساعاته الأخيرة ، كانت آخر دعوات بيده ، « اللهم اقض روحى لأنعم بالجلوس فى المكان المقدس ، الذى صليت من أجله ، لأسعد بحضرة الذات العلية » . ثم أنشد وهو على أرضية صومعته قائلا : « المجد لله وللابن وللروح القدس ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة » (٤) .

وعلى الرغم من قبول قدر مما نشر عن (بيده) فيما يتعلق بورعه ، وفقا لوصف كاتب سيرته عن الساعات الأخيرة له ، فإن الطريقة التى مات بها (بيده) ، تبدو وثيقة الصلة بالتعرف على هذا العالم وفهمه . فمن كل الشواهد المتاحة يبدو أنه عاش ومات قديسا . وبقدر ما يمكن التحقق منه من خلال ما كتب (بيده) ، ومما كتبه عنه الآخرون ، يتضح أنه نذر نفسه طوال حياته لاعلاء كلمة الله . وفى الحقيقة لم يكن هناك شئ آخر يمكن أن ينجم عنه أى خرق لقسمه الرهبانى . وعلى الرغم من تعاقب القرون ، بما فيها قرننا الحالى ، فإن له الفضل بالنسبة لصفحاته عن التاريخ الأخير الانجليزى الباكر ، الذى لولاه لكان غير واضح الى حد كبير ، فإن اهتمامه بالتاريخ كان محدودا بالنسبة الى اهتمامه بتاريخ الكنيسة ، والمسيحية فى انجلترا ، ولا شك أنه فى محبته كان يسره تأدية خدمة للمصالح الدنيوية للأجيال التالية كلما كان ذلك ممكنا . وبالنسبة اليه ، فإنه لم ينحرف عما اعتبره يدخل فى نطاق مسئولياته كراهب وعالم . وبالنسبة للكتابة التاريخية ، كان (بيده) مؤرخا كنسيا أولا ، ثم كاتباً لسير القديسين ، ولحسن حظنا ، كان صادقا فى كل من المهمتين .

وتفسر حالة (بيده) الروحية الكاملة موقفه تجاه الأدب اليونانى الرومانى . فاعتمد على الكتاب الوثنيين ، وعلى بلىنى الكبير **Pliny the Elder** ، فى كتاباته العلمية بصفة خاصة ، وفعل ذلك دون رغبة ، وبدون التسليم بصحة ما كتبه . واستعان (بيده) بالكتاب المقدس ،

وأباء الكنيسة في الاستشهاد بالجمل المناسبة التي تعطي مزيدا من القوة والتوكيد لكتاباتة . بل ان بحثه عن علم العروض يقدم لنا أمثلة توضيحية عن الشعراء المسيحيين ، ونادرا ما لجأ الى الشعراء الوثنيين . وكان فيرجيل **Virgil** ، هو الاستثناء الوحيد ، اذ شعر بأنه جدير بالاحترام ، باعتباراه ممثلا للعصور الوسطى على نحو نمطي (5) . ونتيجة لتركيز (بيده) الشديد على الأمور الروحية ، فان القارئ لتاريخه لن يجد معلومات لها أهمية اقتصادية أو اجتماعية ، باستثناء شذرات عارضة عندما كان بندكت بسكوب مضطرا الى جلب البنائين وصناع الزجاج من بلاد الغال ، لاقامة أديرة في ويرماوث ، وجارو . ومع ذلك فمن المدهش أن يبدى (بيده) اهتماما قليلا بالعواصف ، وبحالات كسوف الشمس ، وكسوف القمر ، والزلازل . وعادة ما لفتت تلك الظواهر الطبيعية انتباه مؤرخي الحوليات في العصور الوسطى ، الذين مالوا الى اعتبارها نذيرا بقدوم الكوارث ، وبخاصة نهاية العالم . ومما يثير دهشة أكثر أن (بيده) اعتقد أن العالم قد قطع شوطا من العصر السادس ، وكذلك جزءا كبيرا في عصره الأخير . ويشير الى المذنبات ، في احدى المناسبات في نهاية صفحاته في تاريخه ، باعتبارها نذيرا بكارثة للعالم أجمع .

ولم يعرف سوى أبناء قصيرة وقليلة ، عن مجرى حياة (بيده) . ففي سنة 687 م بعد أن انتقل (بيده) الذي كان في التاسعة من عمره ، الى دير جارو ، دهم وباء فتاك جماعة الرهبان ، ولم ينج منه سوى (بيده) وكيولفرث **Ceolfirth** رئيس الدير . على أية حال ، قام العلماء بترجمة كتاب تاريخ رؤساء الأديرة لمؤلف مجهول ، ووجدوا اشارة الى أن صبيا صغيرا وكيولفرث هما اللذان بقيا على قيد الحياة ، ويستطرد الكتاب فيحكي كيف أن كليهما ، حاولا في بداية الأمر ، الاستغناء عن تلاوة الترنيمة التجاوبية ، عند انشاد الطقس الديني المقدس ، باستثناء عند صلوات المساء والصباح ، ثم وجدوا أن ذلك أمرا لا يرضى ، لذلك قررا أن يجاهدا في إقامة كل الشعائر الدينية المقدسة بأقصى ما لديهم من جهد وطاقة ، الى أن انضم اليهما أعضاء جدد .

وهناك موضوع شخصي أخير - هو لقب « المبجل » الذي اشتهر به « بيده » على نحو تقليدي ، وهو لقب لا يحمل دلالة خاصة . ومن الواضح أنه لقب كان يستعمل كمرادف لكلمة « مشهور » ، أو « محترم » الى حد ما . ولو تم اعلانه قديسا بصفة رسمية في مدى بضع سنين على وفاته ، لما عرف بهذا اللقب المؤلف على الاطلاق ، ودفن (بيده) في جارو ، بيد أنه يعتقد أن رفاتة ترقد حاليا في المصلى بكاتدرائية دورهام **Durham** ويقال أن أحد الرهبان نقل رفات (بيده) الى دورهام حوالي سنة 1020 م .

ونظرا لوفرة كتابات (بيده) فليس من المدهش قيام جدل طويل حول أصالة كثير من المؤلفات المنسوبة إليه . والواقع أن عددا كبيرا من الأعمال منسوبة إليه دون وجه حق . . وفي رأى أحد العلماء المحدثين ، « لا يوجد كاتب نسبت إليه أعمال مختلفة غير معروفة للكاتب مثلما حدث مع (بيده) » (٦) . وكثير من تلك الأعمال كانت مؤلفات لعلماء غير معروفين ورغبوا في اضافة قبول شامل لأعمالهم ، ولذلك نسبوها الى (بيده) . وحدث أحيانا أن تركت بعض الأوراق في مخطوطة مخصصة لكتابة أعمال (بيده) ، ثم كتبت على تلك الأوراق مؤلفات لكاتب غير معروفين ، وبمرور الوقت نسبت المخطوطة بكل ما حوت بداخلها الى (بيده) . وظهر الكثير من الكتابات التي نسبت الى (بيده) بدون وجه حق ، في أوائل القرن السادس عشر ، عندما أخرج المدافعون الكاثوليك أعمال (بيده) Opera Bedae ، في حماسهم لدحض ادعاءات أنصار حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ، فيما يتعلق بآراء ووجهات النظر المبكرة لرجال اللاهوت التي « لم يترها الفساد » .

على أن الشيء الذي يساعد كثيرا على الوصول الى مجموعة دقيقة تماما لكتابات (بيده) هي القائمة التي ذيل بها المؤرخ (بيده) تاريخه ، ومع ذلك فلقد اختفى العديد من الموضوعات التي وضعها (بيده) في القائمة ، في حين أن الموضوعات الأخرى التي ألفها لم يعد لها وجود ، بما في ذلك ترجمة انجيل القديس حنا التي ليس لها وجود على الاطلاق . ويعتبر (بيده) مؤلفاته اللاهوتية ، وعظاته الدينية ، وتفسيراته للكتاب المقدس أهم أعماله ، وهي تبدو أكثر أعماله في العدد والحجم . ووصل كثير من عظاته الدينية الى حد تلاوتها ابان الطقوس الدينية . وكفلت له كتاباته التفسيرية مكانة كمفسر لاهوتي يلي آباء الكنيسة الأول مباشرة لمدة خمسة قرون . ونظرا لقلّة ما تضم أعماله اللاهوتية من تجديد وابداع ، فانها أصبحت شائعة ، ومحبوبة ، لوضوحها ، ولقوة مادتها العلمية ، ومعانيها الحقيقية ، ولما تضمنته من أرثوذكسية واضحة .

وتعلق العصور الوسطى أهمية كبرى على ما يطلق عليه اسم كتابات (بيده) العلمية . وفيما يتعلق بكتابات (بيده) العلمية ، فانه اعتمد على ما كتبه الآخرون الى حد كبير . وفي علوم الفلك ، والجغرافيا ، والجيولوجيا ، ومجال العلوم بصفة عامة ، ونقل (بيده) كثيرا عن بلييني الأكبر ، وكذلك عن أيسيدور الاشبيلي Isidore of Seville . وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد ارتاب في أهمية ذلك الجهد القائم على النقل عن الآخرين ، فان العصور الوسطى ، كان من الممكن أن تكون أكثر جدبا من الناحية الفكرية بدون كد واجتهاد (بيده) ، في دراسته لتلك

الكتابات الباكورة ، واستيعابه لها . على أن أبحاث بيده المتعلقة بتعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني لها أهمية كبرى (١) . ووضع (بيده) نهاية لمشكلة ظلت تقض مضجع العلماء مربيين ، على نحو متواصل منذ بداية التاريخ المدون . فبدأ (بيده) باستخدام مولد المسيح كبداية لكتاباتة . وهى طريقة بدأها الراهب دوينسيوس اكسجويس **Dionysius Exigwis** فى أوائل القرن السادس الميلادى . ويشكل ميلاد المسيح بداية العصر السادس للعالم بالنسبة لبيده . كان تقسيم الزمن الذى ورثه عن «مدينة الله» للقديس أوغسطين عن طريق ايسيدور الاشبيلي . وكان تحديد موعد عيد الفصح دافع (بيده) الرئيسى لدراسة تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها ، بغية حل الخلاف القائم بشأن موعد هذا العيد . وقبل أن تحسم هذه القضية لصالح النظام الرومانى لتحديد التواريخ ، استمر المسيحيون الكلتيون فى الارتياح فى سلطة البابا الرومانى .

وهناك كتابات أخرى لبيده ساعدت على توطيد شعبيته فى أوائل العصور الوسطى ، اشتملت على أبحاث فى علم الاملاء ، وعلم العروض . وعلى الرغم من أن تلك الأبحاث لم تؤيد أو تدافع عن الأصالة ، أو الفضائل التى تتعلق بذلك ، فانها أثبتت أهميتها فى مدارس عصر (بيده) ، وفى عهد الكارولنجيين الذين جاءوا من بعده . وأخذ (بيده) فى اعتباره أن معظم أعماله تعليمية فى أهدافها ، وكان هدفه تدريسها فى المدارس ورغم أن افتقار تلك الأعمال الى الأصالة عمل على تقليل قيمتها الحقيقية الى حد كبير ، فان القرن الثامن الميلادى ، وما تلا ذلك انقرن بعدة قرون لم يتضمن شيئا أفضل مما قدمه (بيده) ودعمت تلك الأعمال يمكن (بيده) الكامل من موضوعات الفنون الحرة الثلاثة (النحو ، والبلاغة ، والمنطق) ، وسهولته غير العادية ، فى تقديم التفسير الواضح ، ومقدرته على أن يحكم بعين ناقدة على ما يقرأ ، وأن يستخلص النقاط الأساسية المهمة ، ومهارته فى تقديمها جميعا فى طريقة مبسطة ومنهجية . ولم يعبا (بيده) بالأصالة . وكان (بيده) قانعا تماما بتقديم عمل متواضع ينظم مجموع المعارف الانسانية التى قام بتصنيفها علماء سبقوه من أمثال ايسيدور الاشبيلي .

ووضع (بيده) العديد من الترانيم ، ونظم القصائد ، وأهم قصائده تلك التى نظمها احياء لذكرى القديس كوثبيرت **St. Cuthbert** . وأهم الخطابات التى نسبت اليه ذلك الذى أرسله الى اجبرت **Egbert** ، أسقف يورك ، الذى كان أحد تلاميذه . وفى ذلك الخطاب نصح (بيده)

الأسقف بأن يندرج نفسه لاصلاح الكنيسة التي أعلن أنها في حاجة ملحة
للاصلاح .

ويضاف الى دور المؤرخ الذي لعبه (بيده) في كتابة التاريخ ،
تقديم (بيده) تاريخ الشهداء الذي ساعد على شعبية هذا النوع من
الكتابة التاريخية . وكما حدث فان كتابه عن تاريخ الشهداء كان تقدما
كبيرا يفوق الكتاب المجهول المؤلف الذي رجع اليه (بيده) . وأصدر
كتابا عن حياة رؤساء ديرى (ويرماوث - جارو) ، وعن حياة العديد
من القديسين أيضا . وأهمها كتابه عن حياة القديس كوثبيرت .

وقام بكتابه حوليتين ، كانت كل منهما اضافة الى الكرونولوجيا
وحظيت أطول هاتين حوليتين ، بقدر كبير من الشعبية ، والشهرة بين
كتاب حوليات العصور الوسطى . وتبدأ تلك الحولية منذ بدء الخليقة ،
وسارت بسرعة حتى سنة ٧٢٥ م ، على نمط كرونولوجى دقيق . وتقدم
هذه الحولية الدليل على اطلاع (بيده) على أعمال المؤرخين القدامى ، بما
فيهم المؤرخ أيوتروبيوس Eutropius (٨) . بيد أن حولية المؤرخ
يوسيبوس Eusebius « التاريخ الكنسى » ، كانت المصدر الرئيسى
لحوليته . وما يثير الاهتمام فى حولية (بيده) ، المعلومة الأخيرة فى تلك
الحولية ، والتي تحدث فيها ، عن المسيح الدجال . وعن يوم القيامة ،
والجنة والنار . ويشير (بيده) فى حوليته ، أنه فى سنة ٧٢٥ م ذهب
عدد كبير من الرجال والنساء الانجليز ، من النبلاء ومن عامة الشعب ،
لزيرة روما ، بدافع من ورعهم وتقواهم .

وباستثناء سطور قليلة ، كتبت باللغة الانجليزية التي ينطق بها
سكان نورثمبريا ، واللغة العامية التي استخدمها فى ترجمة انجيل
القديس حنا ، كانت كل كتاباته باللغة اللاتينية . وكتب (بيده) ،
بأسلوب واضح ، ودقيق ، وبلغة عالم ، ومعلم حريص على تنقيف قرائه .
وليس مجرد اثاره انطباع قوى فى نفوسهم . ونظرا للوضوح الذي كتب
به (بيده) ، وشمول أسلوبه ، وسعة الادراك ، فانه يتصدر الجميع
باعتباره أهم الذين قاموا بالمحافظة على المعرفة اليونانية واللاتينية ، وكل
ما يتعلق بأباء الكنيسة وكتاباتهم ، ابان فترة يطلق عليها العصور
المظلمة . ويمثل بيده أيضا أروع نتاج لامتزاج تيارين فكريين ، تدين لهما
انجلترا بالفضل فى القرن الثامن ، اذ انهما كانا سببا لتفوقها فى غرب
أوروبا - وهما التيار الكلتى الذي ترجع أصوله من لندسفرين
Lindisfrane ، عبر أيونا Iona ، الى ايرلندا ، والتيار الفكرى الجنوبى
انتقل الى كانتربرى وروما . وبصراحة ، فان (بيده) مدين لبندكت بسكوب

Benedict Biscop مؤسس ديرى ويرماوث - جارو ، والذي ربما كان
أكثر المعلمين المخلصين . . ثقافة فى عصره فى انجلترا .

ولم يستطع بيده الحصول على مجموعة من الكتب لها أهمية كبرى
فى أى مكان فى انجلترا سوى فى دير جارو ، حيث قضى فيه الجزء الأكبر
من حياته . وقدم بندقى بسكوب فائدة جلية باحضاره معظم تلك
الكتب من روما خلال رحلاته الخمس التى قام بها الى المدينة الخالدة
Eternal city . وتمت اضافة كتب أخرى ابان رئاسة كولفريث
Ceolfrith ، للدير . ومن المرجح أن غالبية تلك الكتب كانت له طبيعة
لاهوتية . واحتوت على تاريخ آباء الكنيسة الشرقية ، واستطاع (بيده)
الاطلاع عليها لمعرفة باللغة اليونانية . ولا بد أنه ازدانت أرفف حجرة
النسخ بدير جارو بعدد من الآثار الأدبية الوثنية مثل كتاب التاريخ
الطبيعى لمؤلفه بلينى Pliny . ومع ذلك فان كثيرا من مئات المؤلفين
الذين استشهد (بيده) بكتابتهم كانت معرفته لهم مجرد معرفة ثانوية
فحسب .

ومهما كانت درجة ورع وتقوى (بيده) ، أو مآثره الفكرية ، فبدون
كتابه « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » ، لم يكن ليقدّر له أن يكون
أفضل من هرابانوس موريوس Harbanus Maurus ، العالم الكارولنجى ،
الذى يماثله فى الانتاج العلمى والمعرفة . وفيما يتعلق بهذا الكتاب الذى
ألفه (بيده) ، « فلقد أصبح من التراث الأدبى للتاريخ البشرى بفضل
منهجه فى الكتابة ، وأسلوبه ، وفوق ذلك ، خصائصه المميزة التى تتضح
من خلال أسلوبه » (٩) . وانتهى (بيده) من انجاز تاريخه سنة ٧٣١ م
عندما بدأت وطأة أمراض الشيخوخة تشتد ثقلها عليه . (على أن وجود
اشارة الى معركة تور Tours ، التى حدثت سنة ٧٣٢ م يوحى بأنه
قام باجراء مراجعات طعيفة) . وكان النظام الذى سار عليه الكتاب وفقا
لنظام التسلسل الزمنى ، على الرغم من ميل (بيده) للسماح لبعض
الموضوعات ، بحملة بعيدا ، مثل كتابته عن سير القديسين . بيد أنه
عندما كان يشعر أنه قد ابتعد عن الموضوع ، فانه كان حريصا على أن
يعود بالقارئ من حيث وصل .

ويفتتح بيده كتابه هذا بكلمة اهداء للملك كولوف من نورثمبريا .
وأبدي كيولولف ceolwulf اهتماما كبيرا بهذا الجهد العلمى ، بل وأجاز
دراسته قبل الانتهاء من نسخ المسودة النهائية . وكتب (بيده) ،
« ان جلالكم قد طلبتم منى أن تطلعوا على كتاب تاريخ كنيسة الأمة
الانجليزية الذى قمت بتوزيعه مؤخرا . وسررتى ، يا مولاي . . أن أقدمه

الى جلالتم لدراسته ونقده فى مرة سابقة ، والآن يسرنى أن أقدمه مرة ثانية لجلالتم للنسخ والدراسة اذا ما سمح الموقف ، (١٠) .

ثم يواصل (بيده) القول ذاكرا ما يبرر رأيه فى الكتابة التاريخية :
« اذا ما حكى التاريخ عن الأخيار من الرجال ، وعن أحوالهم الطيبة ، فسيجد القارئ ، الذى يفكر بعمق الدافع لاتخاذهم أسوة حسنة له ، واذا ما ذكر التاريخ الأهداف والغايات الشريرة للأشرار ، فان القارئ سيعمل على تجنب كل ما هو ضار وضال ، وسيعمل بكل ما فى وسعه ، وكل ما هو خير ، وكل ما يرضى الله عنه ، (١١) . »

وامتدح (بيده) الملك كيولولف لمعرفة بامتلاك التاريخ لهذه المنقبة ، وأطرى الملك ، لرغبته فى نشر المعرفة عن هذا التاريخ « لارشادك وارشاد من جعلتك السلطة الالهية تحكمهم » . وكلما تصفح المرء كتاب « التاريخ » الذى ألفه (بيده) غالبا ما يجد أن المؤلف يقدم هذا التبرير الأخلاقى لكتابة وقراءة التاريخ .

وبذل (بيده) جهدا كبيرا فى محاولة اقناع الملك وقرائه الآخرين ، انه عمل كل ما فى وسعه ، « لازالة كل أسباب الشك ، فى تلك الموضوعات التى آكتبها ، سواء من فكرك أو من فكر أى شخص من الآخرين ، الذين قد يستمعون ، أو يقرؤون هذا التاريخ » . ومنذ الفترة التى سبقت وصول أوغسطين الى بريطانيا سنة ٥٩٧ م ، استمد (بيده) مادته التاريخية ، من هنا وهناك ، وبصفة خاصة من كتابات المؤرخين الأول . « ويمكن تحديد هؤلاء فى بلىنى Pliny ، وأروسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas وكذلك حياة القديسين البن Alban ، وجيرمانوس Germanus ، أما بالنسبة للسنوات التى تلت سنة ٥٩٧ م ، فاستشهد (بيده) بما كتبه البينوس Albinus الذى كان مصدره الرئيسى ، والذى كان رئيسا لدير القديس بطرس St. Peter ، والقديس بولس St. Paul فى كانتربرى ، والذى عرف فيما بعد بتابع القديس أوغسطين وهو صديق حميم لبيده ، والذى شجعه على كتابة التاريخ ، وهو رجل واسع المعرفة ، تعلم على يد رئيس الأساقفة تيودور الطرسوسى ، وهادريان ، طيب الذكر رئيس الدير ، وكان كل منهما مبعلا ومثقفا . » وقام البينوس باجراء بحث شامل وكامل للسجلات المكتوبة ، وتعقب كل التراث القديم ، الذى يخص كنت Kent ، والممالك الأنجلو سكسونية الأخرى وقام بتسليم تلك المادة العلمية الى نوثيلم Nothelm ، أحد قساوسة لندن ، والذى قام بدوره باعطائها الى (بيده) . وذهب نوثيلم أيضا الى روما حيث ، « حصل على اذن من البابا جريجورى للبحث

في سجلات المحفوظات بالكنيسة الرومانية المقدسة ، عن رسائل ،
ووثائق اعتقد أنه من الممكن أن يستفيد منها (بيده) وواصل (بيده)
حديثه المفصل عن مصادر معلوماته . « أبدى لي دانيال ، أسقف سكسون
الغربية ، الذي ما زال على قيد الحياة ، ويحظى بكل احترام وتقدير رغبته
في كتابة شيء عن تاريخ الكنيسة في نطاق المنطقة التي يربعاها ، والمناطق
المجاورة في كل من سسكس Sussex ، وجزيرة وايت Isle of Wight ،
وبإضافة الى ذلك ، علمته من اخوان دير لاستنجهام Lastingham ،
الذي شيده كيد Ced ، وشادهاو Chadhow وبفضل جهود هذين
القسين من قساوسة المسيح المخلصين آمنت مملكة مرشيا Mercia
بالمسيحية ، بعد ان كانت مصرة على عدم الايمان بها من قبل . وعلمت
أيضا من رهبان لاستنجهام ، عن حياة وممات هذين الأبوين . بالإضافة
الى ذلك ، عرفت تاريخ الكنيسة في شرق أنجليا East Anglia ،
من خلال كتابات أو تراث السابقتين ، ومن خلال ما كتبه الأب اسي
Abbot Esi المحترم ، والذي يحظى بكل تقدير . وعلمت عن انتشار
المسيحية ، وتعاقب الأساقفة . اما عن طريق رسالة من كينبرت
Cyneberht الأسقف الموقر ، أو مما سمعته بنفسى من الرجال من أهل
الثقة . بيد أن ما حدث في الكنيسة في مختلف أنحاء نورثمبريا ، منذ
أن اعتنقوا المسيحية هناك ، حتى الوقت الحاضر ، باستثناء الموضوعات
التي عرفتھا باطلاعى الشخصى ، فليس لي مصدر سوى شهادة شهود العيان
المخلصين العديدين ، الذين اما علموا بالأمر أو تذكروها (١٢) .

واختتم (بيده) دراسته المفصلة عن المصادر التي رجع اليها عند
اعداده لكتاب التاريخ بفقرة دلت على أنه مؤرخ حقيقى ، « وبذلك أتقدم
بكل تواضع للقارئ ، وأقول اذا ما وجد أى شيء ، غير حقيقى فيما كتبه
لا ينسبه الى . ذلك لأنى حاولت ببساطة أن أدون ما جمعته من الروايات
الشائعة ، من أجل تثقيف الأجيال ، (١٣) .

ويبدو واضحا من دراسة (بيده) للمصادر التي استقى منها معرفته
أنه كان مهتما بصفة أساسية ، ان لم يكن كلية ، بالأمور التي تتعلق
بالمسيحية والكنيسة . ومع ذلك فهناك مسحة من الايحاء أن (بيده)
أدمج في تاريخه معلومات عن التاريخ الدنيوى الذى قد يدخل السرور
على قلوب القراء . ولذلك يقول انه « ذكر تلك الأحداث التي يعتقد أنها
جديرة بالمعرفة . ومن المحتمل أن تدخل السرور على المواطنين ، (١٤) .

على أن القصة المتعلقة بمصدر اهتمام البابا جريجورى الكبير ،
بتحول بريطانيا الى المسيحية ، تمثل المثل الرئيسى ، الذى جعل (بيده)

مدينا للعرف والتقاليد أكثر من المصادر المكتوبة في الحصول على معلوماته ، ويحكى (بيده) القصة • « يقال انه في يوم من الأيام ، وبمجرد وصول بعض التجار الى روما ، كانت كمية من السلع التجارية معروضة للبيع في السوق • وأتت حشود من الناس لتشتري • وكان جريجورى من بينهم • وشاهد جريجورى بين السلع بعض الغلمان المعروضين للبيع ، يبشرتهم الشقراء ، ووجوههم الوسيمة ، وشعورهم الجميلة • ويقال أنه سأل عن الاقليم أو البلد الذى أتوا منه بمجرد أن شاهدتهم • وبلغه أنهم أتوا من جزيرة بريطانيا ، وأن كل سكانها على مثالهم فى الشكل وسأل جريجورى اذا ما كان سكان تلك الجزيرة قد آمنوا بالمسيحية أم أنهم ما زالوا متورطين فى آثام عبادة الأوثان • ثم قال بتنهيدة عميقة : واحسرتاه ! أن يسيطر الضلال على هؤلاء الناس أصحاب الوجوه الوضاعة ، ويضعهم فى جعبته ، وأن يجعل قلوبهم خالية من نعمة الروح الالهية ، فى الوقت الذى ينعمون به بالخلقة الجميلة » • وسأل مرة ثانية عن جنسهم وعرف أنه يطلق عليهم الانجلز (*) • فقال « حسنا ، ان لهم وجوه الملائكة ، ويجب أن يكون هؤلاء القوم رفقاء للملائكة فى سيرات الفردوس » (١٥) •

وبعد تقديم تصدير الكتاب ، انتقل (بيده) الى الكتاب الأول من تاريخه • ويفطى هذا الكتاب الفترة ما بين غزو يوليوس قيصر الجزيرة سنة ٥٥ ق م ، الى ذهاب أوغسطين والرهبان الذين رافقوه اليها سنة ٥٩٧ م • وهنا اعتمد (بيده) على بلينى الأكبر ، وأوروسسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas بصفة أساسية فى الحصول على مادته العلمية • ويبدأ كتابه بوصف لجغرافية كل من بريطانيا ، وايرلندا ، وكذلك ثروتيهما الطبيعية • وعلى حين أننا قد لا نسلم بأن الجغرافيا علم مساعد فى دراسة التاريخ ، فان (بيده) كان مقتنعا ، بلا أدنى شك أن المعلومة الجغرافية تعين القراء على معرفة دخول المسيحية ، ونموها فى تلك البلاد ، برغم أن تلك المعلومة الجغرافية ليس لها طبيعة روحية • « بريطانيا التى كانت فيما مضى يطلق عليها البيون Albion هى جزيرة فى المحيط وتقع الى الشمال الغربى ، وفى مواجهة ألمانيا ، وبلاد الغال ، وأسبانيا وهى تكون الجزء الأكبر من أوروبا • برغم بعد المسافة بينها وبين تلك البلاد • وتمتد الجزيرة من الجنوب الى الشمال لمسافة ثمانمائة ميل ، وعرضها مائتا ألف وثمانمائة وخمسة وسبعون ميلا • والجزيرة غنية بالمحاصيل والأشجار ، وبها مراعى خصبة للماشية ، ودواب الحمل • وتوجد بها أشجار الكروم فى مناطق معينة ، وبها وفرة فى الطيور البرية،

(*) Angl تشبه فى نطقها لفظة angels التى تعنى الملائكة •

والمائية . ومما يلفت النظر ما بها من أنهار بزخر بالأسماك ، وبخاصة السلمون ، وثمانين البحر وما بها من ينابيع غزيرة الانتاج . وكثيرا ما يتم صيد عجل البحر والدرفيل بل والحيتان . وبالإضافة الى ذلك توجد أنواع مختلفة من المحار ، ومن بينها يوجد بلح البحر ، الذي يوجد بداخله اللؤلؤ الممتاز من كل لون ، الأحمر ، والأرجواني ، والبنفسجى ، والأخضر بيد أن اللون الأبيض هو الأكثر . وهناك وفرة تفوق الحد فى القواقع البحرية التى يستخرج منها صبغ قرمزي اللون ، وهو لون أحمر غاية فى الجمال ، ولا يتأثر عندما يتعرض لحرارة الشمس أو الأمطار اذ انه كلما تعرض للبرودة كلما ازداد جمالا . وفى البلاد عيون للمياه المالحة ، وأخرى للمياه الدافئة ، وتنساب منها الأنهار التى تغذى الحمامات الساخنة ، والتى تناسب كل الأعمار ، من الجنسين ، فى أماكن منفصلة ومستقلة ، وفقا لحاجة كل فرد . والبلاد غنية أيضا بعروق الفلزات ، مثل النحاس ، والحديد ، والرصاص ، والفضة ، وتنتج أيضا قدرا كبيرا من الكهرمان الأسود اللامع والمصقول ، والذي يشتعل اذا ما وضع فى النار ، وعندما يتوهج يساعد على طرد الأفاعى بعيدا ، وعندما يصبح دافئا بفعل الاحتكاك المستمر ، فانه يجذب اليه أى معدن يوضع ملاصقا له ، كما تفعل مادة الكهرمان البنى اللون والضارب الى اللون الأصفر تماما وفى وقت ما كانت البلاد مشهورة بمدنها الثمانية والعشرين . بالإضافة الى الأماكن المحصنة الكثيرة ، التى كانت تحميها الأسوار والأبراج القوية ، والبوابات ، والأقفال (١٦) . وفى الوقت الحاضر يوجد فى بريطانيا خمس لغات ، كما يكتب القانون المقدس فى خمسة كتب ، وكلها مخصصة للبحث عن الحكمة . . والعمل على نشرها وأعنى بذلك الحقيقة فى أسمى معانيها ، والرفعة الصادقة ، واللغات الخمس : هى الانجليزية ، والبريطانية ، والاييرلندية ، والبكتية ، بالإضافة الى اللغة اللاتينية . ومن خلال دراسة الكتاب المقدس ، صارت اللغة اللاتينية ، هى اللغة الشائعة بين تلك اللغات جميعها . وفى بداية الأمر كان سكان الجزيرة من البريطون Britons ومنهم عرفت الجزيرة باسمها بريطانيا ، ويقال انهم أبحروا اليها من بلاد أرموريكا Armorica (١٧) ، واختاروا لأنفسهم الجزء الجنوبي من الجزيرة ، (١٨) .

واستمر (بيده) فى دراسته بوصف وصول البكتيين The Picts الى ايرلندا ، حيث رفض الايرلنديون السماح لهم بالاقامة فى ايرلندا ، تحت ذريعة أن الجزيرة كانت صغيرة للحد الذى لا يجعلها تتسع لهم جميعا . واقترح أهالى ايرلندا على البكتيين أن يذهبوا الى جزيرة أخرى ليست بعيدة عن جزيرتهم ، وتقع فى الاتجاه الشرقى ، والتى غالما ما يشاهدونها عن بعد فى الأيام الحالية من الضباب ، . وبناء على ذلك

أبحر البكتيون الى الشرق ، واتخذوا موطنهم فى الأرض الواقعة شمال
نورثمبريا Northumbria .

ويكشف وصف (بيده) لايرلندا عن الجمع بين الحقيقة والأشاعة
التي لا أساس لها من الصحة ، وهو الأمر الذى ميز كتابات الحوليات فى
العصور الوسطى كثيرا . ان ايرلندا أكثر اتساعا من بريطانيا ، ومناخها
أكثر اعتدالا ، لدرجة أنه من النادر بقاء الجليد بها أكثر من ثلاثة أيام .
ولا يحصد البرسيم أبدا فى فصل الصيف بغية استخدامه فى فصل
الشتاء ، كما لا توجد بها حظائر للدواب والماشية . ولا توجد زواحف فى
ايرلندا ، ولا تستطيع الثعابين السامة أن تعيش هناك ، وعلى الرغم من
انتقال الثعابين من بريطانيا الى ايرلندا ، فانها كانت تموت على وجه
السرعة لتأثرها برائحة الهواء . وفى الحقيقة فان كل شئ تقريبا مما
تنتجه أرض ايرلندا ، له تأثير شديد ضد السم . وعلى سبيل المثال فقد
شاهدنا كيف أنه فى حالة اذا ما عانى أحد الأفراد من عضّة ثعبان ، فان
أوراق المخطوطات من ايرلندا كان يتم كشط ما عليها من آثار الكتابة ،
ثم يوضع ما تم كشطه فى الماء ، ثم يشربه من تعرض لتلك العضّة وعلى
الفور تعمل تلك المواد المكشوفة والمذابة فى الماء ، والتي شربها المصاب ،
على تسكين الورم ، وعلى منع حدة انتشار السم وتزخر ايرلندا باللبز
والعسل ، ويوجد بها أشجار الكروم ، والسمك والطيور . وهى مشهورة
أيضا بصيد الغزلان من الغابات ، (١٩) .

ويمدنا الفصل الثانى من الكتاب الأول بنموذج رائع ، عن مقدرة
(بيده) على التلخيص ومقارنة الروايات المختلفة لأحداث معينة ، كانت
فى متناوله لحسن حظه . وهنا اعتمد (بيده) بصفة أساسية على
أوروسىوس Orosius ، وجيلداس Gildas ، وأوتروبيوس -
Eutropius ، وبروسبر Prosper وماركيلينوس كومز Marcellinus Comes
« لم يسبق للرومان أن هاجموا بريطانيا اذ لم تكن معروفة لديهم
حتى عهد جايوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar الذى كان
قنصلا مع لوكيوس بيبولوس Lucius Bibulus سنة ٦٩٣ م من
تاريخ روما الموافق سنة ٦٠ ق م (٢٠) وعندما كان قيصر يعد لشن الحرب
ضد الجرمان ، والغال ، الذين كان يفصل بينهما نهر الراين وصل
قيصر الى مورينى Morini ، ومن تلك المنطقة توجد أقرب وأقصر مسافة
للوصول الى بريطانيا . وجهاز حوالى ثمانين سفينة حربية معدة لنقل الجند
والمعدات وكذلك قوارب كبيرة معدة لنقل الأحمال الخفيفة ، وأبحر قاضدا
بريطانيا ، يبدو أنه دخل فى معركة شرسة فى بداية الأمر ، ثم أعقبها
عاصفة هوجاء ، ومن ثم فقد جزءا كبيرا من أسطوله وعددا كبيرا من

جنوده ، من بينهم كل فرسانه تقريبا . ثم عاد الى بلاد الغال وارسل فرقه الحربية الى ثكنات شتوية ، واعطى اوامره ببناء ستمائة سفينة من كلا الجانبين . ثم أبحر بتلك السفن الى انجلترا في أوائل الربيع . وإبان زحفه تجاه العدو تعرضت سفنه الراسية على الشاطئ البريطاني لعاصفة هوجاء ، حطمت أسطوله اما عن طريق اصطدامها ببعضها البعض ، أو بقذف الأمواج على الشاطئ . وفقد قيصر في تلك العاصفة أربعين سفينة ، أما باقي السفن ، فقد تم إصلاحها بصعوبة بالغة .

وفي المواجهة الأولى هزم البريطانيون **Britons** فرسان قيصر ، وقتلوا التربيون لابينوس **Labienus** . وفي المعركة الثانية ، وبرغم تعرض رجال قيصر لأخطار جسيمة ، فانه هزم البريطانيون ، وأجبرهم على الفرار . ثم اتجه قيصر صوب نهر التيمز . وتجمع حشد ضخم من الأعداء على الضفة الأخرى للنهر ، تحت قيادة كاسوبيلينوس **Cassobellaunus** (كاسيفيلينوس **Cassivellaunus**) . وتم وضع سائر للاعاقه ، من الأوتاد الحادة ، غطت ضفتي النهر تقريبا ، وكذلك المخاضة من أسفليهما . ويمكن حتى يومنا هذا مشاهدة آثار وبقايا تلك الأوتاد . وعند فحص كل منهما ، وجد أنه في سمك فخذ رجل ، ومغطى بالرصاص ، ومثبت بطريقة تجعل من الصعب اقتلعه من قاع النهر . وشاهد الرومان تلك الأوتاد ، وتجنوباهم وكذلك فعل البرابرة اذ كانوا غير قادرين على مقاومة هجمات الفرق الرومانية واختفوا في الغابات ، واعتادوا على الخروج منها لشن هجمات خاطفة ، وكثيرا ما ألحقوا خسائر فادحة بالرومان ، وفي ذلك الحين ، استسلمت مدينة ترينوفانت **Trinovantes** ومعها قائدها أندروجيوس **Androgeus** ، الى قيصر ، وسلمته أربعين رهينة . وتبعته مدن عديدة وفقا لما تم ، وتوصلت تلك المدن الى تفاهم مع الرومان . وأخيرا استطاع قيصر بفضل مساعدتهم ، الاستيلاء على مدينة كاسينيلينوس ، بعد قتال مرير ، وكانت تلك المدينة تقع بين مستنقعين ، فضلا عن أنها كانت محاطة بالأراضي التي تكسوها الغابات ، وبها مستودعات ضخمة بها كل نوع . وبعد ذلك عاد قيصر من بريطانيا الى بلاد الغال (٢٢) .

واستمر (بيده) في تقديم وصفه التاريخي لبريطانيا ، وأشار الى الغزو الذي قام كلوديوس **Claudius** ، بيد أنه أغفل ذكر الثورة الكبرى في عهد الملكة بوديكا **Boudicca** ، إبان حكم نيرون **Nero** ويذكر أنه بالإضافة الى الكوارث التي لا حصر لها ، فقد نيرون كل بريطانيا تقريبا . وكرر (بيده) الخطأ الذي وقع فيه أوروسنيوس **Orosius** عندما نسب سور هادريان **Hadrian** الى سبتموس

سيفريوس Septimius Severus ، الذي مات سنة ٢٦١ م ،
ثم تحدث عن اضطهاد المسيحيين ، الذي عم أرجاء الامبراطورية ، ووصل
الى حالة جديدة ، شديدة العنف في عهد دقلديانوس . وفي انجلترا كان
القديس البنز St. Albans ، أول الشهداء . وعن قصة وفاة القديس
البنز جمع (بيده) بين التاريخ ، وسير القديسين . وهنا يكشف (بيده)
عن رغبته الشديدة في قطع التسلسل الزمني للأحداث ، بتقديمه تفصيلات
ايضاحية عن حادثة يعتقد أنها ستعمل على رفع المستوى الثقافي للقارىء .
ويحكي كيف أن البنز الذي كان وثنيا ، تأثر بشبهة بورع القس المسيحي
الذي اختبأ في منزله الى أن آمن البنز نفسه بالمسيحية . وعندما علم
الحاكم الشرير بوجود القس ، أمر بالقاء القبض عليه ، حيث ارتدى البنز
الملابس الكهنوتية الخاصة بالقس ، وقدم البنز للمحاكمة أمام القاضي .
وعندما تم احضار البنز أمام . . القاضي ، كان القاضي واقفا أمام مذابح
الشیطان ، ويقدم الأضاحي لهم . وما أن رأى القاضي البنز حتى بدا عليه
الغضب بشكل مفاجيء لأن البنز تجاسر عن طواعية وسلم نفسه للشرطة ،
وعرض نفسه لخطر جسيم لمصلحة الضيف الذي آواه في منزله . وأمر
الجنود بأن يسحبوا البنز أرضا ، أمام تماثيل الشياطين والتي كان يقف
عندها القاضي ، وقال القاضي ، لقد قمت باخفاء شخص متمرّد ، ومنتهك
لحرمة معتقداتنا الدينية ، بدلا من تسليمه الى جنودنا ، حتى يلقي العقاب
المستحق لخروجه على تعاليم ديننا ، بتسفيهه آلهتنا ، ومن ثم فانك ستلقى
العقاب الذي تستحقه اذا ما حاولت أن تتخلي عن عبادتنا وعن ديننا !

« وعندما رفض البنز الاستسلام قال له القاضي : ما هي أسرتك ؟
وما هو أصلك ونسبك ؟ فأجاب البنز ، « وماذا يعينك من معرفة أصلي
ونسبي ؟ » واذا ما رغبت في معرفة الحقيقة عن ديني ، فاعلم بأني أوّمن
بالمسيحية ، وأني على استعداد بأن أقوم بواجبي المسيحي . وقال القاضي ،
« اني مصر على معرفة اسمك ، وعليك أن تنطق على الفور » . ثم قال
البنز ، « سماني والدي البنز وسأظل مؤمنا ، وعايدا لله الحي الحق
خالق كل شيء » . فرد عليه القاضي بغضب شديد ، « اذا ما رغبت في
حياة سعيدة ، ورغدة ، عليك بتقديم الأضاحي الى الآلهة القوية » . فرد
عليه البنز ، « ان الأضحيات التي تقدمونها للشياطين ، لا يمكن أن تعمل
على مساعدة العابدين لها ، أو تحقق أمانهم ، وتوسلاتهم ، وتضرعاتهم » .
وعلى العكس من ذلك ، فان من يقدم الأضحيات الى تلك التماثيل ، يلقي
العقاب الأبدى ، في نار جهنم جزاء له . « وعندما سمع القاضي ذلك الرد ،
أمر بضرب البنز ضربا مبرحا ، عله يضعف أمام العقاب . وبرغم ذلك
العقاب القاسي تحمل البنز بصبر وثبات ، تمسكا بعبادة الله . ولما أدرك

القاضي أن البنز لم يتأثر بالعقاب ، ولم يتزحزح عن الايمان المسيحي ،
أمر بإعدام البنز شنقا » .

« وكان المكان المعد لإعدام البنز فى موضع يحتاج الأمر فيه الى
عبور نهر للوصول اليه ، غير أن الراغبين فى مشاهدة عملية الإعدام
تجمهروا فوق الجسر عبر النهر ، مما جعل من المستحيل على البنز والشخص
المكلف بإعدامه عبور الجسر ، ومن ثم ، « اقترب القديس البنز من النهر
ورفع عينيه الى السماء ، لأنه كانت لديه الرغبة الملحة ، فى أن ينال نعمة
الاستشهاد . فجفت المياه على الفور فى المكان نفسه ، وشاهد البنز المياه
وهي تنحسر تاركة خلفها ممرا ليسير عليه » .

- ووفقا لرواية (بيده) زينت الطبيعة مكان الإعدام على نحو حقيقى ،
يتناسب مع شهيد مجده . « ويقع هذا التل على بعد خمسمائة خطوة من
المنطقة ، وكان التل مكسوا من كل جانب بالأزهار البرية ، من كل نوع ،
ويمتد على نحو ممهد سطح السهل ، على نحو متآلف وجميل . وفى الواقع
أن الجمال الطبيعى للتل كان مناسبا لأن تحل عليه البركة بدماء شهيد
مقدس . وعندما وصل القديس البنز الى قمة التل ، سأل الله أن يعطيه
ماء فتفجر ينبوع دائما على الفور ، من تحت قدميه ، حتى ان كل من شاهد
ذلك أدرك أن المياه كانت رهن اشعارته . وهكذا قطعت رقبة الشهيد
الشجاع فى ذلك المكان . وتسلم تاج الحياة ، الذى وعد به الله كل من
أحبه . بيد أن الشخص الذى أطبق يده الدنسة حول رقبة القديس لم ينعم
بالحياة ، لأن رقبة القديس المبارك سقطت على الأرض ، ومعها عينى من
أعدمه » (٢٢) .

واختتم (بيده) روايته عن تلك الحادثة ، بذكر أن القاضي أمر بوقف
عمليات تعذيب ، واضطهاد المسيحيين لأنه ، « كان مندهشا لهذه المعجزات
الربانية التى لم يشاهد مثيلا لها » . وفيما بعد ، وعندما ساد التسامح
مع المسيحيين ، « أقيمت كنيسة فخمة تتناسب مع استشهاد القديس
البنز . وحتى يومنا هذا يذهب المرضى اليها للشفاء ويزيد من شهرتها ،
استمرار المعجزات التى تتكرر حيننا بعد حين » .

ومع ذلك فلم تكده تتوقف عملية اضطهاد المسيحيين ، وينتصر
التسامح مع المسيحيين حتى أطلت الآراء الدينية المسيحية التى تتعارض
مع الايمان المسيحي المتفق عليه أى الهرطقة بوجهها القبيح . وأشهر
(بيده) الى « الحبل الأريوسى الذى أضل كل أنحاء العالم ، وإمتد أثره
السيئ الى هذه الجزيرة المنفصلة عن كل أنحاء العالم ، بكل ما احتوت تلك
الآراء الهدامة على ضلال وأضلال » . وكانت هناك آراء أشد خطورة على

انجلترا لانتشارها الكبير ، وهي الآراء الدينية ، « التي نشرها بيلاجيوس البريطاني Briton Pelagius ، حيث نشر آراء هدامة ، ومضللة ، في كل مكان ، وأنكر حاجتنا الى النعمة المقدسة . وتصدى القديس أوغسطين St. Augustine ، وباقي الآباء الأرثوذكس لتلك الضلالة ، بالاستشهاد بعدة آلاف من النصوص الكاثوليكية ، بيد أنهم فشلوا في تصحيح مسار هؤلاء الضالين ، والأسوأ من ذلك ، أن هذه الضلالة ، التي برأ الشعب منها بالعودة الى الحق ، ازدادت حدتها بفعل التعنيف والتناقض ، (٢٢) .

وقام (بيده) بسرد التاريخ للسنوات العشر التالية على الحكم الروماني لبريطانيا . وتوالت روايته التاريخية في يسر وإيجاز ، بيد أن عدم دقة وصحة ما كتبه بصفة عامة ، يكشف عن حرصه الشديد في ذكره لما ورد في المصادر التي رجع اليها ولم تكن تلك المصادر دقيقة ، وكذلك ما كتبه نقلا عنها . ومن ثم كتب (بيده) عن السور الذي بنى على وجه السرعة ، في عهد أنطونيوس التقى Antonius Pius ، فيما بين سنتي ١٤٠ و ١٤٢ م ، ضد البكتيين ، والاسكتلنديين ، غير أنه نسب ذلك السور الى البريطون الذين كانوا في حالة قلق ، وشيذوه على وجه السرعة حوالي ٤١٥ م تحت ضغط فرقة رومانية ، كانت قد عجلت بالعودة ثانية الى بريطانيا ، بناء على مناشدات أهالي البلاد الأصليين . والسمة الوحيدة الجديرة بالملاحظة على تلك الفصول الأولى ، هي قسوة (بيده) عندما أثبت أن البريطون يفتقرون الى الشجاعة ، ومثانة الخلق . « بعد عودة الرومان الى بلادهم ، عرف الايرلنديون ، والبكتيون أن الرومان لن يعودوا ثانية ، لذلك استرد الايرلنديون والبكتيون أنفاسهم ، وصاروا أكثر شجاعة عن ذي قبل ، واحتلوا كل المناطق الشمالية ، والأجزاء البعيدة من الجزيرة حتى السور الذي كان يفصل ما بين سكان البلاد الأصليين . وهناك أمر البريطون قواتهم المنهارة ، بالانتشار في حالة استعداد قصوى ، للدفاع ، وظلوا يقضون الليل والنهار يقلوبهم المرتجفة والمترنحة . ومن ناحية أخرى ، لم يتوقف الأعداء المدججين بالسلاح عن قيامهم بشن هجمات محدثة الخراب والدمار واضطر المدافعون الجبناء الى الانبطاح أرضا ، والالتصاق بالأرض . وباختصار ، هجروا مدنتهم وهربوا عبر السور ، وتشتت شملهم . وواصل الأعداء مطاردتهم للبريطون ، وتبع ذلك حدوث مذبحة وحشية كبرى - وتقطع البريطون البؤساء اربا ، على يد أعدائهم ، كما تفعل الحيوانات المتوحشة بالحملان . واضطروا الى مغادرة ديارهم ، وأراضيهم الزراعية القليلة الانتاج ، وحاولوا انقاذ أنفسهم من المجاعة عن طريق سلب ونهب بعضهم البعض . وهكذا أضافوا نزاعهم الداخلي الى كوارثهم الخارجية ، الى أن صارت كل البلاد بلا طعام وخاوية

على عروشها ، اللهم الا ما يجدونه من صيد لسد رمقهم ، (٢٤) .

كان البريطانيون الشعب الوحيد الذي تعرض لما يدنو من التحامل العنصرى من قبل (بيده) . ومن المحتمل أن عدم التزامهم بالمبادئ الدينية سبب ذلك التحامل ، وليست الاختلافات الثقافية التى تولد التحيز فى العادة . وهاجمهم (بيده) فيما بعد لعدم بذلهم أى جهد فى هداية الغزاة الجرمان الى المسيحية ، برغم أنهم انتصروا عليهم ، وكذلك لعدم قبولهم التقويم الرومانى وعند هذا الحد أدانهم (بيده) فى تاريخه لانحلالهم ، وكان انحرافهم سببا فى أن حلت عليهم لعنة الله وغضبه .

ويعتمد المؤرخون على (بيده) عند الكتابة عن تاريخ بريطانيا فى القرن التالى لتاريخه . وعلى الرغم من أن بعض معلومات بيده التاريخية أخذها عن جيلداس Gildas فليس من السهل تحديد المصدر الأساسى لبعض من النتف العلمية التى أوردها مثل اسمى هينجست Hengist وهورسا Horsa رئيسى جماعة الانجلوسكسون . ويعتقد أن البريطانيون قد طلبوا منهما أن يساعداهما ضد انبيكت ، والاستلنديين . وأورد (بيده) ذكر اسم فورتيجيرن Vortigern ملك البريطون ، الذى طلب مساعدة السكسون . وحدد أيضا القبائل الجرمانية الرئيسية التى غزت شواطئ بريطانيا ، ابان تلك السنوات ، وهى السكسون Saxons ، والأنجلز Angles والجوت Jutes ونقل (بيده) معلوماته التاريخية عن حياة القديس جيرمانوس St. Germanus التى كتبت حوالى سنة ٤٧٥ م ، والتى لم يعد لها وجود . وفى الحقيقة قام (بيده) بعمل رائع فى تاريخه عندما غطى بريطانيا ، ابان تلك القرون ، واستعان بالكتابات الأخرى الأكثر قدما ، والتى لم تعد موجودة .

ان أى أمر من الأمور عن المسيحية كان يجذب انتباه (بيده) ، ويجعله يبدى اهتماما به . اذ أولى مسألة الهرطقة البيلاجوسية Pelagian Heresy عناية خاصة ، وكذلك تقاعس البريطانيون عن محاولة القضاء عليها . ولهذا السبب ذهب كل من الأسقف جيرمانوس ، والأسقف لوبوس Lupus من بلاد الغال الى انجلترا ، ليحددا ما يمكن أن يفعله تجاه مقاومة تلك الهرطقة . « ومخرت السفينة التى حملتهما عباب بحر المانش فى أمان ، بفضل الرياح المواتية ، ووصلت الى منتصف الطريق ، بين بريطانيا وبلاد الغال الى أن فاجأتهما جماعة من الشياطين الذين استبد بهم الغضب لمشاهدتهما رجلين ، من أصحاب المنزلة الرفيعة ، وقد أتيا لتحقيق الخلاص للشعب . واشتدت العواطف ، وأظلمت الدنيا بالسحب ، وتحول النهار الى ليل . وعجزت أشعة السفن عن تحمل غضب الرياح ، وباءت كل جهود البحارة بالفشل الذريع ، وسارت

السفينة بفضل الصلوات ، لا بفضل بعض جهود البحارة ، وأضنى الانهاك قائد السفينه ، القديس جيرمانوس ، فغط في سبات عميق ، ثم ازدادت حدة العاصفة ، وغمرت الأمواج السفينة ، فأوشكت على الغرق • ثم أيقظ القديس لوبوز ، ومن معه قائدهم ، وهم في فزع شديد عله يضع حدا لغضب العوامل والقوى الجوية • واستيقظ جيرمانوس ، الذي كان أكثر ثباتا عنهم جميعا ، في مواجهة الخطر المحدق ، ودعا المسيح باسم الثالوث الأقدس ، وأخذ يقليل من الماء ، وقذف به على الأمواج الشائرة والمتلاطمة ، وفي الوقت نفسه لام جيرمانوس رفاقه على استسلامهم للهلع والذعر ، وعمل على رفع روحهم المعنوية ، ثم سألوا الله السلامة في صسوت واحد • وتدخلت العناية الالهية ، ولاذ الأعداء بالفرار ، وحلت السكينة ، وهدأت الرياح والأمواج • تم هبت رياح مواتية ساعدت على وصولهم بسرعة وأمان ، الى بر السلامة في انجلترا • وهناك احتشد جمع غفير من كل المناطق ، لاستقبال الأسقفين بعد أن شاع خبر وصولهما في كل مكان • وأعلنت الأرواح الشريرة أن ما خشوا من وقوعه ، قد حدث بالفعل ، وعندما طردتهم أوامر الأساقفة من أجساد الذين سيطروا عليهم ، أقروا بأنهم هم الذين أحدثوا العاصفة الهوجاء ، والأخطار المحدقة ، واعترفوا بهزيمتهم أمام فضائل وسلطان أولئك الرجال ، (٢٥) •

واسنطاع هذان الأسقفان اللذان وصلا الى انجلترا في تلك الظروف الميمونة أن ينصيا على هيمنة البيلاجوسيه Pelagianism على الشعب ، على وجه السرعة وكتب (بيده) أن أعدادا يصعب حصرها اتجهت الى عبادة الله •

وقد يقبل انقارىء ، رواية (بيده) عن وصول جيرمانوس ، ولوبوز الى انجلترا ، برغم أنه قد يعزو حدوث العاصفة الهوجاء ، وانتهائها الى أسباب ليست ضمن الأسباب التي أوردتها (بيده) • ومع ذلك فقد يعطى لتفسير (بيده) أذنا صاغية ومتعاطفة اذ عاش (بيده) في عصر أخذت فيه الظواهر الطبيعية تفسيراً خارقاً للطبيعة ، عندما كان يصعب تفسير تلك الظاهرة على نحو يقبله العقل والمنطق • وتلك الحادثة ستجعل القارىء في عصرنا يشعر بقدر يسير من الخوف وخيبة الأمل ، اذا ما حدثت كما وصفها (بيده) •

ويبدو أن السكسون الغزاة غيروا اتجاهات جيوشهم ، وضموا جهودهم الى جهود البكتيين ضد البريطون • وكذلك اضطر الآخرون الذين حكم عليهم (بيده) بأنهم شعب تنقصه الشجاعة الى أن : « كانوا مجبرين على حمل السلاح • ونظرا لخوفهم من عدم مساواتهم في الكفاءة أمام أعدائهم ، لذلك ناشدو الأسقفين المقدسين المساعدة • وعلى الفور لبى الأسقفان مطلبهم ، وأعادوا الى هذا الشعب الجبان ثقته الى الحد الذي يجعل

المرء ، يعتقد أن جيشا ضخما قد انضم لمساندتهم . والواقع انه بفضل هذين القائدين الرسولين ، حارب المسيح بنفسه في جانبهم . وفي ذلك الحين حل موسم الصوم الكبير ، وزاده قدسية حضور الأسقفين ، الى حد أن الشعب الذي استمع يوما الى العظات ، اعتنق المسيحية أفواجا وحصل على نعمة المعمودية . وتم تجنيد أعداد كبيرة من الجيش . وتم بناء كنيسة من أغصان الأشجار ، استعدادا لعيد الفصح ، وقد أقيمت في ميدان القتال للجيش ، كما لو كانت قد بنيت داخل المدينة ولهذا توقع الجيش نصر الله ، بعد أن غطت مياه المعمودية أجساد جنوده ، ووصلت انبساط استعداداتهم الى الأعداء ، الذين كانوا على ثقة من النصر . وبرغم أن الأعداء كانوا يهاجمون جيشا غير مسلح ، فانهم سارعوا الى الأمام بتلief شديد ، غير أن جماعات الاستطلاع البريطانية قامت برصد تحركاتهم . هكذا انتهت احتفالات عيد الفصح المهيبة . وفي الوقت الذي كان فيه الجزء الأكبر من الجيش قد فرغ لتوه من المعمودية ، عرض جيرمانوس أن يقود جيشهم بنفسه . ولعب جيرمانوس دورا نشطا ، وبعد أن تعرف على المنطقة المحيطة ، شاهد واديا تحيطه التلال المتوسطة الارتفاع ، ويقع في الاتجاه الذي توقع تقدم الأعداء منه وأمر جيرمانوس جيشه غير المدرب ، بالتمركز في ذلك المكان ، وتولى قيادته بنفسه . واقتربت قوات العدو الشرس ، وشوهد بوضوح عند اقترابه من الجيش الذي انتظر في حالة تريبص . ثم أمر جيرمانوس ، الذي حمل مسؤولية العمل بنفسه جنوده بأن يصيحوا صيحة رجل واحد « سبحوا الرب » *alleluia* ، ثلاث مرات في اللحظة التي اقترب فيها العدو ، الذي اعتقد بأنه قد باغت جيش جيرمانوس بهجوم مفاجيء . وما ان قالوها حتى تردد صدهاها بين التلال ، مما زاد من قوة الصوت . فشعر العدو بالفرع والهلع ، واعتقد وكأن كل الصخور المحيطة بهم ، وطباق السموات ، قد سقطت فوقهم فخارت قواهم من شدة الهلع حتى انهم لم يتمكنوا من الجرى بسرعة . وولوا الأدبار ، وهم على غير هدى ، بعد أن ألقوا بأسلحتهم طلبا للنجاة . واندفع الكثيرون منهم الى الخلف دون تردد وهم في حالة من الذعر ، وغرقوا في النهر ، الذي كانوا قد عبروه منذ وقت قصير وهكذا وجد جيرمانوس جيشه منتصرا دون قتال . وجمع المنتصرون الغنائم التي تركها الأعداء ، وابتهج الجنده الأتقياء بنصر الله . وهكذا تغلب الأسقفان على العدو دون اراقة للدماء ، وأحرزا نصرا بقوة الايمان لا بقوة السلاح ، (٢٦) .

وكتب (بيده) أن البريطون شابهوا اليهود الذين أقاموا مؤقتا في سنياء ، وهم في طريقهم الى أرض الميعاد ، في الفترة التي عاشها البريطون ، بعد خروج الجيوش الرومانية من بلادهم مباشرة . فعندما

أتبع البريطانيون تعاليم الله ، عاشوا في رغبة من العيش وعندما ضلوا سواء السبيل أنزل الله عليهم غضبه ، عقابا لهم على سوء عملهم ، « ويضاف الى الجرائم التي اقترفها البريطانيون ، أمور ذكرها مؤرخهم جيلداس Gildas في كلمات محزنة منها أنهم لم يقوموا على الاطلاق بالتبشير بالايمان ، بين السكسون والأنجلز الذين عاشوا معهم في بريطانيا . وبرغم ذلك فان الله ، الذي وسعت رحمته كل شيء شمل برحمته شعبا يعلم عنه تحاشية الأعين ، وما تخفى الصدور ، وأرسل اليهم المبشرين بالحق ليدخل هذا الشعب حظيرة الايمان » (٢٧) .

ان المبشرين بالحق الذين أشار اليهم (بيده) في ذلك الحين ، هم القديس أوغسطين St. Augustin ، وجماعة الرهبان ، الذين أرسلهم جريجورى الكبير الى بريطانيا سنة ٥٩٧ م . ومن بين التعليمات التي بلغها جريجورى الى أوغسطين - والتي ذكرها (بيده) - تحذيره من القضاء التام على كل الطقوس ، والشعائر الدينية الوثنية ، ابان جهوده لتحويلهم الى المسيحية . فلم يقم أوغسطين بتحطيم معابد الأوثان ، « وانما حطم الأوثان التي بها » وقام أوغسطين ورفاقه ، « برش الماء المقدس ، فى تلك المعابد ، وبناء المذابح ، ووضعوا بها آثار القديسين والشهداء وعندما وجد أفراد هذا الشعب معابده كما هى ، بدأوا يتخلصون من عبادات الجهالة من قلوبهم ، آمنوا بعبادة الله الحق » (٢٩) .

وكان تعاون الملك اثيلبرت Ethelbert ملك كينت Kent ، التي رسا بها . . أوغسطين ، وجماعته التبشيرية ، له فعالية ، وتأثيرات ، فاقت تعليمات البابا جريجورى ، فى تنصير شعب كينت . اذ كان هذا الملك متعاطفا مع الدين الجديد ، بفضل نفوذ زوجته بيرثا Bertha ، ابنة ملك باريس الميروفنجى ، التي كانت تؤمن بالمسيحية . ويقول (بيده) ان اثيلبرت لم يمارس ضغوطا على شعبه لقبول المعمودية ، ومع ذلك ، « فانه أبدى مودة أكثر للذين آمنوا بالمسيحية ، باعتبارهم رفاقا له فى مملكة السماء . بيد أنه تعلم من معلميه ومرشديه ، أن العمل من أجل المسيح اختياري ويجب ألا يكون اجباريا » (٢٩) .

وبدأ (بيده) الكتاب الثانى من تاريخه بالكتابة عن البابا جريجورى الكبير ، وتبعها بمدح الرجل وتأبينه . وساعد الثناء المفرط ، الذى غمر (بيده) به جريجورى على جعله أكثر البابوات شهرة فى انجلترا فى العصور الوسطى وربما دفع مديح (بيده) لجريجورى ألفريد الكبير Alfred the Great ، الى القيام بترجمة العديد من مؤلفات جريجورى بعد وفاة (بيده) بقرن من الزمان . وفيما يلى وصف (بيده) لكتابات جريجورى . « ولقد طلبوا منه (جريجورى) بالحاح أن يقدم

شرحاً لكتاب أيوب Job ، وتفسيراته الدينية وهو الكتاب الذي اكتنفه غموض شديد . ولم يستطع جريجورى أن يرفض ما ألزمه به اخوانه المؤمنون ، ولا سيما أنه رأى احتمال أن يكون لعمله هذا فائدة كبرى للكثيرين . وهكذا قام جريجورى بعرض تفسير لكتاب أيوب فى خمسة وثلاثين كتيبا ، فى طريقة رائعة ، للمعنى الحرفى لكتاب أيوب ، وما تضمنه من اتجاهات يتحتم على كل مؤمن الالتزام بها . وألف جريجورى كتابا آخر مشهورا ، وهو المهمة الرعاوية Pastoral Care ، وعرض فى هذا الكتاب ، ما يجب أن يتم عند اختيار من يتولى أمر الكنيسة ، وعن كيفية معيشة هؤلاء الحكام ، وعن درجة الحصافة ، وحسن التمييز التى يجب أن يتحلوا بها ، عندما يعلمون أنواعا مختلفة من المستمعين ، وعن ضرورة العمل بكل جد واجتهاد ، لتجنب مواطن الزلل فى نفوسهم . وألف جريجورى عظة دينية عن الانجيل Homilies on the Gospel وأربعة كتب تحت عنوان محاورات Dialogues ، وفيها جمع كل الفضائل لأكثر القديسين شهرة . عرفهم أو سمع عنهم فى ايطاليا ، بناء على طلب شماسة بطرس ، باعتبارهم قدوة حسنة لكل الأجيال القادمة . وكتب جريجورى أيضا كتابا احتوى على اثنتين وعشرين موعظة عن كيفية التمتع بالنور الروحى من خلال أشد جوانب شخصية حزقيال النبى غموضا ، (٣٠) .

وأبدي (بيده) اهتماما كبيرا فى الجزء الثانى من تاريخه عن اعتناق ادوين Edwin ملك نورثمبريا Northumbria للمسيحية ، وهو الاقليم الذى نشأ فيه (بيده) . وبناء على ما ذكره (بيده) ، فقد نجح ادوين فى مد سلطته ونفوذه على كل أنحاء بريطانيا ، بالاضافة الى جزيرتى انجليزى Man Anglesy ومان . ثم حكى قصة اعتناق ادوين للمسيحية . وعى الرغم من أن ادوين كان وثنيا فى بداية الأمر ، فانه تزوج من اثيلبورج Ethilburgh ، ابنة ايثلبرت Ethelbert ، ملك كينت Kent ، ووعده بدراسة المسيحية بنفسه ، وبعد التدخل عند ممارسة زوجته للشعائر المسيحية . وذهب الأسقف بولينوس Paulinus ، الى نورثمبريا ، مع اثيلبورج الذى كان مكلفا برعاية الملكة ووصيفاتها ، بتقديم العظات الدينية اليومية ، واقامة القداس حتى لا تتأثر الملكة ومن معها بالمعتقدات الوثنية ، عن طريق التعامل مع الوثنيين .

وحدث أن بولينوس لم يحرز سوى تقدم طفيف فى تنصير الوثنيين ، بالرغم من حماسه ولم يكن له أى حظ مع الملك نفسه ، الى أن تم اجهاض محاولة لاغتياله . ووصف (بيده) الحادثة قائلا : « وفى السنة التالية

ذهب الى نورثمبريا ، أحد القتلة ، ويدعى أمير Eomer ، الذي أرسله كويشلم Cwichelm ملك السكسون الغربيين ، على أمل حرمان الملك من مملكته والقضاء عليه . وحمل هذا القاتل معه سيفاً قصيراً له حدان . وملطخاً بالسم ، ليضمن مقتل الملك بالسم في حالة عدم مقتله بجرح عميق . وذهب القاتل الى قصر الملك الواقع قرب نهر ديرونت Derwent ، في يوم عيد الفصح . ودخل القاتل قصر الملك تحت ذريعة تسليمه رسالة من سيدة . وفي الوقت الذي كان يعرض فيه رسالته . . . المزعومة ، وثب فجأة ، واستل السيف من تحت عبائه ، وهجم على الملك - وشاهد ذلك ليلا Lilla ، أحد أتباع الملك الاقطاعيين بيد أنه لم يكن معه درع في يديه ليحمي الملك من الموت ، لذلك ألقى بنفسه على وجه السرعة ، على الملك ، حتى يتلقى الضربة بجسده حماية للملك . فغمد العدو سلاحه بأقصى قوة أدت الى مقتل التابع الاقطاعي للملك ، وجرح الملك أيضاً بعد أن اخترق السف جسد ليلا . واستلمت السيوف من كل جانب ، وأشهرت على القاتل على الفور . بيد أنه كان قد تمكن من قتل أحد أتباع الملك يدعى فورتهير Forthere بسلاحه البشع ، (٣١) .

وفي اليوم الذي تعرضت فيه حياة الملك للخطر ، أنجبت له زوجته ابنة . وما ان أقنع الأسقف بولينوس الملك ادوين أن زوجته أنجبت له الطفلة بسلام بفضل دعواته حتى وعده الملك بالتخلي عن عبادة الأوثان ، واعتناق المسيحية . بيد أنه انتظر حتى يأتيه نصر الله بهزيمة السكسون الغربيين ، الذين أرسلوا اليه مجرماً لاغتياله . وبعد أن تحقق له النصر الذي تمناه ، ظل في حالة تردد . فكان عليه أن يأخذ رأى كبار مستشاريه ، ومن ثم دعاهم الى الاجتماع به ، وطلب من كل منهم أن يدلي بدلوه في رأيه عن الدين الجديد . فأجاب كويفى Coifi ، كبير الكهنة ، على الفور ، « سيدي الملك ، تدبر بعناية هذا الدين الذي يعرض علينا . ومن ناحيتي ، فاني أعترف بكل صدق وصراحة ، أن الدين الذي نؤمن به ، ونتمسك به ، عارياً تماماً من أي فعالية أو فائدة . ولا يوجد أحد من رعيتك قد أخلص لعبادة آلهتنا أكثر مني ، برغم وجود الكثيرين الذين نعموا بما أغدقته عليهم ، من خبرات وتشريف أكثر مني ، بالإضافة الى ما حققوه من انجاز لكل مضالهم ، وإذا كانت الآلهة التي تصد لها أي سلطان ، لقدمت لي العون والمساعدة على الفور ، حيث اني ثفانيت في عبادتها على الدوام ؛ وعلى ذلك اذا ما توصلت بالبحث والدراسة ، الى أن هذه التعاليم الجديدة التي تعرض علينا أفضل وأكثر فعالية ، فمن الواجب الايمان بها على الفور ، ودون تأخير ، (٣٢) .

وأيد المستشار الملكى الذى تحدث بعد كويفى موقفه ، وأضاف ملاحظاته القيمة : سيدى الملك ، تبدو حياة الانسان على الأرض على أنها غير معروفة بالنسبة لما نحن فيه الآن . انك يا مولاي تجلس تتناول ما لذ وطاب من الطعام مع كبار حاشيتك ، وأتباعك الاقطاعيين ، فى وقت الشتاء ، والنار مشتعلة فى المدفأة ، فى وسط قصرك وكل شىء دافىء ، فى الوقت الذى تتساقط فيه أمطار عواصف الشتاء والجليد ، ثم يدخل عصفور القصر فجأة وبسرعة ، انه يدخل من باب ، ويخرج بسرعة من باب آخر . لقد بقى العصفور فى الداخل عدة لحظات ، ولم تستطع الرياح وعواصف الشتاء الهوجاء أن تنال منه شيئا . وبعد حلول لحظة الهدوء ، يختفى عن بصرك ، وينطلق ثانية بعيدا عن العواصف . وعلى هذا تبدو حياة الانسان مجرد دقائق محسوبة . والواقع أننا لا نعلم عما هو آت . واذا ما قدمت إلينا هذه الديانة الجديدة معلومات أكيدة ، عندئذ يبدو من الصواب الايمان بها « (٣٣) » .

« ووافق العديد من المستشارين الآخرين معلنين موافقتهم مع كويفى دون خوف أو تردد ، فى الوقت الذى أخذ فيه كويفى الكلمة للمرة الثانية . وأعلن قائلا : لقد أدركت أن ديننا عديم القيمة ، لأنه كلما حاولت جاهدا البحث عن الحقيقة ، فى معتقداتنا ، كلما أزدت اقتناعا بعدم وجودها . والآن أعترف بكل صراحة أن الحقيقة تبدو واضحة للعيان ، فى هذه التعاليم التى يمكن أن تغمرنا بنعمة الحياة والخلص ، والسعادة الأبدية . ولذلك أنصح جلالتم باغلاق المعابد على الفور ، وبإشعال النيران بها ، وبمذابحها ، التى كنا نقدها ، دون أن نجنى أى ثمرة » (٣٤) .

ولا بد أن الكلمة الثانية التى ألقاها كويفى قد أقنعت ، لأنه أصدر قراره لصالح المسيحية على الفور . وعندما سأل الملك عن من لديه الاستعداد بالاعلان عن كفرانه بمعبد عبادة الأوثان ، تطوع كويفى وقال : « سأفعل ، اذ ان الله الحق منحنى ما لم يمنح غيرى » ما يجعل من المناسب أن أقوم بنفسى بتحطيم الأوثان ، التى عبدتها فى وقت ما دون معنى ، وأن أقوم بذلك كى أعطى المثل الصالح للجميع . وعلى الفور طرح جانبا معتقداته الضالة ، وطلب من الملك أن يمهده بالأسلحة وبجواد قوى ، وركب الجواد ، وذهب لتحطيم الأوثان . وفى ذلك الحين لم يكن مسموحا لكاهن كبير عندهم أن يحمل أسلحة ، أو أن يركب سوى حمارة . وهكذا تحرك كويفى صوب مكان الأصنام ، ممتطيا صهوة جواد الملك ، ومتقلدا سيفه ، وبمسكاً حربة فى يده . واعتقد عامة الشعب الذين شاهدوه أنه قد أصابه مس من الجنون . غير أنه ما أن اقترب من المعبد الدينى ، حتى أبدى

احتقاره له بإطلاقه الحربه صوبه دون تردد ، وهو فى غاية الابتهاج لمعرفته عبادة الله الحق ، وأمر رفاقه أن يحطموا المعبد ، وأن يشعلوا النيران فيه ، وفى كل محتوياته . وما زال المكان الذى كانت به الأوثان موجودا بالقرب من يورك ، تجاه الشرق ، بعد نهر ديرونت . ويدعى ذلك المكان اليوم باسم جودمانهام Goodmanham ، وهو المكان الذى أعلن كبير الكهنة احتقاره له ، وحطم المذابح التى أحاطها من قبل بهالة من القداسة . وكل ذلك بالهام من الله ، (٣٥) .

ثم كتب (بيده) عن تعييد الملك ادوين ، وعلية قومه ، وعدد كبير من رعيته . ودفع تحمس ادوين للدين الجديد ، أن اعتنق ملك الانجلز الشرقيين وشعبه الديانة المسيحية . وبارك الله فى ادوين وملكته ، ويقول (بيده) : « وكما يقول المثل تستطيع المرأة التى تنجب طفلا ، أن تمشى فى كل أنحاء الجزيرة من البحر الى البحر دون كلل أو ملل » .

وعند خاتمة الكتاب الثانى ، أطلع (بيده) القارىء على التطورات السياسية التى حدثت خلال السنوات التى شملتها تلك الفترة . وأشار (بيده) الى أن ادوين راح ضحية ثورة اشترك فيها بيندا Penda ملك ميرسيا Mercia الوثنى سنة ٦٣٣ م بعد أن حكم سبعة عشر عاما . بيد أن (بيده) كان سعيدا لتمكنه ، فى بداية كتابه الثالث من ذكر أن عودة نشاط الوثنية من جديد فى عهد بيندا ، وكيدوالا Caedwolla ، بعد مقتل الملك ادوين ، لم يقدر لها البقاء طويلا . واستطاع الملك أوسوالد Oswald ، الذى كان قليلا فى العدد ولكن قويا بايمانه بالمسيح أن يحطم قائد البريطون البغيض ، وجيشه الضخم الذى قال عنه انه لا يقهر ، (٣٦) .

ونظرا لأن الكتاب الثالث من التاريخ ورد به عجائب ومعجزات أكثر من أى مجلد آخر للمؤلف ، فمن المناسب هنا أن نعلق على هذه الميزة فى كتابة (بيده) ، وهى ميزة قد أثارت الشئ الكثير من النقد . لقد آمن (بيده) بالمعجزات ، كما فعل كل المعاصرين ، مثقفين كانوا ، أم غير ذلك . وكان الناس فى عهده ، اذا ما افتقر أمر الى تفسير طبيعى يحيلونه الى تفسير يتعلق بعالم الغيب . ويجب أن يضع قارىء كتاب التاريخ لمؤلفه (بيده) ، فى ذهنه ، أن (بيده) كان يكتب تاريخا كنسيا لا علمانيا . وشعر (بيده) بأنه ملزم الى حد ما بأن يقدم للقارىء مادة علمية اعتقادا أن ذلك القارىء سيجد بها ما يعمل على رفع مستواه الثقافى الدينى . ومع ذلك قام (بيده) بذكر المصادر التى استقى منها قصصه المتعلقة بالمعجزات ، باعتبارها مؤرخا . وترك (بيده) للقارىء حق قبول أو رفض مصداقية المعجزة .

وسيجد القارىء لكتاب التاريخ مؤلفه (بيده) أنه غالباً ما يحدث ذكر المعجزة فى المكان الذى مات به القديس أو دفن به . فالمكان الذى اغتيل به الملك أوسوالد Oswald المقدس ، يعتقد أن به قوى معجزة . « لدرجة أن اعتاد الناس على أخذ بعض من تربة المكان الذى سقط فيه على الأرض ، ووضعها فى الماء ، وباستعمال تلك المياه يتم لهم الشفاء من أسقامهم . وأصبحت تلك العادة شائعة ، وأخذت كميات كبيرة من تربة المكان على مر الأيام ، حتى تكونت هناك حفرة بلغ عمقها طول قامة . وليس من المدهش أن المرضى كان يتم شفاؤهم فى المكان الذى مات به الملك أوسوالد ، لأنه قبل موته لم يتقاعس عن رعاية المرضى الفقراء ، وتقديم الصدقات ، والمساعدات لهم . وهناك العديد من العجائب والمعجزات التى حدثت فى ذلك المكان ، أو فى المكان الذى نقلت إليه تربة ذلك المكان .

وتعرض المعجزتان اللتان وصفهما (بيده) تفسيراً (طبيعياً) للقارىء النزاع الى الشك فى المبادئ الدينية . « ويقال ان رجلاً مسافراً على جواد مر بالمكان الذى مات به الملك أوسوالد ، بعد موته بفترة قصيرة وعند ذلك المكان بدأ الجواد يشعر بالاعياء ، ثم توقف عن السير وأحنى رأسه الى الأرض ، وخرج الزبد من فمه ، ثم سقط على الأرض ، من شدة الألم . فترجل الفارس ، وخلع حلس (قماش تحت السرج أو فوقه) الجواد ، وانتظر ليرى اذا ما كان الجواد سستحسن صحته ، أو ليتركه الى أن يموت . وعانى الجواد من الألم لفترة طويلة ، وظل يتمرغ فى التراب من مكان الى آخر ، حتى انقلب رأساً على عقب ، وفى الوقت الذى أصبح فيه الجواد فى البقعة التى مات بها الملك ، زال الألم على الفور ، وانتهت معاناة الجواد الشديدة ، ثم بدأ يتدحرج هنا وهناك ، كما تفعل الحيول بعد أن تنال قسطاً من الراحة ثم وقف الجواد ، وقد شفى تماماً من علته ، وبدأ يلتهم العشب بشراهة . وعندما رأى الفارس المذكى ذلك ، أدرك أنه لا بد وأن تكون هناك علاقة مقدسة تربط ما بين المكان وشفاء الحصان ، فوضع علامة على المكان ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق الى الحانة التى قصدتها للإقامة بها . وعند وصوله الى الحانة ، وجد فتاة هناك ، وهى احدى قريبات صاحب الحانة ، وتعانى من الشلل . وعندما سمع أهل بيتها يرثون حظ الفتاة لعجزها البدنى المحزن ، أخبرهم عن المكان الذى شفى فيه جواده . ولماذا أطيل الحديث ؟ لقد أخذوها فى عربة ، الى ذلك المكان ، ووضعوها على الأرض . وفى مدى فترة قصيرة من الوقت استغرقت الفتاة فى النوم ، وعندما استيقظت ، وجدت أنها قد شفيت تماماً من عجزها البدنى ، (٣٨) .

وسيجد القارىء الذى يشعر بالانزعاج لكثرة عدد المعجزات التى ذكرها (بيده) أن ذلك المؤرخ كان ميالا الى ذكرها . وعلى سبيل المثال ما قصه عن أوسوين *Oswine* ، الذى شارك فى حكم نورثمبريا مع أوسويو *Oswiu* ، الذى اتصف بعنوانيته ، وتجرده من المبادئ الأخلاقية . وكان أوسوين ، « رجلا ورعا ، وحكم مملكة ديرا *Deira* لمدة سبع سنوات ، عاشتها فى رفاهية ، وأحبه الجميع ، وتمنى أوسيو أن يحكم نورثمبريا وعندما رفض أوسوين القتال وقام بتسريح جيشه ، أجبره أوسويو على مغادرة البلاد وتعرض للاغتيال . وتكشف القصة التالية عن مواهب (بيده) فى سرد القصص » . وكان الملك أوسوين طويلا ووسيفا ، ومهدبا ، ولطيفا ، وكريما مع عليه القوم ، وعامة الشعب على حد سواء ، ولذلك أحبه الجميع للوقار الملكى الذى بدا عليه وظهره ، وأعماله ، وسارع عليه القوم والخدام فى كل أجزاء المملكة لخدمته . ومن بين كل مناقب الطهارة ، والعفة والتواضع ، أنه كان ينعم بالسعادة الروحية ، بطريقة خاصة ، وكان التواضع عنده قدوة فريدة للدلالة عليه . وكان قد أهدى للأسقف أيدان *Aidan* (٣٩) جوادا قويا . وبالرغم من أن الأسقف اعتاد على السير على الأقدام ، فإنه استطاع ركوب هذا الحصان عندما كان مضطرا الى أن يعبر نهرا . وبعد ذلك بوقت قصير قابل الأسقف أحد الشحاذين ، وطلب منه صدقه . فترجل من على الحصان ، على الفور ، وأعطاه للشحاذ ، بكل ما عليه ، من أغطية السرج المزركشة الملكية ، لأنه كان رجلا رحيما الى أبعد حد ، وصديقا للفقراء ، وأبا حقيقيا للبوساء . وبلغ الملك ما فعله الأسقف ، وحدث أن قابل الملك الأسقف عندما ذهب لتناول الغذاء . فقال الملك للأسقف ، « سيدى الأسقف لماذا أعطيت الشحاذ الحصان الملكى ، الذى أعطى لك ؟ ألم يكن عندك خيول أقل قيمة ، أو أشياء أخرى يمكن أن تقدمها الى الفقير ، دون أن تسمح لشحاذ أن يحصل على حصان اخترته بنفسى لاستعمالك الشخصى ؟ فأجابه الأسقف على الفور ، « مولاي الملك ، ماذا تقول ؟ بكل تأكيد ان ابن الفرس ليس أعز عندك من ابن الله ؟ وبعد تبادل تلك الكلمات ذهبنا لتناول الطعام . وجلس الأسقف فى المكان المعد له ، أما الملك الذى كان قد عاد توا من رحلة الصيد ، فجلس بالقرب من المدفأة ، ومعه أتباعه الاقطاعيون . وفجأة تذكر الملك كلمات الأسقف ، فنزع سيفه ، وأعطاه لأحد أتباعه الاقطاعيين ، واتجه بسرعة الى المكان الذى جلس به الأسقف ، وسجد عند قدميه ، وطلب منه الغفران ، ثم قال للملك للأسقف ، « لن أتكلم عن أى شىء أعطيته لك ، وتقوم بمنحه لأبناء الله من الآن فصاعدا » وبدا على الأسقف التأثر الشديد لمشاهدته ذلك ،

ونفض على الفور ، وساعده الملك على الوقوف ، معلنا أنه سيكون راضيا تماما ، اذا ما طرح الملك جانبا احساسه بالأسى ، وجلس لتناول الطعام ، واسترد الملك روحه المعنوية ، نتيجة لتوسلات ودعوات الأسقف ، بيد أن الأسقف من ناحيته بدا عليه الحزن شيئا فشيئا حتى دمعت عيناه . وفي ذلك الحين سأل أحد القساوسة الأسقف بلغة لا يعرفها الملك أو الأتباع الاقطاعيون عن سبب بكائه ، فأجاب ايدان : « انى أعلم أن الملك لن يعيش طويلاً ، وانى لم أر على الاطلاق ملكا فى مثل تواضعه . ولذلك أعتقد أن الموت سيخطفه قريبا جدا ، وأن هذه الأمة ليست جديرة بحكام مثله . وبعد ذلك بوقت قصير تحققت توقعات الأسقف المؤسفة بموت الملك » (٤٠) .

ومات ايدان بعد اغتيال أوسوين باثنى عشر يوما ، وأعطت تلك الحادثة (بيده) الفرصة ليوضح ويبرز مناقب هذا الأسقف ، والمعجزات التى نسبت اليه . واختتم (بيده) مديحه للأسقف بالكلمات التالية : « لقد كتبت هذه الأمور عن شخصية وأعمال ايدان ، باعتبارى مؤرخ صادق . وقيمت بوصف الأمور على نحو دقيق كما قام بها ، والأحوال التى تمخضت عن تصرفاته ، لأن صفاته جديرة بالثناء والحفظ فى ذاكرة من يقرءون لى من أجل خيرهم » (٤١) .

ونظرا لتعليق (بيده) أهمية زائدة على التمسك بالتحديد الرومانى لموعد عيد الفصح ، فانه أعطى أهمية متساوية لبعض الأبحاث تساوت مع أهمية المجمع المحلى فى وايتباى Whitby سنة ٦٦٤ م عندما حسمت مسألة تحديد موعد عيد الفصح بشكل نهائى . وترجع الخلفية التاريخية للاختلاف فى تحديد الاحتفال بعيد الفصح الذى حدده رجال الاكليروس فى شمال انجلترا ، وبين الموعد الذى أقره رجال الاكليروس فى جنوب انجلترا ، الى عصر الغزوات الأنجلو سكسونية . وعندما عملت تلك الخلافات على تقطيع أواصر الروابط بين ايرلندا ، وباقى العالم المسيحى ، لم يتم تحديد موعد عيد الفصح على نحو عالمى . وكانت ايرلندا قد أقرت كل التقاليد التى كانت قائمة فى شرق البحر المتوسط ، لأن الحياة الديرية الايرلندية كانت قد تشكلت وفقا للمؤثرات الشرقية ، أكثر من تأثيرها بالمؤثرات الغربية . ولذلك فلمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما ، منذ حوالى سنة ٤٠٠ م فصاعدا ، تركت الكنيسة الكلتية وشأنها ، فيما يتعلق بقبولها تحديد موعد عيد الفصح . وبالإضافة الى هذا الاختلاف فى تحديد موعد اقامة هذا الطقس الدينى ، فهناك أمور دينية جرت مجرى العرف ، مارستها الكنيسة الايرلندية ، ولم تمارسها الكنيسة اللاتينية ، مثل تناول الخبز المخمر . ولذلك كان أمرا حتميا أنه ما ان انتشرت

المسيحية شمالا من كنتربري ، عندما أقام بها ورجال الاكليروس القادمون معه من روما حتى اصطلحت مع المسيحية التي مارس طقوسها انبشرون الكلتيون من أيونا Iona ، ولينديسفرن Lindisfarne .

على أن الذي عجل بالدعوة الى عقد المجمع المحلي في وايتباي ، لبحث مسألة عيد الفصح كان موضوعا غير خطير ، وهو حدوث عدم ارتياح في قصر الملك أوسويو Oswiu في نورثمبريا ، في ربيع كل عام ، نتيجة للخلط الناجم عن الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح والذي حدث أن الملك أخذ بالتقويم الكلتى ، فى الوقت الذى أخذت فيه زوجته بالتقويم الرومانى ، « فكان الملك قد انتهى من الصيام ، واحتفل بأحد عيد الفصح ، فى الوقت الذى كانت فيه الملكة وشعبها فى فترة الصوم الكبير ، ويحتفلون بأحد السعف » .

وعلى ذلك عقد مجلس في وايتباي فى ضيافة الملك . وكان كولمان Colman ، الأسقف الايرلندى ، القوى فى شخصيته وثقافته اللاهوتية ، من بين كبار رجال اللاهوت الذين حضروا ذلك المجمع ، ودافع عن التقويم الكلتى . وبناء على طلب الملك نهض كولمان ، وعرض موقفه من تلك القضية : « ان نظام الاحتفال بعيد الفصح الذى أتقيد به وفقا للمراسم المألوفة ، أخذته عن رؤسائى ، الذين أرسلونى الى هنا كأسقف ، وهو النظام الذى سار عليه آبائنا ، وهم الرجال الذين أحبهم الله . ولا يصح الآن القول بأن هذا النظام يبدو غير مقبول ، وغير جدير بالأخذ به ، ولا سيما أن القديس حنا الانجيلى حوارى المسيح المحبوب ، قد أخذ به ، وعمل على احيائه بالاحتفال به ، وسارت عليه كل الكنائس التى أشرف عليها » (٤٢) .

وعندما جلس كولمان ، نهض القس ويلفريد Wilfrid ، ليعرض القضية لصالح التقويم الرومانى . وكان ويلفريد ناطقا بلسان الأسقف اجيلبرت Agilbert ، من غرب السكسون الذى اعتذر عن الحضور لافتقاره الى التحدث باللغة الانجليزية بطلاقة . وأكد ويلفريد على أن كل العالم - ايطاليا ، وافريقيا ، وآسيا ، وروما - « حيث عاش ، وبشر ، وتعذب ، ودفن كل من القديسين الحوارين بطرس وبولس » ، قد قبلت كل تلك الجهات التقويم الرومانى . على أن البيكتيين والبريطون كانا الشعبين الوحيدين اللذين رفضا الامتثال لذلك ، « وهما اللذان يعيشان فى الجزائر البعيدة فى المحيط ، وفى بعض المناطق حاولوا أن يتصبدوا لكل العالم بحماقة » (٤٣) .

وأثار استخدام ويلفريد لكلمة « أحرق » مشاعر كولمان السريع الغضب ، الذى طلب أن يعرف على الفور كيف يتجاسر أى شخص على

أن يطلق على يوحنا الرسول لفظ أحق فأجاب ويلفريد ان يوحنا لم يكن بالتأكيد أحق ، وانما دفعه حرصه على تحويل اليهود الى المسيحية أن أخذ بتقويمهم . ولنفس السبب قام بولس الرسول بختان تيموثى Timothy ، واستمر (بيده) فى عرض المناظرة بين الرجلين ، مقدا ما يفهم أنه وصف حرفى لنصوص البراهين والحجج التى قدمها كل منهما . ووصل الخلاف الى نقطة الحسم ، عندما أشار ويلفريد مرة ثانية الى « القليل من الناس الذين عاشوا فى أحد أطراف أبعد الجزر » ويصرون على التمسك بما يتعارض مع الكنيسة العالمية ، التى عهد المسيح بها الى بطرس أسقف روما ، عندما قال : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح الملكوت » .

أحدثت اشارة ويلفريد الى مفاتيح الفردوس رد فعل فوري من قبل الملك أوسويو Oswiu . اذ سأل هذا الملك الأسقف كولمان اذا ما كان المسيح قد قال بالفعل تلك الكلمات لبطرس . وعندما أقر كولمان بأن ذلك ما حدث قال الملك ، « هل توافقان دون أدنى خلاف ، على أن تلك الكلمات قالها المسيح الى بطرس دون غيره ، وأن الرب أعطى مفاتيح مملكة السماء اليه ؟ » فقالا معا ، « نعم » . وبناء على ذلك اختتم الملك حديثه قائلا : « حينئذ ، أقول لكم ما دام بطرس يملك حق دخول مملكة السماء فلن أخالفه ، وانما سأطيع أوامره فى كل شىء قدر علمى وطاقتى ، والا عندما أذهب الى أبواب مملكة السماء ، فلن يفتح لى أحد لأن من أعلنتم عنه أنه يملك المفاتيح يكون قد أدار ظهره لى » . وعندما أنهى الملك حديثه عبر كل الحاضرين من مختلف الطبقات عن موافقتهم سواء من كان جالسا ، أو واقفا عن قرب ، وكفوا عن أمورهم غير الصحيحة وقبلوا ما اعتقدوا أنه صحيح عن طيب خاطر « (٤٤) » .

ومع ذلك ، فوفقا لرواية (بيده) ، أصبح واضحا أن المجمع المحلى فى وايتباى Whitby لم ينته بموافقة اجماعية . وكل كولمان متصلبا فى موقفه « واصطحب معه من وافق على موقفه ، وأعنى بهم ، الذين لم يوافقوا على موعد عيد الفصح الكاثوليكي ، وعملية حلق قذال المترهب بشكل التاج ، لأنه كانت هناك خلافات بشأن هذا الموضوع أيضا ، وعادوا الى ايرلندا ليتباحث مع جماعته بشأن ما يجب اتباعه فى هذا الصدد » (٤٥) .

وقبل الانتهاء من ذكر هذا الحدث العرضى يستحق (بيده) كلمة اطراء للطريقة الموضوعية التى سلكها فى روايته لما حدث فى ذلك المؤتمر . وعلى الرغم من أن تعاطفه مع الجانب الرومانى كان قويا ، فانه لا يمكن اتهامه بالتعاطف مع كولمان وجماعته ابان الجدل ، أو أنه قد حاد عن

الحق قيد أنملة • ومرة ثانية هنا ، وصى أماكن في تاريخه انتهز (بيده)
الفرصة وذكر مناقب رجال الكهنوت الكلتيين ، وكذلك ورع شعبيهم •

وتضمنت المادة العلمية التي ذكرها (بيده) في كتابه الرابع من
تاريخه تطورات كانت أكثر شعوب عصره على علم بها • وكان التعيين
البابوي لثيودور الطرسوسي Theodore of Tarsus ، رئيسا لأساقفة
كانتربري ، ومعه الراهب المثقف هادريان Hadrian وعند وصولهما إلى
انجلترا مهدا السبيل لإعادة تنظيم الكنيسة في انجلترا ، وإقامة بناء
أسقفى مبنى على التشريع الأسقفى وسلطته • وكان لقدوم هذين الرجلين
أثر كبير في أحداث تيار جديد للنشاط الفكرى الذى نقله كل من أولدهيلم
Aldhelm ، وبندكت بسكوب Benedict Biscop إلى (بيده) •
وحظى كل من ثيودور وهادريان ، على أعلى درجات المديح والاطراء من
(بيده) • وكان ثيودور « من أبناء طرسوس فى قليقية Cilicia ،
وعلى دراية تامة بالأدب العلمانى والكنسى ، سواء باللغة اليونانية
أو اللاتينية » • أما هادريان ، « فكان من أصل أفريقى ، ومتمكنا من
الكتاب المقدس ، وعلى دراية تامة بالحياة الديرية ، والكنيسة ، ومتقنا
للغتين اليونانية واللاتينية على حد سواء » وظل هادريان ملازما لثيودور ،
فى كل مكان ، ويقدم له المساعدة ، عند قيام الأخير بالقاء المواعظ المتعلقة
بالحياة المقدسة ، والتمسك بالتقاليد القانونية المتعلقة بالاحتفال بعيد
الفصح • وكان ثيودور أول رئيس للأساقفة قبلت الكنيسة الانجليزية
طاعته • ونظرا لأن كليهما كانا على قدر كبير من الثقافة الأدبية الدينية
والعلمانية ، لذلك فانهما جذبا اليهما مجموعة كبيرة من الدارسين ،
واستطاعا سكب اتجاهات المعرفة المفيدة فى عقولهم يوميا • وقدا إلى
مستمعيها المعرفة المتعلقة بالكتب المقدسة ، وبفن بحور الشعر ، وعلم
الفلك ، والحساب الكنسى • والشاهد على ذلك ، وجود بعض من تلاميذهم ،
الذين مازالوا على قيد الحياة ، وعلى معرفة تامة باللغتين اللاتينية
واليونانية كمعرفتهم للغتهم الأصلية تماما بتمام • • ومنذ عهدهما
بدأت الموسيقى المقدسة تدرس فى كل الكنائس الانجليزية ، وهى التى
لم تكن معروفة قبلهما سوى فى « كينت Kent » ، (٤٦) •

ويقدم الفصل الخامس من الكتاب الرابع مثلا رائعا للطريقة التى
كتب بها (بيده) تاريخ الكنيسة • فبدأ بإعلان عن موت أوسويو ،
ملك نورثميريا • وفى السنوات الأخيرة من حياة هذا الملك ، زادت درجة
الورع عنده ، إلى الحد الذى تمنى فيه أن يموت ، « بين الأماكن المقدسة » ،
فى روما ، بيد أن الموت حال دون ذلك ثم دعا ثيودور الأساقفة إلى أول

مجمع محلي من نوعه في تاريخ الكنيسة الانجليزية ، « بالإضافة الى كثير من العارفين بشئون الكنيسة الذين عرفوا وأحبوا القوانين الكنسية للآباء الأول » . وذلك سنة ٦٧٢ م في عهد اكجريت Ecgrith بن أوسويو . وقدم (بيده) تقريراً عن أعمال المجمع المحلي وذكر نصوص الموضوعات التي تمت مناقشتها ، ووافق عليها المجتمعون . وأنهى (بيده) الفصل الخامس من هذا الكتاب الأخير بالإشارة الى وفاة ايجبيرت Egbert ملك كينت ، واعتلاء شقيقه هولثير Holthhere للعرش .

ويستطيع قارئ تاريخ (بيده) أن يلمح الانتشار التدريجي للمعرفة في بريطانيا وان كان متواضعاً ، بيد أنه كانت له فاعلية الى حد ملحوظ . وأشار (بيده) الى أن بندكت بسكوب Benedict Biscop ، مؤسس دير ويرماوث Wearmouth استطاع اقامة علاقات طيبة لمدة عام مع حنا كبير المرتلين في كنيسة القديس بطرس في روما . « لكي يستطيع تعليم رهبان الدير طريقةلقاء الأناشيد والترانيم طوال العام ، على النحو المتبع في كنيسة القديس بطرس في روما . ونفذ الأب حنا تعليمات البابا (كان البابا أجاثو Agatho قد أذن لحنا بالقيام بهذه المهمة) . وعلم قادة جوقات الترتيل في الكنيسة نظام وطريقة الانشاد والقراءة بصوت مرتفع وتدوين كل الأمور الضرورية للاحتفال بأيام الأعياد على مدار السنة . وقام آخرون بنسخها في أماكن أخرى . ولم يقتصر عمل حنا على تعليم الاخوان في هذا الدير ، وإنما امتد ليشمل كل من لديه القدرة على الانشاد من بين الذين توافدوا عليه من كل الأديرة الأخرى ، في أنحاء المملكة للاستماع اليه ، كما تلقى كثيراً من الدعوات للتعليم في أماكن أخرى ، (٤٧) .

ويظهر في الكتاب الرابع موضوع له أهمية فريدة للدارسين للأدب الانجليزي الباكر عندما قدم (بيده) كيدمون Caedmon ، الشاعر الانجليزي الأول المشهور . وفيما يلي قصة (بيده) ، « في دير هذه الأم (الأم هيلد من وايتباي Abbess Hild of whiteby كان هناك أخ معين حباه الله بنعمة مميزة ، اذ اعتاد على تأليف الأغاني الربانية والدينية ، من خلال معرفته ما تعلمه من تفسيرات الكتاب المقدس ، واستطاع بسرعة تحويل تلك التفسيرات الى قصائد شعر ، باعثة على البهجة ، ومشيئة للمشاعر بلغته الانجليزية . وبفضل أغانيه تفتحت كثير من العقول ، واحتقرت العالم المادي ، وصارت تواقبة الى الحياة في نعيم الملكوت . والواقع أن مواطنين انجليز آخرون حاولوا تأليف اشعار دينية ، بيد أنهم

لم يستطيعوا الوصول الى مستواه . لأنه لم يتعلم فن الشعر من أحد ،
وانما حظى بالنعمة الالهية عند قرضه الشعر . ومن ثم لم يؤلف شعرا
ركيكا أو رديئا ، وانما كان شعرا اختص بتكريس الحيات من أجل
رضى الله ، (٤٨) .

وعندما روى (بيده) قصته ، كان كيدمون قد قضى بالفعل عدة
سنوات الى أن أصبح راهبا وتعلم قرض الشعر ، الى أن حدث له أمر
عجيب ، فكان من عاداته مغادرة غرفته في المناسبات الاجتماعية عندما
يحين الوقت لكل فرد من الرهبان أن يأخذ دوره في الانشاد . وفي ذلك
الحين كان يشعر بالخجل لعدم مقدرته على نظم الشعر . « وفي إحدى
المناسبات ترك كيدمون مكان الاحتفال الديني ، وذهب الى حظيرة المواشى ،
حيث كان مكلفا بأمر العناية بها تلك الليلة . وفي الوقت المناسب
استرخى على الأرض ، واستغرق في النوم . وعلى الفور رأى في المنام
رجلا يقف بجواره ، وحياء ذلك الرجل وناداه باسمه قائلا : « يا كيدمون
أنشد أى شيء » . فأجاب كيدمون ، ما أنا بمنشد ، ولقد أتيت الى هاهنا
لعدم مقدرتى على الانشاد في الاحتفال الديني للمرة الثانية قال
المتحدث ، « وبرغم ذلك لا بد أن تنشد لى » . فقال كيدمون ، وماذا يجب
على أن أنشده . « فقال المتحدث ، أنشد عن بداية الأشياء التى خلقها
الله . « فعلى الفور بدأ كيدمون ينشد شعرا لم يسمعه من قبل فى تسبيح
الله خالق كل شيء ، ويدور حول المعنى التالى ، « يجب أن نسبح الله خالق
الملكوت ، ونسبح بقوة الخالق وأسراره ، وأعمال الأب المجد ، وأنه الله
الأبدى ، صانع كل المعجزات ، وخالق الملكوت ليستظل به أبناؤه ، والعل
القدير ، والحارس لكل البشر ، خالق الأرض ، (٤٩) .

وعند هذا الحد أقحم (بيده) إحدى الملاحظات الباكرا التى تتعلق
بصعوبة ترجمة الاسلوب المنظوم من لغة الى أخرى . فكتب يقول ، « وهذا
هو المعنى وليست الكلمات نفسها التى أنشدها كيدمون فى منامه .
لأنه ليس من السهل ترجمة الشعر ، ولا سيما اذا كان منظوما على نحو
جيد ، من لغة الى أخرى دون أن يفقد شيئا من حلاوته وطلاوته ، .

وفى صباح هذا الحلم المدهش أبلغ كيدمون ما حدث له الى رئيسه
المباشر الذى قام بدوره بإبلاغ رئيسة الدير The abbess . ثم نذر
كيدمون نفسه للحياة الرهبانية ، وانضم الى الجماعة الديرية فى وايتباى
Whitby . وإبان الحصول على معلومات عن التاريخ المقدس خلال
الشهور التالية ، « تعلم كيدمون كل ما استطاعه عن طريق الاصفاء الى
الرهبان ، وحفظ ما سمعه ، ثم التفكير بتمعن فيما حفظه ، ثم حوله الى

شعر ملحن ، ويبدو أن شعره كان جميلا جدا الى الحد الذي تحول فيه مدرسوه الى مستمعين اليه . وأنشد عن خلق الكون ، وأصل الجنس البشرى والتاريخ الكامل لسفر التكوين ، ورحيل اسراييل من مصر ، ودخوله أرض الميعاد ، وكثير من القصص الأخرى المأخوذة من الكتاب المقدس ، وعن تجسد المسيح ، وآلامه بين ليلة العشاء الأخير وموته ، وعن قيام المسيح من بين الموتى ، وعن صعوده الى السماء ، وعن حلول الروح القدس على التلاميذ وتعليمه لهم . وألف أغاني عن أهوال يوم الحساب ، وآلام جهنم التي تشيب لها الولدان ، ونعيم الملكوت . وبالإضافة الى ذلك ألف كثيرا من الأغاني عن الرحمة الإلهية ، والحساب العادل ، وفي كل أغانيه حاول أن يبعد مستمعيه عن الانغماس في الرذيلة ، وأن يحب اليهم الايمان والعمل الطيب وممارسته ، (٥٠) .

وتختلف طريقة كتابة (بيده) الى حد ما عندما انتقل الى الكتاب الخامس . والأخير من تاريخه . فقد احتوى الكتاب على العدد المعتاد من المعجزات ، على الرغم من عدم وجود معارك ، ذلك لأن الفترة الزمنية التي غطاها الكتاب الخامس كانت أقصر من الكتب السابقة . ولم يرد في هذا الكتاب سوى القليل من التعينات الأسقفية ويظهر في ذلك الكتاب نمط جديد من المعلومات ذكره (بيده) عن نشاط البعثات التبشيرية في القارة الأوربية . وكان الانطباع العام يشير الى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للكنيسة والمسيحية ، عندما زار كل من كيدوالا Caedwalla ، ملك غرب السكسون وخليفته أين Ine ، مدينة روما ، في الوقت الذي لم يكتف فيه كل من كندرد Cenred ملك المرسيين The Mercians وأوفو Offo ، ملك شرق السكسون بزيارة روما فحسب وانما بقي كل منهما هناك ، وانضما الى المجتمعات الديرية .

ويشير الخطاب الذي أرسله (بيده) الى اجبرت Egbert ، رئيس الأساقفة بعد عامين من الانتهاء من كتابة كتابه « التاريخ » الى وجود ايجابية بدرجة أقل عما مضى في الكنيسة . ففي هذا الخطاب يرثي (بيده) لحال العديد من الأساقفة ، انذين أصبحوا دون مستوى الصلاحية ، ولوجود أديرة مزدحمة بالرهبان الزائفين ، الذين كان دافعهم الوحيد للانخراط في السلك الرهباني ، هو هروبهم من مسئوليات الحياة العامة ، وكذلك التدهور العام في النظام من قبل رجال الدين المحترفين وغير المحترفين وهناك تفسير ممكن قبوله بشأن هذا التناقض ، وهو أن (بيده) أراد في خطابه الى رئيس الأساقفة ، أن يتحدث بصراحة تامة ، بما يشعر به من واجب تحتم عليه الظروف أن يؤديه ومن ناحية أخرى ،

فان كثيرا من الناس سيظالعون تاريخه او يستمعون اليه ، وعند كتابة تاريخه يتحتم عليه أن يكون حذرا . ويستطيع أن يحقق هدفه بطريقة أفضل ، وحث الناس على محبة الله ، بالاشارة الى القدوة الحسنة للملوك الأتقياء . كما وجد أن تسجيله في تاريخه المساويء التي وجد أنها بدأت تدب في الحياة الدينية لن ينجم عنه سوى الخزي .

وتضمن كتاب (بيده) الخامس من تاريخه مقتطفات أخذها عن وصف آدامنان Adamnan رئيس دير أيونا Iona (ت ٧٠٤ م) عن الأماكن التي زارها الأخير ، ابان زيارته لفلسطين . ومع ذلك فان هذا التضمن يوضح الطبيعة الدينية لتاريخ (بيده) بصفة أساسية . ويوضح (بيده) قائلا : « أعتقد أن من المفيد للقراء قيامهم باقتباس مقتطفات و اضافتها الى هذا التاريخ ، وجاء في الفقرة المتضمنة لوصف مدينة هبرون Hebron ، ومقابر البطارقة ما يلي : « كانت مدينة هبرون عاصمة مملكة داود ، أما الآن فليس بها سوى أنقاضها الدالة عليها . وعلى بعد حوالي مائتين وعشرين ياردة تجاه الشرق من تلك المدينة ، يوجد في كهف مزدوج مقابر البطارقة ، ورؤوسهم تواجه الشمال ويوجد سور يحيط بذلك الكهف من جميع الجهات . ويغطي حجر واحد كل قبر من تلك القبور ، منحوت على شكل كنيسة ، ولون أحجار البطارقة أبيض ، على حين أن حجر قبر آدم كان يميل الى السمرة ، وأقل جودة في صناعته ، ويرقد آدم على مقربة من البطارقة في أقصى شمال السور . ويوجد هناك أيضا بعض شواهد قبور أصغر . وأكثر تواضعا لزوجات البطارقة الثلاثة . ويقع تل مامر Mamre على بعد ميل شمال تلك القبور ومغطى بالأعشاب والأزهار ، مع وجود هضبة منبسطة في أعلى التل . وتوجد شجرة ابرهام ، Ibrahams Oak ولم يبق منها سوى جزءها ، البالغ طوله قامتين ، وتحيط الكنيسة بتلك الشجرة ، (٥١) .

ويمدنا (بيده) بمعلومة لها قيمة كبرى للدارسين للتاريخ ، لأصالتها التاريخية وهي تتحدث عن الرهبان الانجليز ، الذين ذهبوا الى ألمانيا للتبشير بالانجيل . وكان وايتبرث Whitebert ، من أوائل الذين ذهبوا . فقد ذهب الى فريزيا Frisia ، بيد أنه اضطر للعودة الى ايرلندا ، بعد أن أمضى عامين في التبشير دون أن يحقق أي نجاح ، وظل في المنفى في ايرلندا . وفي سنة ٦٩٠ م حقق ويلبرورد Willibrord نجاحا ، بعد أن عبر بحر المانش ومعه أحد عشر مبشرا : وحظى ويلبرورد بتشجيع فعال من قبل ببوين من هيريستال Pepuin of Heristal ، عمدة القصر في أوستراسيا Austrasia ، وأخيرا أصبح ويلبرورد رئيسا لكل

أساقفة فريزيا • وذكر (بيده) مبشرا انجليزيا آخر يدعى هيوالد الأبيض Hewald the white ، الذي حمل هذا الاسم لبياض شعره ، وزميله الآخر هيوالد الأسود Hewald the Black • ونال كل منهما نعمة الاستشهاد في فريزيا • وبفضل معجزة الهية ظلت جثتاها طافيتين لمسافة خمسين ميلا ضد تيار النهر الى أن تم العثور عليهما ، وأمر بين بدفنها في الكنيسة في كولون Cologne •

ويقدم لنا (بيده) في الكتاب الخامس الجانب المؤلف عن الدهيلم Aldhelm وتلقى الدهيلم تعليمه الأول على يد راهب ايرلندي ، ثم ذهب الى كانتربري ، حيث علمه هادريان كل صنوف المعرفة ، في الأدب اليوناني والروماني • وفيما بعد ، وفي سنة ٦٧٥ م ، على وجه التحديد ، كان الدهيلم رئيسا لدير مالسيبري Malmesbury وذهب اليه الدارسون من كل أنحاء انجلترا للاستفادة بعلمه وفيما يلي وصف (بيده) لذلك العالم « عندما كان الدهيلم قسا ورئيسا للدير المعروف باسم مالسيبري أمره مجمع محلي من أهالي تلك المدينة بكتابة كتابه المشهور ضد التحديد الخاطيء لعيد الفصح ، الذي وقع فيه الانجليز في ذلك الحين ، وضد الأساليب الأخرى العديدة التي تتعارض مع ممارسة الشعائر السليمة ، وتتعارض مع سلام الكنيسة ، وبفضل ذلك الكتاب استطاع الدهيلم أن يعيد كثيرا من البريطون ، الذين كانوا خاضعين للسكسون الغربيين ، الى الصواب ، واختاروا الموعد الكاثوليكي المحدد للاحتفال بعيد الفصح • كتب أيضا كتابا ممتازا عن العزوبة ، وكان سداسي التفاعيل نظما ونثرا مقديما بذلك عملا على مثال ما قدمه سيديوليوس Sedulius • وكتب العديد من الكتب الأخرى ، لأنه كان رجلا واسع المعرفة والاطلاع • وتمتع الدهيلم بأسلوب رفيع • وكان مشهورا ، كما ذكرنا ، بمعرفته الواسعة في الدراسات الكنيسية والعامية ، (٥٢) •

وفي الفصل الثالث والعشرين ، قدم (بيده) للقارئ فكرة سريعة عن الكنيسة وبريطانيا • وأورد ذكر أسماء كل الأساقفة الذين شغلوا الكراسي الأسقفية ، بيد أنه لم يذكر اسم أي ملك باستثناء الملك ايثلبولد Aethelbold • ملك ميرشيا Mercia الذي قال عنه إن كل الملوك ، جنوب همبر Humber ، دانوا بالطاعة له • ولفت (بيده) الانتباه الى ظهور مذنبين سنة ٧٢٩ م • « وقد أحدثا موجة من الذعر الشديد عند كل المشاهدين • وظهر المذنب الأول عند شروق الشمس ، في حين ظهر الثاني عند غروبها ، على نحو ينذر بحدوث كارثة محددة بالشرق والغرب على حد سواء • وكان المذنب الأول نذيرا للنهار ، والثاني

نذيرا لليل ، وبذلك توقع الجنس :أبشرى حدوث كوارث ليلا ونهارا •
وكان لهما ذيول تشبه المشعل المتقد ، والتي اتجهت شمالا على نحو يوشك
بحدوث حريق • وظهرت ذيول تلك المذنبات فى شهر يناير ، واستمر
لمدة أسبوعين تقريبا ، (٥٣) •

ويشير (بيده) الى الطريقة التى اجتاح بها العرب بلاد الغال ،
« بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى نالوا الجزاء الرادع فى المملكة
نفسها » • وعاشت بريطانيا نفسها فى سلام ، ورضى البكتيون
Picts ، والانجليز بالبقاء داخل حدودهم ، وقنع الايرلنديون ،
« بالحياة داخل حدودهم ، ولم يمارسوا أى مؤامرات أو غدر ضد الانجليز »
واستمر البريطانيون كمصدر للقلق والمتاعب اذ عزلوا أنفسهم عن الانجليز
بكل عناد ، « باصرارهم على كراهيتهم الفطرية لهم ، وعلاقاتهم السيئة مع
الكنيسة الكاثوليكية بتحديدهم لميعاد عيد الفصح على نحو غير دقيق ،
وتقاليدهم البعيدة عن الدين • بيد أن ارادة الله تصدت لهم ، وكذلك
الشعب • ومن ثم لم يتحقق لهم ما أرادوه فى أى مجال » •

وعلى الرغم من أن نية (بيده) بدت على أنه يرى أن يترك القارىء
لتاريخه راضيا عن الأحوال عندما أوشك أن ينهى كتابه ، فانه ذكر
ملحوظة تنم عن عدم الارتياح ، عن عهد كيولف ، الملك الذى خصص له
المجلد • اذ تعددت الاضطرابات فى عهده • فكتب (بيده) ، « لدرجة أنه
كان من المستحيل معرفة كيفية الحديث عنها ، أو التخمين عما ستمنخض
عنه من نتائج » • وباختصار ذكر (بيده) أن أعداء كيولف ألقوا القبض
عليه ، ثم قاموا بجز شعر رأسه تعبيرا عن احتقارهم له • وذكر (بيده)
فقرة لافتة للنظر لشدة غرابتها ، وهى أن العديد من أهالى نورثمبريا
« طرحوا أسلحتهم جانبا » • ودخلوا الأديرة ، « مفضلين الانخراط -
ومعهم أطفالهم - فى السلك الديرى ، عن أن يتدربوا على فن القتال » •
ويبدو أن هذا التطور لا يتمشى كلية مع ميل (بيده) عندما علق بوضوح
وايجاز ، « ان نتيجة ذلك ، سوف يكتشفها جيل فيما بعد » • وفى الخطاب
الذى أرسله (بيده) بعد ذلك بوقت قصير الى اجبرت رئيس الأساقفة ،
كان واضحا استفساره عن الدوافع التى جعلت هؤلاء الشبان ينخرطون
فى السلك الديرى • وفى رأيه أنهم فعلوا ذلك ، ليس بدافع رغبتهم فى
الحياة الديرية ، التى لم يكونوا أهلا لها ، وانما كان الدافع ، هو التملص
من الالتزامات التى تحملها المواطنين العاديون ، ومنها الالتزام بحمل
السلاح •

ويتكون الفصل الأخير من كتاب (بيده) من اعادة مختصرة للنقاط الأساسية والأحداث التي ذكرها في الصفحات السابقة ، « للتذكرة » وفي التلخيص ، بدأ (بيده) بغزو يوليوس لبريطانيا ، « في الستينات قبل تجسد الهنا » وانتهى عند سنة ٧٣١ م ، بالإشارة الى رسالة تاتوني Tatwine رئاسة أساقفة كانتربري . ثم يلي ذلك ذكره لقصة حياته بايجاز . وقائمة بكتابه ، ودعاء للمسيح أن يمنحه الخلاص الأبدى . وأخيرا قال : « وهنا ، وبعون الله ، ينتهي الكتاب الخامس من تاريخ الكنيسة الانجليزية » (٥٦) .



الطبرى

ولد الطبرى (محمد بن جرير الطبرى) ، « المؤرخ المسلم الذى يحظى بأعظم قدر من الاحترام والتقدير والقدوة الذى لا يبارى » (١) ، سنة ٨٣٩ م (*) فى آمل باقليم طبرستان ، الذى كنى به . ولا بد أنه كان انسانا مبكر النضج على نحو غير عادى ، اذ ما أن بلغ السابعة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب . واستهل الطبرى دراساته الأساسية فى آمل ، ثم ذهب الى كثير من البلاد : مثل الرى ، وبغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ومراكز الدراسة المتعددة فى سوريا ، ثم ذهب الى الفسطاط فى مصر ، وأخيرا عاد الى بغداد سنة ٨٧٢ م . وباستثناء قيامه بزيارتين خاطفتين الى طبرستان ، قضى الطبرى معظم سنوات عمره المفعمة بالنشاط فى بغداد ومات هناك عن عمر يناهز الرابعة والثمانين .

كان والد الطبرى أحد ملاك الأراضى الزراعية ، وهو ما يفسر قدرة الابن على مواصلة دراسته فى مثل تلك الأماكن المتباعدة . ومكن الدخل الذى حصل عليه الطبرى من الأراضى الزراعية فيما بعد من أن يرفض المناصب المريحة فى الحكومة ، والتي كان من الممكن الحصول عليها . ولولا أنه كان انسانا له موارده المالية الخاصة ، لما تمكن من تخصيص معظم حياته للجهود العلمية المضيئة . والواقع أنه كان من الممكن أن يجد الطبرى نفسه يحمل لقب مؤرخ القصر ، ولكنه لم يكن حينئذ سينال هذه المكانة السامية التى يشغلها حاليا عند الكتابة عن التاريخ الإسلامى . وعندما عاد الطبرى الى بغداد ومارس دور المعلم ، أحرز قدرا

(*) ولد الطبرى آخر أربع وعشرين ومائتين من الهجرة النبوية الشريفة - المترجم .

مدهشا من المعرفة الواسعة والشهرة العالمية كحجة في تفسير القرآن الكريم ومعرفة الحديث النبوي الشريف (٢) . واعتقد الذين كتبوا سيرة الطبري أنه كان يمتلك مؤهلات العالم الواسع المعرفة ، ربما في كل الفروع التي يتطلع أي دارس مسلم للتزود بها في ذلك الحين . واشتملت تلك المعرفة على علم المنطق ، والرياضيات ، والدراسات الدينية ، والقانون ، وتأليف المعاجم ، وعلم النحو والصرف ، وعلم الأخلاق ، وعلم التفسير .

وفي عالم لم تكن قد ظهرت فيه الطباعة بعد كانت قدرة العالم على العطاء تظهر من خلال القائه للدروس بصفة أساسية ، وتلك كانت حالة الطبري . وما عرفناه عنه أنه كان مدرسا محبوبا وله شعبية عريضة . فقد صرح أحد المعاصرين له ، من المتخصصين في الدراسات الدينية قائلا : « اذا ما قدر للمرء أن يقطع رحلة طويلة الى الصين لمجرد الاستماع الى الطبري وهو يفسر القرآن الكريم ، فانها ستكون رحلة تهون أمامها كل المتاعب » (٣) . ووفقا لشهادة أحد تلاميذه . كان الطبري يبدأ يومه ظهرا عندما ينشغل بالكتابة حتى صلاة العصر . وبعد ذلك يلقي الدروس في تفسير القرآن الكريم في المسجد حتى صلاة المغرب . ثم يحاضر في الشريعة الاسلامية قبل أن يعود الى منزله .

وابان وجود الطبري في الفسطاط ، صار له عدد من التلاميذ المؤيدين لتفسيره للفقهاء ، بالرغم من أن رأيه يمكن اعتباره مؤيدا للمذهب الشافعي . وفيما بعد عندما كان في بغداد فهناك قصة تتحدث عن أنه جلب على نفسه حنق الحنابلة لتعليقاته المتسمة بالاستخفاف والتي أساء بها الى أحمد بن حنبل . ويقال أنه تم دفنه في جنح الظلام خشية جماهير العامة التي كانت تعاديه لتعاطفه مع طائفة الشيعة . وربما كانت هذه القصة غير واقعية ولا يمكن أن يقبلها الذين التاعوا لفقدان هذا العالم الشهير لما كان يتمتع به من احترام ، وهناك رواية أخرى تصف الحشود الضخمة التي شهدت جنازته .

ومازال هناك بعض الشك في الأنباء التي تتعلق بحياة الطبري . ومع ذلك فيسود اتفاق عام يتعلق بالكم الهائل من الكتابة الذي استطاع هذا العالم أن ينتجه طوال حياته . ويحفظ لنا التراث العربي أن الطبري ظل يكتب أربعين ورقة يوميا لمدة أربعين سنة متصلة . ويقول العالم الجغرافي ياقوت ، الذي مات سنة ١٢٢٩ م أن الطبري اعتزم تقديم تفسير للقرآن الكريم يبلغ عشرة أضعاف التفسير الذي قدمه ونعني بذلك أنه كان مقدرا له أن يكون ثلاثين ألف صفحة وليس ثلاثة آلاف صفحة . وبناء على الاعتراضات الملحة التي أبدتها تلاميذه فحسب اضطر الطبري

الى وضع التفسير الذي احتوى على العدد الأقل في الصفحات ويقال أيضا أن الطبرى كان قد أعد الرقم الأكبر نفسه لكتاب تاريخ الرسل والملوك - ثلاثين ألف صفحة - وأنه اضطر الى تخفيضه الى ثلاثة آلاف صفحة نتيجة لاحتجاجات هؤلاء الشباب أنفسهم . ويمكن التماس العذر للقارىء فى عصرنا عندما يبدى بعض التحفظات فيما يتعلق بمدى مصداقية مثل هذه المعلومة . وربما تكون تلك الرواية مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة بالرغم من الحقيقة القائلة بأن الطبرى قام بإعادة كتابة ما كتبه « المؤرخون » السابقون ، قبل كل شيء ، ولم يكن محللا للتاريخ وإنما قدم مجلداته الضخمة من الكتابة فى مظهر مختلف (٤) .

ويقال أن الطبرى كان فخورا بمؤلفاته الخاصة بالتشريعات الإسلامية بصفة خاصة ، والتي كانت فى مستوى ضخامة مؤلفاته التاريخية . بالإضافة الى ذلك أعد مرجعا لما اعتقد أنه أحاديث نبوية شريفة صادقة ، وأعد أيضا بحثا فى التشريع الإسلامى يحمل عنوان الباسط . وباستثناء بعض الشذرات فإن مؤلفات الطبرى التى قدر لها البقاء هى تاريخ الرسل والملوك وتفسيره للقرآن الكريم . وحظى المؤلفان بكل القبول فى عهده ، واعتبرها الباحثون من المصادر الموثوق بها ، على مر القرون لدراسة تفسير القرآن الكريم ومعرفة التاريخ الإسلامى الباكر . بل وفى عصرنا هذا يجد الباحثون أنه لا يمكن الاستغناء عنهما عند دراسة تلك الموضوعات . وقبل أن نقوم بتقسيم كتابته التاريخية ، فمن المهم أن ندرس ، بإيجاز على الأقل ، بداية كتابة التاريخ الإسلامى . على أن افتقار تلك البدايات التاريخية الى المؤثرات غير العربية يزيد من جعل مثل تلك الدراسة أمرا ضروريا . ويبدو أن العرب لم يكونوا يستخدمون كلمة تاريخ قبل ظهور الإسلام وكانوا يفتقرون الى الاحساس التاريخى . فقد كان مستواهم الثقافى منخفضا الى الحد الذى لايسمح بمواصلة جهودهم الأدبية ، ولاسيما أنهم ظلوا دون تأثر ، بل ودون معرفة بالكتابات التاريخية الأقدم ، مثل كتابات الاغريق . تلك كانت حياة الشعوب البدوية ولم يشذ العرب عنهم . وهناك حقيقة اضافية ربما تفسر عدم وجود كتابة تاريخية للفترة السابقة على ظهور الإسلام ، وهى الحكمة القائلة بأن « الإسلام يجب ما سبقه » ، ومعنى هذا أن البعثة النبوية الشريفة تعتبر أى شيء قبلها من الأمور التى لا طائل تحتها وغير ذى جدوى (٥) . وإبان عصر النبوة عمل الاحترام الشديد للقرآن الكريم ، على صرف النظر عن الكتابة التاريخية خشية أن يعمل هذا على إثارة الارتباب فيما اعتقده الجميع بأنه كلام الله . وهناك بعض التفسيرات لتأخر العرب فى اللجوء الى الكتابة وهى القائلة بأن للعرب قدرة خارقة

على التذكر . وساعد اختراع الورق في القرن السابع الميلادي على حدوث التطور الكبير في عصر الكتابة بما فيها الكتابة التاريخية .

كانت هناك محاولات للكتابة التاريخية قبل ظهور الاسلام تستحق الذكر عند الحديث عن المراحل الأولى للكتابة التاريخية الاسلامية ، ورغم أن مدى تأثيرها على الكتابة التاريخية فيما بعد مازالت موضع جدل والعرب ، مثل كل الشعوب السامية الأخرى ، يفاخرون بسلالات النسب والأصل وعلى الرغم من أن شجيرات النسب تلك من النادر أنها حفظت أكثر من قائمة ضئيلة جدا عن الأجيال المتعاقبة ، بالإضافة الى ملاحظة جانبية وعرضية عن الأعمال الجديرة بالذكر التي قد تضيء جلالا وروعة على أحد الأجيال ، فإنها تشير الى وجود حاسة تاريخية ، واهتمام بدائي بالماضي وربما كانت المنافسة الأدبية قبل الاسلام أكثر أهمية من تأثير شجيرات سلالة النسب على كتابة التاريخ الاسلامي فتحكى هذه المنافسات الأدبية عن المعارك التي دارت بين القبائل العربية والأعمال البطولية التي حققها المتحاربون . وهناك قصص مشابهة لهذا النوع في كتاب العهد القديم (تلك التي تصف المصادمات بين الاسرائيليين والفلستينيين) وتشير الى أن مثل هذا النوع الأدبي كان شائعا عند الشعوب السامية بصفة عامة . ومع ذلك فإن « أيام العرب Battle-Days » هي نوع من الكتابة يدخل ضمن الأدب أكثر من التاريخ ، ومن غير المحتمل أن يقدر لتلك القصص البقاء على الاطلاق اذا لم تعرض كلها في صيغة منظومة . وعلى أية حال ، فإن هدفها كان تحقيق المتعة والتسلية ، وليس التزود بالعلم والمعرفة ، وهي تفتقر الى الترابط الذي يتطلبه السرد التاريخي .

وتجد الأصول العامة لكتابة التاريخ الاسلامي أساسا وطيدا في الاشارات التاريخية التي وردت في القرآن الكريم وفي الانطباع العام الذي تركه الكتب الدينية عن القدرة الالهية في الحياة الدنيا منذ أن خلق الله آدم الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة . وكان التاريخ بالنسبة للمسلمين الأول عاملا مساعدا على كشف مايتغيبه الله لبنى البشر ، مع ذكر ما فعله الله في الماضي بهم ، وأن وجود الأمة الاسلامية يحقق الخير في المستقبل . ويشير القرآن الكريم ايضا الى الأمم التي حل عليها غضب الله لما ارتكبت من ذنوب . وأثارت تلك الاشارات فضول الأتقياء من المسلمين وحبهم للاستطلاع ، وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثارت تساؤلات لا بد من الرد عليها عن طريق الدراسة التاريخية .

وكانت ضرورة جمع الآلاف من الأحاديث النبوية الشريفة ، والتحقق من مدى صحة بعضها علميا لها الأهمية القصوى في التشجيع على قيام الكتابة التاريخية . وتحظى تلك الأحاديث النبوية الشريفة بنفس المكانة التي يتمتع بها القرآن الكريم عند الغالبية العظمى من المسلمين . وبناء على ذلك اكتشف المتفقهون في الاسلام ، بين عشية وضحاها ، ضرورة ايجاد سلسلة من الأسانيد . وامتدت هذه الأسانيد لتشمل الرواة الذين نقلوا عن بعضهم البعض السنة النبوية الشريفة ، المتمثلة في الأحاديث التي نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأفعال التي قام بها الى أن انتهت بذكر أسماء المعاصرين للرسول الذين سمعوا منه الحديث أو شاهدوه يؤدي الفعل . وأخيرا فهناك حافظ آخر ساعد على وجود الكتابة التاريخية الا وهو الرغبة في تدوين الانتصارات التي أحرزها رسول الله صلى الله عليه وسلم والقادة المسلمون في سبيل اعلاء كلمة الله .

وفي بداية الأمر شكلت كتابة التاريخ الاسلامي تكملة ضرورية لدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وكانت مهمة المؤرخ في البداية مهمة دينية . وفي الحقيقة كان هذا المؤرخ يعتبر نفسه أحد المتفقهين في الدين . ولذلك فليس من قبيل الصدفة أن المؤلفين الكبارين للطبرى ، وهما تفسير القرآن الكريم وكتابه عن تاريخ العالم والملوك يكملان بعضهما البعض في فكر المؤلف . ووجد الباحثون الذين رجعوا الى سلسلة الأسانيد لاقامة الدليل على صحة الأحداث النبوية الشريفة أن استخدام الطريقة عينها أمر منطقي عند التحقق من الماضي بتاريخه وأحداثه . ومن ثم فان اعتماد المؤرخين على تلك الأحاديث النبوية الشريفة الى حد كبير ، يوضح سبب تجنبهم ، لعدة قرون القيام بدور المفسرين لأحداث الماضي . وعلى الأصح ، فقد اكتفوا بتدوين روايات تلك الأحداث ، كما فعل الطبرى ، والتي اعتبروها وثيقة الصلة بموضوعاتهم .

ويقدم الطبرى فيما يلي نموذجا رائعا للطريقة التي اعتادها الكتاب المسلمون ، بما فيهم المؤرخون ، ومنهم الطبرى نفسه ، عند تقديم سلسلة الرواة ، سواء أكان موضوع الكتابة عقائديا . أم تاريخيا . ويتحدث الموضوع عن فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (في الفترة ما بين ٦٤٠ - ٦٤١ م . وفيما يلي ما كتبه الطبرى : « يقول ابن اسحاق ، كما ذكر ابن حميد ، أن سلامة أبلغه أنه بعد أن فتح عمر بن الخطاب بلاد الشام كتب الى عمرو بن العاص بالتحرك بجيشه الى مصر . واستطاع عمرو الوصول اليها وفتح حصن بابلين سنة عشرين من الهجرة . .

ويقول ابن حميد أن سلامة قال هذا نقذ فن ابن اسحق ، الذي قال ان القاسم بن قزمان أبلغه - نقلا عن زياد بن يزيد ، الذي قال أنه كان ضمن جيش عمرو عندما فتح مصر والاسكندرية - وكان فتح الاسكندرية في عهد خلافة عثمان في السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من الهجرة ، .

وكتب الطبرى أن سيف قال في الرسالة التي أرسلها السرى الى (الطبرى) أن شعيب أبلغه نقلا عن اسحق والربيع وأبى عثمان وأبى الحارث قالوا : ان عمر بن الخطاب ظل في بيت المقدس بعد أن أعطى أهلها الأمان وأرسل عمرو الى مصر . وأرسل معه الزبير لمعاونته .

وأبلغه السرى نقلا عن شعيب ، نقلا عن سيف الذي قال أن أبا عصام أبلغنا نقلا عن ابن معدن وعبيده أن عمرو ذهب الى مصر بعد أن عاد عمر بن الخطاب الى المدينة ، وتقدم عمرو حتى وصل الى حصن بابليون (٦) .

أدى الاعتماد على سلسلة الأسانيد الى لجوء المؤرخين المسلمين الأول الى الطريقة الحولية في كتاباتهم . وكان لاستخدام طريقة الحوليات التي تضمنت ذكر الأحداث وفقا لترتيبها الزمني في سنة معينة أو عهد معين ، أن فرضت تلك الطريقة نفسها على المؤرخين المسلمين ، على المدى الطويل ، نظرا لسهولة استخدامها . وكان تقديم أقوال الرواة المتعددين في تسلسل مسألة سهلة أيضا ، ومن ثم كانت الخطوة الطبيعية لوجود تعيين للتواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمني Chronology هي العامل المهم في النظام الذي سار عليه تسجيل المعلومة التاريخية وظل قليل من هذا النوع من الحوليات التي كتبت قبل عصر الطبرى باقيا حتى عهده ، هذا في الوقت الذي يعتبر الطبرى المعلم الأول لكتاب الحوليات المسلمين . وعلى الرغم من أن الطبرى أثبت أنه كان ضليعا في هذا المجال ، فان الباحثين مالوا الى الاعتقاد بوجود جهود سابقة لجهده اتخذها نبراسا له في كتابة حولياته .

ان الحديث عن سهولة الكتابة الحولية والمنسوبة الى قلة خبرة المشتغلين بالعمل التاريخي هي اشارة عن ميزتها فحسب . وهناك ما يمكن اعتباره ميزة أخرى في أى حولية وهي أنها تحمل طابعا عاما من عدم التحيز في أسلوبها . وفي العادة ، اعتقد كاتب الحولية أن مهمته تنتهي بتدوين الخبر . وليس ملزما بأن يفسر هذا الخبر أو يحكم على مدى صحته ، ولا مجبرا على أن يغير مضمونه ولم تقم الأخبار التي قام كتاب

الحوليات بتدوينها نقلا عن الكتاب الأول على الموضوعية الكاملة . ففي رواياتهم عن الصراعات بين المسلمين والامبراطورية البيزنطية ، على سبيل المثال ، اعتادوا على القول بأن المسلمين كانوا على حق .

ومع ذلك فان مواطن الضعف الخطيرة كانت كافية لتشويه الكتابة الحولية . وتمثلت مواطن الضعف في اعطاء أهمية بالغة تؤكد دقة التسلسل الزمني للحدث التاريخي عندما تكون صحة الحدث موضع شك وبالإضافة الى ذلك فهناك مشكلة المعلومة المتداخلة التي تكون على قدر كاف من الأصالة بيد أنها معلومة حدثت منذ عهد قديم ودون تاريخ محدد لحدوثها . وفي مثل تلك الحالات يكون الاغراء قويا على كاتب الحولية فيضع المعلومة وفقا لما يمليه عليه هواه أو وجود مكان لوضعها . ولا يمكن الكتابة الحولية القارىء من استخلاص معرفة التطورات الثقافية والاجتماعية عن أى عصر فى يسر . ومهما تكن الظروف يمكن أن تحتوى الكتابة الحولية على تمييز أدبى أو جمالى بصرف النظر عن قدرة كاتب الحولية على تقديم الدليل على صحة ما كتبه . فقد كان التاريخ يقدم للقارىء فى زيه العملى ، وخاليا من كل مظاهر التزين ، ويغلب عليه الطابع الاخبارى تماما . على أنه من يمن طالع القارىء لتاريخ الطبرى - وهو ما نقله هذا المؤرخ عن الذين سبقوه أنه سيجد حوادث عرضية فى سياق السرد التاريخى لهذا المؤرخ ، لها أهمية فائقة .

ويبدأ الطبرى تاريخه (تاريخ الرسل والملوك) - وهو أول كتاب عن تاريخ العالم باللغة العربية - بالتحدث عن بدء الخليقة ، ثم انتقل الى الحديث عن آباء الجنس البشرى ثم الملوك والأنبياء . ثم انتقل بسرعة الى مملكة الفرس الساسانيين ، ثم عصر النبوة ، الى عصر الخلفاء الراشدين ، وأخيرا اختتم تاريخه بالأمويين وأوائل العباسيين حتى سنة ٩١٥ م . وعلى الرغم من افتراض أن تاريخه شامل للعالم ، فانه اقتصر على آسيا الاسلامية فى معظمه . فلم يكن لديه وقت للكتابة عن شمال أفريقيا أو أوروبا . وقول الطبرى ان امتداد النفوذ العباسى غربا لم يصل الى أبعد من مصر تقريبا ، يمكن أن يفسر قلة اهتمامه بتلك الأقاليم . ومع ذلك فان انشغاله ببغداد والمناطق المجاورة لها قد يعكس ببساطة التأثير القوى الذى تتمتع به العاصمة الاسلامية الواقعة على نهر دجلة ، على الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية .

وسار الطبرى وفقا للطريقة الحولية فى تقديم المعلومات التاريخية عندما كتب عن العصر الاسلامى ، حيث أمده التاريخ الهجرى بالقاعدة

الأساسية التي اعتمد عليها . إذ كانت عاداته استخدام الجملة التالية :
« ثم جاءت سنة . . » ، عند بداية كل حول في حوليته . واعتاد على أن
يختتم كل حول بذكر بعض المعلومات عن أمير الحج إلى مكة كما مال إلى
ذكر الأحداث المهمة في بداية كل حول . ولم يرد في حولية الطبرى شيء
عن أخبار الوفايات المصحوبة بترجمة موجزة للفقيد Obituary ، برغم أن
هذه العادة تجلت بوضوح تام في الحوليات الغربية ، كما لم يقدّم بذكر
أسماء كبار رجال الدولة ما لم يرد ذكرهم في أحداث لها بعض الأهمية .
على أن عادة الطبرى في ذكر ترجمة مفصلة عن حياة كل خليفة في نهاية
عهد كل منهم ، يعتبر تحولا ضخما من مجرد الكتابة الحولية المحضة .

إن مواطن الضعف التي كبلت الطريقة الحولية في الكتابة التاريخية
كانت أيضا عبئا ثقيلا على كتابة الطبرى . إذ اكتفى بمجرد تدوين المادة
التاريخية التي استطاع جمعها سواء بتقديمه سلسلة من الأسانيد
أو شهود العيان ، وتقديم التفاصيل إما في شكل حوليات أو ككل كما هي -
وأعنى بذلك تقديم أي معلومة لأي مؤرخ تتعلق بخليفة ما ، على سبيل
المثال ، تاييها المعلومة التي كتبها مؤرخ آخر تتعلق بنفس الخليفة .
ولسوء الحظ ، أغفل الطبرى ذكر أسماء أسانيد المؤلف أو شاهد
العيان لبعض مقتطفات معينة . ولم يبذل جهدا في إعادة صياغة خبر واحد
من تلك التي كانت بين يديه . وإن كان قد مارس قدرا يسيرا من تصنيف
للحقائق التاريخية حتى ولو كانت متناقضة ، فبالنسبة إليه لم يكن التاريخ
نوعا من الدراسة العقلانية أو يحتاج إلى تفسير وتحليل . واقتصرت
مستوليته على مجرد نقل المعلومة التي جمعها بكل دقة ، ومهما كانت (V) .
وعبر عن هذا الموقف في مقدمة كتابه التاريخي بما يفيد أن معرفة أخبار
الأهم السابقة والمعلومات التي حدثت ، لم تصل إلى من لم يكن معاصرا
لها ، أو شاهد عيان ، إلا عن طريق ما كتبه المؤرخون السابقون
وما تناقله الرواة . ولا يحق لهؤلاء المؤرخين والرواة أن يستخدموا
الاستدلال المنطقي أو التوضيح الفكري . والآن إذا ما حدث ووجد في
كتابته الذي احتوى على ما نقله عن الماضي ، ما يثير اعتراض أحد
القراء أو تناقض مع وجهة نظر أحد المستمعين لعدم الاقتناع بعدم
صحة أو دقة أي خبر ، فهو ليس مسئولا عن ذلك ، وإنما اللوم على
من رواه له ، لأنه اكتفى بنقل الخبر على النحو الذي وصل إليه تماما بتمام (A) .

ونظرا لأن الطبرى قدم الأخبار المتماثلة عن مصادر مختلفة للحادثة
الواحدة دون أي محاولة للتوفيق بينها ، لذلك يعاب على تاريخه ما تضمنه

من تكرار الى حد الملل ، وتفاوت في الاسلوب ، ووجود قدر من عدم الترابط ، وافتقار الى الاتزان الى حد ما . فعلى سبيل المثال ، اذا كانت مصادره بها القليل أو لاشيء عن بلاد المغرب ، فمعنى هذا أنه قدم القدر اليسير أو لم يقدم شيئا الى قارئه . ومن ثم فانه لم يخصص سوى ستة سنطور فحسب عن فتح الأندلس . ومن الطبيعي أن يختفى قدر من التكرار عندما وصل الى مرحلة الكتابة عن عصره ومعالجة الأحداث القريبة العهد منه ، وان ظهرت عدم قدرته على التمييز الدقيق لأهمية تلك الأحداث بوضوح فتجاهل أبناء مهمة مثل هجوم الاسبطلون البيزنطي سنة ٨٣٩ م (٦) . ولم يبد اهتماما كبيرا بالأحوال الثقافية أو الاجتماعية عندما كان يكتب عن فترات تاريخية قريبة العهد منه أكثر مما فعله عند الكتابة عن قرون سابقة حيث اعتمد كلية على مصادره .

وبرغم ما سبق ذكره من عيوب فان الطبرى هو المؤرخ الأول الذى استطاع أن يقدم للعالم وجهة نظر جديدة بالثقة وواضحة تماما عن التاريخ الاسلامى . كما تمثل أبلغ ثناء على السمعة الوطيدة لكتابه التاريخى فى أن المؤرخين الذين كتبوا من بعده لم يجدوا ما يضايقهم فى السير على نهج طريقته عينها . ذلك لأنهم اعتمدوا كلية تقريبا على الطبرى عند تقديم كتاباتهم الموجزة ، أو بدأوا كتاباتهم التاريخية من حيث انتهى الطبرى من كتاباته . ويرى ابن خلدون شيخ كل المؤرخين العرب أن الطبرى كان مؤرخا وحافظا لتراث الشعوب ولا يمكن أن يعلو فكر على فكره .

ويجد القارىء المنقبتين اللتين يعطيها الأولوية ونعنى بهما الدقة فى الكتابة والموضوعية فى الانجاز الرائع الذى قدمه الطبرى ، والذى استحق عليه أسمى آيات الثناء والاطراء بعد أن تصدى لمهمة حفظ تراث العصور الماضية . ومارس الطبرى مهمته بدقة الفنان أو المفن الحرفى التى يزاوول بها عمله . واذا ما تساءل المرء عن سبب احجامة عن تفضيل احدى الروايات التاريخية عن غيرها ، وهى الميزة التى ادعاها لنفسه لتفسيره للقرآن الكريم ، فان تعليل ذلك هو أن الكتابة التاريخية لم تكن قد بلغت بعد مستوى من النضج يسمح أو يتطلب التحليل والشرح والتفسير . اذ كانت مسئولية المؤرخ على عهده قاصرة على مجرد جمع المعلومات التاريخية وتدوينها . ولا يمكن أن تتم عملية التخلص من مظاهر التناقض واعداد سرد تاريخى منسجم ودقيق ، ويحظى بالقبول والاستحسان الا بعد أن تتم عملية جمع لكل المعلومات التاريخية الوثيقة الصلة بهذا الموضوع المراد كتابته .

وليس يخاف على فطانة كل لبيب ما تجشمه الطبرى من صعاب جمة من أجل الظهور بمظهر « المسلم الملتزم » عند تحدّثه عن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ونظرا لأن التزامه هنا كان له أهمية قصوى، فإنه لم يستطع أن يكون عمله مجرد تدوين الروايات التاريخية التي وصلت إليه عن الأحاديث النبوية الشريفة . أما بالنسبة إلى التاريخ فقد كان الموقف مختلفا تماما ، حيث أن الدقة التاريخية ليست أساسية بالقدر الذي تتطلبه المحافظة على حرفية النصوص الدينية . وبناء على ذلك أبدى الطبرى اهتماما طفيفا بمدى صحة الكتابة التاريخية بالإضافة إلى قيامه بنقل الروايات التاريخية المتعددة بأمانة ، كما وصلت إليه . وبرغم ما تقدم ذكره فقد حدثت نتيجة عكسية لم يكن يتوقعها المرء ، إذ أخضع الباحثون فيما بعد ، تفسيرات الطبرى للقرآن الكريم ، إلى الفحص والتدقيق الشديد ، وهي التي كان الطبرى قد أولاها قصارى اهتماماته ، وقام هؤلاء الباحثون أنفسهم بقبول كتابته التاريخية دون أدنى شك أو جدال تقريبا ، وهي التي لم يعطها الطبرى سوى القليل من الاهتمام . ومن ناحية أخرى يحتل تاريخ الطبرى مقاما فريدا إذ ليس هناك منافس له .

وفيما يلي روايات عديدة من كتاب الطبرى عن تاريخ العالم . ولما كان الطبرى مسلما ملتزما ، فإنه اعتقد بأن التاريخ يبدأ ببدء الخليقة ، وعلى ذلك افتتح سرده التاريخي بوصف ما حدث منذ انبداية . وكما سبق أن أشرنا ، فغالبا ما أغفل الطبرى ذكر المصدر أو المصادر التي استقى منها مادته التاريخية ، وتكررت الحالة هنا ، ويستطيع المرء أن يستخلص من طبيعة سرده التاريخي ، أنه لم يقبل ، أو لم يكن يعلم بقصة بدء الخليقة وفقا لما جاء في سفر التكوين Genesis ، وأنه استعان بما ورد في القرآن الكريم .

يلي تلك المعلومة عن بدء الخليقة شيء عن عهد هارون الرشيد ، وهو من أشهر الخلفاء المسلمين فبدأ كتابته باعتلاء هارون لكرسي الخلافة ، ثم علو نجم أسرة البرامكة والنكبة التي حلت بهم . وعلى الرغم من أن الباحثين ليست لديهم الوسيلة لتمكن التحقق من صحة وصدق روايات الطبرى ، فإنهم وافقوا على احتمال حدوثها بصفة عامة ويرفض ابن خلدون رفضا قاطعا الصورة التي قدمها الطبرى عن العباسية ، شقيقة هارون الرشيد ، والخاصة بأنها أنجبت ولدا من جعفر الوضيع المولد . ومع ذلك فإن الأمر المهم بشأن حجة ابن خلدون هو أنه لم يحتكم إلى أي دليل تاريخي آخر لدحض قصة الطبرى - لا يوجد أي مصدر آخر يمكن أن يستند ابن خلدون إليه - وإنما اعتمد على مجرد

استنتاجه المنطقي أن امرأة في مثل مركز العباسية ذات الحسب والنسب لا يمكن لها أن تنحدر الى مثل هذا السلوك المشين . ومن الواضح أن الطبري لم يكن لديه أية تحفظات ، على الرغم من أن المرء قد ينتابه الشك في أن الطبري أورد ذكر قصة العباسية وجعفر بهدف تسليية القارىء بنفس قدر ابلاغه بما حدث .

وتحدث الطبري عن عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الدولة الساسانية الذي كان معاصرا لجوستينيان الامبراطور البيزنطي ، وما شنه الأول من حروب ضد الثاني . وبرغم ما بدا في رواية الطبري من تحيز الى جانب المسلمين ، فقد تطابقت روايته التاريخية مع ما ورد في المصادر البيزنطية . ولا يصح لنا أن نتوقع الموضوعية الكاملة من مؤرخ اعتمد على المصادر الاسلامية فحسب . واذا كان في استطاعة مؤرخ الحديث الحصول على معلومات وافية عن الحروب التي دارت رحاها بين كسرى وجوستينيان من المصادر البيزنطية فان ما يمكن أن نجد له أهمية كبرى في تاريخ الطبري هو ما ذكره عن قضاء كسرى على الطائفة الدينية التي أوجدها زرادشت ، وعن وصفه للنظام الضريبي الذي وضعه كسرى ، علاوة على الموضوعات القيمة التي تتعلق بشهر يار الذي حاول اغتصاب العرش ، والملكة بوران ، والملكة أزرمدشت ، « والتي كانت من أجمل نساء الفرس » .

وكتب الطبري عن العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والعالم الاسلامي فيما بين ٧٧٩ - ٨٣٠ م . وجاء وصفه لتلك العلاقات مثلا رائعا لمقدرة المؤرخ على الأسلوب الحولي في الكتابة (*) .

حديث لمحمد بن جعفر الطبري مؤلف هذا الكتاب اعلم أن مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن جعفر ابن يزيد الطبري .

لقد خلق الله الانسان وهو الغني فوق عباده وليبلوهم أيهم أحسن عملا . وأمرهم بعبادته ليعرف المتقين منهم والذين يعرضون عن ذكره والذين يتبعون ما أنزله ، ومن يضعون أصابعهم في آذانهم لقد شاءت حكمته أن خلقهم لتكشف أعمالهم أن قدرته سبقت كل شيء . فجاء في القرآن الكريم (سورة الزاريات : ٥٦ - ٥٨) (*) « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . ومعنى هذه الآيات : ان الله (وسبحانه وتعالى الذي خلق المخلوقات لطاعته وعبادته .

(*) فضلت أن أعيد صياغة النصوص المنقولة عن الطبري وابن خلدون بلغة عصرية حتى يسهل على غير المتخصص فهمها اقتداء بالطبعات الميسرة في أوروبا للنصوص التاريخية بل والأدبية الهامة التي تقدم لغير المتخصصين (المترجم) .

وأنه لا يسألهم جزاء ولا شكورا ، لأنه هو الذى يرزقهم جميعا • وهو
الغنى فوق عباده وسيجزئهم أحسن ما صنعوا • واذا ما عصاه العباد
فلن ينقص من ملكه شيء • واذا ما أطاعوه فلن يزيد من ملكه شيء •

خلق الله العالم ثم خلق كل المخلوقات • وخلق لهم عيوننا ليشاهدوا
بها عجائب صنعه ، وكل عظمته فى خلقه ، وجعل لهم آذانا ليسمعوا
بها العلم والحكمة ، وزودهم بنعمة العقل كى يفقهون ، وعلمهم القدرة
على التمييز بين الحق والباطل ، وأن يفرقوا بين الطيب والخبيث •
وجعل لهم الأرض مهادا ليقيموا عليها مساكنهم • وخلق السماء ، وسير
السحاب الذى يطر ماء ليخرج من الأرض حبا ونباتا ، وجعل من الماء
كل شيء حى ، وفى ذلك يؤمن العباد بخالقهم الذى لا يعبد سواه •

ويقول الطبرى ان الله خلق الشمس والقمر لأن الدنيا كانت فى
ظلام ، ولولا وجودهما لما كان هناك ضوء فى الدنيا • وكان ضوء القمر
يعادل ضوء الشمس فى بداية الأمر • واذا ما استمر الحال كما كان
لما استطاع أحد أن يميز بين النهار والليل ، ولما عرف الانسان الأيام ،
والشهور أو السنين • ولما استطاع الناس تأدية الصلوات الخمس •
ثم أرسل الله جبريل ليفرك بجناحه وجه القمر حتى لا يكون مثل ضوء
الشمس ، وبذلك يمكن تمييز النهار من الليل ، وحساب الشهور
والسنين • وفى هذا نعمة كبرى وخبر كثير •

عصر هارون الرشيد (١٠)

يقال أن هارون اصطحب الهادى الى عيسى أباد ، وبعد أن صلى
صلاة الجنازة على جثمانه ، بويع هارون بالخلافة على الفور • وقيل ان
يحيى بن خالد ، وزير الهادى ، كان سجيناً فى ذلك الحين ، وأن الهادى
عقد انعزم على قتله • غير أنه ما ان تقلد هارون قلادة الخلافة على يد
هرثمة بن عيّن ، فى الليلة التى مات فيها الهادى ، حتى بادر باطلاق
سراح ، يحيى بن خالد ، وعينه وزيرا له • وكان هارون فى الثانية
والعشرين عندما اعتلى عرش الخلافة • وكان مولد هارون فى الرى ،
عندما كان المهدي فى هذه المدينة • وكان الرشيد أخا فى الرضاعة
للفضل بن يحيى • وكان الهادى يرغب فى أن يتولى ابنه جعفر الخلافة
من بعده ، وأقسم قادة الجيش على تنفيذ هذه الرغبة بالفعل ، بيد أن
الهادى صرف النظر عن هذا الموضوع بعد ذلك • وبعد أن تولى هارون

مقاليد السلطة ، أجبز جعفر على أن يعلن على الملأ اعفاء هؤلاء الذين كانوا قد أقسموا يمين الطاعة له ، وأنه يوافق على أن السلطة الشرعية هي من نصيب عمه هارون . ثم أرسل هارون في اليوم التالي رسائل الى كل الأقاليم معلنا عن قدومه وطلبه تقديم يمين الولاء له . وبلغ هارون أن الله رزقه ابنا في الليلة عينها التي اعتلى فيها كرسي الخلافة . فاعتبر هارون ذلك فألا حسنا ، وأطلق على المولود اسم عبد الله وهو اسم المأمون نفسه وعندما وصل هارون الى بغداد ذهب ومعه حاشيته الى الجسر وقال الى يحيى : « ان المهدي قدم الى هدية عبارة عن خاتم من الياقوت ثمنه مائة ألف دينار . وفي أحد الأيام شاهدني في منزل الهادي ونظر الى ذلك الخاتم وانتابته رغبة جامحة في أن يكون في اصبعه . وبعد ذلك بعث برسول يطلب مني الخاتم . وكنت أسير على الجسر عندما اقترب مني رسوله وتحدث الى طالبا الخاتم فاستشطت غضبا لهذا المطلب ، وخلعت الخاتم من اصبعي . وألقيت به في مياه نهر دجلة . وقلت عليك أن تأمر الغواصين بالبحث عنه . » لقد مضت على الخاتم خمسة أشهر في قاع النهر ولا يعتقد أحد أنه من الممكن العثور عليه . ثم غاص الغواصون في الماء ووجدوا الخاتم في المكان الذي حدده هارون وكان هارون سعيدا واعتبر ذلك فألا حسنا . .

وفي السنة نفسها رزق الله هارون ابنه محمد الأمين الذي فضله على أخيه المأمون الذي كان أكبر منهم ، ولأن الأخير كانت أمه جارية ، في حين كانت والدة محمد الأمين زبيدة ابنة عمه جعفر بن المنصور . واختار هارون يحيى بن خالد وزيرا له ، وعهد اليه بإدارة كل شئون الدولة .

« أسرة البرامكة ونكبتها »

كان ليحيى بن فضل أربعة أبناء : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد . ومارس الفضل وجعفر مهام الوزارة معا بدلا من والدهما نظرا لكبر سنه . ثم استدعى هارون كل من الفضل وجعفر لاعفائهما من واجبات المنصب . ولم يكن موسى ومحمد وزيرين ، وإنما كانا يحملان لقب أمير . وكان لهما أبناء ، وليحيى أقارب ، وجميعهم يحمل لقب أمير . وبفضل نفوذ يحيى ارتقت كل أسرة البرامكة الى أعلى مراتب السلطة ، وكان جعفر الوحيد من بين أبناء يحيى الذي حظى بحب هارون . أما الفضل . الذي كان شقيقا في الرضاعة لهارون ، فكان يشعر دائما بالتقرز الشديد اذا ما حضر حفلات الأانس والسمر التي كان يقيمها

هارون ، حيث كان الخليفة يتمتع نفسه في صحبة النساء . والجواري ،
والمغنين والمغنيات . وأخيرا قرر أن يظل بعيدا عن تلك الاجتماعات وأقسم
الا يقرب الخمر مرة ثانية .

ونظرا لكبر سن يحيى فانه استأذن من هارون في الذهاب الى مكة
ليتفرغ للعبادة . غير أن هارون رفض طلبه وقال : « ان ولدك الفضل
وجعفر يتوليان مهام الوزارة . وعليك بتعيين أحدهما وفقا لرغبتك ،
على أن يبلغنى بذلك . وسيعرف قراراتى التى سيقوم بإبلاغها اليك
بدوره ، وبعد أخذ مشورتى ، سيقوم بتنفيذها » . وعلى ذلك اختار يحيى
ابنه الفضل الذى كان أكبر من جعفر وأكثر خبرة ، وأكثر حنكة فى
ادارة الشئون العامة . وعهد اليه بحمل خاتم الخليفة وقلده مهام
الوزارة . ولم يبد هارون اعتراضا على الرغم من أنه كان يفضل جعفر
الذى أحبه لحسن طبعته ، ولما هو به الفذة فى فن الكتابة ولباقتة الفائقة .
واستمر الفضل يتولى مسئولية الوزارة ، بدلا من والده . ثم أسسند
هارون تلك المهام الى جعفر . وبعد ذلك بفترة من الوقت أخذ منه خاتم
الخلافة وأعادها الى يحيى ، قائلا : « اعط هذا الخاتم الى أى من
أبنائك وفقا لرغبتك طالما أنك أفضل القضية فى هذا الأمر . انى لا أرغب
فى التدخل فى اختيارك » . واحتفظ يحيى بخاتم الخلافة وبقي فى
حوزته الى اللحظة التى فقد فيها الحظوة لدى الخليفة .

ولا يستطيع المرء أن يذكر اسماً وزير لأى ملك من ملوك الفرس
القديمى أو لأى خليفة من خلفاء المسلمين كان حاله أقرب الى أن يكون
أمير مثلما كان حال يحيى وأولاده ، ولكنهم تعرضوا لثلاث أحداث
متزامنة أولها استغرق فترة وجودهم فى السلطة ، لأنه لا يمكن لأى
انسان أن يحكم لفترة طويلة من الوقت دون أن يكون له أعداء يزداد
عددهم كل عام لأنه من المستحيل على أى فرد أن يرضى كل شخص .
ولم يكن يحيى يجهل هذه الحالة ، ولذلك فقد حاول مرارا أن يستقيل .

ان الحادثة الثانية التى ساهمت فى سقوط البرامكة هى كما يلى :
كان أبو ربيع محمد بن أبى الليث ، فقيه الرقة ، رجلا ورعا ، ومسموع
الكلمة بين الناس . وكان مستاء من نفوذ يحيى ، وقدم رسالة الى
هارون قال فيها : « يا أمير المؤمنين ، ماذا ستقول لله يوم الحساب ،
وكيف يكون ردك عن أحوال المسلمين وهم تحت نفوذ يحيى بن خالد ،
وأبنائه وعشيرته ، بعد أن تولى شئون المؤمنين جماعة من الزنادقة ؟
ان يحيى وأولاده ، وكل أفراد أسرته من الزنادقة ، ويمارسون طقوس
الزنادقة سرا انهم لا دين لهم ! » .

وعندما علم يحيى بهذا الخطاب التزم الصمت وفي أحد الأيام سأل هارون الرشيد يحيى عن رأيه في محمد بن أبي الليث . فرد يحيى بأنه منافق وخبيث ، ولا دين له ويخدع الناس بخطبه ، ويهاجم كل شخص الخ . ولما كان هارون غاضبا على محمد لذلك أمر بسجنه على الرغم من أن الخطاب ترك انطبعا في نفس هارون . وتعددت مرات استفساره عن مدى التزام البرامكة بالتعاليم الدينية وتحري عن معتقداتهم . وبدأ كل الناس الساخطين من تصرفات البرامكة يتجسسون عليهم ويبلغون الخليفة عن كل مساوئهم . فكانت محصلة ذلك أن بدأ قلب الخليفة يتغير من ناحيتهم .

ثم وصلت هارون شكوى ثالثة ضد البرامكة . إذ كان يحيى بن عبد الله الحسيني قد جاء الى القصر مع الفضل بن يحيى بعد ثورة في طبرستان ، وسجنه هارون ، وعهد الى جعفر برعايته . وعندما أمر هارون جعفر بقتل يحيى بن عبد الله الحسيني ، قال يحيى لجعفر : « أنت أيها الرجل العالى الهمة ، تريد قتلى ، يا من تعرف من هم أجدادى ؟ انهم قد أعطوني ثقتهم ، ولكن قادوني الى هنا فانهم حنثوا في قسمهم » . فأجاب جعفر : اذهب فأنت حر . واذهب الى حيث شئت . واذا ما سألتني عنك هارون ، سأخبره بما يجب قوله » . وانطلق يحيى على الفور وأبلغ الحاجب هارون بما حدث . وفي أحد الأيام عندما كان جعفر يتناول طعام الغذاء مع هارون ، سأله الأخير عن أحوال يحيى هذا . فأجاب جعفر أن يحيى مازال بالسجن . فأمره الخليفة قائلا : « أقسم برأسى وحياتى » . فسكت جعفر ثم قال : « يا أمير المؤمنين لا أحب أن أقسم برأسك وحياتك . لقد كنت واثقا من أن يحيى رجل صالح ، ولا شيء يخيفنا منه . وأنه لا يستطيع أن يجند أى جماعات معادية . ومن ثم قمت باطلاق سراحه » . فقال له هارون دون أن يفصح عن أى استياء : « لقد أحسنت صنعا ، وكانت لدى نفس النية ، وأنا متفق معك » وعلى الرغم من أن هارون لم يتحدث أكثر من ذلك ، فإن هذه الحادثة تركت في نفسه حنقا شديدا .

أما الحادثة الأخيرة والتي ساهمت في نكبة البرامكة فهي كما يلي : كان لهارون شقيقة تدعى العباسة ، ابنة المهدي ، الذي كان أكبر من الهادي بعام واحد . وعندما أراد الهادي أن يستخدم العنف ضد هارون قامت العباسة بنصحه للعدول عن ذلك قائلة : « لا تفعل هذا . انه شقيقك . ويجب أن يحكم بعقلك . ولا أحد يعرف ماذا سيحدث » . ولهذا السبب أبدى هارون أسى مظاهر الاحترام والمودة لأخته عندما اعتلى

عرش الخلافة • واتمناها على بعض أسراره ، واستمتع بالجلوس معها ، وعاش معها في غاية المودة والتراحم • ودعا الخليفة هارون وزيره جعفر لحضور تلك الولائم التي حضرتها شقيقته وجواريتها • ولما كان جعفر حريصا على الا تصدر منه أى بادرة أو اشارة غير لائقة في حضور العباسة لذلك فضل ألا يحضر تلك الحفلات فيما بعد • ففهم الخليفة سبب حذر جعفر ، وقال له : « أريدك أن تتزوج العباسة ، شريطة ألا تراها في حضوري ، والا تلمسها ، وإياك أن تعاشرها معاشرة الأزواج • وحينئذ تستطيع أن تحضر مجالس الطرب معنا دون خوف » • فأجاب جعفر أنه رهن اشارة الخليفة • ثم تم عقد زواج جعفر بالعباسة وظهر الزوجان في وجود هارون وتحديثا عن بعد • وكانت العباسة أجمل نساء القصر جميعا ولا تدانيها حرة أو جارية في الجمال ، كما كان جعفر رجلا وسيما • ولذلك سعى كل منهما الى لقاء الآخر سرا ، وتمخض هذا اللقاء عن طفل أنجبته العباسة • وأرسلت العباسة هذا الطفل الى مكة مع اثنتين من جواريتها لرعايته بعد أن أعطتهما مبلغا من المال ومر عام على هذه الحادثة الى أن تشاجرت العباسة مع إحدى جواريتها • وضربت الجارية وهددتها بالقتل • فتقربت الجارية من هارون وأفشت اليه بسر الطفل الذي أنجبته العباسة من جعفر • فأمرها هارون ألا تقص هذه الحادثة على أحد ، ثم ضمها الى جواريه •

وبعد أن حصل يحيى بن عبد الله على حريته ، بذل هارون جهودا لمعرفة محل اقامته وما أن عرف الخليفة ، أن يحيى هذا يقيم في خراسان حتى أرسل عليا بن عيسى بن ماهان ، الى هذا الاقليم ، ومعه تعليمات بالبحث عن يحيى وإلقاء القبض عليه • ومنذ ذلك الحين تغير شعور هارون من ناحية البرامكة • وأبدى الخليفة فتورا في معاملاته مع يحيى وجعفر وعلق يحيى يوما على المعاملة القاترة التي عامل الخليفة بها يحيى ، بيد أن يحيى لم يجرؤ على طلب انهاء خدمته • وبعد أن نجح على بن عيسى في إلقاء القبض على يحيى بن عبد الله أرسله الى الرقة في صحبة مندوب موثوق به • وهناك أعده هارون •

وما أن اطمأن هارون على نفسه من هذه الناحية حتى عقد العزم على العمل ضد البرامكة • فأعلن أنه ذاهب لأداء فريضة الحج وأخذ معه يحيى وبعض أفراد أسرة البرامكة • وبعد أن أدى هارون مناسك الحج ، ثم احضار ابن العباسة اليه ، وكان هذا الطفل قد جمع بين والده جعفر ووالدته العباسة في الشبه • وكانت لدى هارون نية قتل الطفل بيد أنه غير رأيه بعد أن قال أنه بريء تماما • ثم بدأ هارون رحلة العودة

الى الرقة . وفى مركز من مراكز البريد بالقرب من الانبار استراح هناك لعدة أيام . وفى اليوم الرابع لوصوله الى الرقة دعا يحيى وأولاده الفضل ، وجعفر ، وموسى ، وخلع عليهم الخلع مظاهر العطف والمودة وجعلهم هذا السلوك يشعرون بالسعادة ، وأعاد ، فاطمأنت قلوبهم كل الاطمئنان . وعند صلاة العصر قال هارون لجعفر : « لن أسمح لك بالذهاب الى دارك ما لم أكن قد تمتعت نفسى بالشراب مع الجوارى . وأن تمتع نفسك بجواريك » . ثم عاد هارون الى حريمه وبدأ فى الشراب . وبعد فترة من الوقت بعث هارون برسول الى جعفر ليرى ماهو بفاعل . وعندما علم هارون أن جعفر فى حالة معنوية سيئة أمر هارون الرسول بإبلاغ جعفر بالنص التالى : « أقسم برأسى وبحياتى، أن تعد حفلا وأن تمتع نفسك ، ولن أشرب ما لم تكن أنت تشرب أيضا » . وأعد جعفر حفلا بيد أن قلبه كان مملوءا بالأسى والخوف . وكان لدى جعفر مغنيا ضريرا يدعى « أبو ذوقار » . وبعد أن شرب جعفر لفترة من الوقت، قال للمغنى : « ان روحى المعنوية منخفضة هذه الليلة » . فأجاب أبو ذوقار : « أيها الوزير ، ان أمير المؤمنين ، لم يبد نوايا طيبة لك ولأسرتك مثلما يحدث هذا اليوم . ويجب عليك أن تبتهجج » . فقال جعفر : « انى أشعر بأحاسيس داخلية محزنة » . فرد عليه أبو ذوقار : « عليك بالتخلص من هذه الهواجس ومتع نفسك » .

وبالقرب من موعد صلاة المغرب قدم أحد خدم هارون الى جعفر حلوى ، وفواكه مجففة ، وروائح عطرية من الخليفة . وعند صلاة العشاء أرسل هارون ، كميات أكثر من الأولى ، ثم كميات أكثر للمرة الثالثة . وعند منتصف الليل خرج هارون من مكان حريمه ، واستدعى خادمه مسرور الطواشى وقال له : « اذهب على الفور الى مهجع جعفر واقطع رقبتة وأحضر رأسه معك » . وعندما شاهد جعفر مسرورا ، ارتعد الوزير خوفا . فقال له مسرور : « ان أمير المؤمنين يريدك الآن » . فسأله جعفر : « وأين هو ؟ » فأجاب مسرور : « انه ترك مكان حريمه منذ لحظات وهو بقصره حاليا » . فقال جعفر : « دعنى أدخل مكان حريمى لأترك لهن بعض التعليمات » . فأجاب مسرور : « ليس هذا ممكنا وعليك أن تترك لهن تعليماتك هنا » . ثم قاده مسرور الى أن وصل الى خيمته وهنا استل مسرور سيفه الضالع . وسأل جعفر مسرورا عن الأمر الذى تلقاه من هارون فقال مسرور : « لقد أمرنى هارون بأن أقدم رأسك اليه » . فقال جعفر : « احترس فربما أصدر اليك هذا الأمر وهو مخمور مما يجعله يندم على ذلك فيما بعد » . ثم توسل جعفر لمسرور

مذكرا اياه بصداقتهما القديمة ، وطلب منه أن يعود الى الخليفة فوافق مسرور . وكان هارون جالسا على سجاده منتظرا خادمه الخصى . وعندما شاهد هارون مسرورا سأل على الفور : « أين رأس جعفر ؟ » فأجاب مسرور : يا أمير المؤمنين ، لقد أحضرت جعفر . « فرد عليه هارون قائلا : اننى لم أطلب جعفر وانما أطلب رأسه » . فعاد مسرور الى جعفر ودق عنقه . وعندما قدم رأس جعفر للخليفة قال له الخليفة : « احتفظ بالرأس والجثة الى أن أسألك عنهما » . واذهب الآن ، وألق القبض على يحيى وأولاده الثلاثة . وشقيقه محمد بن خالد ، وضعهم فى خيمتك وقيدهم بالسلاسل وصادر كل ممتلكاتهم » .

وقام مسرور بتنفيذ كل تلك الأوامر . وأرسل هارون رأس جعفر الى بغداد عند الفجر . وفى اليوم التالى ذهب هارون الى الرقة . وتعرض كلا من يحيى وشقيقه للضرب والتعذيب بالسجن . وأجبرا على التنازل علنا عن كل ممتلكاتهما . وبعد أن مات يحيى بالسجن ، أطلق الخليفة سراح محمد بن خالد لعدم وجود أى شىء ضده ولأنه كان أفضل شخصية فى أسرة البرامكة . أما ماتم بشأن أفراد أسرة البرامكة فقد ظلوا جميعا فى السجن . وبعد مصادرة كل ممتلكات البرامكة أمر هارون بدق عنق كل من الفضل ومحمد ، وموسى ، فى حضرته . كما تم اعدام كل أفراد أسرة يحيى والمقرنين اليهم - ولم يبق على قيد الحياة من أسرة البرامكة سوى بن خالد ، وأطفال الفضل وجعفر . وظلت رأس جعفر معلقة بمشئقة فى بغداد حتى أحرقت .

ان سلوك هارون فى هذه الحادثة هو سلوك مشجوب بكل المقاييس . فقد أساء هارون الى نفسه بما فعله . ونتيجة لقسوته وعقوباته الوحشية فقد تحدث الناس كثيرا عن هذا الموضوع . وعندما تحدث الناس عن نكبة البرامكة وسألوا عن السبب عرفوا أن كل ذلك بسبب العباسية شقيقة هارون الرشيد . وستظل ذكرى هذه الحادثة قائمة حتى قيام الساعة ، وسيعرف الجميع أن ما حل بالبرامكة كان بعيدا كل البعد عن الحكمة ، وبعد النظر .

وشجب الناس سلوك هارون لسبب آخر . فبسبب اختفاء البرامكة تعرض أمن الدولة لأخطار شديدة ، وتأسف الناس للقضاء على البرامكة . فقد واجه هارون اضطرابات وثورات فى كل مكان ، ولم يكن قادرا على السيطرة على أرجاء الدولة فقد ثار إقليم خراسان الذى كان تحت الادارة المطلقة لعلى بن عيسى ، واضطر هارون الى الذهاب الى هناك بنفسه . اذ تحرك من بغداد على رأس جيش بلغ تعداده خمسون ألف مقاتل ،

و عهد الى ابنه محمد الأمين بالبقاء فى بغداد ، و ادارة شئون الدولة فيما بين حدود المغرب ومرتفعات حلوان . و توقف فى كرمنشاه بفترة من الوقت حيث عقد اجتماعا عاما لقواته . ولقى خطابا على قادة الجيوش ، و أمرهم بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة لأبنه المأمون الذى تولى حكم كل الأقاليم الواقعة خلف حلوان ، و نعى بها ، كوهستان ، وهمدان ، والرى ، و جرجان ، و طبرستان ، و خراسان ، و شرق بحر قزوين ، و تركستان . و بدأ المأمور فى التحرك و تحت قيادته ثلاثون ألف مقاتل ، ثم تبعه هارون و بقية الجيش و عندما وصل هارون الى طوس Tous مات .

عصر كسرى أنو شروان (١١)

• ثم صار كسرى أنو شروان بن قباد ملكا ، الخ . و بعد أن تولى الملك أرسل خطابات الى حكام الأقاليم الأربعة فى بلاد الفرس ، و أنبأهم ، و ورد فى الخطاب الذى أرسله الى حاكم اقليم آذربيجان ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من كسرى بن قباد الى زادهى Zadhoe ، حاكم آذربيجان ، و أرمينيا ، و الى أتباعه سلام ! لاشئ يثير قلق الانسان أكثر من الحالة التى يرى فيها نفسه غير آمن على ما يملكه ، و معرضا لأعمال العنف ، أو ضياع ماتحت يديه ، أو فى نفسه ، أو خدمه ، أو متاعه أو ما يعتقد أنه مفيد له . و اننا نعلم جيدا أن شغل الناس الشاغل هو حاجتهم الى ملك عادل ، (*) .

(*) بالرجوع الى النص العربى فى كتاب الطبرى وجدت من الضرورى ذكر النص العربى بالكامل وان كان لا يخرج عن المعنى الذى جاء وفقا للترجمة عن اللغة الانجليزية التى نقلت عنها :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

من الملك كسرى بن قباد الى وارى بن النخيجان فازوسبان آذربيجان و أرمينية و حيزها ، و دبناوند و طبرستان و حيزها ، و من قبله : سلام ، فان أخرى ما استوحش له الناس فقد من تخوفوا فى فقدم اياه زوال النعم و وقوع الفتن ، و حلول المكاره بالأفضل فالأفضل منهم ، فى نفسه أو حشمه أو ماله أو كريمه ، وانا لا تعلم وحشة ولا فقد شئ أجل رزينة عند العامة ، ولا أخرى أن نعم به البلية من فقد ملك صالح ، انظر الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ، ص ٩٨ . الطبعة الرابعة - دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩م - المترجم .

وما أن سيطر كسرى على مقاليد الحكم حتى استأصل شافة طائفة قائمة على تعاليم الديانة المجوسية وفقا لتعاليم زرادشت المنافق . وكان عدد كبير من الناس قد انضم إليها ، وبناء على ذلك صار لها نفوذ كبير وكان مزدك أحد أتباع زرادشت . ودعا مزدك الناس ، وألزم أتباعه ، بأن يكون كل شيء مشاعا بينهم بما في ذلك كل ما تحت أيديهم من ممتلكات ونساء . وأقنع مزدك أتباعه أن ذلك ضرب من التآلف والمودة يرضى الله عنه ، ويجزى عليه خير الجزاء . والواقع أنه برغم أن تلك المبادئ الدينية التي دعا إليها مزدك لم تكن ملزمة ، فانهم اعتقدوا أن بركة الله ستحل عليهم لتعاونهم مع بعضهم البعض . وبهذا الأسلوب استطاع مزدك أن يحرض العامة ضد الطبقة العالية واختلطت الطبقات الدنيا بالسلالات الأصيلية ، وأصبح من السهل على أولئك الذين يحقدون على من يملكون ، أن تكون تحت أيديهم ممتلكات ، ومارس الأشرار شرورهم ، وأشبع الزناة شبقهم ، وجالسوا نساء الطبقات العليا ، بعد أن كان ذلك أمرا لا يخطر على بالهم من قبل . ووجد كل الناس أنفسهم في نفس الخطر . إذ لم يسبق لأي فرد أن سمع عن شيء من هذا القبيل . ومن ثم قام كسرى بمنع اعتناق أي أفكار استحدثها كل من زرادشت ، ومزدك . وقام كسرى بالقضاء على كل تلك الطائفة الدينية المعارضة لدين الدولة ، وأعدم الكثيرين من التابعين لها ، والذين رفضوا الانصياع إلى أوامره . وبالإضافة إلى ذلك أعدم كثيرا من أتباع ماني وحفظ للمجوس دينهم الذي آمنوا به من قبل (*) .

وأعجب الناس بفضائل كسرى ، ونعى بذلك ، فطنته ، وثقافته ، وحسن ادراكه للأمور ، وشجاعته ، وبعد نظره ، بالإضافة إلى دمايته ، وكرمه ، وهي صفات لمسها الجميع وما أن وضع التاج على رأس كسرى حتى بادر كبار رجال الدولة والنبلاء بتقديم التماساتهم إليه . وما أن فرغوا من تقديم مطالبهم ، حتى وقف كسرى ، وألقى عليهم كلمة . فتحدث عن فضل الله على عباده الذين خلقهم . ثم تحدث عن ثقته في الله في قيادتهم إلى الخير ، وفي عونهم لهم . ولم يترك شيئا مهما إلا وتحدث عنه . وذكرهم بالأهوال التي تعرضوا لها من جراء تعاليم مزدك ، وفقدانهم لممتلكاتهم وتسفيه مزدق لمعتقداتهم ، والفوضى الشاملة التي نجمت عن الأمور المتعلقة بأطفالهم وممتلكاتهم . ومع ذلك فقد وعدهم بالعلاج الناجع وطالب الشعب بالتعاون معه في هذا المجال . ثم أمر بإعدام أتباع مزدك وتوزيع ممتلكاتهم بين المحتاجين . وتم اعلام كل

(*) ما أورده المؤلف هو تلخيص ما ذكره الطبري في الجزء الثاني من ٩٩ - ١٠٢

من الطبعة السالفة الذكر - المترجم .

من استولى على ممتلكات الآخرين ، وعادت الحقوق الى أصحابها . وأمر بأن يظل كل طفل في الأسرة التي نشأ بها ، وأن يظل يحمل اسم الأب الذي يعترف بأبوته . وأمر كل رجل اغتصب امرأة أن يدفع لها صداقها ، وأن يعيش معها كرجل وزوجة في حالة موافقتها على البقاء معه ، ولها الخيار في الانفصال عنه . أما اذا كان لها زوج من قبل ، فمن الضروري عودتها الى زوجها السابق . والزم كل من أتلف ممتلكات الغير أن يدفع له تعويضا على الفور ، مع عقابه على ما اقترفت يده . وسمح للأطفال الذين فقدوا آباءهم من الطبقة العليا أن يسجلوا على أنهم أولاده . أما بنات تلك الطبقة فقد أمر كسرى أن يتزوجن من الطبقة العليا نفسها ، وأن تجهز بيوت الزوجية الخاصة بهن من خزانة الدولة . وزوج الشباب من نساء الطبقة العليا ، بيد أنه ألزمهم بالبقاء في القصر الملكي لكي يستغلهم في الوظائف العليا . أما عن زوجات أبيه ، فترك لهن الخيار في البقاء مع زوجاته ، على أن يعيش معهن ، ويحصلن على المقررات التي اعتدن الحصول عليها ، أو أن يقبلن أن يكون كسرى زوجا لهن وفقا لمراكزهن .

وقام كسرى بحفر الترغ ، واقامة القناطر ، وتقديم السلفيات للفلاحين ، وقدم اليهم المساعدات الأخرى . وقام باصلاح الجسور الخشبية ، والمبينة من الأحجار . وجدد القرى في أماكن كثيرة . واهتم بالخيالة ، وزود كل فارس بجواد ومعداته ، وجدد لهم أمرا ثابتا . وعين حفظة على نيران المعابد ، وأصلح الطرق . وشيد القلاع والحصون على امتداد تلك الطرق للحماية من اللصوص وقطاع الطرق . واختار الموظفين والحكام الأكفاء ، وزودهم بالتعليمات المشددة . ودرس تاريخ حياة أردشير ، ورسائله ، وتعليماته ، واعتبره مثله الأعلى ، وطالب الشعب الاقتداء به في ذلك .

وبعد أن استتب له الأمر في كل البلاد - حكم مدة سنوات عديدة - تحرك صوب أنطاكية . واستولى على المدينة ، وعسكر بها قاداته . ثم أمر بوضع خريطة دقيقة لأنطاكية بها عدد المنازل ، والشوارع ، وكل المنشآت الأخرى . ثم أمر بإنشاء مدينة جديدة على نمط مدينة أنطاكية . وأطلق على تلك المدينة الجديدة « رومية » وأجبر سكان أنطاكية على الانتقال الى تلك المدينة الجديدة ، وذهب كل منهم الى المدينة الجديدة ، ودخل البيت المعد له ، وكأنه لم يغادر أنطاكية مدينته الأصلية .

وبعد ذلك هاجم مدينة هرقله ، واستولى عليها ، ثم استولى على اسكندرونه وما بعدها . وترك جزءا من قواته في أراضي الروم كحامية ، بعد أن انصاع امبراطور الروم لارادته ، وتعهد بدفع فدية . وبعد

بعودته من بلاد الروم تحرك بجيشه صوب الخزر ، وأخضعهم لسيطرته عقابا لهم على مهاجمتهم لشعبه وبلاده . ثم توجه صوب عدن بعدد كبير من السفن الكبرى لاغلاق طريق الملاحة في وجه الحبشة ، وذلك باقامة سلاسل حديدية ، ووضع الصخور الضخمة والأعمدة الحديدية في جزء من البحر بين الجبلين ، وقتل كبار النبوة هناك . ثم عاد الى بلاده بعد أن صارت أراضي الروم عند هرقلية ، وأرمينيا تابعة له ، هذا بالإضافة الى كل الأراضي الواقعة بين الياپس والبحر ، وأعنى بها بلاد عدن .

ثم عين كسرى أنوشروان ، المنذر بن النعمان ملكا على العرب ، وأضفى عليه ألقاب الاجلال والتكريم . وبعد ذلك بقي في حدود اراضي مملكته في بلاد الفرس ، وعنى بكل الأمور التي تتطلب كل اهتماماته . ثم توجه صوب الهياطلة لينتقم منهم بقتل جده فيروز . بيد أنه عقد حلفا مع الخاقان ، ومهر هذا الحلف بالزواج ، وذلك قبل بدء الهجوم ، ثم أبلغه بنته في مهاجمة الهياطلة ، ورجاه التعاون معه ضدهم . ثم وصل الى بلاد الهياطلة ، وذبح منكمهم ، وقتل كل أفراد أسرته . وتقدم بجيشه الى أن وصل الى بلخ ، وما بعدها ، وأمر قواته أن تعسكر في فرغانة . ثم عاد الى أراضيه في الشرق ، بيد أنه ما أن وصل الى بلاده حتى جاءت وفود تطلب المساعدة ضد أهالي الحبشة . ومن ثم أرسل معهم أحد قادته ومعه قوات من الديلم ، والبلاد المجاورة . وقامت تلك القوات بقتل مسروق الحبشي وظلت هناك (بانيمن) .

وظل كسرى يحقق انتصارات بصفة مستمرة وعلى كل الشعوب ، ولذلك تعددت الوفود التي زارت قصره من بلاد الأتراك ، والصين ، والخزر ، وشعوب أخرى بعيده . وأجل كسرى العلماء . واستمرت مدة حكمه حوالي ثمانية وأربعين عاما . وكان ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ابان الفترة الأخيرة من حكم كسرى أنوشروان . ويقول ابن هشام أن كسرى حكم لمدة سبعة وأربعين عاما فحسب . ويقول ابن هشام كذلك أن عبد الله بن عبد المطلب ، والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ولد في السنة الرابعة والعشرين من حكم كسرى ، وأنه توفي في السنة الثانية والأربعين .

ويواصل ابن هشام القول أنه عندما تولى كسرى السلطة أرسل في طلب المنذر بن النعمان الأكبر ، راقامه ملكا على الحيرة ، والتي كانت

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

من قبل تحت حكم الحارث بن عمرو ، الذي ظل حاكما لهذا الاقليم حتى وفاته .

ويحكى ابن هشام أن كسرى توجه ضد بركان Burgan ، ثم عاد وأمر بإقامة بوابات ضخمة (عند القوقاز) .

(وأما عن تاريخ الحيرة) ، ووفقا لما كتبه ابن هشام : أن الملك الذي حكم العرب باسم ملوك الفرس بعد الأسود بن المنذر كان شقيقه المنذر بن المنذر بن النعمان . وحكم لمدة سبع سنوات . وحكم من بعده النعمان بن الأسود بن المنذر لمدة أربع سنوات . ووالدته هي أم مالك ابنة عمرو بن حجر ، شقيقة الحارث بن عمرو الكندي . وخليفته جعفر بن علقمه بن مالك بن عدى بن ذوميل بن ثور بن عسس بن عربى ابن نمرة بن لخم ، وحكم لمدة ثلاث سنوات ثم صار المنذر بن امرئ القيس ، وهو ذو القرنين ، ملكا . وأطلق عليه ذلك الاسم لظهور خصلتين من شعره . اسم أمه المعصومة ، وهي مارية ، بنت عوف بن غسان بن خليل بن ربيع بن زيد بن عمير بن سعيد بن خزرج . وبلغت مدة حكمه حوالى تسعة وأربعين عاما . ثم صار عمرو بن المنذر ملكا . ووالدته هي هند ابنة الحارث بن عمرو حفيد حجر . وحكم لمدة ستة عشر عاما . وبعد أن حكم لمدة ثماني سنوات ، وثمانية شهور ولد رسول الله . وكان ذلك في عهد كسرى أنوشروان ، في السنة التي تحرك فيها الأشرم أكسوم (أبرهة الحبشى) (*) ومعه الفيل ، وقد قصد هدم الكعبة .

ويقال أنه كانت هناك معاهدة بين كسرى والروم في عهد الامبراطور جوستينيان . وإبان تلك المعاهدة حدثت حروب بين خالد بن جبلة (***) ملك العرب في الشام ، والذي كان تابعا للامبراطور جوستينيان ، وبين المنذر بن النعمان بن لخم الذي عينه كسرى ملكا على العرب في عمان ، والبحرين ، واليمامة ، الى الطائف ، وباقي أراضى الحجاز ، وعلى كل عرب تلك الأراضى . وقام خالد بن جبلة بمهاجمة أراضى المنذر ، وقتل كثيرا من رعاياه ، واستولى على كثير من الغنائم . وشكا المنذر الى كسرى وطلب منه أن يكتب الى امبراطور الروم لكى يضمن تأمين بلاده ضد خطر خالد . والواقع أن كسرى أرسل احتجاجا الى جوستينيان ، وذكره أن هناك معاهدة سلام بينه وبين الروم ، وأبلغه بما حدث للمنذر

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

(**) الواقع أن ملك العرب في الشام أو ملك الغساسنة اسمه الصحيح هو الحارث بن جبلة وليس خالد بن جبلة كما ذكر الطبرى وذلك بعد الرجوع الى المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية المترجمة فضلا عن المصادر الفارسية - المترجم .

حاكم العرب التابع له على يدى خالد ، وطلب منه أن يأمر الأخير بتعويض المنذر عن كل الغنائم التي أخذها من بلاد المنذر ، وأن يدفع دية له عن القتلى ، وأن يتابع عملية ارضاء خالد للمنذر . ومعد كسرى جوستينيان بأنه فى حالة عدم ارضاء خالد للمنذر ، فليعلم أن ذلك يعنى انتهاء معاهدة السلام .

وأرسل كسرى أكثر من رسالة الى جوستينيان بهدف معالجة ما تعرض له المنذر ، بيد أن جوستينيان لم يبد أى اهتمام بالموضوع . ومن ثم استعد كسرى للحرب وهاجم أراضى جوستينيان بجيش بلغ حوالى ثمانين ألف مقاتل ، واستولى على دارا ، والرها وما بوج Mabb-g ، وقنسرين ، وحلب ، وأنطاكية التي كانت أهم المدن فى سوريا ، أباميا Apamea ، وحمص كثيرا من الأماكن المجاورة ، واستولى على كثير من الأموال ، والأشياء الأخرى التي وجدها فى تلك المدن . ونقل كسرى سكان أنطاكية الى السواد ، فى المكان الذى ذكرته من قبل ، وشيد لهم مدينة بالقرب من طيسفون (*) ، وكانت مشابهة لمدينة انطاكية تماما ، وأمرهم بالمعيشة بها . وأطلق على تلك المدينة رومية . وأنشأ لهم خمس دوائر من المحاكم : العليا ، والمتوسطة ، ومحكمة النهروان الابتدائية ، ومحكمة بدرشاه ، وباكوشاه . أما بالنسبة الى الأسرى الذين عاشوا فى رومية ، فقد طلب كسرى منهم تأدية خدمة عسكرية محددة ، وعهد الى باراز ، وهو مسيحي من الأهواز ، بتولى شئونهم ، وباراز هذا كان يرأس لجنة أعمال كسرى . وفعل كسرى هذا بدافع الشفقة على الأسرى ، ولأنه أراد أن يعطيهم الثقة فى باراز باعتباره يدين بدينهم . ودفع امبراطور الروم اتاوة الى كسرى مقابل عدم اعتداء الأخير على باقى مدن الشام ومصر . وتعهد امبراطور الروم بدفع اتاوة سنوية مقابل عدم الاعتداء على حدود بلاده . وأعطى امبراطور الروم كسرى وثيقة تعهد فيها بدفع الاتاوة السنوية ، ووقع عليها كبار دولة الروم .

وقبل عهد كسرى أنوشروان ، اعتاد ملوك الفرس على جمع ضريبة أرض من كل اقليم فى البلاد تعادل الثلث ، أو الربع ، أو الخمس ، أو السادس ، وفقا للمساحة المنزرعة فى كل اقليم ، وكذلك ضريبة رأس محددة . وفى أواخر عهد قياد بن برويز ، قام هذا الملك بمسح الأراضى السهلة والجبلية لكى يحدد عليها ضريبة أرض دقيقة .

(*) طيسفون - اسم عاصمة الفرس الذى ورد فى المصادر الفارسية واليونانية واللاتينية ، أما المصادر العربية فقد استخدمت كلمة المدائن مازالت آثارها موجودة حتى الآن جنوب بغداد بحوالى ثمانية كيلومترات - المترجم .

وتم تنفيذ مسح الأراضي ، بالرغم من أنه لم يكن قد اكتمل عند وفاة قباد . فقام ابنه كسرى باكمال مسح الأراضي عند اعتلائه العرش ، وكذلك النخيل وأشجار الزيتون ، حيث قام الكتبة بحصر جميع الإيرادات . ثم أرسل دعوة عامة الى شعبه عن طريق رجال الضرائب لابلغهم بالمبالغ المحددة ، والواجب سدادها للدولة ، وفقا لكل محصول ، وعدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الذين يجب عليهم دفع ضريبة الرأس . وعندما بلغ الشعب ذلك شرح لهم كسرى الموقف قائلا : « لقد قمنا بتحديد الحصص ، واجراء الترتيبات المتعلقة بالمبالغ المقدرة عليها في المسح الحالي للأراضي الصالحة للزراعة ، وأحصينا عدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الواجب عليهم دفع ضريبة الرأس ، على أن تدفع المبالغ كل عام ، على ثلاثة أقساط . وبهذه الوسيلة سنكون قادرين على جمع الأموال في خزانتنا ، لنكون قادرين على التصدي لأي أخطار تتعرض لها قلاعنا على الحدود أو أراضيها . وذلك لأننا لا نرغب في أن نفرض ضرائب جديدة عندما تجد مثل هذه الأمور . والآن فما رأيكم في خطتنا وفي قرارنا ؟ » .

وبالنسبة لهذا السؤال لم يقدم أحد أي اقتراح بل ولم ينطق أحد ببنت شفة . وبعد أن كرر كسرى هذا السؤال ثلاث مرات ، وقف رجل من بين الجمع وقال لكسرى : « أيها الملك - أطال الله عمرك ! - افرض ضرائب دائمة على الأشياء المعرضة للتلف أو العطب : مثل شجرة الكرم التي تمت في يوم ما ، وحب القمح التي تذبل والترعة التي تجف ، والبئر أو مجرى الماء الذي ينضب ماؤه . » فصرخ كسرى في وجهه عند سماع ذلك قائلا : « أيها الانسان الوقح والملعون ، الى أي الطبقات تنتمي ؟ » فرد عليه ثم قال كسرى : « قطعوه اربا اربا » . فأنقض الحاضرون عليه الى أن مات ، وكان معظم الذين قطعوه من الكتبة لأنهم أرادوا ابعاد الشبهة عن أنفسهم .

ثم أعلن الحاضرون رأيهم قائلين : أيها الملك ، اننا نقبل ما تفرضه من ضرائب على الأرض . ثم اختار كسرى عددا من الشخصيات المسئولة والمرموقة ، وأمرهم بالتحقق من مقادير المحاصيل المتنوعة ، وعدد أشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، والأفراد الذين تنطبق عليهم ضريبة الرأس ، وعلى هذا الأساس حدد الضريبة مع السماح للرعية بأن تعيش دون ارهاق . وقدمت اللجنة المختارة تقريرها اليه (*) .

(*) ما ورد في هذه الصفحة ملخص واف ودقيق ولم يخرج عن النص العربي

ج ٢ ، ص ١٥٠ - ١٥١ - المترجم .

ثم عبر كل فرد منهم عن اعجابيه الشديد برجاحة عقل كسرى التي بدت للعيان في تقريراته الضريبية ، وبعد مشاورات مستفيضة ، توصلوا الى اتفاق بضرورة فرض ضريبة الأرض على الغلات الزراعية التي يعيش عليها الانسان والحيوان ، وأعنى بها ، القمح ، والشعير ، والأرز ، وأشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، وفرضت ضريبة مقدارها درهم واحد على كل حقل زرع قمحا أو شعيرا ، وثمانية دراهم على حقل الكروم ، ودرهم فارسي عن كل أربع أشجار من النخيل الفارسي ، ودرهم عن كل ست أشجار من النخيل العادي ، ودرهم عن كل ست أشجار للزيتون . واقتصرت الضريبة على النخيل الذي ينمو في الأراضي الزراعية ، أو بكميات كبيرة ، أما أشجار النخيل التي تنمو من تلقاء ذاتها فلم تحدد لها ضريبة . وفيما عدا المنتجات الزراعية السالفة الذكر ، فقد كانت باقى المحاصيل الزراعية معفاة من الضرائب ، وتصرف فيها الناس بحرية كاملة . وفرضت ضريبة الرأس على الجميع باستثناء النبلاء ، وكبار رجال الدولة ، والجنود ، ورجال الدين والكتبة ، واعلاملين في خدمة البلاط الملكي . وكانت ضريبة الرأس تتفاوت ما بين اثني عشر درهما ، الى ثمانية أو ستة وفقا لموضع الاجتماعى والمالى للفرد . وتم اعفاء الذين لم يبلغوا العشرين أو الذين تجاوزوا الخمسين من دفع ضريبة الرأس . وقدم القائمون على تقدير النسب الضريبية تقريرهم الى كسرى . ووافق كسرى ، وأمرهم بجمع الضريبة على أن يجمع على ثلاثة أقساط . وتلك الضريبة عينها هي التي سار على نهجها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) (*) بعد أن فتح بلاد الفرس .

ثم أمر كسرى بتدوين تلك الضريبة في سجل خاص ، ونسخ عدة صور من هذا السجل ، احتفظ باحداها في ديوانه ، وأرسل واحدة الى جامعى الضرائب ، وواحدة لكل قاض من قضاة الأقاليم ليكونوا على معرفة بتفاصيل تلك الضريبة . وأصدر كسرى تعليماته الى حكام الأقاليم بمنع الموظفين من جمع أى مبالغ أكثر من الضريبة المحددة بعد أن زود هؤلاء الحكام بنسخة خطية من تفاصيل تلك الضريبة وأمر كسرى كذلك بتخفيض القيمة الضريبية على الأراضي الزراعية التي يتعرض انتاجها للانخفاض ، مع اعفاء من تجاوز الخمسين من ضريبة الرأس . وأمر بضرورة ابلاغه بدثل تلك الحالات المستثناة حتى يقوم بدوره بابلاغها الى جامعى الضرائب . وأكد على ضرورة عدم تحصيل ضريبة الرأس ممن كانوا دون العشرين .

(*) ما بين حاصرتين من عنا الترجمة .

وكان بابك بن بروان (***) أحد كتبة كسرى ، قد نال الحظوة عنده لأنه كان ذا حسب ونسب ، وكياسة ، ومقدرة ، ولذلك كله عهد كسرى إليه بإدارة شئون خزانة السلاح . وقال بابك هذا للملك في أحد الأيام : « لا يمكنني القيام بأعباء مهتمتي ما لم تكن لي سلطة اصمدار الأوامر للقوات ، تحقيقا لمصالح الملك » . فوافق كسرى على منحه تلك السلطة . ثم أمر بابك بإقامة منصة في المكان الذي يعسكر الجيش به ، وفرشها بالسجاد ، والزرابي ، وأمر بإعداد الوسائد ليضطجع عليها . وبعد أن أخذ بابك مكانه بالمنصة أمر المنادي باستدعاء الجيش الذي بالمعسكر للمرور أمامه في جماعات الفرسان بمظاياهم ، وأسلحتهم ، والرجالة بكامل معداتهم . وبنساء على ذلك مرت كل القوات بكامل معداتها أمام منصته ، ومع ذلك لم يشاهد كسرى .

وفي اليوم التالي أبلغ المنادي قوات الجيش بالاستدعاء السابق نفسه ، وللمرة الثانية مرت القوات في جماعات أمام منصة بابك . وللمرة الثانية سمح لهم بابك بالانصراف على أن يعودوا في اليوم التالي طالما لم يشاهد كسرى بينهم . وفي اليوم الثالث أمر بابك المنادي بالإبلاغ بضرورة عدم بقاء أي أحد بالمعسكر ، حتى لو كان يضع على رأسه تاج الملك ، لأن الأمر جده خطير ، ولا يسمح بالتغيب أو الاعتذار عن الحضور . وعندما سمع كسرى ذلك خلع تاجه ، وتسليح مثل جنوده ، وحضر أمام بابك لكي يعرض نفسه للتفتيش الرسمي . واشتملت نوعيات المعدات الحربية للفرسان على صفائح معدنية لوقاية جسد الجواد ، وقميص به دروع ، ودرع لحماية الجسد كله مصنوع من الجلد أو المعدن ، ودروع لحماية الساقين تحت الركبة ، ورمح وترس . وهراوة خشبية مثبتة بحزام ، وبلطة ، وعصا معدنية قصيرة بها أطراف حادة حول رأسها ، وكنانة ، وقوسين لهما أوتار ، وثلاثين سهما ، وأخيرا قطعتين من الحبال مكورتين ومثبتتين في مؤخرة خوذة الفارس . وسار كسرى أمام بابك بعد أن جهز نفسه بكل تلك المعدات السابقة باستثناء عدم وجود قطعتي الحبل بمؤخرة خوذته .

ولم يشأ بابك أن يمر كسرى دون إشارة إليه ، إذ قال : « أيها الملك ، انك تقف أمامي في حالة لا تسمح لي على الإطلاق أن أستثنيك أو أخفف من حدة الموقف وبناء على ذلك عليك أن تتقدم إلى ومعك كل الأسلحة المطلوبة ! » فأدرك كسرى أنه ينقصه قطعتي الحبل المكورتين ثم قام على الفور بتثبيتها في مكانهما . ونتيجة لذلك نادى منادي بابك بصوت عال قائلا : « ان البطل ، وأول الأبطال ، يستحق ٤٠٠١ درهم » .

(**) في النص العربي اسمه بابك بن البروان - المترجم .

ثم أعلن بابك كل الأسماء . وأعطى بابك كسرى درهما واحداً أكثر مما حصل عليه أفضل الجنود . وبعد أن نهض من مكانه ، توجه صوب كسرى وقال : « أيها الملك ان هذا التفتيش العام الذي أشرت به عليك ، يخدم تماماً الهدف الذي يمكنني من أن أبشر عملي بكل كفاءة ومقدرة » .

وفي عهد كسرى أنوشروان ولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، في العام الذي ذهب فيه أبرهة الأشرم ومعه الأحباش إلى مكة ومعه الفيل لهدم بيت الله الحرام ، وكان ذلك بعد مرور اثنتين وأربعين عاماً على حكم كسرى . وفي تلك السنة نفسها حدث هجوم جبلة الذي خلده العرب من أشعارهم عن أيامهم .

ثم صار أردشير بن شيرى ملكاً على الفرس من بعده الفخ . وكان أردشير هذا طفلاً في السابعة ، ولم يكن هناك في ذلك الحين من هو أكبر منه سناً في الأسرة المالكة . ولهذا السبب اختاره كبار رجال الفرس ملكاً . وتعهد القهرمان الأكبر بتنشئته ، وعبرف هذا القهرمان باسم ميه - أدهار - جوسناب .

وأدار هذا القهرمان أمور الدولة بمقدرة حتى أن الشعب لم يلحظ شيئاً من أحداث سنة أردشير . غير أنه ظهر في ذلك الحين سهرباراز (*) الذي كان قد عينه كسرى قائداً حربياً عند الحدود الرومانية ، وأطلق على قواته اسم « السعداء » . وكان كسرى قد كتب إليه عن كل الأمور المهمة ، وطلب مشورته . ونظراً لأن كبار رجال الفرس أغفلوا مشورته عند اجلاسهم أردشير على العرش ، لذلك اعتاد سهرباراز هذا التعبير عن اعتراضاته ، والعمل على سفك الدماء ، واستغل تلك المناسبة من أجل العمل على الاستيلاء على السلطة . ونظراً لاستخفافه بأردشير لصغر سنه ، تحرك سهرباراز ، بكل ثقة واعتداد ، دون أن يعياً بكبار رجال الدولة ، وقرر دعوة الشعب لعقد مؤتمر مهمته شغل عرش الدولة ، ثم تحرك بقواته صوب العاصمة .

وعمل جوسناب من ناحيته على تقوية أسوار وأبواب طيسفون ، وأحضر أردشير إلى العاصمة ، ومعه كل أفراد الأسرة المالكة ، وزوجاتهم . هذا بالإضافة إلى كل الأموال التي بخزانة أردشير ، وكل ما أمكن جمعه من مؤن ودواب . وبلغ عدد القوات الفارسية التي كانت تحت قيادة سهرباراز حوالي ستة آلاف مقاتل ، وهي التي كانت تعسكر على حدود الروم ، واتخذ موقعه بالقرب من طيسفون ، وحاصر الأهالي هناك وقتلهم . وضرب حصاراً حول العاصمة ، بيد أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها . ولما وجد أنه ليس في مقدوره الاستيلاء على المدينة بالقوة ، لجأ :

(*) شهريار في المراجع العربية .

الى الخديعة والمكر ، ودبر هجمات انسمت بالتآمر والخداع ، وذلك بالاستعانة برجل يدعى كسرى الجديد ، وكان هذا الشخص يشغل منصب قائد حرس أردشير ، ومكنه هذا الشخص وآخرون من دخول العاصمة من أبوابها . ولما دخل جوسناب العاصمة القى القبض على القضاة ، وقتلهم ، واستولى على ممتلكاتهم ، واغتصب نساءهم . وبناء على أوامر سهرباراز قتل بعض الناس أردشير في السنة الثانية من حكمه في شهر بهمان ليلا ، وهو في قصر كسرى . وحكم أردشير لمدة سنة واحدة وستة أشهر .

وصار سهرباراز هذا ملكا بالرغم من أنه لم يكن سليلا للأسرة المالكة . غير أنه أصابته حالة من الاسهال ابان اعتلائه للعرش ، لذلك اضطر الى الجلوس على اناء لقضاء حاجته لأن شدة الاسهال لم تتح له فرصة الذهاب الى دورة المياه . ورفض رجل من اصطخر يدعى بوسفروخ بن ماه خورسندان دان وأخويه الاعتراف بسهرباراز ملكا ، وغضبوا لمقتل أردشير ، واغتصاب سهرباراز للعرش ، وفي غمرة احساسهم بالمرارة أقسموا أغلظ القسم ، بكل جدية ووقار ، على استباحة دم سهرباراز . وقد تصادف أن ثلاثتهم كانوا من الحرس الملكي . وكان من عاداتهم الاصطفاف في صفين ، ويحمل كل فرد منهم سلاحه ، وخوذته ، وترس ، وسيف ، ورمح في يده ، وذلك عند قدوم الملك على صهوة جواده . وعندما كان يمر الملك بالقرب من أى فرد من الحرس الملكي كان على هذا الفرد أن يضع ترسه على حافة صهوة جواد الملك ، ويضع جبهته على حافة الصهوة ، كما يفعل عندما يسجد أمام الملك . وفي أحد الأيام سهرباراز ممتطيا صهوة جواده ، ووقف الاخوة الثلاثة ، في صف واحد بجوار بعضهم البعض لتجيته . وما أن صار الملك وجهها لوجه أمامهم حتى سارع الاخوة الثلاثة بالاجهاز عليه . وخر سهرباراز صريعا من فوق جواده ، ثم ربطوا حبالا في ساقه ، وسحلوه . وساعدهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة . وأقاموا بوران Boran ابنة كسرى على عرش الفرس ، بعد أن حكم سهرباراز لمدة أربعين يوما .

اعتلت يوران ابنة كسرى برويز العرش ، الخ . وقالت يوم ارتقاها : « اننى سأتحلى بطهارة الذيل ، وسأنشر العدل بين الناس . » وصكت العملة باسمها ، وأصلحت الجسور المصنوعة من الأحجار والأخشاب وأعفت الشعب من الضرائب المتأخرة ، وبعثت برسائل صريحة الى أراضى المملكة متمنية السعادة للجميع ، وترحمت على الموتى من أفراد الأسرة المالكة . وذكرت في تلك الرسائل أنها تأمل أن يكون الله عوناً لها في مهمتها ، وأن يسدد خطاها ، وأن يجنب البلاد خطر

الوقوع تحت رحمة الحاقدين ، وألا تتعرض قوات الجيش لتصرفاتهم
الرعناء ، ونيران الفتنة ، وأن تسير البلاد بما يرضى الله وطلبت منهم أن
يتحلوا بالطاعة ، وحثتهم على ابداء مظاهر الولاء ومن ثم تضمنت
خطاباتها كل ما هو ضروري . وأعادت الصليب الخشبي الى امبراطورية
الروم . واستمر عهدها حوالي سنة واحدة وأربعة أشهر .

وحكم من بعدها رجل يدعى جوسناسبده Gusnaspdeh . الذى
كان أحد أقارب برويز ، غير أنه لم يكمل شهرا على كرسى الحكم .
ثم حكمت من بعده أزارمدوشت Azarmidocht ، ابنه كسرى
برويز ، الخ . ويقال أنها كانت من أجمل نساء الفرس ، وقالت عند
اعتلائها للعرش : « اننا سنسير على نهج والدنا كسرى المنتصر تماما
بتمام ، واذا ما تجاسر أحد على معارضتنا ، فسنقتله على الفور » . وكان
هرمز أهم كبار رجال الدولة فى ذلك الحين . فسعى الى طلب يد الملكة . وكان
ردها عليه على النحو التالى : « ليس من اللائق أن تتزوج الملكة . ولما
كنت قد فهمت من رسالتك أن هدفك من ذلك هو اشباع رغبتك
الجنسية معي ، لذلك عليك بالحضور الى فى ليلة كذا » . وبالفعل ذهب
هرمز اليها فى الليلة المحددة . وكانت الملكة قد أبلغت من قبل قائد
حرسها بأن يكمن لهرمز فى المكان الذى حددته وأن يقتله فورا . وبالفعل
تم تنفيذ ذلك ، وسجل هرمز فى فناء القصر . وعندما وجد رجال القصر
جثة هرمز ملقاة فى فناء القصر فى صباح اليوم التالى ، قاموا بنقل
الجثة . بيد أنهم أدركوا أنه لم يقتل الا نتيجة لسبب بالغ الخطورة .
وفى ذلك الحين كان رستم بن هرمز ، والذى أرسله يزدجرد فيما بعد
لمحاربة العرب ، يعمل نائبا عن والده ، فى خراسان . وعندما بلغه نبأ
مقتل والده زحف بجيش كبير صوب العاصمة ، واستطاع سمل عيني
الملكة . وقال بعض المؤرخين أنها ماتت مسمومة . وكانت مدة حكمها
سنة أشهر .

العلاقات بين

الامبراطورية البيزنطية والاسلام ابان الفترة

ما بين ٧٧٩ و ٨٣٠ م (١٢)

وواصل هارون (٢١) سيره الى أن عسكر عند قرية فى اراضى
الروم بها قلعة تدعى سامالو Samalu ، وظل محاصرا لها لمدة
ثمانية وثلاثين يوما ، وضرب حصارا حولها الى أن شاء الله له فتحها ،
وهدمها ، بعد أن مات سكانها من الجوع والعطش ، وبعد أن قتل وجرح
عدد من المسلمين .

وبين تلك الأحداث (٧٨٠ - ٧٨١ م) ، تلك الغارة التي شنها عبد القادر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وتقدم البطريق ميخائيل للتصدي له ومعه تسعين ألف مقاتل ؛ وكان البطريق تازاذ Tazedh من بين رجاله ، غير ان عبد القادر خاف من تازاذ ، ومنع المسلمين من مقاتلته ، وأمرهم بالعودة ، وأراد المهدي (٢١) قتله ، وبعد أن تشفع له آخرون ، أودع السجن .

ومن بين (أحداث سنة ٧٨١ - ٧٨٢ م) ، كانت الغارة التي حدثت في فصل الصيف بقيادة هارون بن محمد المهدي ، وكان والده قد أرسله ، في يوم السبت الموافق الثامن عشر من جمادى الآخرة ، للاغارة على أرض الروم ، وعين مولاة الربيع لاصطحابه ، ودخل هارون بلاد الروم ، وفتح ماجيدا Magida . وقابلته فرسان نيقيتاس Niketas نبيل النبلاء ، وتصدي له زيد بن مزيد . وانتظر زيد بعض الوقت ، ثم انقض فجأة على نيقيتاس ، وسدد اليه ضربات موجعة ، الى أن الحق به هزيمة منكرة . وأجبر زيد الروم على الفرار ، واستولى على معسكرهم . واستطاع زيد دخول نيقوميديا Nikomedeia . وواصل هارون تقدمه الى أن وصل الى خليج البحر المطل على القسطنطينية ، وكانت أوغوسطا Augusta ، زوجة ليو Leo ، هي التي تحكم الروم ، في ذلك الحين ، لأن ابنها كان طفلاً ، وكان والده ، قد مات ، وكانت هي الوصية عليه . وتم تبادل الرسل والسفراء بينها وبين هارون بن المهدي ، بهدف تحقيق السلام وتسوية الخلافات ، ودفع فدية . ووافق هارون على مطالبها في الوقت الذي فرض فيه شروطه عليها فيما يتعلق بالفدية ، ووافقت على ماطلبه . وكان ثمن شراء السلام من هارون تسعة آلاف أو سبعة آلاف دينار ، وقامت الامبراطورة بسداد الأقساط في شهرى ابريل ويونيه من كل عام . وكانت الامبراطورة ترسل الى هارون الفدية ذهباً ، وفضة ، وسلعاً تجارية . وتم التوقيع على هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وكذلك تبادل الأسرى ، وكان تحت يدي هارون ٦٤٣ ، أسيراً ، بعد أن قتل من الروم ٥٤٠٠٠ ، بالإضافة الى موت ٢٠٩٠ أسيراً بالسجن . وغنم هارون عشرين ألفاً من دواب الحمل ، وذبح مائة ألف من الماشية والأغنام التي كانت في حوزة الروم . ووقع في يدي هارون مائة ألف من القوات النظامية باستثناء التجار والقوات المتطوعة . وبيع الحصان بدراخما واحدة ، والبغل بأقل من عشرة درخمات ، والصديري الحربي Cuirass بأقل من درخماً واحدة ، وبيع عشرون سيفاً بدرخما واحدة .

وابان أحداث سنتي (٧٨٢ - ٧٨٣ م) ، قطع الروم علاقات السلام مع هارون وكان غدرهم في شهر رمضان (١٧ مارس - ١٥ ابريل) من تلك السنة . وكانت الفترة ما بين عقد اتفاقية السلام ، ونقضها اثنتين وثلاثين شهرا .

وفي تلك السنة (٨٠٢ - ٨٠٣ م) ، أرسل هارون ابنه القاسم في احدى الغزوات الصيفية ، ثم عينه واليا على العواصم .

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شهر شعبان (٢٥ يوليو - ٢٢ أغسطس) ، وحاصر كورا (Koron) Kurra . وشدد الحصار حولها ، وأرسل العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ، الذي حاصر قلعة سينان Sinan ، الى أن عانى جند العدو من البلاء الشديد . وعرض عليه الروم تسليمه ٣٢٠ من الأسرى المسلمين مقابل أن يرجع عنهم ، وقبل القاسم العرض وعاد بسلام .

وفي هذه السنة نقض امبراطور الروم اتفاق السلام المعقود بين سلفه والمسلمين ورفض مواصلة سداد ماتهتد الامبراطور السابق يدفعه لهم .

ويرجع سبب نقضهم لاتفاق السلام مع المسلمين (والمعقود في عهد الامبراطورة رينا Rina مع المسلمين) ، هو أن الروم ثاروا ضد هذه الامبراطورة وعزلوها ، واختاروا نقفور Nitephoros ، امبراطورا بدلا منها . وذكر الروم أن نقفور هذا سليل جفنة الغساني ، وأنه كان يشغل وظيفة مراقب مصادر الدخل الحكومي ، قبل اعتقاله العرش . ثم ماتت رينا بعد خمسة شهور من عزلها . ويقال أن الروم أعلنوا ولاءهم التام لنقفور ، ومن ثم كتب خطابا الى هارون قائلا له :

« من نقفور ملك الروم ، الى هارون ملك العرب ، أما بعد . . . فان الملكة التي كانت قبلي ، أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك » (٢٣) .

وعندما قرأ الرشيد رسالة نقفور استشاط غضبا ، الى الحد الذي لم يجرؤ فيه أحد على النظر اليه ، أو أن ينبت بينت شفة ، وابتعد عنه أهل بيته ، خشية أن تزداد حدة غضبه بفعل أى كلمة أو حركة من جانبهم ، وكان وزيره فى حيرة من أمره : هل يقدم له المشورة ؟ أم يتركه وحده لتأملاته العميقة ؟ ثم طلب هارون مجبرة ، وكتب الرسالة التالية على ظهر رسالة نقفور :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم .. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » (١٤) .

ثم نهض فى اليوم نفسه وتحرك بجيشه الى أن وصل الى أبواب مدينة هرقله ، وجمع الأسرى والغنائم ، وأخذ معه الأشياء النفيسة ، وذبح وخرّب ، ودمر ، وحرّق ، ومحا من الوجود أشياء كثيرة . فاضطر نقفور الى طلب عقد معاهدة يتعهد فيها بنفع اتاوة سنوية ، ووافق هارون على هذا الطلب . وعندما عاد هارون من غزوته ، ووصل الى أنزقة ، خرّق نقفور المعاهدة ، ونقض الاتفاق . ولما كان البرد قارسا ، لذلك كان نقفور واثقا من عدم عودة هارون للقاءه .

ومن بين أحداث هذه السنة (٨٠٣ - ٨٠٤ م) ، حدثت غزوة ابراهيم بن جبريل فى الصيف ، واجتياحه بلاد الروم فى اتجاه طريق الصفصف Al Safsaf .

وخرج نقفور للقاء ابراهيم ، ولكن وصلت أنباء الى الامبراطور جعلته يغير اتجاهه ولم يلتق بابراهيم . غير أن نيقفور سقط فى كمين لجيش من المسلمين ، فأصيب بجراح ثلاثة ، ومضى بهزيمة منكرة . ويقال أن الروم خسروا فى هذا اللقاء ٤٠٧٠٠ مقاتلا ، بالإضافة الى أربعة آلاف من دواب الحمل غنمها المسلمون .

وفى هذه السنة (٨٠٤ - ٨٠٥ م) ، تم اقتداء الأسرى بين المسلمين والروم ولم يبق مسلم واحد فى بلاد الروم دون دفع فديته . وقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك : « وحصل الأسرى على حريتهم ، بعد أن كانوا فى سجون عالية الأسوار ، وبعد أن كانت سجون المشركين قبورا للأسرى المسلمين ! » .

وفي السنة نفسها تحرك الروم لخوض غمار الحرب في أنازاربوس Anazarbos وكنيسة السوداء Kanisa Al Saudaa ، واجتاحوا البلاد ، وغنموا الأسرى واسترد أهالي المصيصة Mopsouestia كل ما كان في حوزتهم . وفيها استولى الرشيد على هرقله ، وانتشرت قواته وفرسانه ، في بلاد الروم ، وبلغ عدد قوات هارون المنتظمة حوالي ١٣٥٠٠٠ مقاتل ، بالإضافة الى الاتباع ، والمتطوعين ، وغيرهم ممن لم يتم تسجيل عددهم

ثم ذهب هارون الى طيانا Tyana وعسكر بها . ثم انتقل من هناك ، وترك عقبة بن جعفر قائدا بعد أن أمره بإقامة موقع حربي في ذلك المكان . وأرسل نيقفور الى الرشيد الاتاوة المنتظمة عن نفسه ، وعن خليفته المعين ، وعن كبار رجال دولته ، وعن باقي أفراد الشعب في دولته ، وبلغت هذه الاتاوة حوالي خمسين ألف دينار ، دفع منها نقفور أربعة دنانير عن نفسه ، ودينارين عن ابنه ستوراكيوس Stauracius ، وأرسله مع اثنين من كبار رجال دولته ، بخصوص احدي سبايا هرقله ، وكان نصه : « الى عبد الله ، هارون أمير المؤمنين ، من نقفور ، ملك الروم . سلام لك . أيها الملك لي رجاء عندك ، هذا الطلب لن يؤذيك في دينك أو في دنياك ، اذ هو موضوع بسيط ويسير ، أرجوك أن تسمح لابني بالحصول على احدي السبايا ، وهي مواطنة من أهالي هرقله ، كنت قد خطبتها كزوجة لابني ، وأرى من الحكمة أن تساعدني في ذلك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، .

وطلب نقفور من هارون أن يرسل اليه بعض العطور واحدي خيامه . وأمر الرشيد بالبحث عن هذه الفتاة ، وتم احضارها اليه ، وبناء على أوامره ، تزينت ، وارتدت الثياب الفاخرة ، وجلست على عرش في خيمته التي كان يعيش بها ، ثم استلمها . . مبعوثا نقفور ، وأعطاهما هارون تلك الخيمة وكل ما بها من أواني وأدوات اعداد الطعام ، وما كان بها من أثاث .

وأرسل هارون الى نقفور العطر الذي طلبه ، كما أرسل اليه بعضا من التمور والتين والزبيب والعسل الأسود وقام مبعوثو الرشيد بتقديم كل هذه الأشياء الى نقفور وتعهد نقفور بألا يهدم قلعة سنان أو غيرها . وتعهد الرشيد بدوره الا يعمل على استرداد هرقله وتعهد نقفور بدفع ثمانمائة ألف دينار الى الرشيد .

أوتو الفريزنجى

ولد أوتو الفريزنجى Otto of Freising ، حوالى سنة ١١٠٠ م فى أسرة بينبرج Babenberg الألمانية العريقة . وهو « المؤرخ المدقق الرائد فى القرن الثانى عشر » (١) . أما والده فهو ليوبولد الثالث ، حاكم النمسا ، ووالدته أجنس Agnes ، ابنة هنرى الرابع امبراطور ألمانيا . ونال أوتو مكانة عالية بارتباطاته العائلية من جهة والدته التى كان زوجها الأول فريديريك من هوهنشتوفين Frederick of Hohenstaufen دوق سوابيا . وهذه الصلة الاجتماعية جعلت أوتو أخا غير شقيق لكونراد الثالث Conrad III الذى تولى الملك (١١٣٨ - ١١٥٢ م) ، وعماً لفريديريك بربا روسا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) ، الذى خلف كونراد وتزوج هنرى ، شقيق أوتو ، والذى كان دوقاً للنمسا ، إحدى الأميرات البيزنطيات . ويمكن أن تفسر صلة النسب تلك اهتمام أوتو الشديد بالتاريخ البيزنطى .

وفى سنة ١١٢٧ م أو ١٢٢٨ م شد أوتو الرحال الى باريس للحصول على قدر من التعليم يؤهله لمنصب أسقف ، وهى وظيفة ضمنيتها له علاقاته السياسية . (كان أوتو الابن الأصغر ، ومن المحتمل أنه تم اعداده لخدمة الكنيسة منذ نعومة أظافره) . ولم يذكر أوتو أسماء الذين تعلم على أيديهم فى باريس . على أن الاهتمام الذى أبداه تجاه أبلرد Abelard وجلبرت دى لابوريه Gilbert de la Porrée فى كتابته يوحى بأنه قد درس على يد الأول أو الثانى . وربما استمع أوتو أيضاً الى محاضرة هوج السانفيكتورى Hugh of St. Victor ، لأنه تأثر بفكره بشكل واضح . وفى سنة ١١٣٣ م . وبعد أن قضى أوتو خمس سنوات فى

باريس ، شهد الرحال صوب موطنه ، بيد أنه قطع رحلته في دير
 السسترشيان ، في موريموند Morimond ، في شرق شامبين
 Champagne . ولقد تأثر أوتو بالطابع الديني للجماعة لدرجة أنه
 فضل البقاء بين الرهبان الى أن اختاروه رئيسا للدير بعد عدة سنوات .
 وفي سنة ١١٣٧ م تمت رسامته أسقفا على فريزينج ، في غرب بافاريا .
 ويبدو أن أوتو قد زار ايطاليا في نهاية سنة ١١٤٥ م ، وتعرف
 على البابا أوجينيوس الثالث Eugenius III . واصطحب أوتو أخاه
 غير الشقيق كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية التي جانبها التوفيق
 (١١٤٧ - ١١٤٩ م) ، وعلى الرغم من أنه لم يكتب تاريخا عن تلك
 الحملة الحربية - وفسر سبب ذلك أن هدفه ، « ألا يكتب عن مأساة ،
 وإنما يكتب عن تاريخ يبعث على البهجة » (٢) . لذا وصف أحداثا
 عرضية عديدة ، بما فيها الفيضان المفاجئ الذي أغرق جزءا من الجيش
 الصليبي ، الذي كان على مقربة من القسطنطينية . وكان أوتو من بين
 القلة المحظوظة التي نجحت في الوصول الى بيت المقدس ، ودخلت المدينة
 في يوم أحد السعف ، في الرابع من ابريل ، ١١٤٩ . ولا يوجد سوى
 النزر اليسير عن تاريخ حياته . وتذرع بالمرض سنة ١١٥٤ م ولم يصطحب
 فريديك الأول برباروسا الى ايطاليا . وبعد ذلك بأربع سنوات ،
 انتابه بعض الاحساس بدنو أجله ، فقام بزيارة دير موريموند . ومات
 هناك في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١١٥٨ م ، ودفن بالقرب من
 المذبح العالي في كاتدرائية فريزينج .

وتحت أيدينا الوصف الودي عن شخصية أوتو ، الذي كتبه رهيون
 Rahewin ، سكرتير الأسقف ، والذي قام باكمال (الأعمال the Deeds)
 . لم تكن ثقافته عادية في مجال الآداب ، باعتباره الأول أو من بين
 أوائل أساقفة المانيا . ففي الحقيقة اذا ما استثنينا المامه التام بالأسفار
 المقدسة ، والتي كان له فيها باع طويل من ناحية معرفة معانيها الموجزة
 والخفية ، فقد استطاع من الناحية الواقعية ، أن ينقل الى بلادنا أروع
 انجازات الفلاسفة ، وكتب أرسطو : عن الموضوعات Topics والتحليل
 المنطقي Analytics والمناظرات Elenchics . وبسبب
 ذلك ، وبالإضافة الى انجازاته الأخرى ، ووثوقه من معرفته للشئون
 الدنيوية ، ومن فصاحته ، فانه كثيرا ما كان يتحدث ، بكل اعتزاز ، عن
 المسائل الكنسية أمام الملوك والأمراء . ولقد أكسبته سمعته الطيبة
 الناجمة عن كل ما تقدم ذكره ، المديح والاطراء ، على أن هذا الثناء - كما
 يحدث في العادة - أثار قدرا من الحقد والحسد ليس بالقليل ، ومع
 ذلك فقد استطاع تجنب مكائد خصومه ، والنجاة من تعليقاتهم ، دون

أن يصاب بأذى ودون أن يهتز قيد أنملة ، إذ كان رجلا فاضلا بكل معاني الكلمة ، (٣) .

ويرتكز تفوق أوتو ككاتب للتاريخ على مؤلفين . وأشهرهما كتاب تاريخ المدينتين History of the Two Cities (٤) ، وهو عبارة عن حولية تتحدث عن تاريخ العالم وتبدأ منذ بدء الخليقة حتى سنة ١١٤٦ م .

وقام أوتو بكتابة هذه الحولية فيما بين سنة ١١٤٣ و ١١٤٧ م أما الكتاب الثاني فهو أعمال فريديريك برباروسا The Deeds of Frederick Barbarossa الذي بدأه سنة ١٠٧٦ م وتوقف عند سنة ١١٥٨ وهي السنة التي مات فيها أوتو . وقام سكرتيره راهوين Rahewin بإضافة تكملة له حتى وصل به الى سنة ١١٦٠ م . على أن مدى صحة ومصداقية العديد من الأبحاث الفلسفية المنسوبة لأوتو ، وكذلك ما ورد عن تاريخ النمسا ، كان أمرا مثيرا للشك الى أبعد مدى ، مما دفع الباحثون الى تجاهلها على نحو متعارف عليه . وكان أوتو متمكنا من اللغة اللاتينية ، على الرغم من أنه لم يكن ملتزما بالأنماط التقليدية ، إذ كان أسلوبه واضحا وسلسا . وباستثناء الاقتباسات العرضية من أحد المؤلفين التقليديين ، كان أسلوب أوتو خاليا تماما من كل زخرف للصور البلاغية أو التباهي بسعة الاطلاع . ومع ذلك ففي مقدمة كتابه عن الانجازات the Deeds ، والتي وجهها الى ابن أخيه ، تمسك أوتو بميزة الارتفاع فوق المستوى العادي للسرد التاريخي ، وكتب بمستوى أعلى ليكون ملائما للتفكير التأملی :

« ولا يمكن اعتبار ذلك تناقضا مع عمل تاريخي من هذا النوع اذا ما كان الأسلوب رفيعا ، عندما تفرض فرصة الاستطراد نفسها ، من السرد البسيط للتاريخ الى الأرفع - وأعني بذلك الى المستويات الفلسفية الرفيعة . ولم تتعارض هذه العادة عينها مع التفوق المميز للامبراطورية الرومانية في ترصيع المؤلفات البسيطة بما هو أكثر رفعة في المستوى . إذ كثيرا ما قام لوكان Lucan وفيرجيل Vergil والكتاب الآخرون الذين كتبوا عن المدينة the City بالارتقاء بأسلوبهم في التعبير بغية اظهار بعض من الأسرار الأساسية للفلسفة ، وعند الكتابة عن الأحداث التاريخية ، والقصص الخرافية ، وسواء أكان الأمر يتعلق بالرعاة والمزارعين أم بالأمرء وكبار الاقطاعيين . ولهذا فان أولئك الذين تكمن متعتهم في الاستماع الى سجل الانجازات ، وكذلك كل من يمدهم صفاء التفكير العميق بالبهجة والسرور ، يجدون أنفسهم وقد جذبهم هذا الكتاب الى قراءته ودراسته ، (٥) .

وقد يتساءل المرء عن كيفية استطاعة أسقف عمل بكل جد وكده في الشئون الأبرشية والملكية تدير وقت لكتابة التاريخ . وقد تكمن الإجابة عن ذلك في إيمان أوتو العميق ، وفي فلسفته عن الحياة القائمة على الإيمان بالغييب . واعتاد أوتو على أن يذكر القارئ بذلك بصفة مستمرة . ولا ريب أن أوتو وجد في الرسالة الروحية لجماعة الرهبان السسترشيان جاذبية كبيرة ، وهو الشيء نفسه الذي حدث للكثيرين من رجال تلك الفترة عندما وصل ذلك النظام الديرى الى أوج شعبيته . وانخرط أوتو فى سلك الرهبان السسترشيان فى موريموند ، وتولى مسئولية الدير ، وبعد أن ترك الدير عاد إليه حيث لفظ أنفاسه الأخيرة هناك . ولا بد أن أوتو اعتبر نفسه على الدوام أحد الرهبان السسترشيان . وتبلور إيمان الراهب الغيور من جماعة السسترشيان فى أن يفعل المرء فى الحياة الدنيا كل ما يؤهله للنعيم فى الآخرة . ولا بد أن هذا الإيمان الراسخ قد دفع أوتو الى كتابة التاريخ . وفاقت الفكرة القائلة بأن هذا العالم مآله الى زوال بكل ما يحتويه من آلام ، والقائلة بحتمية الموت والحساب ، كل الأفكار التى وردت فى كتابه عن تاريخ المدينتين الذى يعتبر أهم مؤلفاته . وعلى ذلك فبعد أن كتب عن الدمار والخراب الذى لحق بمدينتى قرطاجنة Carthage وكورنث Corinth القويتين والمزدهرتين كتب متأملاً : « ان المحن والبلايا التى أوردنا ذكرها كافية للبرهنة على أن دوام أحوال الانسان من المحال . وطالما أن الكثير قد قيل عن اهتمامات المواطنين بالشئون العالمية ، فإني اعتقد أنه من الواجب علينا أن نهرع الى الانضمام الى زمرة المواطنين الذين يهتمون بالمسيح وبالعالم المسيحى . وعلى ذلك أود أن أذكر القارئ ، أنه كان لزاماً علينا أن نكتب عن صراعات هذا العالم ، لكى تظهر بشاعة الأحداث المتعاقبة ، وان نظرنا المتعقبة الى تلك الأحداث تدفعنا الى الاتجاه صوب سلام مملكة المسيح والسعادة الروحية التى ليس لها نهاية » (٦) .

ومرة ثانية ، وبعد أن ذكر أوتو أن العذراء بوبيلاي Popilia عذراء فيستا (*) عوقبت بالرجم حتى الموت لثبوت علم عفتها ولحقت فى الوقت نفسه تقريباً اكسركسيس Xerxes هزيمة نكراء على أيدي اليونانيين ، فعلق أوتو على ذلك بقوله : « انه لمن الممل أن يتحدث المرء هنا عن شبكة معقدة من الكوارث أو البلايا ، بيد أنى أود أن أكتب باختصار لأشير الى شقاء البشر ، » (٧) .

(*) عذراء فيستال Vestal Virigin هى إحدى الفتيات اللاتى أقسمن على عدم الزواج ، والتفرغ للعمل على استمرار النار المقدسة موقدة فى معبد فيستا Vesta ربة الموقد وأهل البيت عند الرومان - المترجم .

واعتقد أوتو أن تلك الآلام الموجهة بإرادة الله . ففي مقدمته عن
المدينتين Two Cities ، وبعد أن قدم قائمة للمصادر الأساسية التي
رجع إليها ، قال : « سيجد القارئ الفطن في تلك الكتابات ، مادة
تاريخية أقل بكثير من ذكر المآسى المؤسفة الناجمة عن الكوارث المهلكة .
ويعتقد أن كل ذلك حدث بالتدبير الإلهي الحكيم . وفي الوقت الذي
يتكالب فيه الناس على الحياة الدنيا الفانية ، نجدهم وقد شعروا بالزهد
فيها - بفعل قلب أحوال حياة المرء بين الخير والشر - والابتعاد عن متاع
الغرور واللهو ، والاقبال على معرفة الخالق » (٨) .

ومن ناحية ثانية كان أوتو حريصا على أشباع الفضول التقليدي
عند الكثيرين فيما يتعلق بالماضى فكتب يقول : « أخذت على عاتقي أن
أذكر في كتاب المدينتين أنه في استطاعة الباحث المدقق والمجتهد أن
يجد سجلا لأحداث الماضى خاليا تماما من أى غموض » (٩) .

وأعلن أوتو أيضا أن محاولته ثنى أصحاب الطموحات العريضة
عن شن الحروب كانت دافعا له للكتابة عن الأحداث الماضية . ولذلك
كتب عن : « الحروب والممالك » المتداعية ، ليس بهدف تأليب البعض
على غيرهم بذكر الأمثلة عن أولئك الذين تصرفوا بشجاعة ، وإنما لكشف
الستار عن أهوال الحروب ، والأخطار الناجمة عن الأحوال السياسية
المضطربة . « (١٠) . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد حظى الدافع الذى
جعل الناس يكتبون التاريخ ، على موافقته عليه والعمل من أجله : « وهذا
على ما أعتقد ظل هدف كل الذين كتبوا التاريخ من قبلنا : وهو الثناء
على الانجازات المجيدة التى قام بها الشجعان من أجل تحريك قلوب البشر
تجاه الفضيلة ، وإسداد الستار على التصرفات الغاشمة ، أو ذكرها
بهدف تحذير الناس من الاقتداء بها ، إذا لم يكن هناك مفر من
ذكرها » . (١١)

وعندما أهدى أوتو كتاب المدينتين الذى ألفه ، إلى الإمبراطور
فريدريك ، الذى كان قد طلب نسخة من ذلك الكتاب ، أولى أوتو
اهتماما بالغا بمسألة الدافع على الكتابة التاريخية ، إذ قال : « لقد أطعت
أوامرك عن طيب خاطر وبكل سرور ، لأنى أتفق معك فى أهمية رغبتك
وحرصك على معرفة ما فعله الأباطرة والملوك فى الأزمنة الماضية ، وأن
معرفة ذلك ليس بهدف احكام السيطرة على الدولة بقوة السلاح ، وإنما
بتطويع القوانين وتطوير التشريعات أيضا » .

ولفت أوتو نظر فريدريك باعتباره أحد الملوك بأن الكلمات التالية
التي وردت فى الكتاب المقدس هى فى الواقع موجهة إليه مباشرة للعمل

على الأخذ بها : « أيها الملوك ، أيها القضاة ، اسمعوا ، وأنصتوا ، يا من تتحكمون في مصائر البشر ، وتفاخرون بأنفسكم أمام كثير من الأمم ، ان الله العلي القدير سيحاسبكم على أفعالكم ، لأنه هو الذي منحكم السلطة والقوة » . (١٢)

وكان أوتو صريحا عند ذكره الدافع الذي قاده الى كتابة مؤلفه عن المدينتين ، والذي يعتبر أهم أعماله .

وكان هدفه من ذلك الكتاب جعل فريديريك والحكام الآخرين على قدر من المعرفة عند أداء واجباتهم اليومية ، وضرورة أن يتذكروا على اللوام أنهم الى زوال . ولا بد أن الامبراطور فريديريك وجد في كتاب المدينتين الشيء المفيد . « ان معرفة التاريخ . . ستكون مفيدة وضرورية لجلالتكم ، لأنه اذا ما أخذت بعين الاعتبار انجازات الشجعان وارادة الله وجبروته ، الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، والذي بيده الأمر ، فانك ستتقى الله مادمت حيا ، وستنعم بالخير ، وستظل حاكما الى ما شاء الله من السنين الكثيرة) . (١٣)

وبرغم هذه الحياة التي يحاول فيها الملك اتقاء غضب الله في كل تصرفاته ، فانه لا يمكن أن ينجم عنها سوى القليل من السعادة ، والكثير من الشقاء . ولهذا السبب يجب ألا ينسى الملك نهايته الحتمية . « وعلى ذلك التمس احاطة جلالتم علما أنني كتبت هذا التاريخ ، وقد امتلأت نفسي بالاحساس بالمرارة نتيجة للتمرد والفتن التي سبقت عهد جلالتم ومن ثم فاني لم أكتف بذكر الأحداث وفقا لتسلسلها الزمني فحسب ، وإنما عملت على صياغتها على نمط مأساة ، وذكرت مظاهرها المحزنة ، وبذلك انتهت بصورة غير سعيطة ، في كل قسم من الكتب حتى الكتابين السابع والثامن . أما الكتب الأخيرة فقد كان الطابع الغالب عليها هو الحديث عن راحة النفس وحياة النعيم يوم الحساب » . (١٤)

وإذا ما انتقلنا الى البحث في مؤهلات أوتو ككاتب للتاريخ ، فان علينا أولا دراسة المصادر التاريخية التي استقى منها ما قدمه من معلومات اذ كشفت الصفات المميزة لتلك الكتب ، وكذلك الأهداف التي صدرت من أجلها ، عن مدى سعة أفق أوتو في التفكير ومدى موضوعيته في البحث ، ومدى حرصه على أن يكون دقيقا في كتاباته التاريخية . وفي بداية مقدمة الكتاب الأول عن المدينتين ، أحاط أوتو القارئ علما بأعمال الكتاب السابقين الذين رجح اليهم ، ومنهم ، « بومبيوس تروجوس Pompeius Trogus ، وجوستين Justio ،

و كورنيليوس Cornelius (تاكيتوس Tacitus) ، وفارو Varro ، وأوسيبوس Eusebius ، وجيروم Jerome ، وأوروسوس Orosius وجوردان Jordanes ، بالإضافة الى عدد آخر قد استغرق وقتا طويلا لسرد أسمائهم ، (١٥) .

أما بالنسبة للكتابة عن القرن الأقرب للفترة التي عاشها أوتو فقد اعتمد على حولية فروتولف من ميشيلسبرج Frutolf of Michelsberg (ت ١١٠٣) ، وهي الحولية التي قام اكهارد من أورا Ekkehard of Aura باكمالها حتى سنة ١١٠٦ م ، وربما كان أوتو يعرف اكهارد . وذكر باستمرار أنه اعتمد على مؤرخين غير مسيحيين ، من أمثال سيوتونيوس Suetonius ، ويوسفوس Josephus . واعترف أنه اعتمد على مؤرخي أوائل العصور الوسطى ، أروسيوس Orosius . والقديس أوغسطين St. Augustine « سرت على نهج أوغسطين ، وأورسيوس في كتابة هذا العمل الأدبي ، واغترفت من منهلها الفياض كل ما هو وثيق الصلة بفكرتي وهدفي . فقد عالج الأول نشأة وتقدم مدينة الله المجيدة والمناطق المحيطة بها المباركة من الله بأسلوب قوى وبليغ ، موضحا كيف ذاع صيتها بين شعوب العالم ، وذاكرا كيف ظل أهلها أو حكامها في موضع متفوق عبر عصور حكام وشعوب العالم . أما الثاني ، فقد رد على أولئك الذين يتحدثون بشرثرة لا قيمة لها ، عندما فضلوا العصور القديمة على العصور المسيحية فكتب تاريخا قيما عن التغيرات التي تعرضت لها الحضارة الانسانية وعن الحروب وأهوالها ، وعن تبدل العروش منذ نشأة العالم حتى عصره . » (١٦)

وعلى الرغم من أن المصادر التي توفرت لأوتو كانت كافية لاعداد تاريخ عام للجنس البشري ، فإن الهدف الذي حدده لنفسه جعله لا يهتم بالكثير مما كان مكتوبا : وكان هدفه الرئيسي أن يعلم قراءه ، أما عملية الأخبار فتأتى في المرتبة الأدنى . وكانت أمنيته اقناعهم بأن هذه الدنيا متاع الغرور ، وليس بها سوى البؤس والشقاء ، برغم ما تتعطف به من لحظات من السعادة العابرة على المتعلقين بها . وعلى ذلك فعندما واصل الكتابة مبتدئا ببدء الخليقة ، قام بالاستطراد في ذكر الأحداث التي اعتقد أنها تخدم فكرته الرئيسية ، في الوقت الذي مر فيه مرور الكرام على الأحداث التي لا تحمل أى مغزى . وكثيرا ما اختتم أوتو موضوعا فجأة متعللا بأن من سبقه من الكتاب قد أوفوه حقه في البحث ، وأنه لا حاجة له بالاستطراد فيه . بل ان أحداث الامبراطورية الرومانية عالجهما « باختصار شديد بعد أن سرد كتاب كثيرون أحداثها بأسلوب بليغ وبتفصيل تام ، » (١٧)

وبرغم ذلك ، ففي بعض الأوقات ، ذكر أوتو معلومات تاريخية ، يصعب على القارئ أن يجد مبررا لوجودها سواء من ناحية الأهمية التاريخية أم من ناحية علاقتها بالفكرة السامية عن المدينتين *Two Cities* ومثال ذلك تلك الحادثة المتعلقة بالطاغية الصقلي فاراليز *Pharalis* . ولا شك أن أوتو وجد في هذه القصة باعثا على التسلية ، وأنه كان يأمل في مشاركة القارئ له في هذا الرأي ، وأن لها مغزى . فكتب يقول : « قام فاراليز بتعذيب الأبرياء باتباع أساليب تعذيب متعددة ، وأراد بيريلوس *Perillus* وهو أحد العمال المشتغلين في المصوغات البرونزية . أن يتقرب الى الطاغية فاراليز وذلك بأن قدم اليه تمثالا مجوقا على شكل ثور مصنوع من البرونز . وزود التمثال بباب يسمع بدخول من أراد الملك تعذيبه . وعند اشعال النيران تحت الثور البرونز ، يصدر الشخص المعذب بداخله صوتا يشبه خوار الثور . وتقبل الطاغية هذا التمثال بكل ارتياح ، غير أنه أمر بادخال مخترعه في التمثال المذكور وجربه فيه عقابا له على ما اقترفت يدها » (١٨) .

وما أن بدأ أوتو الكتابة عن عصره حتى شعر بأنه أكثر تمكنا من القيام بدوره كمؤرخ . ويبدو أنه اتفق مع هؤلاء الكتاب القدامى الذين اعتقدوا أنه من المناسب ترك تدوين الأحداث التاريخية للمعاصرين لها .

« يقال انه كان من عادة القدماء أن يقصدوا حق تدوين الأحداث على من أدركها بحواسه أثناء وقوعها . لذلك أصبح من العادة اطلاق كلمة « تاريخ » المشتقة من كلمة *hysteron* والتي تعنى باليونانية « يدرك » لأن كل واحد منهم ستكون لديه المقدرة على وصف الأحوال التي شاهدها وسمع عنها بتعمق أكبر . كما أن استغناءه عن الآخرين يجنبه التخبط هنا وهناك في سعيه وراء الحقيقة حيث يتصادم شعوره بالهفة مع الشك والواقع أن من الصعب أن يركن المؤرخ لرأي شخص آخر كما لو كان عاجزا عن التحرى بنفسه » (١٩) .

وعندما وصل أوتو في كتابة تاريخه الى الحديث عن أحداث سنة ١١٠٦ م . أعلن بقدر من الارتياح أنه بدأ يكتب معتمدا على نفسه . ومن قبل هذا التاريخ قمت بالرجوع الى أوريوسوس ، ويوسوبويوس ، والى من كتب بعدهما حتى وقتنا هذا . وبعد هذا التاريخ قمنا بالكتابة اعتمادا على ما شاهدناه بأنفسنا أو سمعناه من أهل الثقة ، حيث كانت الحوادث حديثة العهد في ذاكرتهم » (٢٠) .

وعند استخدام أوتو للمصادر التاريخية أبدى قدرا ملحوظا من الموضوعية وبعد النظر بالنسبة لغيره من كتاب التاريخ في العصور الوسطى . واذا ما بدا أنه يشني على قوة الألمان إلا أن ذلك بأسلوب رقيق للغاية لدرجة أنه لم يضايق أحاسيس القارئ - إلا أنه لم يكن غافلا على الإطلاق عن عيوبهم ونقائصهم . فالملاحظة التي أنهى بها بحثه عن الطريقة التي عزل بها أوتو الأول Otto I الألماني البابا حنا الثاني عشر John XII توضح رغبته في أن يظل على الحياد . إذ كتب يقول : « وسواء أكانت كل تلك الأمور قد تمت بطريقة قانونية أم لا فليس الهدف من هذا الكتاب هو إصدار الأحكام على ما قد حدث ، وإنما قد أخذنا على عاتقنا أن نكتب عما قد حدث فقط . » (٢١)

وأبدى أوتو موضوعية مماثلة تتم عن بعد نظر عند ذكره لمن كان يعرفهم من الشخصيات المعاصرة له . ففي كتابته عن الدعوى القضائية التي أقامها برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux وعدد من الكهنة ضد جلبرت دي لا بوريه Gilbert de la Porreés رفض أوتو الانحياز إلى أحد الطرفين . وعندما نجح جلبرت في نهاية الأمر في تبرئة نفسه من تهمة الخروج على التعاليم الكنسية المتفق عليها ، علق أوتو على ذلك بقوله : « وسواء أكان الأب Abbot كليرفو السالف الذكر قد تم خداعه في هذا الأمر ، نتيجة لسهولة انقياد الإنسان باعتباره بشر ضعيف ، أم أن الأسقف المثقف واللبق تمكن من الافلات من الادانة الكنسية عن طريق اخفاء وجهة نظره بدهاء شديد ، فإن مهمتنا ليست ابداء الرأي أو الفصل في الدعوى القضائية » (٢٢) .

وباعتبار كون أوتو أسقفا وتابعا ملكيا فكثيرا ما وجد نفسه في غاية الاهتمام بالخلاف الذي أثاره المؤيدون لعلو مكانة حقوق الكنيسة أمام حقوق الدولة والمعارضون لذلك الرأي . ومن أهم الأسس التي استند إليها كبار رجال الكنيسة في ادعاءاتهم ما عرف باسم هبة قسطنطين Donation of Constatine . ومنذ القرن الخامس عشر اعتبر المؤرخون تلك الوثيقة مزورة . وفي عصر أوتو اعتُبر كثير من الثامن الوثيقة صحيحة ولا ريب فيها ، ووافق بعضهم على صحتها وإن كانوا قد أنكروا سريان مفعولها ولم يرتب في صحتها سوى القليل منهم . وكتب أوتو عن هذا الموضوع بحذر شديد . وأشار أوتو إلى أنه ما أن منح قسطنطين المسيحيين حرية العبادة ، « حتى قام ذلك الامبراطور برفع مكانة الكنيسة الرومانية إلى حد كبير ، إذ سلم القديس سيلفستر Saint Sylvester بابا روما ، سُنارة السلطة ، ثم ذهب الامبراطور

الى بيزنطة وجعلها عاصمة لدولته . ولهذا السبب ادعت كنيسة روما ان الممالك الغربية تخضع لسيادتها ، على أساس أن قنسطنطين نقل السيطرة عليها الى كنيسة روما ، والدليل على ذلك لم يتردد في تحصيل الاتاوة المنتظمة الدالة على التبعية - الآ من الممالك الفرنجية . بيد أن المؤيدين لسيطرة الامبراطورية على كل أملاك الدولة أكدوا على أن قنسطنطين لم يسلم الممالك الغربية الى بابوات روما وفقا لمفهوم خضوع تلك الممالك لسيطرة كنيسة روما ، وإنما تم ذلك ابتغاء مرضاة الله الذي شاءت قدرته أن تعينهم كهنة - باعتبارهم كهنة الله جلّت قدرته - وعلى أمل أن تحل عليه البركة ، وأن تحرسه العناية الإلهية بفضل صلواتهم . وقدم أصحاب هذا الرأي الدليل على أن قنسطنطين نفسه قسم مملكته ، وأعطى أحد أبنائه القسم الغربي ، وبذلك كانت روما ودول الغرب كلها من نصيب ثيودوسيوس Theodosius ومن جاء من بعده على التوالي ، سواء آكانوا أمراء خاضعين لتعاليم الكنيسة أم غير خاضعين لتلك التعاليم heretics ويقال أنه لم يحدث أن قام حاكم ورع يتسلم أبنائه ما سبق أن قدمه للكنيسة ، أو حاول حاكم كاثوليكي الاستيلاء على أملاك تابعة للكنيسة على أنه ليس الهدف من هذا الكتاب العمل على حسم كل تلك الأمور حسمًا قاطعًا ، (٢٣) .

ومن المتوقع أن يكون القارئ متلهفًا على معرفة كيفية تقديم أوتو نسرده التاريخي عن أشهر حادثة شغلت اهتمام ألمانيا والبابوية في العصور الوسطى ، وأعنى بها ، المعركة التي حدثت بين البابا جريجوري السابع Gregory VII وهنري الرابع ، ولا سيما أن أوتو كان أسقفًا من ناحية ، وحفيدًا للملك الماني من ناحية ثانية . لكن الواقع يقول أن أوتو كان مؤرخًا . إذ ألزم نفسه بتقديم وصف واقعي لكل ما اعتقد أنه قد حدث بالفعل . (٢٤) ، وإذا كانت المبادئ التي تحكمت في قلمه كمؤرخ جعلته لا يبدي أي تقييد للحداثة ، فإنه لم تكن لديه الرغبة في اغضاب السلطات الكنسية أو أقاربه ، ومن بينهم الامبراطور فريدريك برباروسا ، الذي كان ولا بد أن يطلب منه التزام الصمت ، . وفي عهد الامبراطور هنري تدهورت أحوال المملكة تدهورًا شديدًا ، وذلك لتمرد الغالبية العظمى من النبلاء على ملكهم ، وغمرت حمامات الدم ، كل أراضي المملكة تقريبًا ، للخراب والدمار ، فقرر البابا جريجوري السابع اشهار سيف الحرمان الكنسي في وجه هنري بعد أن شق كل التابعين له عصا الطاعة . فآثار قرار البابا المزيد من السخط والاستياء في كافة أنحاء الامبراطورية ، إذ لم يحدث من قبل أن صدر مثل هذا القرار ضد أي امبراطور روماني . لذلك دعا الامبراطور في وقت واحد ،

عددا كبيرا من الأساقفة من إيطاليا ، وبلاد الغال ، والمانيا ، إلى الحضور إلى مدينة بريكسن Brixen في بافاريا Bavaria الواقعة في وسط البرانس Pyrenees . (٢٥) ، بالقرب من وادي ترنت Trent حيث عقد مجعما كنسيا شهيرا . وعندما وصل الجميع . شكوا الامبراطور بمرارة من المظالم التي صببتها الكنيسة الرومانية فوق رأسه ، وأعني بذلك ، انه ، وبدون استشارته (وهو الذي كان ملكا وشريفا رومانيا Patrician) ويتحتم أن تكون له الكلمة الأولى عند اختيار أسقف مدينته) ، قام سكان روما بأنفسهم باختيار كبير الكهنة Pontiff على الرغم من أن والده الامبراطور قام بتعيين كثير منهم ، ودون انتخاب على ما يبدو وصارت مشاعر الجميع أكثر استعدادا للتعاطف مع شكوى الملك والانقلاب على الكنيسة الرومانية ، حيث أن الأمر لم يقتصر على عامة الشعب الذين ثاروا لاعتبارات الشرف المدني ، وإنما امتد ليشمل الأساقفة الذين حرضهم رجال الدين التابعين لهم ، وبخاصة بعد أن أمر البابا نفسه بمنع زواج رجال الدين في ذلك الحين ، وهكذا أعلن الجميع تأييدهم لمطالب الملك ، وعلى ذلك أعلن الجميع رأيهم وذلك بالغاء التعيين السابق ، وتم اختيار جيوبرت Guibert رئيس أساقفة رافنا Ravenna وأطلق عليه اسم كليمنت . Clement (أو ديمنت ! Dement) (٢٦) وتم اختياره أسقفا لمدينة روما بموافقة الملك ، أما جريجورى السابع ، فقد تم خلعه بعد أن وصفوه بأنه راهب مخساع ومضلل ودجال وبعد ذلك حشد الملك جيشا كبيرا وغزا إيطاليا . وما أن وصل هنرى في تقدمه إلى مدينة روما حتى قام بعزل جريجورى وسط استجسان الشعب الروماني لذلك العمل ، وأجلس مكانه جيوبرت على الكرسي البابوى وتسلم منه لقبى امبراطور وأغسطس . ولما كان جريجورى ، وهو الكاهن المبجل ، يعاني من الاحساس بالاضطهاد ، لذلك انتقل إلى أقاليم توسكاني Tuscany الجبلية الأكثر أمنا ، ومنها إلى أراضي الكونتس ماتيلدا Countess Matilda إحدى قريبات الامبراطور . وبقي جريجورى هناك لفترة من الوقت ، وظل يكرر قرار الحرمان الذى أصدره ضد الامبراطور هنرى في خطابات أرسلها إلى أماكن كثيرة ، وحرص أمراء المملكة ضد الامبراطور . ثم ذهب إلى كمنباى Campania وأبوليا Apulia ثم اتجه إلى إحدى مدن النورمان التي صارت تحت أيديهم في عهد قائدهم روبرت جوسكارد Robert Guiscard وظل جريجورى هناك إلى أن وافته المنية ، (٢٧) .

وعلى الرغم من أن أوتو قد اتخذ موقف الحياد من باب الحكمة فى الأمور البالغة الحساسية كالتى ذكرناها بعاليه ، فانه كان مدركا

تماما لمسئوليياته كمؤرخ يتحتم عليه أن يقول الحقيقة . واورد ذكر تفاصيل كثيرة في خطاب ارسله الى رينولد من داسيل Rainald of Dassel مستشار فريديريك الأول برباروسا . وطلب أوتو من رينولد أن يكون متعاطفا معه عند تفسيره لبعض الأمور التي ورد ذكرها في كتاب المدينتين Two Cities التي قد تسبب أي استياء عند الملك . فقد كتب يقول : « يكتب المؤرخون وفقا لمنهج محدد اذا يتركون الغث . ويتجنبون ذكر الأكاذيب ، وينتقون المعلومة الصادقة ويعرضونها بكل دقة . لذلك أرجو ألا تتضايق سموكم أو (كما سبق أن قلت قبل ذلك) أو ألا تفسر الأمر على نحو غير مستحب أمام الامبراطور اذا ما ظهر فيما كتبتة من مادة تاريخية وجود موضوعات محددة تحدثت عن نقد لأسلافه أو أجداده على أن وضع الحقيقة موضع الاحترام بالقدر الذي يجعل من الأفضل عرضها بين الناس خير من الغاء عمل المؤرخ عن طريق اخفاء رأى غير مستحب بهدف طمس الحقيقة » (٢٨) .

والواقع أن هذا أسلوب رائع جدير بمؤرخ شجاع . ومن المحتمل أن أوتو لم يكن على هذا النحو من الالتزام بصفة دائمة . فعلى سبيل المثال ، لم يذكر في كتابه عن الأعمال The Deeds الأحداث التي جرت فيما بين ١١٢٧ - ١٢٣٥ م والتي لم تضاف سوى القليل من المجيد والفخار لبيت هوهنشتاوفين Hohenstaufen (٢٩) وبرغم ذلك فانه فعل هذا الأمر في الكتاب الذي كتبه خصيصا لقريبه فريديريك برباروسا ، ويستطيع الناقد المدقق أن يؤكد على عدم ذكره معلومات كان من الممكن أن تكون مثيرة للغضب والاستياء . وعلى وجه العموم يستطيع المرء أن يجد قدرا من الصحة لا يستهان به عند أوتو : « اذ لا يستطيع أحد أن يتهمنى بالكذب في الأمور التي - اذا ما قورنت بالعرف السائد في الوقت الحالي - قد يصعب تصديقها ، اذ أنها مازالت حديثة العهد في ذاكرتنا حتى وقتنا هذا وهي التي قمت بالكتابة عنها اضافة الى ما وجدته من كتابات لأهل الثقة ، والتي لم أتخير منها سوى القليل من بين الكثير » (٣٠) .

وحتى لا يبتعد أوتو عن تلك القاعدة نجد أنه قد أبدى بعض المخاوف ، بين الفينة والفينة ، التي تتعلق بمدى صحة بعض المعلومات عن طريق اضافة تعبير « يقولون ان » أو « يقال ان » . ويظهر مثال واضح لمثل هذا التردد في سرده التاريخي المتعلق بالقس حنا Prester John تلك الشخصية البارزة الأسطورية . وهو أسقف سرياني ذهب الى أنطاكية لبحث أمور متعددة مع البطريك ، وقال ابان وجوده هناك :

أنه منذ عدة سنوات كان هناك شخص يدعى حنا ، وكان ملكا وقسا ، ويسكن فيما وراء بلاد الفرس وأرمينيا في أقصى الشرق ، والذي كان يدين هو وشعبه بالمسيحية على المذهب النسطوري ، وشن حربا ضد ساميردي Sāmiardi صديق الفرس الساميردي ، ملكي الفرس والميديين الشقيقين، وتمكن حنا هذا من اقتحام اكباتانا Ekbatana (عاصمتهم) ، وهي التي سبق أن تحدثنا عنها من قبل . وعندما التقى الجيشان حدثت معركة استمرت لمدة ثلاثة أيام نظرا لأن الفريقين كانا على استعداد للموت عن أن يلوذا بالفرار . ونجح القس حنا Prester John في إجبار الفرس على الفرار ، بعد مذبحه مروعه ، انتهت بانتصاره . وقال أنه بعد هذا النصر تحرك بجيشه لمساعدة الكنيسة في بيت المقدس ، بيد أنه عندما وصل الى نهر دجلة لم يتمكن من نقل جيشه عبر النهر بأى وسيلة ، فاتجه صوب الشمال ، اذ علم أن مجرى النهر كان متجمدا . . . ويقال أنه من السلالة المباشرة للمجوس الذين ورد ذكرهم في الأناجيل الأربعة القانونية ، وأنه سيطر على الشعوب نفسها التي كانوا يحكمونها ، وأنه تمتع بشهرة عظيمة وثروة لا حصر لها ، وبرغم ذلك فلم يستخدم ضولجانا باستثناء الزمرد . ويقول الناس أنه اتخذ من آباته القدوة الحسنة ، بحماس شديد ، عندما ذهبوا لتمجيد المسيح في مذوده اذ عقبت العزم على الذهاب الى بيت المقدس ، بيد أنه لم يتمكن من ذلك للسبب المذكور بعاليه ، (٣١) .

وأبدي أوتو مقدره على الحكم على الأمور بعين ثاقبة عند وصفه لموت تيومو Tiuemo أسقف سالزبرج Salzburg وعلى الرغم من قبوله للرواية التي ذكرت عن استشهاد هذا الأسقف على أنها من مصادر موثوق بها فإنه صرف النظر عن بعض المعلومات المتعلقة بموته باعتبارها كاذبة . وكان الامبراطور أليكسيوس Alexius قد اعتقل هذا الأسقف المذكور ابان عبوره أراضي آسيا الصغرى ، متوجها الى بيت المقدس ، وسلمه الى ملك ميمفيس Memphis وفيما يلي وصف أوتو لتلك الحادثة . « يقولون أن الأسقف المبعجل تيومو Tiuemo صدر اليه أمر بعبادة الأوثان . وبعد أن طلب فترة ارجاء لعبادة الأوثان (وحصل عليها) ، دخل المعبد ، ونظرا لأنه كان يتمتع بعقل سليم وجسد قوى ، قام بتحطيم الأوثان التي كان عليه أن يعبدها ، وأثبت بذلك أنها ليست آلهة وإنما من صنع الانسان . لذلك اقتادوه ، وهد أن عانى من آلام التعذيب الوحشي بكل أنواعه ، توجه بتاج الاستشهاد المجيد . واذا كان من الموثوق به أنه ذاق الموت لايمانه بالمسيح ، الا أنه من الصعب

التصديق أنه حطم الأوثان ، ذلك لأن المعروف في كل أنحاء العالم أن المسلمين يعبدون الها واحدا فردا صمدا « (٣٢) .

ومن الواضح أن أوتو أدرك ادراكا كاملا أن مصادره - حتى أولئك الذين كانوا على استعداد أن يكتبوا بصدق وأمانة - كثيرا ما قدموا روايات مختلفة للحادثة الواحدة ، وذلك وفقا لمدى ولائهم وتحيزهم . واستشهد بموقف الكتاب الكلتيين الذين كتبوا روايات مختلفة عما حدث عشية موت كونراد الأول Conrad I سنة ٩١٨ م . وعلل أوتو حدوث ذلك التضارب في الروايات بين الكتاب لأن كل واحد منهم حاول الاطراء على دولته قدر استطاعته . أما أوتو فقد وعد بأن يلتزم « بالموقف المحايد في هذه الأمور » وأن يعرض بالنواجز على خيط الحقيقة . . وأن يستعين بالله حتى لا ينحاز يمينا أو يسارا « (٣٣) .

وإذا كان أوتو لم يبد سوى الموضوعية الكاملة في كتابه « الأعمال » Deeds والذي كتبه خصيصا الى قريبه فريدرىك الأول برباروسا ، فان ذلك هو كل ما يتوقعه المرء من أشد المؤرخين تدقيقا . ومع ذلك ، فلا ريب أن هدفه من هذا الكتاب تزويد قريبه بالعلم والمعرفة في مجال مسئولياته وبالقدر نفسه اعلامه عن أحوال الماضي . ولذلك للمرء أن يفترض أن بعضا من الثناء والمديح الذي طرحه على فريدرىك كان المقصود به تشجيعه على مواصلة ما فعله وتحديد معالم طريقة التصرف التي يجب عليه الالتزام بها حتى يحظى برضاء الله عليه . وفى أواخر سنة ١١٥٤م قاد فريدرىك جيشه الى ايطاليا عبر جبال الألب . وتعرض جنوده لمشقة نفاذ المؤن الغذائية لأن المنطقة بالقرب من فيرونا Verona كانت جبلية الى حد كبير ، كما قام هؤلاء الجنود بالاعتداء على حرمة بعض المعابد والمزارات فى المنطقة وسلبوا ما بها من مقتنيات نفيسة وقيمة . وقدم أوتو وصفا لتلك الحملة فيما يلي « وباختصار ، لما كان الجيش غير قادر على اجتياز طريقه بين المناطق الجبلية الشديدة الوعورة ، وتعذر عليه الحصول على ما يسد رمقه ، لشدة حالة الجذب الشديد التي تعاني منها تلك المنطقة ، لذلك كله دفعتهم الحاجة الماسة لانتهاك حرمة الأماكن المقدسة . ومن أجل التكفير عما حدث - برغم أن ما حدث تم تحت الضرورة الملحة - أمر الملك بجمع تبرعات من كل المقاتلين بجيشه . وأصدر قائد الجيش أوامره بتسليم تلك المبالغ التي بلغت قيمتها حثا لا يستهان به الى أسقفى مدينتى ترينت Trent وبريكسين Brixen لتوزيعها على المناطق التي بها مزارات للقديسين وتضررت من عدوان الجند عليها . وهكذا نهض ذلك القائد بأعباء مهمة اقرار العدل والخير

العام مؤديا بذلك دور قائد شهم . وقبل أن يبدأ ذلك القائد في تحقيق انجازاته الرائعة ، عقد العزم على العمل وفقا لما يرضى ملك الملوك ، وخالق كل شيء ، والذي بدون مشيئته لا يمكن الاقدام على عمل أى شيء أو انجازه بنجاح ، وأدرك أنه لا بد من تجنب الأعمال التي ينجم عنها حلول غضب الله على عباده ، (٣٤) .

وإذا كان أوتو قد سمح لنفسه بالتعبير عن قدر من المحاباة عندما كتب عن قريبه فريدريك ، فإنه انساق مع حالة العداء التي أفضحت عنها أسرته تجاه عشيرة وتلسباتش Wittelsbach والعداء التقليدى تجاه عائلة بينبرج Babenbergs ولذلك فإنه وصف الأمير الذى كان يدعى أوتو أيضا : « على أنه كان على مثال والده الخائن والظالم ، والذي كان قد فاق كل أسلافه فى الخبث والحق الأذى ، أنه حتى يومنا هذا لم يتوقف عن اضطهاد كنيسة الله » (٣٥) . ومن النادر أن لجأ أوتو الى مثل ذلك القدح . وربما كان اريوس Arius هو الشخص الأخير والوحيد الذى تعرض لمثل ذلك التشهير . « الذى لا يدانيه أحد فى الدناءة والحقارة على الاطلاق » (٣٦) وعلى الرغم من أن ادانة أوتو للامبراطور نيرون Nero (٣٧) كانت شديدة أيضا فإنها تساوت مع ادانات كل المؤرخين المسيحيين والوثنيين لذلك الحاكم الرومانى .

وبصفة عامة أبدى أوتو اعتدالا فى التعبير عن آرائه عندما كتب عن الشخصيات التى كان يكرهها أو الذين تعارضت سياساتهم مع استقلال أبناء وطنه من الألمان وأفراد أسرته ولم يحدث أن ذكر أوتو نفسه الا عرضا . وذكر أوتو النص الكامل لخطاب البابا أيوجنيوس Pope Eugenius الذى أرسله الى ألمانيا ، والذي هاجم فيه البابا الأساقفة الألمان ، وأنهى أوتو الخطاب بالتعبير عن موافقته على الاجراء الذى اخذه الملك كونراد Conrad ، عندما عين أحد رجاله على الكرسي الأسقفى فى مجدبرج Magdeburg (٣٨) وعبر أوتو على رفضه بكل صراحة ودون تحيز للأسلوب الاستبدادى الذى انتهجه شقيقه ليوبولد Leopold حاكم النمسا الألمانى : « قام ليوبولد باحتلال بافاريا عنوة بعد أن تحرك بجيش أحسن تسليحه الى أن وصل الى لتش Lech ودمر التحصينات التابعة لبعض أعدائه هناك ، وخرّب كل المناطق الريفية المحيطة ، وعاد عبر أراضينا ملحقا الكثير من الأذى بكنيستنا » (٣٩) .

وكان أوتو خريصا على تجنب ابراز أهمية خاصة عن أجداده أو أفراد أسرته فسيجد القارىء صعوبة فى تحديد اسم والده بين الذين وافتهم المنية وذكر أسماءهم فى الفترة ما بين ١١٣٦ - ١١٣٧ م (٤٠) . وبرغم

ذلك ، فقد يخامر المرء بعض الشك عندما يجد أوتو يكتب عن النصر الذي
أحرزه هرمان Hermann (أرمينيوس Arminius) أحد « أجداده »
على الرومان في غابة تيتوبرج Teutoberg في العام التاسع للميلاد .

« وفي الوقت الذي كان فاروس Varus يتحرك فيه بكل
شراسة ونهم - كما هي عادة الرومان - صوب المغلوبين على أمرهم ، تمكن
الجرمان من القضاء عليه وإبادة الفرق الثلاث التي كانت معه . ويقال
أن أغسطس Augustus تأثر بشدة نتيجة لتلك الكارثة التي حلت
بالجيش الروماني حتى أنه كثيرا ما تعمد ضرب رأسه في الحائط من
شدة شعوره بالحزن والأسى ، وهو يقول : يا كونتيلْيوس فاروس !!
Quintilus Varus أعد لي فرقي الثلاث » وكتب سوتونيوس
Suetonius أن هذه الحرب بين الرومان والألمان - والتي كانت
صراعا شرسا ومريرا ، منذ الحروب الأفريقية الأشد ضراوة - استمرت
حامية الوطيس لمدة ثلاث سنوات شاركت فيها خمسة عشر فرقة . ومن
ثم يمكن لنا أن نستنتج مدى قوة تلك القبيلة الألمانية ، إذ أنها استطاعت
أن تحدث هذا القدر من الخراب والتدمير في الجيش الروماني في الوقت
الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية في أوج قوتها ، (٤١) .

وتحددت فكرة أوتو عن الكون ومكانة الانسان فيه في تفسيره
للتاريخ أو في فلسفته التاريخية وكانت فكرة أوتو تلك هي من الناحية
الواقعية فكرة القديس أوغسطين ذاتها التي أعلنها في كتابه مدينة
الله the City of God وكرر هذا الرأي بدورة الفكرة المفهومة ضمنا
في الأناجيل الأربعة القانونية ، ويعني بها أن الله هو الخالق . وأنه
يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأن بيده الأمر في الحياة الدنيا
ويوم الحساب وليس الانسان هو الوحيد الذي يتصرف باعتباره مصيرا ،
وانما يمتد ذلك ليشمل الكون كله والحركة التاريخية . وكان أوتو
قد عبر عن موافقته على تقسيم العصور الستة التي ذكرها أوغسطين ،
ونعني بها ، العصر الأول من آدم حتى طوفان نوح ، والثاني من الطوفان
الى ظهور ابراهيم ، والثالث من ظهور ابراهيم الى ظهور داود ، والرابع
من داود الى الخروج من مصر في عهد موسى ، والخامس من الخروج الى
تجسيد المسيح ، والسادس هو عصر النعمة الالهية ويتفق أوتو مع
أوغسطين على تحديد العصر السادس بمولد المسيح ، وفي اعتقاده بأن العصر
الآخر أوشك على الانتهاء ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها . فكتب أوتو
قائلا : « لأننا نعيش في الأيام الأخيرة لهذه المملكة ، ونتعرض لكل ما كنا
نتوقعه . بشأنها ، ونتوقع أن ما كنا نخشاه ، صار قاب قوسين
أو أدنى » (٤٢) .

ولم يأخذ أوتو بالتقسيم الدقيق للعصور الستة ، فيما يتعلق
بالامبراطوريات العالمية وفقا لما أعلنه أوغسطين ، وإنما فضل التعديل
الذي عرضه جيروم Jerome ، إذ كتب يقول : « سأقدم شرحا موجزا
للنهج الذي يسير عليه التاريخ ، وإذا ما تمت معرفته ، يمكن أن تدون
طبيعة هذا الجهد التاريخي واضحة وضوحا جليا . وهو أنه منذ بدء
الخليقة حكم العالم أربع ممالك رئيسية ، ومقدر لها البقاء حتى قيام
الساعة ، وتختلف احدهما الأخرى وفقا للقانون الطبيعي ، ويمكن أن
تتخذ معا بأساليب متعددة ، من وجهة نظر دانيال بصفة خاصة . ولذلك
قمت بكتابة أسماء حكام تلك الممالك ، ورتبتها وفقا لتسلسلها الزمني ،
فذكرت الأشوريين أولا ثم (مغفلا ذكر الكلدانيين الذين لم يذكرهم كتاب
التاريخ ضمن الآخرين) ، ذكرت الميديين Medes والفرس ، وأخيرا
الاغريق والرومان ، وذكرت أسماء إباطرتهم حتى الامبراطور الحالي .
متحدثا عن الممالك الأخرى ، على نحو عرضي فحسب ، كي أوضح التغيرات
التي طرأت على الأحداث » (٤٣) .

والواقع أن أوتو أبدى اهتماما أقل مما قد يتوقعه القارئ من
الجملة السابقة واستخدم أيضا تعابير ومعايير فنية كي يؤكد بالدليل
والحجة على صحة افتراضه من أن العالم سينتهي إبان فترة الحكم الروماني .
ووفقا لما ذكره أوتو قام الرومان بتسليم السيادة إلى الإغريق في
القسطنطينية الذين قاموا بدورهم بتسليمه إلى الفرنجة (والألمان) في
الغربي .

واستمر أوتو يعلن ارتياحه لتقسيم أوغسطين للبشر إلى مجموعتين
أو معسكرين مدينة الله The City of God ومدينة الشيطان
City of Evil of the Earth وذلك طوال سياق كتابه الضخم الذي حمل
عنوانا جديرا بالاهتمام ، وهو الحولية أو تاريخ المدينتين
The Chronicle or History of the two Cities

وأفصح أوتو عن ذلك في مقدمة الكتاب الأول معلنا أنه العامل الملزم
الذي سيوجهه في كتابته عن تاريخ العالم .

« وبعد التفكير مليا ، ولفترة طويلة ومتكررة ، في الأمور الدنيوية ،
وما حوت من تغيرات وتقلبات ، وموضوعات متنوعة ومعقدة ، وهي أمور
تجعل الحكيم متعلقا بأحوال الدنيا إلا أنه وجد من منطلق قوة الرشاد
فحسب أن على المرء تجنبها وإراحة نفسه منها . إذ أنه من واجب الحكيم
الآ يدور حول العجلة الدائرة ، وإنما يتخذ موقعا بحزم كالشيء الوطيد
بفضل ثبات قواه . وبناء على ذلك ، فطالما أن الأشياء عرضة للتغير وليس

مقدرا لها أن تظل ساكنة ، فما هو الانسان العاقل الذي سينكر أنه يجب على الحكيم أن يهجر الهموم ويذهب إلى تلك المدينة التي ستظل آمنة من خوف وبقية إلى أبد الآبدين ؟ انها مدينة الله ، بيت المقدس ، التي يتطلع إليها أبناء الله ، وهم في هذه الحياة الدنيا ، يعانون من متاعب هذه الحياة ، وكأنهم يعانون من الأسر البابلية . ونظرا لوجود مدينتين - مدينة الحياة الدنيا ، والأخرى مدينة الخلود ، الأولى على الأرض ، والثانية في السماء ، الأولى مدينة الشيطان ، والثانية مدينة المسيح - لذلك أعلن الكتاب الكنسيون أن الأولى هي بابل Babylon والثانية بيت المقدس « (٤٤) » .

اهتم أوتو في الكتب السبع الأولى من حوليته عن المدينتين بتاريخ الجنس البشري منذ بدء الخليقة حتى عصره . وطوال تلك الفترة الطويلة من الزمن وجدت مدينة الله ، ومدينة الشيطان ، وقدر لهما البقاء ، غير أنهما تداخلتا لأن كلا منهما وجد بها أخيار وأشرار ، وبدأت مدينة الله وجودها على الأرض منذ عهد آدم ، بيد أنه ظهر في الحال أفراد في تلك المدينة من بين الشعب الموعود Promised People الذين لم يخشوا الله . وشاء الله أن يعيش مواطنون من هذه المدينة خارج اسرائيل . وفي أزمنة العهد القديم Old Testament كان هناك ملوك يهود ولم يقدر لهم أن يكونوا من بين أهالي مدينة الله ، كما كان هناك أيضا بابوات أشرار منذ تجسد المسيح ، وقد باعوا بغضب من الله . ووفقا للمفهوم المحدود لم يكن هناك سوى مدينة واحدة حتى سنة ٣١٣م ، عندما سمح قنسطنطين للمسيحيين ، بممارسة شعائرهم الدينية ، بكل حرية ، ونعنى بها مدينة الله ، ومنذ تلك السنة ، استحوذت هذه المدينة وحدها على اهتمام أوتو . فمن وجهة نظر الأفراد العاديين مستظل المدينتان على وجه الأرض حتى نهاية العالم وحتى قيام الساعة ، ثم يتم فرز الذين أحبوا الله عن أولئك الذين حقت عليهم كلمة العذاب - وهكذا ينعم الأولون في مدينة الله ، أما الآخرون فلهم مدينة الشيطان . وشرح أوتو ذلك قائلا : « والى هذا الحد ، أعتقد أنني ذكرت ما يكفي فيما يتعلق بالمدينتين . وعن كيفية تقسيم أحدهما أولا عن طريق بقائها مختفية في الثانية حتى قدوم المسيح ، وبعد ذلك بازدهارها التدريجي إلى أن جاء عهد قنسطنطين . ولكن بعد عهد قنسطنطين ، وبعدما توقفت المتاعب من خارج حدود الامبراطورية بصفة نهائية ، بدأت تحدث في الداخل بتحريض من الشيطان ، واستمرت الصراعات الداخلية حتى عصر ثيودوسيوس الأكبر وكان أريوس Arius المسئول الأول عن ذلك ، وقام الحكام وكبار القادة بمعاونته ، غير أنه ، من وقت لآخر ، ونظرا لأن جل الشعب والاباطرة (باستثناء بعضهم) كانوا من

التمسكين بالاعتقاد العالمى القويم Orthodox Catholics لذلك بدا لي اني
اكتب تاريخا عن مدينة واحدة من الناحية الواقعية ، وهى التى سميتها
الكنيسة . وبرغم أن الأخيار والأشرار شكلوا مجتمعا واحدا ، فاني لا أستطيع
أن أطلق عليهم مدينتين كما ذكرت من قبل ، ولذلك لا يصح الا أن أسميها
سوى مدينة واحدة على وجه الدقة - ومع ذلك كانت تلك المدينة كمثل حبة
القمح المختلطة بالعصافه . ومن أجل ذلك فعلينا مواصلة تتابع الأحداث
التاريخية التى بدأناها . واعتنق الأباطرة الرومان والملوك (ملوك الممالك
الشهيرة المسيحية ، لأن صوت كلمة الله وصل الى كل بقعة على الأرض ،
وفى أقصى مكان بالمعمورة . واستراحت مدينة الأرض The City of Earth
وقدر لها أن يكون مصيرها الى زوال ، ومن ثم فان تاريخنا هو تاريخ
مدينة المسيح The City of Christ غير أن تلك المدينة دار فناء وهى : « على
مثال الشبكة التى أقيمت فى البحر بما احتوت عليه من الأخيار
والأشرار . وبرغم وجود اليهود الملائعين ، وعبدة الأوثان ، فان شعبنا
كسب الى صفة الممالك العريفة ، ولم يكن هؤلاء اليهود ، وعبدة الأوثان
منبوذين أمام الله فحسب ، بل وفى كل بقاع الأرض ، لذلك فمن النادر
ذكر أى شئ عنهم ، اذ لا يوجد عنهم ما يستحق تدوينه للأجيال
القادمة ، (٤٥) .

وبرغم الاسم العظيم لكتاب أوتو الرئيسى ، والشهرة الفاتحة التى
حققتها لوضوح فلسفته التاريخية ، فانه أبدى اهتماما قليلا نسبيا عند
سرده لفكرة المدينتين . وفى أغلب الأحوال حصر أوتو تأملاته فى نطاق
ذلك الخط فى مقدمات كتبه المختلفة ، وفى التعليقات الموجزة التى أنهى
بها تلك الأجزاء . فالفقرة السابقة تشكل نموذجا لمقدماته ، أما الفقرة
المقتطفة التالية ، والتى اختتم بها الكتاب الثانى ، توضح الطريقة
التى أنهى بها كل قسم . « وعند هذا الحد كنا مكرهين على شجب رداءة
نقلبات أحوال الحياة بكل شدة . وياللعجب ! لقد وجدنا أن الامبراطورية
الرومانية تدفع ثمنا غاليا من دماء أعدائها ، وبنفس القدر من دماء
مواطنيها . فبفعل التغيرات المتعاقبة ، والتى كانت على مثال أمواج البحر
- التى كانت تزيد حدتها حينما ، وتخف أحيانا لكثرة الكوارث الناجمة
عن الظواهر الطبيعية - فقد بدت الجمهورية الرومانية حينما وقد وصلت
الى عنان السماء قوة ، بعد أن أخضعت الأمم والممالك بقوة السلاح ،
وباحكام سيطرتها عليهم . وأحيانا أخرى انحدرت الى الهاوية ، عندما
أغار عليها تلك الأمم والممالك ، أو عندما اجتاحتها الأوبئة والأمراض .
على أن ما هو أكثر أهمية من تلك الأمور - هو أنه بعد أن استقرت
الأمور للرومان ، اجتاحت بلادهم الحرب الأهلية وانقض بعضهم على

البعض الآخر يبقر بطنه على نحو يثير الشفقة والرثاء . ولا بد أن تكون كل تلك الكوارث التي تفجرت عن الأحوال المضطربة ، لها القدرة على الأخذ بيد الناس نحو الحياة الحقيقية والأبدية في جنة الخلد . غير أنه وكما ذكرنا من قبل ، ففي الوقت الذي تعرضت فيه مدينة العالم لكل تلك المحن وما شابهها ، بدت أضواء الحقيقة في الظهور كما يفعل ضوء الفجر عند تبديده الظلمة الليلية الحالكة . وهكذا فبعد أن كنا نتعجب اللحظات التي تنزل فيها الكوارث المتباينة على الميدين والفرس ، بل وعلى الاغريق والرومان ، أصبحنا الآن نتحدث عن قرب حضور المسيح ، المصلح الحقيقي ، والمحقق للسلام في كل شيء ، « سواء أكان هذا الشيء على ظهر الأرض أم في السماء ، وهو السلام الذي تحقق في كل أرجاء العالم في عهد أغسطس عند مولد المسيح ، (٤٦) » .

وفي الكتاب الثامن اختتم أوتو حديثه عن المدينتين . Two Cities . وعن الخلاف بينهما أيضا . وكانت هاتين المدينتين قد مرتا بمرحلتيهما الباكرتين السابقتين على وجود النعمة الإلهية ، ثم مرتا بمرحلة النعمة الإلهية . والآن وقد وصلت المرحلة الثالثة وانفصلت المدينتان واستثمرتا على هذا النحو الى الأبد ، احدهما خيرة تماما ، والأخرى شريرة تماما . وقبل نهاية العالم سيظهر المسيح الدجال Anti-Christ الذي سيصاحبه حضوره اضطهاد عنيف بهدف تطهير المؤمنين . إن المسيح الدجال هو الشيطان بعينه . وباعتباره منافقا شديد البراعة ، فسيضل كثيرا من الناس ، ولا سيما أعداد كبيرة من اليهود ، غير أن مصيره القتل في الوقت المحدد . ثم تلي ذلك « فترة من الوقت للتوبة » . وهي فترة لا يعلم مداها الا الله . « وعندما توشك كل الأمور التي تم التكهن بها على الانتهاء والاكتمال ، وتظهر علامات غير مألوفة ، ومثيرة للدهشة على الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والبحر - وعندما تخرق قوى البشر من شدة الخوف ، ومن شدة ما يتوقعونه من الأهوال - ثم يحدث فناء لمدينة الشيطان ، ونمو لمدينة المسيح ، يأتي يوم المسيح ، وفقا لكلمة الحق التي يقول الله فيها معزيا شعبه العزاء الجميل : « وعندما ترون حدوث هذه الأمور ، فاعلموا أن مملكة الله قريبة » (٤٧) .

لم يجرؤ أحد من المؤرخين أن يواصل كتابته التاريخية متصورا ما سيحدث في آخر الزمان ، وإن كان قليل من علماء اللاهوت قد فعلوا ذلك ومع ذلك فقد جاوز أوتو حد الجرأة بذهابه الى ما بعد الزمان ، برغم أنه اعترف بعدم ثقته في نفسه . إذ اعترف بافتقاره الى المقدرة للحديث عن الحياة الأبدية ، بيد أنه يشعر بأن هذا الأمر مفروض عليه ، وأنه

بمنعمة الله ، سيحاول أن يكتب عن الآخرة . وعلى ذلك فقد كتب عن بعث الموتى وعن حسابهم ، الذي سيكون سريعا : « وغنى عن القول أن الحساب سيكون سريعا يوم القيامة ، لأن المحاسب علام بما فى القلوب ولما حدث فى كل العصور ، وغفور للخطايا وما شابهها . وليست المحاكمة يوم الحساب على النمط الذى نعانى منه فى محاكم هذا العالم . ففى عالمنا هذا ووفقا للاجراءات القضائية ، وفى حالة الشخص المتهم يقيم المدعى العام الدعوى ، ويتولى المحامى الدفاع . ويحاول الشاهد الادلاء - بشهادته المقنعة ، أما القاضى ، وهو الذى لا يعلم سرائر الناس ، اذا ما هو الا مجرد بشر ، فغالبا ما ينخدع ، وكثيرا ما يحكم ببراءة شخص كان لابد من ادانته . ونظرا لأن مثل ذلك لن يحدث يوم القيامة اذ سيكون الانسان حسيبا على نفسه بنفسه ، فلا بد وأن نعتقد أن الحساب سيكون سريعا سرعة تفوق ادراك البشر ، « (٤٨) » .

وما ظل يقال حتى الآن فسرهُ أوتو بقوله : « هو محاولة معرفة مصير المدينتين ، بعد البعث والحساب . » ان الأشرار سيلقون فى نار جهنم ، أما الأخيار فسينعمون بجنة الخلد مع الملائكة . وبرغم تأملاته الطموحة التى تتعلق بنوعية الحياة الأبدية التى أعدها الله الذى لا تدركه الأبصار فقد أنهى أوتو كتابته بإشارة متواضعة . واعترف أوتو بأن كتابه ليس واضحا . كل الوضوح ، ووجه كلامه الى قارئه (فريدريك) قائلا : « سيكون من واجبك اكمال ما يحتاج الى الاكمال ، وتصحيح ما يحتاج الى التصحيح ، وحذف كل ما هو حشو فى الأسلوب ، ولما كنت مثقلا بالخطايا ، وأحاول جاهدا فى هذا البحر الخضم من العالم ، فانى أطلب منك مساعدتى بعزاء دعواتك ، . (٤٩) »

وإذا كان هناك أى ريب بشأن المشيئة التى تسير أمور العالم ، فان هذا الشك تبدد فى الكتاب الثامن حيث ذكر أن كلمة الله هى التى تنهى كل شئ . وظل أوتو يذكر قارئه بهذه الحقيقة الأساسية فى كل جزء من كتابه عن المدينتين *The Two Cities* وأدرك أوتو بنعد نظره الثاقب دور العناية الالهية كعامل موجود فى كل العصور ، سواء العصر المعاصر له أم القديم ، المسيحى أم الوثنى . ويمكن للمرء أن يلاحظ أن أوتو اعتبر أن مسئوليته كمؤرخ تحتم عليه التأكيد على استمرارية تأثير المشيئة الالهية . وهكذا يمكن القول أن قراءة وكتابة التاريخ لا مبرر لها سوى خدمة الحاجة الدينية . ومن أجل ذلك ، ولكى يؤكد أوتو على فكرة المدينتين *The Two Cities* فقد بدأ وأنهى كل كتاب من كتبه الثمانية بانطباعات عن المعنى الخفى للأحداث ومدى تأثيرها على

الحياة الأبدية . ان كل البشر وكل الأمور ، تسير وفقا لمشيئة الله ، من اجل الخلاص من الخطيئة . بل ان الأحداث التي قد لا تمت بصلة للارادة الالهية ، وجدت تفسيراً لها عند أوتو . اذ كتب يقول : « أعتقد انه لا يصح ان ننسب الى مجرد الصدفة ، وانما لارادة الله الذي يفصل الليل عن النهار ، تلك الأحداث التي وقعت ابان خروج بنى اسرائيل من مصر - أو وفقا لما قاله الآخرون ، ابان اقامتهم المؤقتة في أرض الميعاد - عندما انتشرت في كل أرجاء العالم جرائم جديدة ولم نسمع عنها من قبل (كالتى ذكرتها من قبل) . بل أننا نقراً ، وكأن الأمر عادياً تماماً ، عن هيروود . Herod ملك هذا العالم ، الذى أصابه الانزعاج لمولد المسيح ، ملك السماء ، وعندما ذهب الرب الى مصر ، لم يهدأ بال ذلك الملك اللعين ، وحرص الناس على الأعمال الشريرة . وللسبب نفسه ، كثيراً ما نرى ، وحتى يومنا هذا ، أن العالم قد اعتراه القلق والاضطراب كلما دعا الرب عباده من مصر العالم الى مملكته . ولسبب مماثل حدثت تلك الأحداث عند خروج شعب الله الى أرض الميعاد وطرد القبائل التى تسكن هناك ، (٥٠) .

ويعزو أوتو النصر الحاسم الذى أحرزه الرومان على قرطاجة الى قدرة العناية الالهية . اذ كتب يقول : « ان ما ينسبه الرومان الى آلهتهم المدافعين عن المدينة The City هو ما ننسبه بالحقيقة الى قدرة الله المنتقم الجبار ، والذي لا يمكن لورقة واحدة من أى شجرة أن تسقط على الأرض دون مشيئته » (٥١) . بل وتجلى عون الله فى ظهور قسطنطين ونجاحه فى التخلص من المتنافسين الآخرين الذين سعوا للحصول على العرش الامبراطورى . « وعندما شاءت ارادة الرب اعلاء شأن كنيسته ، التى عانت الكثير من المحن والبلايا ، والاضطهادات ، اختار ، جلّت قدرته شخصية بارزة من بين الجميع ، وعهد اليه بالعمل على اعلاء شأن الكنيسة ورفعته ، عن طيب خاطر وبأقصى سرعة . وهكذا فوض الله ، امبراطور الرومان الذى دان اليه كل العالم بالولاء والطاعة من أجل العمل على اعلاء شأن الكنيسة . . وأنت تعلم أن كل هذا لم يحدث مصادفة أو بطريقة عشوائية ، وانما بفضل القدرة الالهية العادلة ، فأنظر كيف أصبح الانسان الذى كان يتسلل فى تكتم شديد ، ويفر من أمام غيره قادراً على أن يسيطر على الملوك ، والقضاة ، وقد نال احترام وتبجيل كل ممالك الأرض ، . بعد أن أتوا اليه وانحنوا فى تواضع أمامه تحية له ، وأبدوا احترامهم الشديد لأخامص قدميه وهو جالس على عرشه » (٥٢) .

وفى كتابه عن الأعمال The Deeds أضفى أوتو على العناية الالهية الدور الايجابى نفسه فى شئون البشر بالقدر الذى ذكره فى كتابه عن

المدينتين فبعث أن وصف كيف بدأ كونراد الثالث Conrad III وجيشه المسير من نورمبرج Nuremberg سنة ١١٤٧ في الحملة الصليبية الثانية ، ثم مروا على ريجنزبورج - Regensburg ثم تجاه نهر اندانوب ، ثم تحلت أوتو عن العاصفة الهوجاء التي داهمت الجيش الصليبي بالقرب من مدينة كيريفاش Cherevach (كاتالكا Catalca) وبعد ان انتهى الجيش من نصب خيامه ، هبت عاصفة شديدة ، أحدثت خسائر كبيرة في الأفراد والخيول ، وتلقا في معظم المعدات الحربية . « وفجأة هبت عاصفة شديدة من الرياح والأمطار جعلت الخيام تتسرع وتمزق ، ثم قذفت بتلك الخيام أرضا بشدة ، واستيقظنا من فراشنا الذي كنا قد آوينا اليه بعد تأدية صلاة الفجر . فسادت حالة من الهرج والمرج غطت عنان السماء تقريبا . وبعد أن أُنذِر وجود جدول صغير من المياه بغضب الله في علاه - وهو الجدول الذي نشأ سواء نتيجة لزيادة منسوب البحر المجاور أم لانهمار المطر أم لوابل المطر الغزير المفاجيء - وقد أدى تزايد تلك المياه الى غمر المعسكر بها تماما . وماذا كان علينا أن نفعله ؟ اذا نظرنا لاعتقادنا بأن ما حدث انما هو عقاب من الله أكثر من مجرد طوفان طبيعي ، لذلك فقد سيطرت علينا جميعا حالة من الفزع والذعر . ومع ذلك فقد هرعنا الى خيولنا القوية ، وحاول كل منا عبور النهر قدر استطاعته . وكان في مقدرة المرء مشاهدة البعض يسبح ، والبعض الآخر يتشبث بالخيول ، والبعض قد أمسك بالحبال وتعلق بها عليهم يهربوا من الخطر ، والبعض ألقى بنفسه في مياه النهر ، على غير هدى ، وغرقوا ، لأنهم أربكوا بعضهم البعض ، بتصرفهم العشوائي واعتقد عدد كبير أنه في استطاعتهم عبور النهر سيرا على الأقدام ، غير أن قوة اندفاع المياه جرفتهم ، وجرحتهم الصخوز ، وابتلعتهم التيارات المائية الدائرية ، وهكذا انتهت حياتهم . أما البعض الذين لم يعرفوا السباحة ، فقد حاولوا انقاذ أنفسهم بالتعلق بالسابحين ، ومحاولة الالتصاق بهم ، طلبا للنجاة ، غير أنهم أجهدوهم ، وشلوا حركتهم الى الحد الذي لم يتمكنوا فيه من تحريك أذرعهم ، ثم غاصوا جميعا في الماء ، وغرقوا . وفي صباح المأساة ، وعندما انجسرت المياه ، وظهر سطح الأرض ، كنا قد تبدد شملنا جميعا في كل مكان ، وكان في استطاعتك مشاهدة الصورة الحزينة لمعسكرنا ، والتي كانت على عكس الصورة السارة التي كان عليها في اليوم السابق . وهكذا بدت قدرة الله العلي القدير بلا أدنى ريب ، وظهر أن السعادة البشرية لا دوام لها ، (٥٢) .

ومع ذلك لم يظهر أوتو دور العناية الالهية على أنها قوة عنيدة ومنسبيرة ، أو أنها تكشف عن وجودها لمجرد اقناع الناس بقصر الحياة

إن دنيا وأهمية الحياة الأبدية . ان الله يعذب البشر على خطاياهم ، ويعفو عنهم عندما يتوب الانسان ، أو عندما يسأل المؤمنون الله العفو ، ولا سيما شفاعات وتضحيات الأتقياء . ومن ثم كتب أوتو عن عمليات الساب والنهب التي تعرضت لها فرنسا ابان الحروب بين لويس السابع وثيوبولد Theobald ، كونت بلوا Bois ، « انه لو لم يعم السلام ربوع البلاد مؤخرا بفضل حسنات ، ودعوات ، ومشورة الأتقياء ، الذين قطنوا تلك البلاد لكان من المعتقد أن تتحول تلك الأراضي الى خرائب بكل ما فى الكلمة من معنى » (٥٤) .

وليس من المدهش أن نرى رجلا مثل أوتو قد آمن بالمعجزات بعد أن أبدى تبجيلا شديدا لقدرة الله وعلامات وجوده التي حلت فى كل الوجود . غير أن الله لا يظهر تلك الأدلة الواضحة على سلطانه وجبروته الا فى الأحوال النادرة ، وذلك وفقا لمفهوم أوتو . ان الله العلى القدير يفضل أن تحدث الأحداث وفقا للقوانين الطبيعية التي وضعها لهذا العالم . ولهذا السبب وجد أوتو مكانا للقليل من المعجزات . ونسب أوتو بعضا من تلك المعجزات الى القديس كوربنيان Corbinian ، على اعتبار أنها حدثت على يديه ، وكان كوربنيان هذا أسقفا لاقليم فريزنج Freising . وكتب أوتو عن كوربنيان فقال : « يقال أنه فى إحدى المناسبات ذهب القديس كوربنيان الى روما ليلبى احتياجات كنيسته ، وفى الطريق ، هاجم دب جواد أمتعة الأسقف وقتله ، فأمسك رجل الله الدب ، ووضع سرج التحميل عليه ، وأمره بحمله ، وكانت كلمة الرب ، « أمضى من أى سيف » ، اذ أجبرت هذا الحيوان المتوحش على طاعة أوامر رجل الله . وابتان تلك الرحلة نفسها ، وأثناء معاناة الوفد المرافق له من الجوع فى مكان صحراوى ، ظهر لهم فجأة عقاب ، وألقى اليهم بسمكة واحدة . وأكل كل الحاضرين من السمكة ، وكانوا فى غاية الانتعاش والحيوية على نحو مثير للمدهشة » (٥٥) .

وماذا - يا ترى - عن موقف أوتو من الأساطير الوثنية ؟ ويبدو أنه كان ميالا للتسليم بوجود شيء من الحقيقة فى تلك الخرافات ، بالرغم من أنه رفض كل العناصر فى تلك الأقاصيص الا بقدر ما يمكن اعتباره ضرب من أعمال الشياطين . فالطريقة التي عالج بها قصة رومولوس Romulus وريموس Remus ، وهى القصة عند الرومان الأوائل ، توضح موقفه العام تجاه تلك الأساطير . فهو يروى كيف أنه بعد أن خلف أموليوس Amulius روكاس Rocas كملك ليطاليا ، اكتشف شقيقه نومتنور Numitor أن ابنته ريا سيلفيا Rhea Silvia ، قد صارت أما لتوأمين من الذكور ، بالرغم من أنها

كالت راهبة مكرسة لخدمة فيستا Vestal Virgin (*) • فقام بالقاه
التوأمن في نهر التيبر •• ويقول أوتو « لقد شيد الأخوين التوأمن ريموس
ورومولوس المدينة التي قدر لها أن تكون عاصمة العالم • ونظرا لافتراض
الكتاب الرومان أن روما قدر لها أن تحكم العالم بالقوة العسكرية ، لذلك
أدعوا أن الطفلين التوأمن هما ابنا مارس Mars (**) ، ولكي يبرهنوا
على صحة دعواهم أجزموا على أن أنثى ذئب قامت - على عكس المألوف -
برضاعة ورعاية الطفلين • وسواء كان الطفلان قد تمت رضاعتها بمعرفة
ذئبة ، كما ذكر أولئك الكتاب ، أم (كما قال البعض الآخر) بمعرفة
احدى النسوة المنحرفات harlot ، أو احدى السيدات التي أطلق
عليها لفظ « ذئبة Wolf » بسبب حياتها الوضيعة - اذ أننا نطلق
على بيوت تلك النسوة « بيوت الدعارة Lupanaria ، وهذه الكلمة
مشتقة من كلمة ذئبة lupa فان هذا الأمر لا يعنينى فى شىء على
الاطلاق • فلقد أوردت ذكر هذه القصة لمجرد ايضاح أن الاله مارس ليس
أبا للطفلين ، وأن والدهما هو أحد أفراد البشر ، وفقا لأحد المصادر التي
يمكن الاعتماد على صحتها ، وهذا المصدر هو احدى الكاهنات للمعبد
الوثني ، (٥٦) •

وأشار أوتو الى أن القصص التي ذكرت عن أديسيوس
Odysseus ، الذي مر بعشر سنوات من المغامرات المثيرة ، قبل أن
يعود بصفة نهائية ، الى رفيقته المخلصة بنيلوبى Penelope ، فى أتیکا
Ithaca ، يمكن أن تكون مجرد أساطير ، أو أن تكون خصائصها والتي
لا يمكن تصديقها ، عمل من صنع الشياطين • وكتب أوتو يقول :
« وسواء ابتكر الاغريق والرومان كل تلك القصص بدافع الحب لالهمهم
أم كانت من أعمال الشياطين التي قصدت تضليل الناس ، بالتعاون مع
بعض القوى الطبيعية الخفية ، فليس لهذه القصص علاقة بكتابنا
هذا ، (٥٧) •

وظل أوتو يشير الى العلاقة بين الكنيسة والدولة فى كتابيه :
المدينتين - The Two Cities ، والأعمال The Deeds • وفى هذا
المجال كان أوتو شديد الرأى • وباعتباره أسقفا وتابعا اقطاعيا للملك ،
فقد وجد نفسه فى أشد المواقع حساسية بالنسبة للخلاف الدائم الذى
نشأ تقريبا منذ اللحظة التي وافق فيها قسطنطين على منح المسيحيين
التسامح الدينى • وزاد من دقة موقف أوتو أن قريبه فريدريك الأول

(*) نسبة الى فيستا Vesta ربة نار اللوقد عند الرومان - المترجم •

(**) مارس • Mars هو اله الحرب عند الرومان - المترجم •

برباروسا ، كان الامبراطور الروماني المقدس ، واتضح ، أن كليهما اقطاعي قدير وطموح . وعلى الرغم من أن طموحات فريديريك حققت له مكاسب مهمة في ألمانيا بشأن تدعيم مركزه في مواجهة الكنيسة ، دون أن يغضب المؤيدين للسيادة الكنسية كثيرا ، فان زيارته الى ايطاليا ، وتصرفاته هناك هي التي أدت الى الدخول في صدام مباشر مع البابا ، رئيس الكنيسة . وكان الاجتماع الأول بين البابا والامبراطور قد انتهى نهاية موفقة تماما ، وعبر أوتو عن سعادته عندما قدم للقارىء وصفا مفصلا للطريقة الودية التي تعامل بها حاكمي الكنيسة والدولة ، مع بعضهما البعض . وكان المشهد الأول لذلك التعامل الودي عندما أرسل فريديريك حملته الأولى الى ايطاليا من أجل القضاء التام على كل المخاوف التي انتابت البابا أدريان الرابع Adrian IV ، وذلك بالقاء القبض على أرنولد من بريسكيا Arnold of Brescia ، واصدار أوامره بإعدامه . « وعسكر الملك بالقرب من فيتربو Vitrebo ، وهو في طريقه الى المدينة The City (*) . وكان أدريان ، البابا الروماني ، في استقباله في ذلك المكان ، ومعه كرادلته ، واستقبلوا الملك استقبالا لائقا بمقامه . واستمع الملك باهتمام بالغ للشكاوى المريرة التي ألقاها البابا على سمعه . فمئذ محاولة هؤلاء الأهالي ارجاع أوضاع رجال مجلس الشيوخ على ما كانت عليه من قبل ، عن طريق حالات الشغب المتكررة التي قاموا بها ، فانهم لم يكفوا عن توجيه الاهانات لبابائهم . ومما عمل على زيادة تفاقم الأمر ، واشتداد خطورة سلوكهم المحرض على الفتنة ، أن شخصا يدعى أرنولد من بريسكيا Arnold of Brescia ، والذي ورد ذكر اسمه آنفا ، دخل المدينة The City ، وتحت عباءة الدين - أخذ يردد كلمات من الأناجيل الأربعة القانونية - وتصرف كذئب في ثوب حمل ، وبذلك استطاع أن يؤجج نيران الغضب والعنف في عقول البسطاء من الناس ، الذين أفسدهم بتعاليمه الدينية المضلة الى أبعد مدى ، واستطاع اقناع - بل اضلال - جموع غفيرة يصعب حصرها ، بتعاليمه الدينية ، (٥٨) .

ثم قدم أوتو وصفا لتاريخ حياة أرنولد بالاضافة الى ملخص عن أفكاره « الثورية » التي دفعته الى اعلان الثورة ، التي أدت في النهاية الى هروب أدريان من المدينة . بيد أن خصوم أرنولد ، والعناصر المحافظة على القديم من بين رجال الكهنوت والطبقة الأرستقراطية في أغلب الأحوال ، نجحوا جميعا في نهاية الأمر في القاء القبض على أرنولد بمساعدة فريديريك ، وبعد ذلك قدموه للمحاكمة وأعدموه . واستمر أوتو في وصفه

(*) روما .

فقال : « بيد أن قلمي يميل الى العودة ثانية الى الموضوع من باب الاستطراد ، فبعد أن اتحد الرجلان يحكمان العالم وضما أتباعهما تقدا معا في المسير لعدة أيام ، وقد تبادلوا الأحاديث الودية ، كما يحدث بين الأب الروحي ، وأحد أبنائه . وتم بحث الأمور الكنسية والعلمانية ، وكان دولة واحدة قد قامت من بين بلاط قصرين ملكيين » (٥٩) .

والثابت أن روح التعاون هذه بين البابا والامبراطور لم يقدر لها البقاء طويلا ، ومن حسن حظ أوتو أنه أنهى سرده التاريخي لكتاب الأعمال The Deeds قبل أن تتفاقم المشاكل الحقيقية . وفي مقدمة الكتاب الرابع بالكنيسة بشيء من التفصيل أشار أوتو الى نظرية الفريق الذي أصر من حوليته عن المدينتين Two Cities بحث أوتو مسألة علاقات الدولة مع امتلاك الكنيسة للسيوف ، « اقرأ عن قصة آلام الرب » . (لوقا ٢٣ : ٢٨) . وبعد أن فسروا هذه الفقرة من الكتاب المقدس ، أعطت الدليل القوي للجماعة الدينية على حق استخدام السلاحين الدنيوي والديني في ممارسة واجباتها ، حتى ولو كان ذلك على حساب السلطات المدنية . أما الفريق المعارض فقد حاول أن يثبت عكس ذلك مستشهدا بالكتاب المقدس أيضا ، وهو أن بطرس لم يستخدم سوى سيفاً واحداً (يوحنا ١٨ : ١٠) ، وعلى أساس أن هذه الإشارة التي وردت في الكتاب المقدس تؤكد على أنه ليس من حق الكنيسة إصدار أوامر الى السلطات المدنية في أمور الحياة العامة . « وهكذا ، فكما أنه لا يجوز للمرء الذي يحمل السيف الدنيوي ، أن يتصرف في الأمور الدينية ، فإنه ليس من الملائم أن يفتصب رجال الدين السلطات التي ليست من اختصاصهم من الناحية الواقعية . وقدم كثير من الناس نصوصاً من الكتاب المقدس تؤكد على صحة ما قلته . والواقع أنهم ذكروا ما قاله المسيح وما قاله القديسون ، وعلى سبيل المثال فقد ذكروا النص الذي جاء في الكتاب المقدس والقائل بما يلي : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » (٦٠) .

ومع ذلك فلم يترك أوتو المسألة هنا كما يشتهي المؤيدون للسيادة العليا للدولة ، وأكد أوتو على أن الله أحاط كنيسته بسلطات ملكية تتناسب مع تلك المؤسسة الجليلة ، وأشار الى أن كثيرا من الأتقياء ، ومن بينهم البابوات سيلفستر Sylvester ، وجريجوري الكبير Gregory the Great ، والقديس بونفاس St. Boniface ، « الرائد الديني الألماني » ، قد مارسوا ، جميعا ، سلطات بعيدة كل البعد عن سلطاتهم الدينية . ثم أعلن أوتو عن موقفه . « اني أعترف بأنني لا أعلم تماما اذ ما كانت حالة الرفعة وعلو المكانة التي وصلت اليها كنيسة الله اليوم ترضيه في علاه ، أكثر من حالتها السابقة والتي قامت على

التواضع والخضوع • والواقع أن الحالة الأولى يبدو أنها كانت أفضل عند الله ، وإن كانت الحالة الحاضرة أكثر حظا • ومع ذلك ، فاني أتفق في الرأي مع الكنيسة الرومانية المقدسة ، التي ولا شك أنها قامت على دعائم وطيدة ، وأعتقد بأن ما تؤمن به تلك الكنيسة يجب أن يؤمن به الجميع ، وأن ما لها من سلطة من الممكن أن تظل قائمة باعتبارها حقا مشروعاً » (٦١) •

وبرغم ذلك اعترف أوتو بعدم مقدرته على التحدث بثقة كاملة عن قضية شديدة التعقيد ، وترك قارئه ، وعلى وجه التخصيص فريديريك ، مع التذكرة بأن القضية ما زالت دون حسم • وإن كان قد مال إلى المؤيدين للسيادة الكنسية على الدولة ، يحذر شديد • إذ كتب يقول : « يكفي ما قيل عن استقامة وتقوى رجال الكهنوت وعن منصب الملك ومقامه • غير أنه إذا ما رغب أي شخص في محاولة استيضاح الأمر بامعان وتعمق أكثر ، فانه لن يقبل بأنني قد تحيزت في هذا الأمر » (٦٢) •

ليس من السهل تقييم أوتو الفريزينجى كمؤرخ • فلكل كتاب من كتابيه صفة مختلفة كثيرا عن الكتاب الآخر • ففي كتابه عن المدينتين *Two Cities* مارس دور المتمسك بمبادئ • • الفضيلة والأخلاق • وهدفه من هذا الكتاب اقناع القارئ - على ضوء الحوادث التاريخية - بأن الحياة قصيرة الأمد وملموءة بالشكوك والشقاء • ومع ذلك فقد أراد الله الرؤوف الرحيم لهذه « الشرور » أن تكون حتى لا يتكالب الناس على الملذات العابرة في هذه الحياة الدنيا ، وأن يعملوا من أجل النعيم الدائم في الحياة الأبدية • وكان هدف أوتو : « تأليف تاريخ أستطيع من خلاله ، يعون الله وبفضله ، أن أصور شقاء أهالي بابل *Babylon* ، وأن أبرز أيضا مجد مملكة المسيح ، التي يتحرق شوقا إليها ، أهالي بيت المقدس ، بكل أمل ورجاء » (٦٣) • وفي كتابه عن الأعمال *The Deeds* ، ارتدى أوتو زي كاتب حولية ، برغم أنه لم يترك كلية موضوع كتابه عن المدينتين *The Two Cities* ، خلف ظهره • ومن ثم فعند انتهائه لوصفه للعاصفة الهوجاء التي قضت على معسكر الصليبيين بالقرب من القسطنطينية علق بقوله : « ان السعادة الانسانية ليست دائمة ، وتنتهي بسرعة خاطفة » •

لم يظهر أوتو اهتماما بالتاريخ الدنيوي ، كما أنه لم يكتب بهدف التسلية والمتعة ، برغم أنه أدرك ادراكا كاملا أهمية تقديم معلومات تاريخية شيقة على أمل جذب اهتمام قارئه • فالحادثة الخطيرة المتعلقة ببيرجولوس *Perillus* والثور البرونزي يمكن أن تقع ضمن ريجولوس *Regulus* ، أحد الأبطال الرومان ابان الحروب البونية *Punic Wars* ولا بد أن يكون أوتو قد اعتقد أن قراءه سيستمعون بالقراءة عن

ريجولوس ، برغم أنه اذا ما هوجم لذكره القصة في كتاباته ، فمن الراجح أن يبرز موقفه من منطلق ما لهذه القصة من مغزى أخلاقي ، يكمن في أنه من الواجب على المرء أن يكون صادقا مع نفسه اذ كتب يقول : « ألا ترى أن هذه الكلمات تدفعنا الى أن نأخذ المثل في القدرة على التحمل والجلد ، وحب الفضيلة ، واحتقار الموت والألم ؟ والا فما هو الداعي الى التأكيد على أنه من خصائص الشجاعة والاقدام ألا يخاف المرء شيئا ، حيث يتضائل كل شيء أمام المرء ، اذ الحقيقة أن حب ريجولوس Regulus لبلده أو لأعزائه ، أو حتى خوفه من العذاب ، أو التعرض الجسدي للتعذيب بالمخلعة (*) Rack ، كل ذلك لم يثنه عن الوفاء ببنذره - وهو الأمر الذي جعله يضحي بالعالم الحاضر ، وبالوالدين ، وبما ملكت يده ، وأخيرا بنفسه ، (٦٤) » .

ان عدد السطور التي خصصها أوتو للكتابة عن ريجولوس تؤكد على أهمية الفكرة الأساسية التي حددت نوعية المادة التاريخية التي اختارها لاجراج كتابه عن المدينتين The Two Cities . ففي الوقت الذي كان عليه أن يزود القارئ بمعلومات عامة عن الماضي ، نجد أنه انتقى مادة تاريخية نادرا ما كانت دون مغزى . ولهذا السبب فقد انتقل بسرعة نسبية من الحديث عن بدء الخليفة الى التاريخ القديم الى تجسيد المسيح Incarnation ، ومن تجسيد المسيح أمده ظهور المسيحية بكثير من المناسبات والفرص للتعبير عن خواطره في الأخلاق والمسائل الأخلاقية ومن أول نظرة تبدو الصفحات الأربع تقريبا التي أفردتها أوتو للحديث عن الاسكندر الأكبر تفوق الحد وان ما يفسر هذه النظرة هو أوريوس Orosius الذي اعتمد عليه أوتو في الكتابة عن الاسكندر الأكبر كتب عن ذلك الفاتح ضعف الأسطر التي كتبها أوتو تقريبا . وبالإضافة الى ذلك ، فمن المهم أن كلا من أوريوس وأوتو أظهر اهتماما كبيرا بالموت الباكر لهذا الفاتح العالمي عن طريق الكتابة بخط كبير عن مقتله ، الذي من المحتمل أنه كان على يد خادم خائن دس له السم ، وهدفهما الكتابة بأسهاب عن المصير المثير للشفقة والرثاء الذي ينتظر البشر .

أما في كتاب الأعمال The Deeds ، حيث وجد أوتو أنه ليس ملزما بعرض خواطره في الأخلاق والمسائل الأخلاقية ، فقد شعر أنه في حل من القاء الضوء على أية حادثة اعتبرها مثيرة للاهتمام . وهذا هو الانجاء الذي سلكه معظم كتاب حوليات التاريخ الوسيط . وكتب أوتو عن ارسال روجر الثاني ملك صقلية أسطولا ، « من سفن ثلاثية المجاديف

(*) المخلعة rack : هي أداة تعذيب قديمة يمد عليها الجسد - المترجم .

triremes وثنائية المجاديف biremes (وهي التي توضع حاليا باسم galleys أو Sagitteae) ، وسفن أخرى لنقل المعدات الحربية لمحاربة الاغريق . وبعد سيطرة هذا الأسطول على عدد من المدن ، وجدوا أن مدينة كورفو Corfu منيعة جدا لدرجة أنهم لجأوا « الى الحيلة والحداع » .

« وهكذا بعد ارسال بعض الرجال في الطبيعة تحت ذريعة وجود جثة معهم يرغبون في دفنها - لوجود جماعة من الكهنة أو الرهبان في القلعة المذكورة ، كما كان ذلك من عادة الاغريق - استطاعت تلك الطبيعة اقتحام المدينة ، والاستيلاء على الحصن ، وطرده الاغريق وتمركزت قواتهم العسكرية هناك . ثم تقدموا في عمق بلاد اليونان واحتلوا بهجوم عاصف كورنث Corinth ، وطيبه Thebes ، وأثينا Athens التي لها شهرتها في مجدهم التليد . وأخذوا معهم بالقوة قدرا هائلا من الغنائم ، واقتادوا الأسرى بما فيهم العمال المهرة المشتغلين بصناعة المنسوجات الحريرية وفي ذلك قصدوا الامعان في اهانة وتحقير امبراطور الاغريق ، وفي الوقت نفسه السعى الى ارضاء ملكهم . ثم طلب روجر من الأسرى المشتغلين بصناعة المنسوجات الحريرية تعليم العمال في باليرمو Palermo ، عاصمة صقلية ، فن نسيج الحرير . ومنذ ذلك الحين فصاعدا انتقلت صناعة الحرير الى روما بعد أن كانت قاصرة على الاغريق من دون الأمم المسيحية » (٦٥) .

أبدى أوتو مقدرة على ابداء الرأي في الأخبار الماضية بعين فاحصة بنفس القدر الذي قام أي من الكتاب المعاصرين له . وآمن أوتو بوجود الملائكة والشياطين ، والقوى الخارقة للطبيعة بصفة عامة وهو الأمر الذي يتحتم على القارئ الحديث قبوله من أي مؤرخ في التاريخ الوسيط . بيد أن طريقة معالجته للأساطير والحرافات القديمة تمدنا بنموذج ممتاز لأسلوبه في معالجة الأمور الخارقة للطبيعة . فبالنسبة لحالة البطل الاغريقي أوديسيوس ، قام أوتو بتجريد تلك الأقاصيص مما بها من معاني خارقة للطبيعة وحاول تفسير أصولها على ضوء العلاقات الانسانية . ولا بد أن أوتو كان من بين القلة الذين رفضوا صحة القصة القائلة باصابة قنسطنطين بمرض الجذام . ويعتقد أن هذا المرض دفع قنسطنطين البار الى التنازل عن حكم الغرب الى البابا سيلفستر Sylvester عندما شفاه الله من مرضه باعجوبة . وكتب أوتو : « من الواضح أن ما نقرأه عن حياة القديس سيلفستر ومرضه بالجذام واعتناقه المسيحية من الأمور المشكوك فيها » (٦٦) .

كان أوتو ملتزما بقول الصدق كمؤرخ كنسي باستثناء ميله الى

هديع فريدريك في كتابه عن الأعمال The Deeds ، إذ تعمد عدم تدوين ما قد يراه قريبه فريدريك ، غير مستحب الذكر . ويحسب لأوتو موقفه بشأن الخلاف على تقليد المنصب بين الكنيسة والدولة ، لأنه تحدث بصراحة في كل ما قاله عن الجانبين . وعلى الرغم من أن أوتو قد بدا منحازا الى جانب قريبه فريدريك بشأن التعيين في الكرسی الأسقفى في مجدبورج Magde burg (٦٧) ، فإنه ترك انطبعا في النهاية عن أن هيمنة الكنيسة في عهده كانت وفقا لمشيئة الله .

وعلى غير ما كان شائعا بين كتاب الحوليات في العصور الوسطى كان أوتو شديد الإعجاب بجمال الطبيعة . فغالبا ما توقف عن اكمال سرده التاريخى ليقدم احدى التعليقات عن جمال السمات السطحية لموقع أو اقليم (الطوبوغرافيا topography) وعندما شرع كونراد الثالث في تنفيذ حملته الصليبية ، « تبذدت قشعريرة برد الشتاء ، وخرجت الأزهار والنباتات من باطن الأرض بعد أن جاد وابل من مطر الربيع ببعض ما عنده ، وأشاعت المروج الخضراء البسمة في كل مكان ، وملأت وجه الأرض بالبهجة والحبور ، (٦٨) ، وقدم أوتو وصفا لمناظر أخرى ، كما حدث ، على سبيل المثال أبان عقد اتفاقية سلام بين فريدريك وتورتونا Tortona . وكان أهالى المدينة قد خرجوا في النهاية من المدينة تحت وطأة الحصار والمعاناة . « وخرج أبناء المدينة التمساء . . . من محل اقامتهم بالقلعة ، وهو المكان الذى ظلوا به وهم في حالة مثيرة للشفقة والرتاء ، لينعموا بالحرية واستنشاق نسيم الربيع العليل ، وقد شحبت وجوههم وكأنهم جثث خارجة من قبورها ، (٦٩) .

قدم قليل من المؤرخين في العصور الوسطى وصفا للشخصيات ، وكان أوتو ضمن هؤلاء المؤرخين الا أنه نادرا ما فعل ذلك . بيد أنه في مقدور القارئ أن يكون صورة ذهنية عن نوعية أبلارد Abelard . على الأقل من وجهة نظر أوتو ، على ضوء ما قاله أوتو نفسه : « وكان بطرس أبلارد هذا قد كرس نفسه منذ فترة طويلة للدراسات الأدبية والأمور الأخرى القليلة الأهمية ، بيد أنه كان معجبا بنفسه وشديد الثقة في قدرته الفكرية ، لدرجة أنه لم يحاول أن يحط من قدر نفسه وينزل عن عليائه ويصغى الى معلميه . . . ثم صار معلما وذهب الى باريس ، وأبدى مقدرة فائقة في البحث في مواضيع لها أهميتها بالنسبة للفلسفة ، وفي غيرها من مجالات التسلية واللهو في الحياة الاجتماعية ، (٧٠) .

تلك كانت المناسبة الوحيدة التى كتب فيها أوتو بأسلوب المتهم .

أما عن القيمة التاريخية لكتابه أوتو فلا ريب فيها . فكتاب الأعمال The Deeds ، مفيد جدا للمؤرخ الحديث ، أما كتاب المدينتين

The Two Cities فهو أكثر أهمية . وقد وصف كتاب الأعمال بأنه أفضل دراسة بيوجرافية عن القرن الثاني عشر ، ولا سيما أن العصور الوسطى لم تمدنا سوى بالقليل من هذا النوع . ومع ذلك فقد تضمن كتاب الأعمال معلومات قيمة عن فريديريك برباروسا وعصره ، بالإضافة الى ملاحظات جانبية مهمة عن شخصيات بارزة مثل أرنولد من بريشيا **Arnold of Brescia** ، وبطرس أبلارد **Peter Abelard** ، وجليبرت دي لا بوريه **Gilbert de la Porrée** . وربما لا يجد المؤرخ الحديث في أي كتاب آخر دليلا أكثر اقناعا يساعده على تقدير مدى التأثير القوي للفلسفة المسيحية القائمة على اخضاع الفلسفة للاهوت واقامة صلات عقلانية بين العقل والدين **Scholasticism** ، والتي كانت آخذة في الانتشار . فعلى سبيل المثال ، وردت في كتاب الأعمال ، ابان كتابة أوتو عن التحقيق مع جليبرت دي لا بوريه ، دراسة متضمنة أربع صفحات بهدف توضيح مشكلة عالمية الخلاص المنسوبة الى الثالث الأقدس .

ولو كان انتاج أوتو قاصرا على كتاب الأعمال **The Deeds** فحسب ، لما نال سوى مجرد ذكر اسمه كأحد كتاب القرن الثاني عشر . أما كتابه الثاني عن المدينتين **The Two Cities** فقد حقق له شهرة وجعله مؤهلا لأن يكون أحد أفراد جماعة فلاسفة التاريخ المنتقاة . ولا شك أن كتاب المدينتين يمثل أعظم قصة متزنة عن الجنس البشري حيث اشتمل على سجل تاريخي عما فعلته الأمم والأفراد ابان مسيرتهم الشاقة نحو الحياة الأبدية ، مع وجود الله ، المطلع عليهم ، والذي يمهل ولا يهمل . وسيجد الباحث القليل من المعلومات التاريخية البحتة ، باستثناء ما ورد في الكتابين السادس والسابع عن فرنسا وألمانيا في الفترة السابقة على عصر أوتو . ويؤكد كتاب المدينتين على استمرار فكرة مدينة الله **City of God** للقديس أوغسطين ، وعلى مقدره غرب أوروبا على تخريج أساقفة في القرن الثاني عشر ، نذروا أنفسهم للعلم وللمسئوليات الروحية . على أننا اذا ما حاولنا وصف أوتو على أنه فيلسوف في التاريخ ، فإن ذلك ربما يكون ضربا من المبالغة أو المغالاة . ومع ذلك فلا بد للمرء التسليم بتفوق أوتو باعتباره أعظم كاتب للتاريخ عمقا في التفكير طوال كل العصور الوسطى العالية .

متى باريس

ليس معروفا سوى القليل عن الحالة الشخصية الأصلية لمتى باريس **Matthew Paris** أشهر كتاب الحوليات الانجليز . ونظرا لأنه دخل دير القديس البنز **St. Albans** سنة ١٢١٧ م وربما كان في السابعة عشرة ، لذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه ولد حوالي سنة ١٢٠٠ م . وليس في استطاعة أحد المغامرة بالتخمين بشأن محل ميلاده ، أو طبقته الاجتماعية . بل ان وجود كلمة باريس في اسمه تثير الحيرة والارتباك ، اذ ربما تكون اسما لوالده أو أسرته . على أية حال ، فان التحاقه بالجامعة في باريس ، لم يرد عنه أى اشارة فى كتاباته ، كما أنه ليس فى استطاعة أى شخص الاشارة الى أن وجود كلمة باريس ضمن اسمه ينم عن حبه للفرنسيين . فبالنسبة لجيرانه عبر بحر المانش ، لم يضم لهم كراهية بقدر ما كان يشعر بها تجاه الاغريق .

ويبدو أنه عاش حياة عزلة فى سانت البنز ، الى أن زار دير وستمنستر سنة ١٢٤٧ م ، وربما تعرف على عدة مدن وأديرة ، ابان تلك السنوات الباكرة ، برغم وجود تلميحات فحسب عن ذلك فى كتاباته . وقبل سنة ١٢٣٦ م بعدة سنوات أصبح مساعدا لروجر من **Roger of Wendover** ، كاتب حولية الدير ، اذ مات روجر فى تلك السنة وأخذ متى باريس على عاتقه تولى مسئولياته . وربما ألزمته واجباته الجديدة بالبقاء على مقربة من مدينة سانت البنز ، باقى أيام حياته ، باستثناء زيارات طارئة الى لندن ، وإلى الجماعات الديرية الأخرى المجاورة . وعلى الرغم من أن (متى) كشف عن اهتمامه الكبير بأخبار القارة الأوروبية ، فمن المدهش أنه لم يزرها سوى مرة واحدة .

وكانت هذه الزيارة « رغم أنه » (١) على حد قوله . ففي سنة ١٢٤٦ م احتساج اليه هاكون الرابع Haakon IV ، ملك النرويج ، لتسوية المشكلات المالية لدير القديس بينيت St. Benet في جزيرة نيدار هولم Nidarholm بالنرويج ، مع المرابين الانجليز . وليس معروفا سبب لجوء هاكون الى طلب عون (متى) ، بيد أن (متى) استطاع أن يعالج الموقف بنجاح . وبعد ذلك بعامين أي سنة ١٢٤٨ م، تعرض الدير لمشكلات مالية للمرة الثانية ، وان كانت المشكلة تلك المرة مع رئيس الأساقفة ، وتطلب الأمر ذهاب متى لابتداء المشورة . وتمخض هذا الطلب عن قيام متى برحلته الوحيدة الى بلد أجنبي . وواكبت تلك الزيارة حادثة تستحق التعليق عليها - وهي أن لويس التاسع ملك فرنسا سلم (متى) رسالة الى ملك النرويج في محاولة منه لاقتناعه بمشاركته في حملته الصليبية . كما أن تكليف (متى) بحمل تلك الرسالة يلقي مزيدا من الضوء على طبيعة ، ونوعية ارتباطاته ، وآرائه التي كان لها أهمية كبرى ، وهو مؤرخ حولية للعصور الوسطى .

وفيما عدا تلك الحقائق القليلة ، فليس معروفا سوى القليل عن حياة (متى) . بل ان سنة وفاته ظلت غير مؤكدة ، على الرغم من ان الدارسين حددوها بسنة ١٢٥٩ م ، لأن حوليته توقفت فجأة في مايو من تلك السنة . وبتتبع آخر ما دونه (متى) في مخطوطته يظهر ما كتبه خليفة (متى) - وامتنع هذا الراهب المتواضع عن ذكر اسمه أمام « ذلك الرجل العظيم » - ان مؤرخ الحولية العظيم قد أكمل مؤلفه : وتحت هذا الاعلان السابق مباشرة ، أضاف أحد زملائه من الرهبان ملاحظة موجزة ومشابهة عن (متى) وهو على فراش الموت ، وهي ، « عند هذا الحد توفي متى باريس » (٢) .

ان الفترة ما بين سنة ١٢٤٦ م ، عندما أخذ متى على عاتقه مهمة كتابة الحوليات ، حتى ١٢٥٩ م سنة وفاته ، كانت كلها سنوات نشاط ، وانتاج علمي وافر . وتشغل كتاباته الجزء الأكبر من اثني عشر مجلدا في سلسلة الوثائق الرسمية the Rolls Series (٣) ومعظم المخطوطات الأصلية كتبت بخط يده . وعلى الأرجح فان الرسوم التخطيطية والتوضيحات التي وردت في تلك المخطوطات هي من صنع (متى باريس) نفسه . واشتملت تلك التوضيحات المصورة على تروس ، وسيوف ، وأقواس ونشاب ، وتيجان أساقفة ، وصولجانات أساقفة ، بالاضافة الى موضوعات أكثر طموحا ، مثل حصار دمياط ، وصورة لفييل ومعه رجل يحمل درعا مصفحا . ووضع تلك الرسوم الخطية في الهوامش ليوضح سرده التاريخي (فعلى سبيل المثال كان يرسم تاجا ، وصولجانا مقلوبين

أشارة الى موت أسقف) . وليس من قبيل المصادفة القول بأن صور (متى) الايضاحية أهلتها الى اعتلاء مكانة رفيعة في تاريخ الصور الزيتية في العصور الوسطى . كما أن خرائطه جعلت له مكانه في تاريخ فن رسم الخرائط ، أما ما رسمه من تروس ، وشعارات النبالة ، فقد خلدت ذكراه في علم شعارات النبالة .

واشتمل انتاج (متى) العلمي ، والذي تميز بغزارة ماكتبه ، على الحولية الكبرى ، والتي كانت أروع انتاجه العلمي ، وتاريخ إنجلترا (وهو نسخة مختصرة من الحولية الكبرى بعد أن حذف معظم الموضوعات التي لا تتعلق بشكل مباشر بتاريخ إنجلترا) ، والحولية الموجزة (وهي اختصار لتاريخ إنجلترا ، وكتاب الاضافات ، وهو مجموعة من الوثائق التي أشار اليها في الحولية الكبرى) ، وأعمال رؤساء الأديرة (وهو وصف موجز لتاريخ مدينة سانت البنز ، من خلال حياة رؤساء الأديرة بها) ، وحياة الأوفيين *Vitae Offarum* (حياة الأوفيين *Two Offas* اللذين ارتبطت اسماهما بإنشاء الدير) ، وتاريخ ملوك إنجلترا . (وهو احدى المؤلفات التي نسبت الى (متى) من وستمنستر في وقت ما) ، وهي حولية عن ملوك إنجلترا ، تبدأ بالملك ألفريد *Alfred* .

واتضح أن كتاب تاريخ ملوك إنجلترا كتبه متى الباريسي بخط يده في الفترة ما بين ١٢٤١ م الى ١٢٤٩ م ، أما بعد سنة ١٢٤٩ م ، فقد قام ناسخون آخرون بكتابته . وعلى الرغم من أن ذلك الكتاب استمد مادته العلمية من كتاب الحولية الكبرى ، فإن أسلوبه الواضح يوحى بأن المؤلف قصد به ان يكون نسخه شعبية للعمل الكبير . وكتب (متى) أيضا الشيء القليل عن سير القديسين ذكرا حياة القديس ستيفن لانجتون *Stephen Langton* . وقد أثير بعض الجدل حول أصالة العديد من كتابات (متى باريس) .

وتبدأ الحولية الكبرى ، وهي الأثر الأدبي الرئيسي لمتى باريس ، بتاريخ الملوك لروجر من ونوفر ، بعد أن قام متى باجراء تعديل طفيف عليه ، وتلاه حوليته كعمل متمم اعتبارا من سنة ١٢٣٦ م . (ويبدأ تاريخ الملوك منذ بدء الخليقة) . وليس من المعروف سبب قيام (متى) باجراء تعديلات متعددة على ما كتبه روجر قبل أن يبدأ في ذكر ما كتبه من مادة تاريخية . ونظرا لأن تعديلاته تجاوزت حد تصحيح أخطاء ، فلا شك أنه اعتقد أن تعديلاته سوف ينتج عنها وصف تاريخي أكثر تناسقا ، وقيمة من الناحية العلمية . (ومع ذلك فقد ارتكب (متى) أخطاء إبان محاولته تصحيح ما كتبه روجر وقام متى باحداث تغيرات في أسلوب روجر بهدف اضافة لمسة من الأهمية على وصف روجر التاريخي .

وقام (متى) بإضافة كلمات ، بل فقرات كاملة بهدف العمل على زيادة قوة تأثير ما كتبه روجر . وهي إضافات تمكن القارىء من الإحاطة بأحداث الماضى بشكل أفضل ، من وجهة نظر (متى) على الأقل . وقدمت تلك الإضافات الدليل على أن الأحداث كانت من صنع الأفراد الذين كان بعضهم من الأتقياء ، وغالبيتهم من الأشرار .

وستوضح الفقرات التالية طريقة متى فى تنقيحه لحولية روجر . وكان روجر قد كتب بطريقة موضوعية تماما عن كيفية عودة هنرى الثالث الى انجلترا عند نهاية سنة ١٢٣٠ م ، بعد الاعداد للدفاع عن اقليم بواتو Poitou . وبالنسبة لتلك الحملة الحالية من عنصر الاثارة ، قسم (متى) معلومة اضافة عن هنرى قائلا أنه فعل ذلك « بعد أن أنفق مبالغ طائلة من المال ، وبعد أن عانى من نقص شديد فى الرجال ، اما نتيجة للموت ، أو ما تعرضوا اليه من مرض ومجاعة ، أو بعد أن تحولوا الى حالة من الفقر المدقع » (٤) والمثال الثانى والمتعلق بإعادة صياغة ما كتبه روجر ، أورد (متى) فيما كتبه مشاركة البابا لهنرى الثالث فى السلوك المريب على نحو صارخ ، والناجم عن الحقد الشديد من حين الى آخر . وذكر روجر ، دون تعليق ، فى حوليته عن سنة ١٢٣٠ م ان حنا من برين John of Brienne قد هرب الى فرنسا . فأضاف (متى) الى هذه المعلومة التعليق القائل بأن حنا فعل ذلك « ومعه المرتزقة التابعين له ، والذين غمرهم البابا بالمنهوبات الكنسية ، وقدم اليهم الغنائم التى جمعها من الفقراء الذين تعرضوا للأسر على يديه » (٥) .

وما ان وصل (متى) الى سنة ١٢٣٦ م فى حولية روجر حتى توقف عن تعديله لها ، وبدأ فى الكتابة عن الأحداث التاريخية وفقا لجهده الشخصى . ويبدو أن (متى) خطط على أن تنتهى حوليته عند أحداث سنة ١٢٥٠ م ، ثم غير رأيه ، واستمر فى سرد مادته التاريخية حتى شهر مايو ١٢٥٩ م : وفى الوقت الذى واصل فيه كتابة حوليته ، اختلس بضع ساعات لمراجعة ما كتبه ، لتصحيح الأخطاء ، وتوضيح الفقرات الغامضة . ولنا أن نقبل رغبته فى تحسين إنتاجه العلمى على هذا النحو ، وبخاصة أن حوليته ظلت فى حوزته ، وكانت فى حاجة الى ذلك التحسين .

ومع ذلك لم تتوقف محاولات (متى) عند نحد التنقيح عن طريق تصحيح الأخطاء ، والأسلوب على نحو جانبه التوفيق ، وانما امتدت لتشمل عملية التخفيف من حدة الأسلوب العنيف فى النص الذى كتبه فى عشرات الحالات . وفى أغلب الأحوال أنصب تعديله للنص الأصيل على توجيه اللوم الشديد لهنرى الثالث لممارسته الابتزاز الاستبدادى ، وعلى البابوية التى اعترافها الفساد ، مستخدما فى ذلك أساليب قاسية .

على أن أحد توضيحاته اللافتة للنظر بشأن الطريقة التي انتهجها (متى) عند تغييره لأسلوبه الباكر ، بهدف تنقيح النص الأصلي ، تعلق بالآخوان الرهبان الفقراء friars . ولم يخف (متى) حبه لنظم الاخوة المسيحية التي تعيش على الصدقات . واحدى الفقرات التي عبر فيها (متى) عن وجهات نظره عن الآخوان الرهبان الفقراء ما يلي ، « وفي هذا الوقت نذر الآخوان الدومينيكان Dominicans ، والآخوان الفرنسيسكان Franciscans أنفسهم ، بكل جد وكده ، لالقاء المواعظ الدينية التي أتت أكلها حاليا . وعملوا بكل مشابرة من أجل نجاح الحركة الصليبية . وقاموا بالدعوة للمشاركة في الحركة الصليبية ، والقاء الخطب الرنانة ، والمصحوبة بعبارات اللوم ، ثم استمروا في رسم اشارة الصليب على الناس من شتى (مختلف) الأعمار ، من الذكور والاناث ، ومن كل الطبقات الاجتماعية ، بصرف النظر عن الحالة الصحية . بيد أنه في اليوم التالي ، بل وربما بعد ذلك على الفور ، كانوا يستردون اشارة الصليب ممن يدفع لهم مبلغا من المال مقابل اعفائهم من قسمهم بالمشاركة في الحرب الصليبية . وكانوا يودعون الأموال في خزانة احدى الشخصيات المهمة . وبدا هذا الأمر كله على أنه خاطيء ومثير لسخرية البسطاء والعامه ، وادى الى فتور الحماس الدينى لدى كثير من الناس ، « طالما أنهم قد تحولوا الى ما يشبه الخراف التي تباع من أجل صوفها » (٦) .

وبعد ذلك بعدة سنوات أسدل (متى) ستارا على وصفه الأول ، وأحل محله فقرة تخص أنشطة الآخوان الرهبان المتجولين للتبشير friars ذاتها . وتبدو الصورة الجديدة مختلفة تماما : « وفي هذا الوقت بذل الدومينيكيون والفرنسيون كل ما فى وسعهم من جهد ، وتعاون غيرهم معهم . وكانوا جميعا على بينة ، بفن القاء المواعظ الدينية وتدريبوا عليها ، وجنوا ثمارا متددة لكل جهودهم ، ونشروا بذور الحب فى حقل المسيح . وحتى لا يحول أى عائق دون أن ينال أى مسيحي مخلص الغفران الكنسى بناء على وعد الآخوان الرهبان للذين تمنوا المشاركة فى تلك الحملة الصليبية ، فانهم وافقوا عن طيب خاطر على قبول فدية للحصول على الغفران redemption من أى فرد وفقا لحالته المالية وبفضل جمع تلك التبرعات الضخمة لاعلاء كلمة الله ، يمكن القول ان الاستجابة العاجلة لذلك القرار ، كانت مساوية للمشاركة فى هذه الحملة الصليبية تماما بتمام . هذا بعد أن وصل الجميع الى أنه حتى لو أضيف النساء ، والأطفال والمرضى ، بل والفقراء والمعدمون ، الى الرجال ، فليس فى مقدورهم مبرمحين أن يحققوا سوى القدر اليسير أمام الحشود الضخمة لاعداء المسيحية (٧) .

ويبدو أن قيام (متى) بعملية تهذيب ما كتبه ظل قائما حتى مماته ، وأرجو ألا يكون استخدامي لتعبير « تهذيب » قاسيا . وللمرء أن يتساءل اذا ما كان متى قد قام بتعديل أسلوبه الخاص بما يرويه من تاريخ في مرحلة كتابته الباكرة بناء على ضغط من رؤسائه ، لأنه غير رأيه ، واعتقد أن تعبيراته الأصلية غير صحيحة ، أو لأنه اعتبرها منفرة وغير دقيقة تماما . وهناك تفسير محتمل ، وهو انه قد أدرك أنه عبر عما يجول بخاطره على نحو غير مستساغ ، من حين الى آخر ، وان كان ذلك أمرا مألوقا عند الكتاب الذين كتبوا بحماس شديد . وأنه اكتشف ذلك بعدما كبر في السن ، وقام باعادة قراءة ما كتبه . وهناك احتمال لتفسير محاولته تغيير ما كتبه فيما بعد ، وهو أن ازدياد معرفته الشخصية بالاخوان الرهبان الفقراء ، عن ذى قبل ، دفعه الى تغيير آرائه السابقة التي بناها لما رواه المتحاملون عليهم .

وفي المجال القاصر على مجرد ذكر الأخبار ، والذي يتعارض مع دور (متى بارييس) الضليح في تحليل الأحداث التاريخية ، فإنه تجنب ذلك الدور فضلا عن عدم وجود كاتب فاقه من ناحية المصادر التي أتاحت له واستقى منها أخباره . ولهذا السبب فان النظرة الأولى الوثيقة الصلة بتقييم (متى) باعتباره كاتب حوليات هي انها تعطي انطبعا بأهمية تلك المصادر . ولا ريب أنه يجول بخاطر قراء حوليات (متى) سؤال عن كيفية محاولة راهب متفوق في دير الكتاب بما زاد عن مجرد تدوين عادى للحوادث التي أثرت على ديريه بشكل مباشر أو حدثت في المناطق المجاورة له . لذلك فان ما حققه (متى) من سمعة يحسد عليها كأحد كتاب الحوليات للتاريخ الأوربي تجعل مسألة حصوله على المعلومات التاريخية التي قدمها أمرا مثيرا لاهتمام القارئ وفضوله الى حد كبير .

ولا ريب أن قدرا كبيرا من المعلومات التي أوردها متى في حولينه ، وصلت اليه عن طريق الزوار الذين نزلوا في الدير . فمن وجهة نظر (متى) لا يمكن أن يمتاز موقع مدينة سانت البنز St. Albans . والتي لا تبعد سوى مسيرة يوم واحد على الطريق المؤدى الى شمال وشمال غرب انجلترا ، عن بعد القارة الأوربية اليه . وفي عصر كانت فيه الحانات (*) قليلة ، استفاد كثير من الناس من كرم ضيافة الدير . وذكر (متى) أن الدير الذي عاش به أعد حظيرة لخيول النزلاء تسع ثلاثمائة جواد . أما الفقراء والزوار ارضاء للدافع الدينى فقد وصلوا سيرا على الأقدام . وكان الملك هنرى الثالث أشهر الشخصيات البارزة التي زارت مدينة سانت البنز St. Albans ووفقا لحولية (متى) ، فقد نزل هذا الملك بالدير ما لا يقل عن تسع مرات . وفي اجدى تلك الزيارات للدير

(*) كانت الحانات مزودة بغرف للمبيت والحانة هنا تشبه الحان الشرقى .

ظل به ستة أيام . ومن حسن حظ متى أنه استطاع اللقاء بالملك هنرى الثالث . ومن ثم كان على علم بكل الأنباء والأخبار التى تحدث عنها الملك منه مباشرة ، ودون أن يعلمها بطريق غير مباشر سواء من رئيس الدير أو الآخرين . وكتب (متى) عن زيارة الملك الى الدير فى مارس ١٢٥٧ م . فقال : « لقد أطل الملك اقامته ٠٠٠ لمدة أسبوع ، ونظرا لأن كاتب هذه الحولية كان مرافقا مستديما للملك فى القصر ، وعلى مائدة الطعام ، وفى حجرة الاستقبال ، فان الملك أمل عليه بكل اهتمام ودمائة » (٨) .

وفى نهاية سنة ١٢٤٧ م قام (متى) بإحدى زيارته النادرة الى وستمنستر Westminster ، بناء على دعوة من الملك هنرى الثالث الذى دعاه ليقم بالقرب من العرش الملكى ، حيث تحدث مع الملك ، ثم دعاه الملك بعد ذلك لتناول الطعام معه . وفى مناسبة أخرى ذكر (متى) أن البابا عرض على هنرى الثالث أن يعتلى ابنه عرش ألمانيا بدلا من فريديريك الثانى Frederick II ، بيد أن هنرى رفض ذلك العرض « وهذا ما قاله لى الملك المذكور ، أنا (متى) كاتب تلك الصفحات » (٩) .

ومن بين الشخصيات البارزة الأخرى التى زارت الدير : الملكة اليانور Eleanor وريتشارد ، إيرل كورنول Cornwall ، شقيق هنرى ، وهاكون الرابع Haakon IV ملك النرويج ، وأعضاء المجلس الملكى ، والبارونات ، والأساقفة ، ومن بين الآخرين روبرت جروسستست Robert Grossiteste ، أسقف لنكولن Lincoln ، الذى كان باحثا شهيرا وعالما كبيرا . وكان لارتباط (متى) بكبار الموظفين فى خزانة الدولة أهمية قصوى بالنسبة اليه . اذ يوجد ما لا يقل عن أربع عشرة وثيقة مسجلة فى كتابه « كتاب الاضافات » Liber Additementorum وهى نسخ من الأصول الموجودة فى الكتاب الأحمر بوزارة المالية .

وزارت الدير أعداد غفيرة أقل مقاما - يوميا تقريبا - وكان من بينهم جماعات الدومينيكان Dominicans ، والفرنسيسكان Franciscans . ونظرا لقدرة الاخوان الرهبان الفقراء على التنقل والترحال ، ولاستعانة البابوات بهم الى أبعد مدى ، واتخاذهم كمبعوثين تابعين للبابوية ، فان معلوماتهم عن الحوادث التى جرت بالقارة الأوروبية وما خلفها كانت تفوق غيرهم بكثير . ويكشف الخبر الذى تلقاه (متى) من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٢ م عن أن معلوماته كانت تصل اليه بطريق غير مباشر من « الرهبان السسترشيين Cistercian ، الذين عادوا من هناك ٠٠٠ بعد أن حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال جنا ، الانجليزى الأصل ، والمعروف باسم الكاردينال الأبيض لأنه كان أحد أعضاء جماعة الرهبان السسترشيين والذى أرسل رسائل الى باقى أفراد جماعته على يد أحدهم » (١٢) .

ومع ذلك فيظهر بوضوح مدى ما تثيره تلك المعلومات غير المباشرة من شك تجلي في نوعية الخبر الذي نقله « رجل مبيجل ، وهو رئيس جماعة أخوان كنيسة القديس توما الدينية في مدينة عكا ، الى (متى) سنة ١٢٥٧ م بمدينة سانت البنز ، اذ أبلغه ، « أن نوعا من الصواعق الجهنمية هبط من السموات العلا ، وأشعل النيران فجأة في معبد محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ثم حدث انفجار ثان مشابه للأول ، وحول المعبد المذكور الى أشلاء صغيرة . وعلى ما نعتقد حدث انفجار ثالث خسف بحطام المعبد والتمثال في أعماق الأرض . وقال ان هذه النيران قضت على الأخضر واليابس لشدة اشتعالها ، برغم أنها ليست مضيئة ، وامتدت لتحرق باطن الأرض ، وما بها من صخور وكأنها نار جهنم ، وبناء على ذلك احترقت مكة بأسرها . وكذلك اشتعلت تلك النيران في كل المنطقة المجاورة لها ، (١٣) .

وهناك معلومات ذكرها (متى) في حوليته كشاهد عيان لها ، كما أنه من النادر ذكره مشاهدته لحادثة وصفها في حوليته . ومع ذلك في استطاعة القارئ التأكد من أنه شاهد ما رواه . ومثال ذلك تلك المناسبة المنعمة بالجلال والرهبة ، عندما اعتقد الكثيرون بأن دم المسيح تم احضاره الى دير وستمنستر في يوم عيد القديس ادوارد سنة ١٢٤٧ م . فيقول (متى) ان الملك ، الذي صاحبه كل رجال الاكليروس بلندن ، قام بحمل الاناء المقدس من كنيسة القديس بولس الى وستمنستر حيث أقيم قداس ، ثم ألقى أسقف نوروتش Norwich عظة في الكنيسة . وابان المناقشات بعد الانتهاء من اقامة الشعائر الدينية طرح سؤال عن كيفية قيام المسيح من بين الموتى « بكامل جسده » ، ومع ذلك ترك دمه على الأرض ووفقا لرواية (متى) ، استطاع روبرت جروستيست Robert Grosseteste ، أسقف لينكولن Lincoln ، تبديد كل الشكوك ، « على نحو محكم وصائب جدا » . وقام (متى) باضافة أدلة وبراهين الأسقف ، وذكرها في كتابه الخاص بالاضافات ، وأن كاتب هذه الحولية سمع تلك البراهين بنفسه ، ودونها حرفيا وبكل دقة ، (١٤) .

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم . ويلاحظ القارئ الكريم أن جوزيف داهموس مؤلف هذا الكتاب ، وهو مؤرخ لا يدين بالاسلام رفض تماما هذه المعلومة لأنها عارية تماما من الصحة لعدم وجود سند تاريخي لها في أي مصدر آخر ، وأنها ليست من الواقع في شيء . وللمترجم الحق في القول أنها مثال لمعلومات وأكاذيب ، وأساطير ذخرت بها معظم المصادر التاريخية الأوربية في العصور الوسطى . كما تعبر عن نظرة الرهبان في أوربا تجاه الاسلام في العصور الوسطى . (المترجم) .

كما أن القوة التي وصف بها متى كثيرا من الحوادث التاريخية تدفع القارئ على أن يفترض وجود (متى) كشاهد عيان لها . إذ يستطيع المرء أن يضعه بين الشخصيات البارزة وبقية الضيوف الذين اجتمعوا لحضور حفل زفاف مارجريت ابنة هنري الى الاسكندر ملك اسكتلندا في مدينة يورك ابان عيد ميلاد سنة ١٢٥٢ م . ولقد احتشد هناك جمع غفير من الاكليروس والفرسان حتى ان روعة هذا الاحتفال الزفافي الضخم تألقت في كل مكان ، ذلك لوجود ملك وملكة انجلترا ، ونبلائهم ، الذين لا يمكن سرد أسمائهم لأن ذلك سوف يستغرق وقتا طويلا ، وحضر ملك اسكتلندا أيضا والملكة والدته التي وجهت اليها الدعوة ابان وجودها في القارة الأوروبية ، وحضرت معها حاشية كبيرة من اسكتلندا وفرنسا ، اذ هي من مواليد فرنسا . ووفقا للعادة المتبعة مع الملكات الأرامل ، كانت الملكة الوالدة تحصل على ثلث الموارد المالية لمملكة اسكتلندا ، والتي بلغت ما يزيد على خمسة آلاف من الماركات (*) . هذا بالإضافة الى ما تحت يديها من الممتلكات الأخرى التي منحها لها والدها انجيلرام Engelram ، ومن ثم ظهرت في القارة الأوروبية ومعها حاشية ضخمة من المرافقين لها ، والذين اتسموا بالأبهة والمهابة . وعندما وصلوا جميعا الى مدينة يورك ، أقام المرافقون لملك اسكتلندا في شارع واحد . دون أن يختلطوا مع الآخرين ، من باب الحذر والاحتراس ، وفي الوقت الذي قام فيه بعض القادة التابعين لسادتهم الاقطاعيين بتدبير أماكن اقامة لسادتهم ، قام البعض الآخر بالمشاركة في مباريات بدأت بالأيدى ، ثم بالهراوات ، وانتهت بالسيوف ، وجرح بعضهم جروحا بالغة الخطورة ، وخر أحدهم صريعا ، أما الذين جرحوا فلم يبرعوا من جراهم . ومع ذلك استطاع الملكان ، اللذان كانا في مكان المباراة ، أن يضعوا حدا لها بمساعدة الحرس الشخصي التابع لكل منهما ، وهو الحرس الذي اتسم بالحكمة والاعتدال ، (١٥) .

ومن غير المحتمل أن (متى) شهد تلك الأحداث في يورك بنفسه ، برغم أن الطريقة الشخصية التي استخدمها باستمرار في وصف تلك الحوادث توحى للقارئ بأنه كان شاهد عيان لها . ووجد (متى) متعة في وضع جمل من عنده في صيغة المتكلم ، بل وخطب أيضا ، على لسان الشخصيات الكبرى ، وهو اجراء يزيد من التوهم بأنه كان موجودا ابان الاحتفال .

وكانت أهم مصادر معلومات (متى) التاريخية ، وبخاصة تلك التي وردت اليه عن البلاد الأجنبية ، تُرد اليه عن طريق الرسائل التي وردت

(*) المارك Mark وحدة نقد انجليزية قديمة تعادل ١٣ شلنا و ٤ بنسات .

(لترجم) .

اليه بصفة شخصية أو التي نقلها اليه من أرسلت اليهم تلك الرسائل ، وهو الأمر الذي كان أكثر حدوثا . ويمكن التماس العذر لمتى عندما يكون المرسل والمرسل اليه من الشخصيات المهمة مثل فريديريك الثاني ، امبراطور ألمانيا ، وهنري الثالث ملك انجلترا . ثم نجد (متى) وقد سلم بفحوى الرسالة ، واعتبرها جديرة بالثقة الى أبعد حد ، وبخاصة عندما تكون تلك الرسالة غير سياسية . ومن الممكن من أول وهلة وضع الخطاب الذي أرسله فريديريك الى هنري ، وأدرجه (متى) في الحولية عن سنة ١٢٤١ م تحت هذا الصنف . وكان فريديريك قد كتب الى صهره هنري ، على أمل ضمان تعاونه معه ضد الخطر المحدق ، « الذي ينذر بالقضاء التام على الوجود المسيحي » ، وضد التتار على وجه التخصيص ، الذين اندفعوا في شرق أوروبا بأعداد ضخمة . واعترف فريديريك أنه ليس لديه علم عن المكان الذي جاء منه هؤلاء الغنوم ، سوى أنهم « جاؤوا من الأقاليم الجنوبية ، منذ عهد قريب » . وأنهم تكاثروا كالجراد ، وعقدوا العزم على القضاء على كل الشعوب ، وفرض نفوذهم المفرع على كافة أنحاء العالم . ولكي يؤكد فريديريك على وحشية هؤلاء التتار ، وعلى جسامة الخطر الذي يتعرض له العالم الغربي على أيديهم . قام الامبراطور بوصف التتار وذكر عاداتهم .

« وكان الفرد من التتار قصير القامة ، بيد أنه كان مكتنز الجسد ، وقوى البنية ، وضخم العضلات ، وشديد البأس ، وشجاعا ، وعلى استعداد تام لمواجهة أقسى الصعاب بمجرد اشارة واحدة من قائده . كما كان كبير الوجه ، ومقطب الجبين ، ويطلق صيحات مرعبة تتناسب مع غلظة قلبه ، ويرتدى جلود الثيران ، والحمير ، والخيول ، غير المدبوغة . ويحمي نفسه بقطع من حديد ملتصقة بجسده ، وما زال الفرد منهم يستخدمها حتى وقتنا هذا . اننا لا نستطيع القول دون الاحساس بالأسى والمرارة أن هؤلاء التتار قد زودوا أنفسهم بأسلحة المسيحيين الذين غلبوا على أمرهم . ونظرا لغضب الله علينا ، فاننا نتجرع كؤوس المنيّة بسلاحنا الذي سقط في أيديهم . ان التتار محاربون لا نظير لهم ، ويحملون جلودا صناعية ، ويعبرون بها البحيرات ، والأنهار دون خطر . وعندما ينفذ ما عندهم من علف الماشية تعيش خيولهم على لحاء الأشجار وأوراقها ، وجذور الأعشاب ، التي يقدمها الرجال الى تلك الخيول . ومع ذلك ظلت خيولهم سريعة ، وقوية في وقت الحاجة » (١٦) .

ومن بين الأنباء التي تضمنها خطاب الامبراطور فريديريك الى هنري ملك انجلترا اشارة خطيرة عن البابوية ، وهي أنه في الوقت الذي دعت فيه خطورة الموقف كل المسيحيين الى الاتحاد للتصدي للخطر المحدق ،

ظل البابا يرفض عروض فريديريك من أجل السلام بكل عناد . ولا بد أن (متى) قد شارك الآخرين في التحفظات التي أبدوها بشأن التسليم الكامل بصحة كلمات فريديريك . فيقول (متى) إن أعداء الامبراطور قد اتهموه بنحريض التتار على مهاجمة تلك الشعوب ، ثم القيام برسالة هذا الخطاب لمجرد اخفاء اشتراكه في الجريمة التي اقترفها . وقام (متى) من ناحيته بالإشارة إلى بعض الأخطاء في رسالة الامبراطور . فعلى سبيل المثال شكك (متى) في أن الرحالة قد غاب عن انتباههم أمة التتار الكثيرة العدد ، وفقا لما ذكر فريديريك في رسالته . وتساءل (متى) قائلا : « أين كانت هذه الأمة الكبيرة تخفي نفسها حتى الآن ؟ » ومهما كان اعتقاد (متى) في مدى مصداقية رسالة فريديريك عن التتار ، فإنه كان سعيدا بضمه رسالة الامبراطور إلى الوثائق التي تخص التتار ، وأصبحت في حوزة الدير . ويدعو (متى) القارئ الذي يرغب في معرفة المزيد عن التتار بزيارة مدينة سانت البنز ، والاطلاع على ذلك الملف « (١٧) .

وبرغم أن تلك المعلومات المتعلقة بالتتار قد تثير الشك ، فإنها تشكل إحدى المقومات الكبرى لحولية متى بارييس . وقام (متى) بتسجيل الأحداث على ما يرام ، وبذل كل ما في وسعه ، دون أن يكون للعاطفة تأثير عليه . إذ إن ما كتبه عن انجلترا ، وويلز ، واسكتلندا يبدو بوضوح أنه كاتب حولية دقيق ومدقق ، باستثناء قيامه بنوجيه اللوم الشديد إلى الملك أو إلى أحد ممثلي البابا . بل إن معظم المعلومات التي قدمها عن التطورات بالقارة الأوروبية يمكن الاعتماد عليها ، في معظمها ، عن أي مصدر آخر لتلك الفترة .

ويمكن الاعتماد على (متى) عندما قدم وصفا واقعيا ودقيقا عن حادثة نقل تاج الشوك الذي كان على رأس المسيح ، وهو في طريقه إلى الجمجمة ، وفقا لما اعتقد الكثيرون من المسيحيين . ووقعت هذه الحادثة سنة ١٢٤٠ م وهزت مشاعر المسيحيين الغربيين . وعلق (متى) على ذلك الأمر الخاص بنقل التاج من القسطنطينية إلى فرنسا ، بأن الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية كان في حاجة ماسة إلى المال ، « وهو أمر شائع عند أولئك الذين يدخلون الحروب » . ومن ثم فاتح لويس ملك فرنسا الورع ، وعرض عليه بيع هذا الأثر المقدس ، « نظرا للروابط القديمة بينهما والقائمة على الصداقة وصلات القربى » .

« قام الملك الفرنسي ، بارسال مبلغ ضخم من المال ، من وافر كرمه ، إلى امبراطور بلدوين Baldwin ، بناء على نصيحة مستشاريه من أهل الخبرة ، ووالدته التي شاركته الرأي ، وبعد أن نفذ ما عند بلدوين

من أموال نتيجة للحروب المتواصلة . ومن ثم عمرت خزانة بلموين بالمال مرة ثانية ، وارتفعت الروح المعنوية عند أتباعه وجيشه ، وتراقصت الآمال الكبار أمام عيني بلموين بتحقيق نصر مؤزر على الاغريق . وفي مقابل هذه الاعانة المالية الضخمة التي حصل عليها من الملك ، أرسل الملك تاج المسيح تنفيذاً لوعده واتفاقاته . والواقع أن هذا التاج أثنى من الذهب والتوباز . وعندما وصل التاج الى المملكة الفرنسية صار مفخرة وتشريفا لها . وظل محاطا بكل خشوع ومهابة . كما أنه كان باعثا لفخر كل اللاتين . ووضع التاج في كنيسة الملك بباريس ، بعد الاحتفال به في عوكب مهيب ، وسط رنين نواقيس الكنائس ، (١٨) .

وإذا كانت تعقيدات الدبلوماسية السولية لم تكن احدى الظواهر في القرن التاسع عشر ، أو اذا ما رغب المرء في العودة الى الوراء ، فهي لم تظهر الا على عهد قادة ايطاليا في أواخر العصور الوسطى ، فانها كانت واضحة للعيان في وصف (متى) عندما خاض كونت فلاندرز Flanders سنة ١٢٤٠ م . وذهب هذا الكونت الى انجلترا بناء على اذن لويس ملك فرنسا ، وسيده الاقطاعي الأعلى . « ولم يقتصر استقباله على وجود الملك (هنرى) ، وحاشيته فحسب ، وانما شاركت جموع غفيرة من سكان لندن الذين امتطوا صهوات خيولهم المزركشة ، وسط دق الطبول وأصوات الأبواق ، وكل مظاهر الحفاوة ، والتكريم ، والسعادة ، والابتهاج ، وغمره بالهدايا . وقدم الملك اليه خمسمائة (أو ثلاثمائة كما يقول البعض) ، من الماركات الجديدة من العملة الاسترلينية وخصص له منحة سنوية تعادل ذلك المبلغ نفسه لمدة العشرين سنة القادمة ، من خزانة الدولة ، نظرا لتقديم هذا الكونت فروض الولاء الاقطاعي للملك . وبعد الانتهاء من تسوية هذه المسألة عاد الكونت الى فلاندرز على الفور . . . ثم بدأ في اثارة القلاقل في أقاليمه ، واستدعى جنوده وأتباعه النظاميين والمرتزة ، وبذلك حشد جيشا ضخما . وهاجم أسقف لييج Liège المنتخب ، الذي كان مواليا للامبراطور (فريدريك) ، وأحد أقاربه ، وبعضاً من الموالين للامبراطورية ، الذين ظلوا مرافقين للأسقف المنتخب ، بناء على أوامر الامبراطور .

« وقام جلالة الامبراطور بارسال رسالة احتوت تهديدات شديدة اللهجة ، الى الكونت المذكورة بمجرد سماعه لتلك الأحداث عله يرتدع من تصرفاته الرعناء والمتهورة ، والتي لم يتوقع الامبراطور حدوثها ، لا سيما وأن الامبراطور كان يتعرض لمشاكل من قبل البابا بسبب أمور شديدة التعقيد ، وكذلك من قبل حلفائه ، بل ومن أسقف لييج المنتخب ، صديقه وقريبه لذلك كله حذر الامبراطور الكونت بالكف عن اثارة

المتساعب وأمر الامبراطور دوقى ليو فان Louvain ، وبرابانت Brabant ، وغيرهما من الحكام المجاورين للامبراطورية ، من أجل التصدي لهجمات كونت فلاندرز ، والعمل على فت عضده . ثم كتب الى كونت بروفانس Provence ، الذى كان أحد الموالين للامبراطور ، وأمره الامبراطور باعتباره حليفا مخلصا ، أن يحبط مخططات ومحاولات كونت فلاندرز ، الذى كان قد أبدى تعاليا على كونت بروفانس ، بيد أن الكونتين رفضا اطاعة أوامر الامبراطور . ثم أرسل الامبراطور الى كونت تولوز Toulouse ، يأمره - تحت التهديد بانزال العقاب الرادع - أن يشن حربا ضد كونت بروفانس ، الذى رفض أن يعاقب كونت فلاندرز . وأرسل الامبراطور مساعدات فعالة الى كونت تولوز Toulouse لتمكينه من شن غارات متكررة ضد كونت بروفانس . ولما كان كونت تولوز يعانى من أضرار قديمة الحقها الفرنسيون به لذلك هب بنفسه ، بمجرد وصول طلب الامبراطور ، وزحف لملاقاة كونت بروفانس بكل تلهف . ولما تعرض كونت بروفانس لضربات قاصمة على يد كونت تولوز هرع الى ملك فرنسا طالبا الحماية ، ومتوسلا اليه بكل نذل أن يقدم اليه النجدة العاجلة . ولما علم ملك انجلترا أن كونت بروفانس قد تعرض لخسائر فادحة فى الأفراد ابان كفاحه المرير كتب الى الامبراطور رسالة ودية ، طالبا منه باسم صلات القربى أن يصفح عن كونت بروفانس والد زوجته أما ملك فرنسا صاحب النفوذ السياسى الكبير . . . فقد سارع بإرسال سبعمائة فارس ومعهم ما يزيد عن عددهم بكثير من المقاتلين للتصدي لهجمات أعداء الشعب البروفنسى الى Provençals (١٩) .

ويشير متى باريس دهشة القارىء باستمرار نظرا لوفرة التفاصيل التى يصف بها الحوادث ، ولطريقته المشوقة فى العرض لها ، حتى لو كانت تلك الحوادث قد حدثت على بعد أميال عديدة من مكان ديره . فالحدث الذى وصفه فى الفقرة التالية حدث عبر بحر الشمال فى ألمانيا . كما تلقى الجمل وال فقرات المقتبسة من الأدب الاغريقى والرومانى ، وكذلك الاشارات الضمنية مزيدا من الضسوء على ولع متى باريس بالأدب الكلاسيكى ، كما اعتقد متى أن استخدامه للصور البلاغية يعمل على زيادة المنزلة الأدبية لطريقته الفنية فى سرد الأخبار ، جمالا وروعة .

« وفى العام نفسه (١٢٥٦ م) ، كان وليم الهولندى ملكا بناء على تعيين البابا الذى رفعه الى مكانة سامية عندما جعله ملكا على ألمانيا . وراودت وليم فكرة السيطرة على الامبراطورية الرومانية ، بعد أن غمر البابا بالأموال على نحو مستمر ، ولذلك ما أن سنحت بارقة أمل حتى شن حربا

ضد سكان فريزلند Frieslands ، وهم شعب اتصف بالفظاظة ،
والهمجية ، والبعد عن كل مظاهر التحضر . ويقطن شعب فريزلند في
الأقليم الشمالي ، وهم شعب ماهر في الحروب البحرية ، ويقاتلون ببسالة
وشجاعة على الجليد . ويعيش سكان فريزلند في تلك الأقاليم الباردة كما
قال جوفينال Juvenal : « على المرء أن يلوذ بالفرار اذا ما وصل الى
حدود السارماتيين والمحيط المتجمد الخ . » وعلى ذلك أعد سكان
فريزلند كمائن على امتداد شاطئ البحر ، وبين الصخور ، وكذلك على
امتداد الأراضي الزراعية المليئة بالمستنقعات . (كان الشتاء قد بدأ عند
اقتراب موعد عيد الطهارة للقديسة العذراء) . وتعقبوا أثر وليم السالف
الذكر . وقد تسلحوا بالرماح التي أجادوا استعمالها ، بالإضافة الى
البطاط والرماح الدانمركية ، وارتدوا الثياب الكتانية ، وسترُوا أجسادهم
بالدروع الخفيفة . وعند وصولهم الى منطقة معينة تقابلوا مع وليم ، الذي
كان واضعا خوذة على راسه ، ودروعاً حول جسده ، وممتطياً صهوة جواد
حربي مغطى بالدروع . بيد أنه عندما تقدم في مسيره ، تكسر الجليد ، برغم
أن سمكه زاد على نصف قدم وغاص الحصان في الوحل حتى جانبيه ،
وتسمر الجواد في المستنقع . فاستشاط وليم غضبا وغرس مهمازه الحاد
في جانبي الحصان حتى وصل الى أمعائه . عند ذلك عمل الحصان الغاضب
على النخلص من سيطرة وليم عليه ، ولكن دون جدوى . ثم حاول أن يشق
طريقه فازدادت جراحه ، وغاص جسده في الوحل عن ذى قبل . وأخيرا
تمكن الجواد من طرح وليم أرضا بين قطع الجليد الزلق والحشن . ثم انقض
سكان فريزلند على وليم ، الذي لم يجد أحدا يقدم له يد المساعدة في
محنته ، اذ لاذ رفاقه في السلاح بالفرار لتجنب وقوعهم فيما حدث له ،
وأطره سكان فريزلند بوابل من رماحهم من جميع الجهات . وبالرغم من
نوسلاته اليهم ، فانهم لم يتركوا جزءا من جسده الا وقد أصيب بطعنة
دامية . وأوشك جسده أن يتجمد من شدة الرطوبة والبرد .

وبالرغم من أن وليم عرض عليهم مبلغا كبيرا كغدية ، اذا ما تركوه ،
وسمحو له بالانسحاب ، فان هؤلاء الرجال ، الذين تحجرت قلوبهم ،
زادوا في غيهم وقطعوا جسده اربا اربا . وهكذا فان وليم ، الذي ذاق
حلاوة حكم الامبراطورية ، والذي كان من قبل كونتا لهولندا ، وصنيعة
البابا وتلميذه ، سقط على يد أعدائه بعد أن كان في أوج منزلته العليا الى
أعماق الفوضى والضياع . ويقول أحد الفلاسفة : « ان الموت وفقا لمشيئة
الأعداء موت مضاعف . » وعندما بلغ البابا نبأ مقتل وليم ، حزن حزنا
شديدا ، لما أنفق من أموال جمعت من كل مكان ، وبكل الوسائل ، (٢٠) .

ان الاشارات الانتقادية التي ذكرها متى عن البابا تبرز مظهرا لأثره الأدبي يجعل من متى كاتباً لحوالية لا يحظى سوى بالقليل من الاجلال .
اذ لم يكن قادراً على أن يروي المعلومة الخاصة بالبابوية بمعيار التحرر أو بقدر من الادراك العقلي لذلك الموضوع ، كما كان يتوقع المرء ذلك من كاتب مسئول مسئولية تامة . فأسلوبه اللاذع عندما كتب عن البابوية وممثل البابا شابه أسلوب مجادل برونستانتى عنيف عاش فى القرن السادس عشر ، وليس أسلوب راهب بندكتى عاش فى القرن الثالث عشر . على أن ما يجعل موقف متى ، بالنسبة لهذه الناحية ، متعذر التبرير أو الدفاع عنه كلية ، هو روح الأنانية المتأصلة فى نفسه والتي حركته ، وأعنى بذلك ، اعتراضه على الابتزاز البابوى ، والهيمنة البابوية على الكنيسة . ومع ذلك فباتخاذ هذا الموقف يكون قد مارس دور المتحدث باسم ديره ، وباسم الكنيسة الانجليزية بصفة عامة . ومما لا ريب فيه أنه عبر عن مشاعر معظم هيئات الكهنوت خارج ايطاليا .

ولا بد للمرء أن يعترف بأن الكنيسة الانجليزية استطاعت أن تبرز اعتراضها على الابتزاز البابوى من منطلق ان الأموال التي قامت البابوية بابتزازها كانت تنساب بتدفق الى حلفاء البابا فى حربته ضد فريديريك الثانى ، وهى الحرب التي ليس لها ما يبرر وجودها من وجهة النظر الانجليزية . (ومن بين التبريرات الأخرى لتعاطف الانجليز مع فريديريك الثانى هو أن ذلك الامبراطور كان صهراً للملك هنرى الثالث) . ورفضت الكنيسة الانجليزية الأدلة والبراهين التي عرضها البابا من أنه فرضت عليه معركة حياة أو موت مع الامبراطور الذي أصر على عدم النوقف الا اذا أكمل سيطرته التامة على شبه الجزيرة الايطالية بما فيها مدينة روما وارتاب كثير من أهل الفكر والحكمة فى تحليل البابا للموقف ، ومن بينهم لويس التاسع ملك فرنسا . وبالرغم من أن كل بابا كانت له أولوياته السياسية قبل انتخابه ، فان كلا منهم انتهج سياسة التصلب والعناد نفسها تجاه فريديريك .

وفى سنة ١٢٣٦ م ، واصل متى كتابة حوليته ، وكتب عن « الجشع البغيض الذى مارسه البلاط الرومانى » (٢١) . وفى تلك السنة ذاتها ، اتخذ متى جانب الامبراطور فريديريك الثانى فى أول اشارة له عن الخلاف بين فريديريك هذا والبابا .

« وفى ذلك الحين أعاق البابا خطة الامبراطور القائمة على غزو ايطاليا بفضل الأوامر البابوية التي بعث بها وكان الامبراطور قد حشد كل القوات الامبراطورية التي استطاع حشدها ، لمهاجمة الايطاليز

المتطرسين ، ولا سيما أهالي مدينة ميلان ، لأن تلك المدينة كانت مرتعا لكل المذاهب الدينية التي لا تؤمن بمذهب الكنيسة العالمية ، بالإضافة الى المرابين . ويبدو أن الامبراطور وجد أنه ليس من الحكمة في شيء الذهاب لتقديم المساعدة للأراضي المقدسة قبل القضاء على هؤلاء المسيحيين المزيفين الذين كانوا أشد خطرا على المسيحية من المسلمين . وتعجب فريديك الثاني أشد التعجب لمحاباة البابا لسكان مدينة ميلان ، ومنحهم الحماية ، في الوقت الذي يحتم عليه واجبه أن يكون أبا للاتقياء ومطرقة لضرب الأشرار » (٢٢) .

وعلى ضوء تعاطف متى مع فريديك ابان خلاف هذا الامبراطور مع البابوية ، والمدن الشمالية بايطاليا ، يستطيع المرء أن يدرك ادراكا كاملا شجبه الشديد لابتزاز البابوية الذي كان من الممكن أن يكون عدوانيا حتى لو كانت تلك الأموال تنفق على قضية «عادلة» . وفيما يلي مثناء توضيحي من عشرات الأمثلة ومن الملاحظات الانتقادية التي أدرجها متى في أماكن كثيرة ، وفي كتاباته وهذا المثال التوضيحي ، ذكره في أحداث سنة ١٢٤١ م . « وفي ذلك الحين ، امتد جشع البلاط الروماني البغيض الى حد الخلط بين الصواب والخطأ ، ضاربا عرض الحائط بكل الحياء ، كما تفعل المرأة العاهرة ، التي تبيع نفسها ، لكل من يدفع لها . ذلك كله بعد أن اعتبر هذا البلاط الروماني ، أن الربا ليس سوى اثما طفيفا ، وأن بيع وشراء المناصب الكهنوتية ليست ضمن الجرائم على الاطلاق . وزاد الأمر سوءا ان انتقلت تلك العدوى الى الدول المجاورة ، بل ان انجلترا نفسها لم تسلم من تدنيس طهارتها ، بسبب تلك الأمراض الخطيرة ، وربما كان ذلك كله باذن من البابا جريجوري (التاسع) أو بمساعدته . وعلى الرغم من كثرة الأمثلة المتشابهة والتي فاحت رائحتها ، فاني وجدت من المناسب أن أروي بايجاز مثلا واحدا ، لكي أوضح كيف حل غضب الله ، الذي يمهل ولا يهمل ، على ذلك البلاط المذكور (٢٣) .

ومما أثار اعتراض متى ، والكنيسة الانجليزية ، والشعب الانجليزي أكثر من المطالب المالية ، قيام البابوية بتعيين ايطاليين في الرتب الكنسية ذات السخل في انجلترا . على أن السبب الأساسي لقيام البابا بتعيين هؤلاء الأجانب في الكنائس هو ضمانه قيامهم بمعاونته في مواجهة نفقات الادارة البابوية في روما ، فهي التي تتولى أمور كل العالم المسيحي . وعندما كانت معظم الموارد المالية ناتجة من الأرض الزراعية ، ودخل الرتب الكنسية في العصر الوسيط ، لم يكن أمام البابوية من رأى منطقي من وجهة نظر البابوية للتمويل سوى هذا الأسلوب الذي اتبعته . وتوضح الوثيقة التالية أن الحاجة الى جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية لمواصلة

الحرب ضد فريديريك الثاني ربما كانت تمثل مسألة ملحة لا تقل اطلاقاً عن تمويل الادارة البابوية . وفي هذه المرحلة أصدر البابا أوامره بتعيين عدد ضخم من الايطاليين في المناصب الدينية ذات الدخل في انجلترا . يتم توزيع المناصب الدينية ذات الدخل بين الأبنساء والأقارب من الرومان ، بناء على رغبتهم ، شريطة أن يثوروا جميعاً ثورة رجل واحد ضد الامبراطور ، وأن يبذلوا كل مساعيهم من أجل الاطاحة به عن العرش الامبراطوري ولذلك أرسل البابا تفويضاته المقدسة الى ادموند Edmund ، رئيس أساقفة كانتربري ، والأساقفة في لينكولن Lincoln ، وساليزبري ، يأمرهم بتعيين ثلاثمائة من الرومان في المناصب الدينية ذات الدخل التي تكون شاغرة ، ومحددا ايأهم بعدم شغل أى منصب قبل أن يتم توزيع ذلك العدد المذكور على أن ادموند ، الذي استسلم طوعاً أو كرها ، لأساليب الابتزاز البغيضة السالفة الذكر ، ودفع ثمانمائة من الماركات الى البابا ، والذي شاهد أن الكنيسة الانجليزية يتمرغ أنفها في التراب يومياً ، وعلى نحو متزايد ، وتنهب ممتلكاتها ، وتحرم من حرياتها ، صار متبرماً من الحياة لرؤيته مثل تلك الآثام تحدث على الأرض . ولذلك بعد أن طلب ادموند الحصول على موافقة الملك ، وبعد تلقيه اجابات غامضة ترك البلاد ، وهو يتجرع كؤوس المرارة ، وأبحر الى فرنسا ، حيث صحبتة حاشية قليلة العدد ، واتخذ مقامه في بونتجنى Ponfigny وهذا المكان الذي أقام به سلفه القديس توماس St. Thomas ، ابان حياته في المنفى ، وشغل ادموند نفسه في الصلاة والصوم ، (٢٤) .

كان قلم متى الحقود أقل ضراوة عندهما كتب عن هنري الثالث والحكومة الملكية اذا ما قورن بما كتبه عن البابوية والادارة البابوية-الرومانية . وتعرض كل من الأفراد والمؤسسات الاجتماعية الى ما يدنو من حط بالقدر والنقد الجارح بالقدر الذي طرحه متى على كل من البابوية والناج . ومن النادر أن اكتشف متى أى شيء يمكن أن يستحق البابا أو الملك الثناء عليه ، بل أنه من النادر أن قام متى باتخاذ موقف الرفيق الايجابي للمشاركين معه في المعاناه ضد خصومهم . ويرجع هجوم متى على السلطة الكنسية والملكية ، وغضبه عليهما لممارستهما سلطات قضائية في مدينة سانت البنز .

وهو الأمر الذي يكشف عن السبب الرئيسي في حقهه عليهما . وإذا كان رئيس دير سانت البنز قد تمتع بموقف مستقل سواء بالنسبة للعلاقات مع الملك أو مع البابوية وذلك طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، الا أن هذا الاستقلال تعرض للهجوم من قبل كل من

الملك والبابا في القرن الثالث عشر الميلادي . ولم يجلب للدير فقده لاستقلاله سوى تزايد عدد المطالب المالية من قبل البابوية والملك ، وهي التي فرضت على الدير . وكذلك تدخل كل من البابوية والملك في اختيار الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وممارستها الوساطة لتعيين المواليين لهما في المناصب الكنسية ذات الدخل .

وبالطبع كان تدخل السلطة الملكية في اختيار الأساقفة مسألة قديمة ، بيد أن كتابات متى في حوليته عن سنة ١٢٤٦ م بدت غير مقبولة تماما ، إذ أنه عرض هذا الأمر وكأنه إجراء جديد ابتدعه هنري الثاني . وكتب متى قائلا : « كانت قوانين ساليزبري Salisbury لا تسمح لأحد بالحصول على موافقة الملك ، ما لم يكن ينتمي الى البلاط الملكي لكي يحمي الكنيسة من الأخطار ، ويحظى بقبول الملك . ومن ثم تم اختيار وليم من يورك ، وهو من أشهر رجال الدين المقربين للملك ، وعمدة بيفيرلي Beverley ، وكان ضليعا في القوانين . وعين أسقفا ، وراعيا للأرواح . كما كان هناك اعتقاد بأن هذا الاختيار يرضى الله ، ومقبول من الملك . ومن ثم منح التشبيت الديني دون تأخير » (٢٥) .

وكان اختيار أحد محاسيب الملك هنري مجرد جزء من تسوية بين الملك والبابا ، وهو الأمر الذي لم يكن مقبولا لدى المؤرخ متى الى حد كبير ووضح ذلك بجلاء في حالة ايلمار Ailmar ، سقيق الملك هنري من والدته : « وهو الذي قام البابا بمنحه التشبيت الديني على الكرسي الأسقفي في ونشيستر Winchester ، بالرغم من صغر سنه ، وعدم معرفته للتعاليم الدينية ، وعدم قدرته على شغل هذا المنصب أو الرعاية الروحية لكثير من الأرواح . وحظى ايلمار بكل عطف وتأيد من قبل البابا ، لدرجة أنه احتفظ بالموارد المالية التي كانت تحت يديه قبل توليه الكرسي الأسقفي ، وحدث ذلك كله بفضل رعاية الملك له . على أن البابا أمر على الفور بمنح ابن كونت بوجوندي Burgundy هبة تدر دخلا قدره خمسمائة من الماركات لذلك الطفل ، حتى يقدم البابا الدليل على أنه لم يزرع حبا في أرض قاحلة دون أمل جنسى المحصول » (٢٦) .

ولانت طلبات هنري المتواصلة من أجل الحصول على اعانات مالية ، السبب الرئيسي في اثاره اعتراضه على سياسة الملك وقيامه بدور المتحدث باسم الكنيسة الانجليزية والطبقة الأرستقراطية في انجلترا . على أن المؤرخين ليسوا على اتفاق كامل فيما يتعلق « بعدم مشروعية » تلك الطلبات . وحتى السنوات الأخيرة ، مال هؤلاء المؤرخون الى قبول

اعتراضات متى العنيفة ، باعتباره رأى مسئول صدر عن ناقد محايد ،
وجرى ، استطاع التصدي بشجاعة متناهية للسلطة الملكية بسبب
انحرافاتهما فى ادارة الدولة وسعيها لفرض الهيمنة . ونظرا لأن الأبحاث
العلمية المتلاحقة قد وضعت ادراك متى الحسى ، وكذلك موضوعيته فى
الكتابة ، موضع الشك ، فان موقف الملك وسياسته كان لهما نصيب
أكثر تعاطفا عند التقييم .

ومع ذلك اذا ما اعتبرنا الحكم القاسى الذى أصدره متى على هنرى ،
كان حكما خاطئا ، فانه لم يكن فى حجم الحكم الذى أصدره من قرأ حوله
متى فى الوقت الحاضر . اذ اكتفى كتاب الحوليات فى العصور الوسطى
بتغطية الأحداث التى جرت على عهدهم بقدر ما أثرت فى نفوسهم ، على
نمط المراسلين الصحفيين ، الى حد ما ، على الرغم من أنهم لم يكونوا فى
موقع المسئولية . ويمكن القول بصفة عامة أن الأحداث أو التطورات
التي أصابت كاتب الحولية أو مجتمعه بالضراء ، قام بالتعبير عن حالة
الرتاء لما حدث ، أما الأحداث التى عادت عليهم بالخير ، فقد قاموا بمدحها
والثناء عليها . وليس من الواقع فى شئ أن نصف متى بارييس بأنه مراقب
موضوعى للأحداث ، وقادر على الاقتراب منها بمثل الرؤية الواضحة لابن
خلدون الذى عاش بعده بمائة وخمسين عاما ، والذى كانت قدراته
التحليلية جريئة حتى على عهده . ولم يدرك متى تلك الظروف ادراكا
كاملا ، مثل تزايد نفقات الحكومة ، والتي ربما كانت مبررا لطلبات هنرى
المتكررة من أجل الحصول على المساعدات المالية . وقام متى بإبراز تمييز
الملك ، وانفاقه على أقارب زوجته الأجنبي ، وعلى المغامرات الخارجية ،
ومنها وضع ابنه ملكا على عرش صقلية . ولا بد أن المؤرخين فى عصرنا
هذا ، قد توقعوا أن تلك الطريقة هى من بنات أفكار متى . ولا شك
أن قيام هنرى باغداق أقارب زوجته ، وأصدقائه بالذهب ، والمناصب
جعله عرضة للهجوم والانتقاد ، وأمد نقاده بالذرائع المحتملة دون مشقة ،
والتي أقنعتهم بأن الاضطرابات المالية للادارة الملكية كانت نتيجة لسوء
تدبيرها ، وبالإضافة الى عداة البارونات لهنرى ، والذى عبر عنه متى ،
يكن أيضا الخوف من تعريض السلطة الملكية لامتيازات البارونات للخطر .
تلك الامتيازات التى قاموا بانتزاعها من حنا ، والد هنرى فى رنيميد
• Runnymede

ويبدو أن متى كان يشعر بالابتهاج ، وهو يذكر قراء حوليته
بالعمليات المتكررة التى مارسها هنرى عندما أغدق الأموال على أقارب
زوجته الفرنسيين ، الى حد الاثراء . فعندما غادر جوى دى لوزينان
Guy de Lusignan ، شقيق الملك هنرى من والدته مدينة لندن فى

نهاية ١٢٤٧ م ، كتب متى ما يلي : « ملأ الملك أمتعته بكميات كبيرة من المال حتى أنه كان مضطرا الى زيادة عدد الخيول . ومنح هنرى قلعة هيرتفورد Hertford الى شقيقه وليم من فالينس William de Valence ، ومعها مظاهر الحفاوة والتكريم المناسبة ، وأعطاه مبلغا كبيرا من المال ٠٠٠ وبالنسبة الى أخيه الثالث اثيلمار Ethelmar ، فقد أمدّه بالكثير من أموال الخزانة العامة ، التي جمعها عن طريق التوسلات الملحة ، واغتصبها من كل أسقف ، ورئيس دير ٠٠٠ حتى أن هنرى هذا صار يفوق الرومان وقاحة . أما عن اثيلمار المذكور ، فقد فاق الأساقفة فى الثروة » (٢٧) .

وكان متى ميالا الى القاء بعض المسئولية على المستشارين العاملين مع الملك ، بشأن سوء الادارة فى الدولة ، لأنهم أسدوا اليه « نصائح ضارة » . وبناء على تشجيعهم ودون الاهتمام برعيته ، فان هنرى : « أقسم علنا فى مؤتمر (سنة ١٢٣٧ م) الذى دعا اليه النبلاء من كل مكان بعيد ، أنه خالى الوفاض ، وأنه يعانى من فقر مدقع ، وأنه فى أشد حالات الفاقة . ولذلك استحثهم بالحاح ، أن يعطوه ثلث الممتلكات بكل أنحاء المملكة ، تدعيما ومساندة لمنزلته كملك ، ومن أجل توطيد أركان الدولة على أسس أكثر ثباتا . وتضايق النبلاء بشدة عند سماعهم لذلك الحديث ، وأجابوا بأنهم كثيرا ما تعرضوا لمظالم من هذا القبيل . وأنهم شاهدوا الأجانب ، وقد أصابتهم التخمة من جراء تكديس الثروة لديهم ، فى الوقت الذى أنهك الفقر كيان المملكة ، وباتت الدولة ، وقد أهدقت بها الأخطار من كل صوب . ومع ذلك ، فبعد مناقشات مطولة ، ونظرا لأن الملك بلغ كبرياءه ، واعد بأنه سيلتزم بمشورتهم من ذلك الحين فصاعدا ، وبدون تردد ، استطاع الحصول على ثلث الممتلكات المنقولة دون صعوبة تذكر . وبعد ذلك أصدر أمره بالجمع وتقدير قيمة ما جمعه ، وفقا للقيم الشائعة ، وكيس وفقا للقيمة الملكية . ولم يسمح بوضع ما جمعه فى الأديرة والقلاع ، وفقا لما اتفق عليه من قبل وتم الاعداد له ، ولم ينفق بنساء على مشورة النبلاء ، اذ أنه لم يستشر أحدا من رعاياه بالمملكة . وإنما سلمت تلك الأموال الى الغرباء لتنقل الى خارج البلاد . وتحول هنرى الى انسان مسخه السحر الذى خلب لبه ، اذ لم تعد لديه المقدرة على الفهم السليم . ومن ثم انتشر التدمير بين الشعب ، وازدادت حدة السخط والفضب عند النبلاء » (٢٨) .

وعلى الرغم من شدة عنف مهاجمة متى للمطالب ، والاتجاهات السياسية ، لكل من البابا ، والملك هنرى ، فان ولاء هذا المؤرخ لكل منهما لم يكن موضع شك . اذ كتب سنة ١٢٤٨ م يقول : « تجرأ رئيس أساقفة

أنطاكية ، وتهور تهورا شديدا عندما حرم كنسيا البابا ، مستخدما في ذلك سلطة جوفاء ، وحرّم أيضا الكنيسة الرومانية ورجالها ، وتفوه في عظاته الدينية بأقوال تنم عن عدم احترامه للمقدسات . وادعى لنفسه مكانة تفوق مكانة قداسة البابا ، والكنيسة الرومانية ، لأن القديس بطرس الرسول ظل يدير شئون الكنيسة في أنطاكية لمدة سبع سنوات . . . وأخفى هذا البابا المزيف المذكور بعاليه ، ما أحدثه من أذى ، وما قدمه من حجج باطلة ، الى أن رد كيده الى نحره ، واستغفر لخطاياها ، في الوقت الذي ظل فيه ، البابا الحقيقي دعامة للكنيسة ، وخليفة بطرس الرباني (على الرغم من أنه لم يسر على نهج بطرس) ، شامخا ، ورابض الجأش ومؤجلا العقاب الى يوم الحساب » (٢٩) :

وبمناسبة زيارة هنري الى دير سانت البنز في مارس سنة ١٢٥٥ م ، كتب متى الكلمات الودية التالية عنه : « ذهب الملك الى دير القديس البنز ، في التاسع من شهر مارس من هذا العام ، في الوقت الذي كان ابنه ادوارد موجودا في جاسكوني ، وظل الملك هناك لمدة ستة أيام ، قضاهما في الصلوات ، ليلا ونهارا ، في خضوع تام ، على ضوء الشموع . ومقدما صلواته للقديس البنز باعتباره أكبر شهداء المملكة . وكانت صلواته نيابة عن نفسه ، وعن ابنه ادوارد ، وعن أصدقائه الآخرين . وقدم الملك قربانا الى الله والى الشهيد المقدس عبارة عن عباءتين نفيستين ، ورداء خارجيا بلا كمين ، ويطرح على الكتفين ، وهو خاص بانقاء الترانيم . وكان هذا الرداء فخما ومزيئا بالذهب . ويجب الإشارة الى أنه لم يحدث من قبل أن قام أي ملك لانجلترا بالتبرع بمثل هذا العدد الكبير من الجوخ المخملي الأسود أو الأرجواني الذي زين جدران تلك الكنيسة ، كما فعل هنري الثالث ملك انجلترا ، كما هو مسجل في الكتاب الصغير بالكنيسة المذكورة وفيه وصف كامل لقطع الجوخ المخملي الأسود أو الأرجواني ، ومجموعة النواقيس ، والمعادن النفيسة . وبذلك يكون هنري قد فاق الملك أوفافا Offa ، مؤسس دير سانت البنز ، بل وكل من سبقه » (٣٠) .

وبالنسبة للفترة الزمنية ، خصص متى معظم اهتماماته الى البابوية ، والى هنري الثالث ، والى فريديريك الثاني ، ويعود تفسير اهتمامه بفريديريك الى زواج ذلك الامبراطور من شقيقة هنري ، وقد أدى هذا الارتباط العائلي الى جعل العاهلين حليفين قوين في أي نزاع مع فرنسا والبابوية . ويفسر أيضا اهتمام متى الشديد باعداد حملة صليبية ، ما أولاه من عناية للامبراطور فريديريك ، لأنه اعتقد أن هذا الامبراطور قد جاهر بضرورة تخليص الأرض المقدسة بكل صدق ، وبلا أدنى ريب .

وكذلك باعتبار فريديريك ملكاً رومانياً مقدساً ، فقد كان ينظر اليه كنصير للعالم المسيحي ضد التهديد الخطير الذي فرضه التتار . وفي تفسير اهتمام متى بفريديريك يجب ألا يتجاهل المرء الحقيقة المحضة الناجمة عن الروابط الوثيقة التي قامت بين الامبراطور وهنري ، وهي أن كثيراً من المعلومات والاتصالات الفكرية وغير الفكرية وجدت طريقاً لها الى انجلترا حتى وصلت الى متى في نهاية الأمر .

وكان الخطاب الذي أرسله فريديريك الى ريتشارد إيرل كورنول Cornwall ، في سنة ١٢٣٧ م ، أعد تلك المعلومات ، حيث وصف فريديريك انتصاره المبين على جيش ميلاني عند كورتنوا Cortenouva . ولم يفصح متى عن كيفية وصول الخطاب أو صورته الى حوزته ، بيد أنه قدم النص الكامل لتلك الرسالة الخطية التي وردت على لسان فريديريك « وبفضل فرصة مواتية . . . لقد حدث أن أهالي ميلان وحلفاءهم استعدوا لاقامة حامية في بريشيا Brescia ، ومن ثم فصل أحد الأنهار بيننا وبينهم . وقد أحاطهم ذلك النهر بسور واق . ثم أقمنا معسكرنا على الجانب الآخر من نهر أوليو Oglio . غير أن الفرسان المخلصين وسكان المدن عادوا الى أهاليهم ، لعدم تمكنهم من تحمل حالة الضجر الناجمة عن التأجيل غير المتوقع ، وشدة العواصف في ذلك الوقت . ومع ذلك ، فقد كلفنا جماعة من جيشنا ، وتقدمت بحذاء ضفاف النهر السريع الجريان ، صوب الجسور ، التي كان على من اختار الرحيل الى منازلهم عبورها . ونظراً لعدم مقدرة أهالي ميلان ، ومن تحالف معهم ، على البقاء طويلاً في الأماكن التي تحصنوا بها نتيجة لندرة المستلزمات الضرورية من المؤن ، فانهم عبروا نهر أوليو Oglio ، مستخدمين مخاضات النهر ، والجسور المقامة عليه ، الى أن وصلوا الى أرض منبسطة ، ظانين أنهم قد يفلتون من أيدينا بالفرار سرا ، وربما لم يتصوروا أننا كنا على مقربة منهم . وما أن اكتشفوا أننا على مقربة منهم حتى قصف بهم الحوف والدعر كقصف الرعد وعند مشاهدتهم لقواتنا الأمامية من جيشنا الامبراطوري ، بل وقبل أن يستطيعوا رؤية أعلامنا المظفرة ، وشعاراتنا الامبراطورية المتمثلة في صور النسور حتى لاذوا بالفرار من أمامنا . وهم في حالة من الفوضى والارتباك الى أن وصلوا الى ساريتهم التي كانوا قد بعثوا بها الى نيونفا كروتشه Nuova Croce ، على خيولهم وبأقصى سرعة ممكنة الى الحد الذي لم تتمكن فيه قواتنا المطاردة لهم من رؤية وجوه هؤلاء الأبقين . ولما كنا نعتقد أنه من الواجب علينا الاسراع في تقديم المساعدة لقواتنا الاضافية التي تقدمت في جماعة صغيرة ، فاننا اتجهنا نحوهم بأقصى سرعة بكامل جيشنا . وفي الوقت الذي توقعنا أنهم قد ردهم

العدو على أعقابهم ، فإبنا لم نتمكن من متابعة المسير بسبب كثرة عدد الخيول التي هامت على وجهها في كل حذب وصوب (نظرا لأن راكبيها قد تخلوا عنها) ، وكذلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الراقدين على الأرض من الجرحى والقتلى . أما من بقى من العدو على قيد الحياة ، فظل واقفا أو راقدا على الأرض ، وقد أحاط بهم مساعدو الفرسان ، الذين يسهرون على خدمة ساداتهم . واكتشفنا موقع ساريتهم ، بالقرب من أسوار نيوفا كروتشه ، ومحاطة بالخنادق ويحميها عدد كبير من الفرسان ، وكل جنودهم من المشاة ، الذين قاتلوا ببسالة دفاعا عنها . ثم وجهنا اهتمامنا الى مهاجمة هذه الراية والعمل على الاستيلاء عليها . وشاهدنا بعض قواتنا ، بعد نجاحهم في شق طريقهم عبر الخنادق ، وبعد ما أبدوه من شجاعة فائقة ، استطاعوا شق طريقهم الى سارية العدو . ولكن عندما حل ظلام الليل الذي الذي كان رجالنا يتحرقون شوقا لحلوله ، اذ توقفنا عن الهجوم حتى الصباح الباكر من اليوم التالي ، ورددنا للراحة ، وظللنا مستلئين سيوفنا ، ولم نخلع ملابسنا الحربية مصممين على احراز نصر لا ريب فيه ، والحصول على السارية الرمزية للعدو . وعندما بزغ النهار ، اكتشفنا أن سارية العدو قد نقلت من مكانها وتركت بين مجموعة كبيرة من العربات المقفلة القديمة والمهملة وبلا حراسة ، وتم نزع الصليب الذي كان معلقا على الطرف الأعلى من السارية . ويبدو أن الفارين من الأعداء وجدوا أن الصليب كان ثقيلًا ولذلك تركوه في منتصف الطريق . أما حامية قلعة نيوفا كروتشه ، ومن بها من المقيمين ، والذين كنا نعتقد في افلاتهم من أيدينا ، فقد خرجوا منها . وتجمعوا تحت قيادة الحاكم الايطالى (بودستا Podesta) ، وهو ابن دوق البندقية ، ورفعوا علمهم ، ولسوء حظهم لم يفلتوا من أيدينا . ولكي أقدم وصفا مختصرا لما حدث ، اكتفى بالقول بأن حوالي عشرة آلاف رجل (٣١) كانوا ما بين أسير وقتيل ، ومن بينهم عدد كبير من النبلاء وكبار الشخصيات من جماعات أهالي ميلان . اننا نبلغك بكل هذه الأمور لأنها تدخل السرور على قلبك . صدر في كريمونا Cremona في الرابع من ديسمبر في الخمسة عشرية (*) الحادية عشرة .

وعلى الرغم من تعاطف متى مع فريديريك ، فانه عبر عن رفضه لما فرضه الامبراطور المنتصر على ميلان ، من مطالب زائدة عن الحد . اذ قال أن أهالي ميلان عرضوا عند استلامهم : « تقديم كل ما يملكونه من الذهب والفضة الى الامبراطور . وأن يجمعوا كل أعلامهم ويحرقونها عند قدمي

(*) الخمسة عشرية : Indication هي وحدة زمنية مؤلفة من ١٥ سنة كانت

تصطنع في الامبراطورية الرومانية وغيرها ، لتاريخ الأحداث العادية . (المترجم) .

الامبراطور ، • كعلامة للخضوع والطاعة • ووافقوا أيضا على تقديم عشرة آلاف رجل لمصاحبتة في حملة صليبية ضد المسلمين في فلسطين • « غير أن الامبراطور رفض بكل كبرياء كل تلك العروض ، ولم يحد قيد أنملة عن مطالبته بأن يكون كل المواطنين خاضعين خضوعا تاما لمشيئته ، بما في ذلك كل مدنها ، وكل ممتلكاتهم • وأمام هذا الطغيان ، أجاب المواطنون بالاجماع أنهم لن ينفذوا ذلك على الاطلاق » وقالوا : « لقد علمتنا التجربة ، ولا نخشى قسوتك وبطشك ، ولذلك فاننا نفضل الموت بالسيف ، أو بالرمح ، أو بالحربة ، ونحن ندافع عن أنفسنا ، عن الموت تحت مذلة الغدر ، والمجاعة ، وشدة الغيظ » • وبدأ الامبراطور يفقد تأييد الكثيرين منذ ذلك الحين ، لأنه تحول الى طاغية ، في الوقت الذي بدأ فيه أهالي ميلان في استرداد قوتهم لتواضعهم • وبناء على ما جاء في أحد الأناجيل الصحيحة : « ومن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرفع » (٣٣) •

ان ما يفسر تعاطف متي مع فريديريك الذي عبر عنه بصفة عامة ، مرجعه الى رباط المصاهرة مع هنرى الثالث ، الذي كان ملكا على انجلترا برغم كل نقائصه • كما أن متي لم ينس على الاطلاق أنه رجل انجليزى ويظهر اسم متي من بين المشكلين الأول للوعى القومى الانجليزى ، وهى الظاهرة التى أرجعها العلماء الى القرن الثالث عشر • ولا يدانى متي سوى القليل من المؤرخين المعاصرين فى كراهيته التامة للفرنسيين ، فى الوقت الذى لا يضاهيه أحد فى القسوة التى هاجم بها السياسات البابوية التى ملأت المناصب الدينية ذات الدخل فى انجلترا بالاطالين ، واستنزفت الأموال الانجليزية فى تمويل الطموحات البابوية « السياسية » ضد فريديريك • وكان وصول كونت فلاندرز Flanders عبر بحر المانش الى انجلترا فى صيف ١٢٤٤ م بهدف مساعدة هنرى فى حربه مع أهالي اسكتلندا دافعا لمتي لاصداره الرأى التالى : « لقد أثار قدومه سخطا شديدا وسخرية فى قلوب النبلاء الانجليز ، لأنهم قالوا أن انجلترا قادرة على استئصال شأفة اسكتلندا بدونها اذ أحضر الكونت المذكور معه ستين فارسا ومائة من الأتباع والخدام المزودين بالسلاح ، وكل فرد منهم كان متلهفا على اغتنام أموال الملك » (٣٤) •

ولا ريب أن متي شسارك النبلاء الانجليز الاستياء لقدم كونت فلاندرز الى انجلترا • ومن بين أسباب هذا الاستياء قيام حنا بالتنازل عن السيادة الاقطاعية العليا للبابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٣ م ، اذ كان حنا هذا شخصا صريحا للغاية دون أدنى تحفظ • لذلك فعندما شب حريق فى المقر البابوى فى ليون Lyons سنة ١٢٤٥ م ، ونتج عنه

(*) لوقا : الاصحاح الثامن عشر - ١٤ •

أصرارا جسيمة ، ذكر متى : « أن ذلك الميثاق المبغيض المتعلق بدفع الاتقوة الإنجليزية للبابوية والذي تم التوقيع عليه في عهد الملك جينا ، صاحب الذكرى الباعثة على الأسى ، كان من بين الأقسام التي أتت عليها النيران » (٣٥) .

وبالنسبة لأهالي ويلز عبر متى عن مشاعر مختلطة . فعندما حاربوا الملك هنري كان متى ميالا إلى التعاطف معهم . وبالنسبة لمناسبات أخرى فان ما كتبه فيما يلي يوضح موقفه على نحو أفضل : « ان ولاء أهالي ويلز هو ولاء الضرورة والحاجة ، اذ أنهم لا يبدون ذرة من الرحمة حينما تكون السلطة في أيديهم . وعندما يحالفهم الحظ يضطهدون من يقع تحت أيديهم . ولكن اذا ما تعرضوا للهزيمة يلوذون بالفرار أو يخلدون الى المنلة والهوان . ومثل أولئك القوم لا يمكن الثقة فيهم على الإطلاق . وكما يقول الشاعر : « انى أخشى الاغريق حتى لو قدموا لي الهدايا » . وكما يقول الفيلسوف سينيكا Seneca : « لن تستطيع على الإطلاق اقامة معاهدة عدم اعتداء مع عدو » (٣٦) .

وفاق حب متى لديره حبه لانجلترا ، وشعر بالاعتداد لوجوده بين هذه الجماعة الديرية التي تبوات مركزا قياديا بين الأديرة الإنجليزية . وعبر متى بارتياح شديد لرفض رئيس ديره - الأسقف الوحيد الذي لديه شجاعة - الموافقة على اختيار بونيفيس Boniface رئيسا لأساقفة كانتربري ، بحجة أنه غير جدير بتولي شئون هذا المنصب (٣٧) . وأشار متى الى أن رفض رئيس الدير الموافقة على « الانتخاب » (٣٨) بونيفيس أدى لوضع رئيس دير وستمنستر خاتمة في المكان الذي يتختم فيه وضع خاتم رئيس ديره ، « اذ أن القديس البتر هو أول شهيد في إنجلترا ، ومن ثم فان رئيس ديره هو الأول على رؤساء أديرة إنجلترا في الدرجة الكهنوتية ، والمكانة السامية ، ولذلك لا بد وأن يوضع خاتمة قبل غيره » (٣٩) . وعندما رفض رئيس دير متى طلبنا لاحقا لرئيس أساقفة كانتربري بأن يصدر أوامر مقلسة في الكنيسة الديرية والا تعرض لشيء يعرض مركز رئيس الدير الى الاعفاء من منصبه ، أبدى متى ارتياحه عندما سجل في حوليته الموقف الصلب الذي اتخذته رئيس ديره (٤٠) .

وفاخر متى بديره ، والنظام الديرى البندكتى بنفس القدر الذي عارض فيه كل جديد ، وتجلى ذلك في العداء الذي أبداه تجاه الاخوان الرهبان الفقراء الجواله Frairs ، في سنواته الأولى التي كتب فيها حوليته في دير مسافت البتر . وبأسستثناء جماعة السسترشسيان Cistercians ، لم يجد متى سوى القليل من الجدوى ، في وجود الأنظمة الدينية الأخرى ، وإن كان لم يقصد نظاما معينًا منها على وجه

التخصيص ، « التي كانت تتكون يوميا ، وتمارس نشاطها دون توقف » .
ولقد أثار حفيظة متى وجود الكثيرين من المثقفين الذين استخفوا بالنظام
الديرى للقديس بندكت ، وبالقديس أوغسطين السامى المنزلة وهو
ما يتعارض مع قانون المجمع العام الذى عقد على عهد البابا انوسنت
الثالث صاحب الذكرى المجيدة ، (٤١) . كما أن تلك المشاعر التى أبدتها
هؤلاء المثقفون انتقلت عدواها بسرعة الى التنظيمات الدينية الجديدة التى
ظهرت مؤخرا (٤٢) .

على أن ما عمل على زيادة الشعور بالمرارة عند التنظيمات الديرية
القديمة ، ورجال الكهنوت من غير الرهبان ، على وجه الخصوص ، ضد
الاخوان الرهبان الفقراء الجواله Friars ، قيامهم بالطواف فى كل
مكان لالقاء المواعظ الدينية دون قيد أو حد ، وقبولهم القربان المقدس ،
وسماعهم لسر الاعتراف . ويعزو متى « حماس » هؤلاء الاخوان الى عاملى
حب المال وانتحال حقوق الآخرين ، اذ يقول : « وفى الوقت الذى كان
فيه النبلاء والأثرياء على حافة الموت . . . قامت تلك الجماعات الدينية
بدافع من حب زيادة المكاسب المالية ، بحث هؤلاء النبلاء والأثرياء على الحاق
الأذى والحسران بالقساوسة الذين ألفهم الجميع . ومارست تلك الجماعات
الدينية مهمة الاعتراف التى يمارسها الكهنة . وابتزوا الوصايا المستترة ،
وأثنوا على أنفسهم ، وعلى جماعاتهم الدينية فحسب . واعتبروا أنفسهم
فوق من سواهم . وهكذا لم يعد أى رجل مؤمن ، فى هذه الأيام يعتقد
فى حصوله على النجاة من الخطيئة ، الا اذا سار وفقا لتوجيهات الوعاظ
والرهبان الفرنسييسكان Minorites (٤٣) . ولرغبتهم الشديدة فى
الحصول على الامتيازات فى قصور الملوك والحكام ، فانهم مارسوا دور أعضاء
المجالس الاستشارية ، والجباب ، وأمناء الخزائنة العامة ، والراغبين فى
الزواج ، والوسطاء لاتمام الزيجات . وقاموا بدور المنفذين للابتزازات
البابوية ، وتقديم العظات الدينية . وكانوا اما مدهنين أو ساخرين بأقصى
شدة . كما باحوا بأسرار الاعتراف التى يتلقاها الكاهن ، وكانوا يوزعون
الاتهامات جزافا . . . وينظرون الى رهبان السيستريسيان على أنهم قساوسة
سذج ، ويميلون الى المسالمة ، ولا أصل لهم ، وعلى الأصح غير مهذبين .
ونظروا الى رهبان النظام الديرى الأسود (البندكتيين) على أنهم أشخاص
انغمسوا فى الملذات الحسية ويتصرفون بكبرياء ، (٤٤) .

وربما يتوقع القارىء لحوالية متى التى كتب فيها بمثل هذا الانفعال
الشديد عن البابا والملك ، والاخوان الرهبان الفقراء الجواله ، أنه يبدى
تحاملا أشد حدة عندما تكلم عن اليهود أو المسلمين مثلا . ولحسن الحظ
لم تكن هى الحقيقة الواقعة . وحقيقة أن متى يبدى أنه شارك الكثيرين

عن الشخصيات وأصحاب الثقافة في التعامل الفطري تجاه الأقليات .
ويوضح هذه السمة بقوله ببساطة لأسطورة طقوس القتل اليهودي ، وهي
أسطورة أنكر صحتها القليلون من المعاصرين له .

وعلى سبيل المثال كتب متى في حوليته عن سنة ١٢٥٥ م واقعة كأنها
حدثت حقا وصدقا ، وهي أن اليهود خطفوا غلاما في الثامنة ، ثم بعثوا
سرا في طلب رفاقهم من اليهود في كل أنحاء إنجلترا للحضور والمشاركة
في تعذيب المسيحي وقتله . وكان مقررا أن يتم تنفيذ حكم الإعدام للغلام
وفقا لما ورد عن صلب المسيح في الأناجيل القانونية الأربعة . تماما
بتمام ، وأعنى بذلك ، أنهم عذبوا الغلام ، ثم توجهوا بالأشواك ، ثم صلبوه
في نهاية الأمر . وبعد مرور عدة أيام على تنفيذ الجريمة المزعومة ، تم القاء
القبض على صاحب المنزل الذي كان الفتى يلعب أمامه قبل اختفائه ،
وألقى القبض عليه . واستدرج لتقديم اعتراف كامل ، مقابل وعد
باستخدام الرأفة معه . ووفقا لذلك قدم صاحب المنزل اعترافا بأن « كل
ما يقوله المسيحيون صحيح : لأن اليهود يصلبون كل عام تقريبا غلاما
كاهانة لاسم عيسى Jesus » . وتمت محاكمة قادة الجريمة على يد
هيئة من المحلفين الذين أصدروا قرارا بإعدامهم مع إعدام الواشي بهم ،
« الذي تم ربطه في ذيل أحد الخيول وسحبه إلى أن وصل إلى المشتقة ،
حيث انضمت روحه إلى الأرواح الشريرة في الأثير » (٤٥) .

ويصر متى بباريس على التأكيد للمقاريء أن المدانين بارتكاب هذا العمل
تمت محاكمتهم محاكمة دقيقة تماما ، وثبتت ادانتهم . ولام متى جماعة
الفرنسيين بكل شدة لمحاولتهم تبرير موقف هؤلاء اليهود الذين
ناشدوهم اسداء العون . واعتقد متى أن هؤلاء الاخوان الرهبان الفقراء
لا بد وأنهم قد أدركوا أنه لا يمكن أن يكون هناك أمل في الحياة الدنيا
أو الآخرة لمثل أولئك المجرمين الأشقياء ، كما أن الطبقات الدنيا انقلبت
على جماعة الفرنسيين كعقاب عادل لاتخاذهم جانب اليهود ، « وتوقفوا
عن تقديم الصدقات إليهم » (٤٦) .

ومع ذلك فبرغم تحامل متى على اليهود ، فإنه عبر عن اشفاقه
عليهم ، من حين إلى آخر ، اذ قال : « انهم أشد الناس تعاسة وشقاء » .
ففي حوليته عن سنة ١٢٤٣ م أشار متى إليهم باعتبارهم ضحايا جشع
واستبداد الحكومات الملكية بصفة مستمرة . وفي سنة ١٢٥٤ م أشار
متى إلى ازدياد شدة ثقل وطأة الابتزازات الملكية إلى الحد الذي « ظهر
فيه اليهود في حالة من الفقر المدقع تماما » (٤٧) . وبحث متى أيضا
في أخبار المسلمين بتسامح نسبي برغم أن كراهيته الشديدة لمحمد

« صلعم » (*) نفسه وللدعوة الاسلامية كانت أمرا آخر تملأ « (٤٨) » .

ويكشف متى باريس كتابته عما يعتبره كثير من الباحثين الاهتمام الفريد بالظواهر الطبيعية في العصور الوسطى ، ولا سيما عندما تكون تلك الظواهر غير عادية ، أو يغلب عليها الطابع التدميري . ولا شك أن منشأ ذلك الفضول غير العادى يرجع الى التحذير الوارد فى كل الأناجيل الشرعية الأربعة من أن المعجزات نذير بنهاية العالم ، وبالإضافة الى ذلك اعتقاد الكثير من المسيحيين بأن الله يبتلى العباد بالعواصف والأوبئة ، على الدوام ، لعقابهم على خطاياهم . ويصف متى عددا من الحرائق الضخمة التى حدثت سنة ١٢٤٨ م قائلا : « ولا نذكر على الإطلاق أننا شاهدنا مثلها من قبل » . وشبت حرائق فى عدد من البلاد ، بل أن النيران أتت تماما على ثلاث مجتمعات تقريبا ، وكانت برجين Bergen احدها . ومن الواضح أن الله قد تجلت مشيئته بحدوث تلك الحرائق كعلامة للغضب الالهى . وكان ذلك صحيحا تماما بالنسبة للحريق فى برجين حيث ، « هبط من السماء لهب نتيجة لغضب الله على خطايا البشر ، وكان مثل اللمب الذى ينفثه تنين يجر ذيله من خلفه . وسقط هذا اللمب على قصر الملك ، الذى كان يبعد مسافة قدرها خمس مرات لمدى انطلاق سهم ، لذلك كان بطش ربك الشديد حقا وصدقا أمام أعين سكان المدينة » (٤٩) .

وذكر متى أيضا أن زلزالا دك مدينتى شيلترين Chiltren وسانت البنز سنة ١٢٥٠ م ، وأثار الذعر الشديد بين الحمام ، والغربان ، والعصافير والطيور الأخرى حتى أنها : « نشرت أجنحتها فجأة ، ولاذت بالفرار ، وكأنها قد أصابها مس من الجنون ، وظلت تطير جيئة وذهابا على غير هدى ، مثيرة الخوف والرهبه فى قلوب الذين شاهدوا الحادثه » . غير أن ما أثار مخاوف الناس بصفة خاصة ، هو الاعتقاد بأن هذه الظاهرة تعلن بأن : « الساعة اقتربت » (٥٠) .

كان متى دقيقا جدا فى وصفه ظهور المذنبات لدرجة أنه فى استطاعة العالم الفلكى فى العصر الحديث الاعتماد كثيرا على حوليته عند اعداد سجل عن تكرر حدوثها فى ذلك الحين . على أن خسوف القمر الذى تحدث عنه متى فى السادس من أكتوبر ، سنة ١٢٤١ م ، كان الثانى من نوعه فى مدى عامين ، وأكد متى على أن هذا الحدث « هو الأمر الذى لم يحدث له متيل على الإطلاق حتى يومنا هذا » (٥١) .

وكتب متى عن نجم ساطع ظهر ليلة الاحتفال بعيد القديس جيمس St. James ، ثم تحرك صوب الشمال ، « ولم يكن سريعا ، وإنما

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

تحرك على مثال طيران الصقر ، وأخيرا غاب هذا النجم عن الأبصار خلف سحابة من الدخان والشرر . وحدد متى نوع تلك الظاهرة الطبيعية على أنها كانت مذنباً أو تنيماً ، « وكانت أكبر بكثير من نجمة الصبح Lucifer وتشبه سمكة البوري ، ومقدمتها شديدة البريق واللحان ، وينطلق دخان كثيف وشرر غزير من مؤخرتها . » ولم يستطع أحد أن يقدم تعليلاً مقبولاً عن تلك الظاهرة ، برغم وجود أمر لا ريب فيه ، وهو أن المحاصيل التي كانت قد أعاقت الأمطار المتواصلة نموها تقريباً ، بلغت بعدئذ حداً من الوفرة بشكل ملحوظ عند تغير الطقس في الوقت نفسه ، (٥٢) .

وقدم متى تفسيراً للظاهرة الطبيعية التي حدثت مساء السادس والعشرين من يوليو سنة ١٢٤٣ م ، « الى الباحثين والعلماء » ، وفيما يلي وصفه لتلك المعجزة الخارقة : « وفي السنة نفسها . . . كانت السماء صافية تماماً بالليل ، وكان الجو صحواً الى الحد الذي ظهرت فيه المجرة Milky Way (*) بالدرجة التي تحدث في ليالي الشتاء الخالية من السحابة . وكان القمر في اليوم الثامن من ميلاده (هلالاً) . ثم شاهدنا النجوم تتساقط من السماء مندفعة بسرعة كالسهام ذهاباً وإياباً ومن جانب الى آخر . ولكن على عكس ما يحدث في العادة ، انطلق شرر ليس بالقليل من نوع النجوم (التي عددها أرسطو في كتابه عن النيازك من الظواهر الطبيعية) . وكانت مثل البرق الناجم عن الرعد ثم اندفعت ثلاثون أو أربعون نجمة ، في لحظة واحدة ، بعضها في اتجاهات مختلفة والبعض الآخر الى أسفل ، في الوقت الذي بدأ فيه انطلاق اثنتين أو ثلاث منها في صف واحد . وعلى ذلك اذا ما كانت تلك الظواهر نجوماً حقيقية (وهو الأمر الذي لا يمكن أن يقبله عاقل) . فمعنى ذلك أن السماء لم يعد بها نجمة واحدة . على أية حال علينا أن نطلب من المنجمين الإفصاح عما تنذر به هذه الظاهرة التي بدت مدهشة ومعجزة بالنسبة لكل المشاهدين » (٥٣) .

وقد أدت الحسائر الفادحة في الأرواح الناجمة عن الوباء الأسود ١٣٤٨ - ١٣٥٠ م الى التعطيم على الأوبئة وأمراض الطاعون التي داهمت أوروبا بصور أقل ضراوة ، من حين الى آخر ، ابان الألف سنة السابقة على حدوث الوباء الأسود . ويذكر متى أنه في نهاية سنة ١٢٤٧ م كانت الكوارث مفرعة جداً ، « اذ دفنت تسع جثث في يوم واحد في مقبرة كنيسة القديس بطرس بمدينة سانت البنز » (٥٤) .

ويمكن للقارئ أن يقبل الدقة النسبية لاحصائيات متى ، لأن هذه الكوارث حدثت على مقربة منه . ومن ناحية أخرى ، يتردد المرء اذا ما حاول

(*) درب التبانة .

النسليم بما رواه عن أن حوالي خمسة عشر ألف من الفقراء ماتوا جوعا في لندن سنة ١٢٥٨ م . وخلاصة القول فقد أشار متى الى أن الكثيرين لقوا حتفهم ، « حتى اضطر اللحدون الى دفن العديد من الجثث في مقبرة واحدة بعد أن غلبهم الاعياء على أمرهم » (٥٥) .

ولم تثر الحيوانات الغريبة حدة الفضول مثلما حدث في العصور الوسطى ، عندما كانت حقائق الحيوانات غير معروفة تقريبا . ولا بد أن متى لم يجد حيوانا مثيرا للدهشة أكثر من الفيل الذي أرسله لويس التاسع الى هنرى الثالث كرمز للمشاعر الودية المتبادلة بينهما . وعلق متى على ذلك الحدث : « لقد اعتقدنا أن هذا هو الفيل الوحيد الذى شاهدناه فى انجلترا ، أو ربما فى البلاد المطلة على هذا الجانب من جبال الألب ، ولذلك اندفع الناس زمرا لمشاهدة المشهد العجيب » (٥٦) . وفى الوقت نفسه ، تقريبا ، كتب متى عن حيوان ضخيم غريب الشكل ، قذفت به مياه البحر بعد أن أعيته شدة تلاطم الأمواج ، واعتقد أنه مات من الطعنات والجراح التى أصابته . « وكان هذا الحيوان الغريب الشكل أكبر من الحوت ، بيد أننا لا يمكن أن نعتبره من أنواع الحيتان » (٥٧) .

على أنه من الممكن اعتبار الجملة الأخيرة من الفقرة السابقة ، التى اختتم بها متى أحداث عام ١٢٥٨ م ، أنها كانت مجرد نسيج خياله . إذ أنه من النادر أن يقوم كاتب الحولية فى العصور الوسطى بتقديم موجز الى القارىء . وإنما تنتهى مسئولياته عند مجرد سرد الأحداث . كما أن ما قدمه متى من عبارات مجملّة بشكل منتظم اعتبارا من سنة ١٢٤١ م لا يمكن أن يقبلها القارىء فى العصر الحديث على أنها خلاصات لأحداث سنة بعينها . إذ أن غالبيتها ليست سوى اشارات رمزية لما يجب أن تكون عليه الخلاصة . وفيما يلى ما كتبه عن سنة ١٢٤٤ م . « وهكذا انتهت هذه السنة التى كانت وافرة الانتاج فى الفواكه والحبوب ، لدرجة أن ثمن مكيال الحبوب انخفض الى شلنين ، وكانت أحداث تلك السنة ليست على ما تشتهى النفس بالنسبة لما يدور فى الأراضى المقدسة ، وتميزت تلك السنة بالاضطرابات فى انجلترا ، وكانت الملكة الفرنسية محفوفة بالأخطار ، وتزايدت الشكوك فى الكنيسة ، واشتدت حالات الشغب والاضطرابات بين الايطاليين » (٥٨) .

وأعد متى سردا موجزا للأحداث بذل فيه جهدا مضنيا غطى به فترة خمسين عاما انتهت فى سنة ١٢٥٠ م . على أن نعهد متى اختتام حوليته قد يساعد على تفسير الطابع القائم لوصفه للأحداث التاريخية . وإبان النصف قرن السابقة على ١٢٥٠ م ، فمن وجهة نظر متى ، « حدثت أحداث كثيرة مدهشة وغير عادية ، لم تحدث من قبل . . . وهناك أحداث كتب

عنها كتاب كثيرون وباحثون في التاريخ ، ذكروا أنه لم تحدث عبر القرون مثل تلك المعجزات والأمور المدهشة ، والتي تثير الفزع حاليا ، لما لها من عواقب وخيمة » (٥٩) .

ومن بين الأحداث التي سردها متى ، الغزوات الشرسة التي شنها التتار المتوحشون ، واستيلاء المسلمين على بيت المقدس ، ومعاناة انجلترا من قرار الحرمان الكنسي لمدة سبع سنوات الى أن صارت اقطاعا تابعة للبابوية ، وهزيمة أوتو الرابع امبراطور المانيا في موقعة بوفين Bouvines (١٢١٤ م) . وتكرر حدوث حالات . الكسوف والحسوف ، والزلازل ، والظواهر الطبيعية الأخرى (كالبرق والرعد . . . الخ) ، (ولم تكن تلك الظواهر سوى نذير بأن دمار العالم أصبح قاب قوسين أو أدنى) ، والقاء فريديريك القبض على كثير من الأساقفة لمنعهم من حضور اجتماع مجمع مسكوني ، وحملتي هنري الثالث على فرنسا حيث ، « عاد بعدهما الى انجلترا يجر أذيال الخزي والعار » ، والبابوات الثلاثة الذين اعتلوا العرش البابوي في مدى عامين ، وقيام البابوية بتعيين الكهنة الايطاليين . في الاقطاعات الكنسية بانجلترا ، « وهم الذين لم يهتموا برعاية المؤمنين على الاطلاق » ، وظهور جماعات دينية جديدة من بينها جماعة البجيين Beguines . بل أنه كتب عن الانحرافات الشديدة التي تفشت بين البندكتيين الى حد ليس له مثيل في الفترات السابقة ، وعن قمع الحركة الالبجنسية والقضاء التام عليها (وربما كان ذلك هو العمل الوحيد الذي جعل متى يفصح صراحة عن أنه كان بتوفيق من الله واحدى نعمه على البشر !) ، وعن شغل الكرسي الأسقفى فى كانتربرى ، « بشخصية ليست على مستوى الكفاية ، فرضها ملك انجلترا فرضا » ، وعن اندحار الجيش الصليبي الذي كان تحت قيادة لويس التاسع فى مصر ، وعن الحرب الضروس التي نشبت بين البابوية وفريديريك الثانى وموت الأخير ، « الذي وضع العالم فى حيرة » (٦٠) .

وقد يعتبر النقاد ممارسة متى اقحام الأحكام الأخلاقية أبرز مواطن الضعف عنده باعتباره أحد كتاب التاريخ . والواقع أنه مال كثيرا الى هذا الاتجاه . إذ لم تسلم الشخصيات البارزة التي اعتلت كرسي رئيس أساقفة كانتربرى من قلمه الساخر . فعندما وصل رئيس أساقفة كانتربرى الى انجلترا ، كتب متى قائلا : « ولم يشعر أحد بالابتهاج لمقدمة . . . لأن الجميع بلا استثناء تذكروا كيف تصرف فى لندن بكل قسوة وشدوذ ، إذ أنه انتزع من رجال الدين حق زيارتهم ، وبالإضافة الى ذلك ، فإنه انتهج أساليباً متعددة أدت الى حرمان الملكة والكنيسة من الخيرات » (٦١) . بل أن موت بعضهم لم يحرمهم من اللوم والتقريع . فذكر متى وفاة

الكاردينال حنا من كولون John of Colonna في حوليته عن سنة ١٢٤٤ م بالجملة التالية : « وفي الوقت نفسه من هذه السنة ٠٠٠ مات حنا من كولون ، وهو كاردينال روماني ، والذي كان وعاء ينضح بكل أنواع الكبرياء والوقاحة ، والذي فاق كل الكرادلة في حيازة الممتلكات الدنيوية وكان هذا الكاردينال هو المدير الفعال ، والمسئول التام عن تفاقم الخلفاء بين الامبراطور والبابا . » (٦٢) ولم تكن الشخصيات العلمانية اسعد حظا من رجال الكهنوت . ففي ذكره لأحداث سنة ١٢٥٨ م كتب عن وفاة وليم هورن William Horn ، المشرف الاداري لنورثمبرلاند Sheriff of Northumberland ، والذي كان : « أشد الناس بخلا ، وقسوة بالفقراء ، واضطهادا للجماعات الدينية . وعلى ما يعتقد ، فان جسده الديني ، وتعطشه للثروة ، أوديا بحياته ، ليلقى مصير تantalوس Tantalus » (٦٣) .

وإذا كان متى قد انهمك في اصدار الأحكام الأخلاقية على نحو فاق به كتاب الحوليات الآخرين ، إلا أنه شاركهم في استخلاص الدروس الأخلاقية عن الحياة بصفة عامة . وعند معاينة وصف متى للاحتفالات الفاخرة بمناسبة زواج الايرل ريتشارد من كينثيا Earl Richard to Cynthia ، فنجد أنه يجعل القارىء يفكر مليا في ذلك الوصف : « كانت هناك كل مظاهر البهجة والبذخ المتعلقة بحفل الزفاف ولقد فاق هذا الحفل كل الحفلات التي أقيمتها النبلاء من قبل في الضخامة والروعة . وقد يحتاج الأمر الى كتابة بحث مطول ومحمل لوصف هذا الحفل . ومع ذلك فيمكننى القول بإيجاز أنه كان هناك ثلاثون ألفا من الأطباء والصيادلة في جناح اعداد المائدة وبدت كل مظاهر الأبهة والبزخ والمغالاة والتباهى في وجود جماعات مختلفة من المغنيين ، وفي تنوع ألوان ملابسهم ، وفي اعداد أطباق الطعام ، ودغوة المدغوين لحضور الاحتفال . بيد أن كل تلك المظاهر لم تكن سوى عرض زائل وثافه ، ودليل على أن هذا العالم متخادع ومضلل ، لأنه ما أن لاح ضوء الفجر حتى تبددت تماما ، » (٦٤) .

ويتخذ متى موقف المعبر عن خواطر في المسائل الأخلاقية عندما وصف الشجار المأساوى بين كاهنين في إحدى الكنائس بلندن ، والذي انتهى بمقتل احدهما . وعلى الرغم من أن المذنب حاول اخفاء جريمته ، وذلك بأحداث جروح عميقة في جسده ، فإن جريمته افتضح أمرها ،

(*) تانتالوس : ملك تزعم الاسطورة الاغريقية أنه عوقب بان غمر الى ذقنه في الماء وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قرب شفطيه ولكن كلا من الماء والفاكهة كان يرتد بعيدا عنه كلما حاول بلوغه - المترجم .

ولقى ما استحقه من عقاب . واختتم متى وصفه لهذه الحادثة بالملاحظة التالية : « ان ما جعلنا نشعر بالحزن والأسى ، ان كل المجتمع الدينى قد جلب على نفسه الفضيحة ، والحزى ، والعار ، بعد ان سيطر عليهم الشيطان ، الذى حبب اليهم الفسوق والعصيان . وماذا يقول هذين الكاهنين اللذين خرجا على القانون الكنسى ، امام القضاى الأعلى الذى يحاسب كل الناس ؟ ويل لهما لما اقترفت أيديهما من اساءة الى الدين بصفة عامة . فكان من الواجب على رجلى الدين اللذين اغواهما الشيطان ، ان يكونا حذرين ، وأن يكبحا غضبيهما عندما ظهرت بوادر المنازعات واللوم ، لأن : « الغضب يؤدى الى النزاع ، والنزاع يؤدى الى الشجار ، والشجار يؤدى الى الموت . كما ان الموت على هذا النحو يؤدى الى موت أبدي ، (٦٥) .

ويقدم هذا التفسير الموجز لرأى متى الفرصة المناسبة لتوديعه .
وإذا كان هناك أى مجال للشك أو الاعتراض ، فان الإشارة الى الموت والحلود كافية لتمييزه ، باعتباره أحد كتاب الحوليات فى العصور الوسطى .
ويود متى أن يذكر القارى بوجود الله ، والعناية الالهية ، والحكم الالهى . تلك كانت الأفكار الأساسية التى شارك فيها متى رفاقه ، بسرد الوقائع التاريخية كما حدثت ، ولم يخرج تقريبا عن ترتيب وقوعها الزمنى . وكان منهجه هو مجرد سرد للأحداث ، اذ أنه تجنب عادة ممارسة دور المفسر للأحداث التاريخية . اذ انتهت مهمته عند كتابة ما حدث ، وإذا ما كانت هناك قوانين غير القوانين الالهية لتفسير الحدث فانه لم يدركها ، شأنه فى ذلك شأن معاصريه من كتاب الحوليات المسيحيين المعاصرين له .

ويقف متى أيضا بجوار رفاقه من كتاب حوليات العصور الوسطى فى الاهتمام الذى أبداه تجاه الظواهر الطبيعية ، وفى التركيز على الأحوال السياسية والكنسية ، وفى علم الاهتمام بالمزارعين والتجار ، وكل ما يحدث باعتباره تاريخ اجتماعى واقتصادى (ومع ذلك قام متى بتذكير القارى بعدم استقرار سعر الحبز من حين الى آخر) وشارك متى النساخ الديرين فى عدم معرفته النظرية السياسية ، وإيمانه بالمعجزات وكل ما ينذر بالشر ويبشر بالخير ، وفى نزعة المتشائمة . ونظرا لأن كل الناس يعصون الله ، فلن يكون المستقبل سوى ما لا ترضاه النفس وتهواه !) وفى الوقت الذى أفصح فيه متى عما يجول فى نفسه ومزاجه الخاص بأسلوبه الذاتى فى الكتابة ، وبقدر يفوق كتاب الحوليات فى العصور الوسطى التقليديين ، الا أنه ظل موضوعيا مثلهم عند تقديم معلوماته التاريخية . وقد أبدى تواضعا شديدا ، فى الأحوال النادرة التى أشار بها الى نفسه . وفى نهاية أحداث سنة ١٢٥٠ م ، كتب متى قائلا : « وهنا

تنتهي حوليات الأخ متى بارييس الراهب في دير سانت البنز ، والذي أخذ على عاتقه مشقة الكتابة من أجل فائدة الأجيال القادمة كلها ، وابتغاء مرضاة الله واجلالا للقديس البنز ، أول الشهداء الانجليز ، وحتى لا تتعرض ذكر الأحداث الجديدة للتلاشي أو للنسيان بمرور الوقت» (٦٦) . ولم يكتب أكثر من ذلك .

على أن نقطة الضعف الرئيسية التي أخذت على متى ، باعتباره أحد كتاب الحوليات ، هي افتقاره للموضوعية عند الكتابة فمن النادر وجود صفحة واحدة في حوليته لم ينفث بها تحامله وتعصبه . إذ كان محافظا على القديم ومقاوما للتغيير بالمعنى التقليدي ، وأعنى بذلك أنه كان شديد التمسك ببقاء الأحوال كما هي ، أو كما يعتقد ، ولقد عارض الابتزازات التي مارستها البابوية والادارة الملكية ، الأمر الذي عرض استقلال ديره للخطر . وللسبب نفسه تعاطف متى مع البارونات في صراعهم من أجل المحافظة على المكانة المهيمنة في المجتمع وفي الشئون العامة . ورأى متى في ظهور جماعات الرهبان الذين ينتقلون ويعيشون على الصدقات Mendicant Orders ، أمرا مثيرا للتفزز والاشمئزاز ، برغم أن الكنيسة كانت في أمس الحاجة الى نوع مختلف من الرهبان . واعترض متى على زيارة المفتشين الماليين Grosseteste للأديرة في أبرشيته في لينكولن Lincoln . برغم أنه لا بد قد وافق سرا على دوافع الأسقف . ومع ذلك فلم يدرك الباحثون قوة التأثير الكامل لتحيزه وتعصبه سوى في السنوات القليلة الماضية . إذ سيطرت قوة تأثيره على كتاباتهم خلال النصف الأول من هذا القرن ، بشأن مهاجمة الملك هنري والبابوية ، وموالاته لفريديريك الثاني بما لا يدع مجالا للشك .

وفي مجال التفوق على زملائه من كتاب الحوليات فقد فاقهم متى جميعا لاستخدامه أسلوبا قويا ، وفي طريقته الذاتية في معالجة سردة للأحداث التاريخية . وكانت قدراته الوصفية والسردية للحكايات والنوادر فريدة في عصره ، وكانت جهوده في تدعيم الجانب الأدبي لسرده للأحداث رائعة عندما أورد ذكر مقتطفات للكتاب القدامى . على أنه أورد ذكر عبارات مستخدما فيها صيغة المتكلم مرات عديدة ، وكذلك خطبا ومحادثات لها مناسباتها ، ويضاف الى ذلك أنه يكشف عن حرصه على أن تكون حوليته مجلبة للسرور والمتعة ، لكل من يطلع عليها . وعلى هذا الأساس يستطيع المرء تبرير وجود الكثير من الحوادث العرضية التي قد ترفض السجلات الرسمية ذكرها لعدم أهميتها . ومهما وجد القارئ ما يسره عند الاطلاع على تلك الصور البلاغية فانها تقلل وتنقص من المصدقية التامة لرواية متى ، وبخاصة عندما أفصح هذا الخ عن تحامله

وأنحيازه . فقليل من القراء يمكن أن يقبلوا ، كما ذكر ليولين Lewellyn تلك العبارات التي أوردها متى على لسان أمير ويلز وهو يخاطب جنوده سنة ١٢٥٧ م قبيل مواجهة جيش هنري الثالث . وكتب متى باريس أن الأمير أشار إلى هنري كملك : « عمل على جعل شعبه يعاني من الفقر ، وحرمه من حق الارث ، وخط من قدره » (٦٩) .

لقد سبق متى باريس عصره ، في ادراكه أهمية الوثائق ، والأوامر الرسمية ، الخطابات والمحادثات ، كمستندات تاريخية . ولهذا السبب ، وخشية أن يشوه الطابع الأدبي لحوليته استخدامها ، قام بجمعها في مجلد منفصل أطلق عليه الاضافة Additamentum . كما أدرك أيضا المشكلة الكبرى التي واجهت المؤرخين الذين يخافون الله عبر القرون . إذ كتب يقول : « ان مهمة من يكتبون التاريخ صعبة ، فاذا ما حاولوا قول الحقيقة ، أثاروا غضب الناس ، واذا ما حاولوا كتابة ما يخالف الواقع ، فلن يرضى الله عنهم (٦٨) . على أنه مما يجسب لمتى باريس فإنه كان أقل خوفا من غضب الناس عن خشية الله .



حنا فرواسار

على الرغم من تأكيد حنا فرواسار على أنه مؤرخ أكثر من كاتب حولية ، فإنه ما زال أكثر كتاب حوليات العصور الوسطى ثقافة واثارة للمتعة . وعملت ظروف عديدة على جعله مثيرا للمتعة . فقد عاش فرواسار في عصر الاثارة ، وجعل الناس الذين يحدثون الاثارة اهتمامه الاول . ووصف هؤلاء الناس - والحوادث - بأسلوب ذاتي ، ومفعم بالحياة ، ولم يكن جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer ، المعاصر لفرواسار شخصا مثيرا ، وفقا لتعريف هذا المؤرخ للحوليات لذلك التعبير ، ومن ثم لم يذكره في حولياته (١) . ولم يذكر كلاهما في كتاباته أنه قابل الآخر . وكان تشوسر مهتما بالأنماط أكثر من اهتمامه بالشخصيات البارزة ، وظل موضوعيا بتزمت في كتاباته . في حين أن فرواسار ظل يقدم شخصياته الى قرائه ، حاصرا اختياره في أفراد الطبقة الأرستقراطية أو الشخصيات التي تلي تلك الطبقة الذين اكسبتهم شجاعتهم أو أعمالهم السياسية اهتماما خاصا . ولم يرد ذكر أي شيء عن تشوسر في حوليات فرواسار .

ومع ذلك فلا بد أن فرواسار كان يعرف تشوسر ، تماما كمعرفته لكل من بيتراارك Petrarch ، وبوكاكيو بوكاتشيو اذ حضر الأربعة حفل زواج لوينل دوق كلارينس Lionel, duke of Clarence من فايولنت ابنة جالزوفيسكونتي Violante the daughter of Galeazo Visconti في ميلان . بيد أن فرواسار لم يجد ما يدعو الى ذكر ذلك . وكان كل من فرواسار وبيتراارك قهيسيين . وعلى الرغم من من أنهما ارتديا الزي الكهنوتي ، على نحو غير متطفل ، فإن قليلا من الناس

كانوا على علم بتلك الحقيقة . وعلى مثال بوكاتشيو ، بدأ فرواسار بقرض الشعر ، بيد أن ما قدمه من نثر أوصلهما الى مرتبة التفوق ومن بين الكتاب الأربعة ، تشوسر ، وبيترارك، وبوكاتشيو، وفرواسار، وجد الرجل الفرنسي نفسه في مجتمع رفيع المستوى (٢) . ومن بين الأربعة أيضا كان فرواسار أكثرهم شغفا بالحديث الى الناس والاستماع اليهم ، لأنه اعتمد عليهم في الحصول على كثير من المعلومات التي صاغها في حولياته . وتردد تشوسر بشأن التكلف وفرض الحساسيات في الحديث والملبس ليجعل شعبه يعيش ولم يظهر فرواسار اهتماما بتصوير الشخصية بالالفاظ . اذ كان اهتمامه بالناس . أو الذين قاموا بأعمال مهمة أو بطولية والمهمين عليه لديه . وركز اهتمامه على الحدث لا على الشخصية ، وبرغم أن دراسته كانت سياسية على نحو محدد ، وفي نطاق مفهوم الفروسية ، فإن الصورة التي رسمها عن عصره في تلك النواحي أمدت قراءه بفكرة أكثر دقة عن المجتمع المعاصر أكثر مما فعل زميله الانجليزي المعاصر على قطعة القماش المعدة للرسم الزيتي والأشمل مدى .

وكان فرواسار ابنا لأحد أبناء المدن الأثرياء ، وولد سنة ١٣٢٧ م . أو حوالي ذلك التاريخ ، في فاليتسينز Valenciennes ، إحدى مدن هاینوت Hainout ، وهي كونتية في إقليم شيلدت Scheldt العليا ، وهي اليوم ، إقليم في بلجيكا . واختار فرواسار الدراسات الكهنوتية ، وواصل بمثابرة تلك المهمة برغم أنه وجد متعة أكثر في الأدب الرومانتيكي ، وفي الغناء ، وفي صحبة النساء ، أكثر مما وجدته في المسائل الروحية على حد قوله . وفي العشرين من عمره توقف عن دراساته اللاهوتية ، وتفرغ لكتابة الحوادث التاريخية التي حدثت في فرنسا في ذلك الحين بناء على طلب سيده الاقطاعي روبرت من نامور Robert of Namur . ثم ذهب الى البلاط الانجليزي سنة ١٣٦١م حيث قدم أول عمل تاريخي له ، وهي قصيدة عن معركة بواتيه Poitiers . وتسلمت الملكة فيليبيا Philippa ، إحدى بنات بلده ، القصيدة التي حققت لي فائزة كبرى « (٣) . وابتان السنوات الخمس التي قضاها في انجلترا ظل ينعم بكرم ضيافة فيليبيا له ، وسنحت له الفرصة بالقيام برحلة شمالا ، « وجاب كل أنحاء اسكتلندا » (٤) في صحبة الملك داود الذي قام بجولة ملكية في أنحاء البلاد .

ثم وجدنا فرواسار في بوردو Bordeaux سنة ١٣٦٧ م ، حيث وصل تلك المدينة ابان احتفال الأمير الأسود the Black Prince بميلاد ابنه ، ريتشارد الثاني فيما بعد . وفي السنوات الخمس التالية ظل ينتقل بين فرنسا وإيطاليا ، وكان مطلبه المنشود بلاط الأمراء ، بما

في ذلك البابا في أفينون Avignon . وعلى سبيل المثال ، ذهب فرواسار الى ميلان في صحبة لونييل دوق كلارنس بمناسبة زواج الأخير من ابنة أمير ميلان سنة ١٣٦٨ م . وفي سنة ١٣٧٣ م عاد الى هاينوت حيث مارس واجبات مساعده قسيس في أبرشية ليستين Lestines بهدف الحصول على عمل أفضل - الى أن تم انقاذه من هذا العمل الذي لا يتمشى مع ميوله حيث عمل على ادارة شئون منزل ونسلاس دوق برابنت Wenceslas, the duke of Brabant . وعندما مات ونسلاس سنة ١٣٨٣ م . انتقل فرواسار الى كنيسة جوى دي شاتيلون Guy de Châtillon ، مع كونت بلواه Blois ، الذي جعله قسيسه الخاص . وأشار عليه بأن يتولى كتابة حولياته . وفي نهاية سنة ١٣٨٨ م . ذهب الى بيرن Bèarn على المنحدرات الشمالية لجبال البرانس من أجل الحصول على معلومات اضافية لكتاباتة ، وقضى هناك ستة أشهر ممتعة ومثمرة في أورثيز Orthez ، وهي قلعة تابعة لجاستون فيوبوس Gaston Phoebus ، كونت فواه Foix .

وفي سنة ١٣٩٧ م وجد فرواسار نصيرا آخر في وليم من أوستريفانت William of Ostrevant حاكم هاينوت ، وذلك لأن « كونت وكونتية بلواه انغمسا في ملذات المائدة كثيرا جدا ، والتهما أطباقا عديدة من الحلوى حتى صارا في حالة من البدانة الشديدة » (٥) والأسوأ من ذلك أنهما تعرضا لأزمة مالية شديدة . واستطاع فرواسار الذهاب مرة ثانية الى انجلترا بفضل مساعدة وليم . وكانت هذه المرة سنة ١٣٩٥ م عندما أهدى ريتشارد الثاني كتابا في الشعر الغنائي ، مكتوبا بخط جيد ، ومزخرفا بألوان الذهب والفضة ، ومجلدا باللون القرمزي - المخمل ، وبه زهرة من نفس المادة في منتصفه ، وله قفلان كبيران مكفتان بالفضة ومرصعان ترصيعا بديعا بزهرتين في منتصفهما (٦) . ورغم سرور الملك بالهدية الا أن فرواسار شعر بخيبة الأمل إذ « لم أجد أحد من معارفى في الرحلات السابقة ، وكانت كل الخانات مشغولة بأناس جدد ، وبنات أطفال معارفى السابقين رجالا ونساء (٧) ، ثم اختفى عن الأنظار بعد عودته الى هاينوت ، وينسب المؤرخون وفاته الى عام ١٤٠٤ أو بعد ذلك التاريخ بقليل .

كان فرواسار مؤرخا للفروسية ، فلقد أدى دوره هذا بأمانة ، إذ شغف من بين فنون الأدب بقرض الشعر في مستهل حياته ، بيد أن منظوماته لم تجلب له شهرة أو تقديرا ، وإن كانت كفيلا بتخليد اسمه في سجل الأدب الفرنسي حتى ولو لم يكن قد كتب الجوليات . ولقد نظم نحو أربعة عشر ألف بيتا من الشعر الغنائي وقصة منظومة بعنوان فارس الشمس الذهبية . ومن الغريب أنه اختار لسكتلندا مسرحا لأحداث قصته الرومانسية لأن ذلك البلد لم يكن مثل غيره من البلدان التي عرفها فرواسار لا في فروسيته ولا في رومانسيته ، ولقد تعاون مع راعيه ونسلاس الذي كان شاعرا هو الآخر في نظم أبيات قصته ، والذي نشر في مواضع شتى من القصة غنائيات من نظمه هو .

بيد أن نظم الشعر وكتابة القصة لم يمثلا سوى نشاط ثانوي لفرواسار الذي كان جل اهتمامه منصبا على تلوين التاريخ الذي شغف به كما يظهر من كتاباته : « وبغية أن استكمل هذا التاريخ المجيد والممتع آليت أناجون فرواسار على نفسى أن أبذل قصارى جهدى لأكتب عن الوقائع المجيدة للحروب التي دارت رحاها بين فرنسا وإنجلترا وحلفائهما . . . وسأعمل ما حييت على استكمال تلك المهمة التي يزداد شغفى بها كلما مضيت في العمل » (٨) .

كان الهدف الأول لفرواسار من كتاباته هو إثارة الاحساس بالمتعة لمن يقرأ ما كتبه بالإضافة إلى التسلية . وشارك فرواسار المؤرخين الذين سبقوه ، والذين جاؤوا من بعده في الحافز الذي أثارهم : تاركين للأجيال القادمة سجلا من الأعمال التي كانت باعنا على الإلهام إذا ما كانت رفيعة المستوى ، وباعنا على الاتزان والاعتدال إذا ما كانت رديئة . أما عن الدور الثانى فلم يكن لدى فرواسار سوى القليل ليذكره . بل يبدو أنه تجنب افحام القصص أو المعلومات التي قد تشوه اسم أى شخص . إذ أغفل ذكر أليس بيريـه Alice Perres « الطموحة » عشيقه ادوارد الثالث فى أواخر عهده . كما أغفل أيضا ذكر اتهام حنا من جونثـه John of Gaunt عم ريتشارد الثانى الذى سعى إلى اعتلاء العرش بكلامه . وإذا ما ورد أحيانا فى حولياته ذكر أفعال دون المستوى الرفيع ، فلا شك أن ذلك أمر يدعو للأسف ، وإن كان الموضوع جعل ذكر هذه الأفعال أمرا ضروريا . على أن اهتمامه الأول كان فى حفظ المعلومات عن الأعمال الخالدة فكتب يقول : « إن تلك الخطط الجديرة بالاحترام ، والمغامرات الشريفة ، والأعمال القتالية التى حدثت إبان الحروب بين إنجلترا وفرنسا ، تستحق أن تحكى كما ينبغى لها ، وأن تظل ذكراها إلى الأبد . ويستحق الرجال الشجعان الثناء الأبدى على ما قدموه من قدوة فى حسن الأداء . إنى أجلس لأكتب تاريخا جديرا بالثناء والمديح الوافر » (١٠) .

ويريد فرواسار من قارئه أن يعلم أنه وضع نفسه في منزلة المؤرخ ، وليس مجرد كاتب حولية . وفسر ذلك بقوله : « اذا ما اقتصرنا على مجرد القول بأن مواضيع كذا وكذا حدثت في وقت كذا ، دون أن أدخل بعمق في الموضوع ، الذي كان مرعبا ومصحوبا بالكوارث الى حد كبير ، فان ما أكتبه يكون حولية وليس بتاريخ » (١١) على أن الفرق الذي ذكره فرواسار بين الحولية والتاريخ مبنى على قدر المعلومات المتوفرة . واذا عرضت المادة التاريخية في قالب قصص عادى ، على طريقة المؤرخ الذي يسجل الأحداث عاما بعد عام فانها تكون حولية . أما التاريخ فيحتاج الى العمق ، والوصف التفصيلي . وهى من الأمور التي لم يتوان فرواسار عن التزود بها ، برغم احتمال قيام القراء المتبرمون بالتعبير عن مشاعر الرثاء .

وسواء أكان فرواسار يكتب باعتباره مؤرخا للأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمني أم يكتب باعتباره دارسا للتاريخ فان الأهم من هذا وذاك حقيقة أنه كان يقول الصدق . وبالنسبة الى فرواسار كان قول الصدق هو المطلب الأول لأي كاتب للتاريخ قراءه بذلك في مناسبات عديدة . وكان اعدام السير سيمون بيورلى Sir Simon Burley ، مثلا لذلك وهى مأساة « جعلتني أشعر بالاستياء والغضب الى أبعد حد . . . وكنت في أعماق نفسى أشعر بأحزن والاسى ، لانى عرفتة فارسا نبيل الخلق منذ شبابه ، وعلى قدر كبير من تقدير عواقب الأمور وفقسا لفهمه » (١٢) وكان بورلى قد وجد نفسه متورطا في صراع السلطة المرير بين ريتشارد الثانى والطبقة الأرستقراطية التي عارضته . وكان بورلى قد وجه اليه اتهام باختلاس مائتين وخمسين ألف فرنك - وهو اتهام اعتبره فرواسار لا أساس له من الصحة ثم تم نقله الى القلعة ، وبعد ذلك بوقت قليل ، « حملوه على الفور . . . وقطعت رقبتة ، باعتباره خائنا ، فى الساحة التي تقع أمام القلعة » . وبرغم معاناة فرواسار من الألم النفسى المبرح ، فانه شعر بأنه ملزم بتسجيل هذا الحدث . « وبالرغم من أنى رويت هذه الميتة المحزنة ، التي كنت ملزما بذكرها وفقا لتصميمى على لا أكتب سوى ما هو حق وصدق فى هذا التاريخ » (١٣) .

على أنه لم تكن ثمة حادثة جرحت مشاعره فى التصميم أكثر من اعدام السير سيمون لأنها أساءت الى سمعة زملائه من أبناء بلده ، حدثت سنة ١٣٨٨ م . وكانت قوة صغيرة تحت قيادة دوق جيولدرز Gueldres قد استطاعت هزيمة جيش من أهالى براينت Brabant . وفى الهجوم الأول المفاجيء سقط ما يزيد على مائة وعشرين من أهالى براينت من على صهوة خيولهم . « وسيطرت عليهم حالة من الفزع الشديد والفوضى

والارتباك... اذ أخذوا على حين غرة... وبرغم كثرتهم العددية ، ووجود العديد من كبار السادة الاقطاعيين ، فقد تشتت شملهم جميعا ، وذكر فرواسار الحادثة برغم ما عاناه من خزي ومهانة . حيث كتب « لا أستطيع تحمل هذا الخزي الدائم الذي تمخضت عنه الهزيمة النكراء التي منى بها أهالي برابنت ، بيد أنى لا بد وأن أقدم النتائج المحزنة لهذه المعركة وفاء لوعدى الذي ذكرته في بداية هذا التاريخ بالأذكري سوى ما هو حقيقي وبمنتهى الدقة » (١٤) .

واذا لم يحرف فرواسار الحقيقة أو لم يحتفظ لنفسه بالمعلومات التي وجدها محرجة أو غير مقبولة اجتماعيا فان كثيرا من العلماء يصرون على أنه اضطر الى صياغة تاريخه بالقدر الذي يتلاءم مع رغبات وميول الذين شملوه برعايتهم له وعاش في كنفهم . ولا بد أن الاغراء كان واقعا . فقد مكنه سخاء الذين عاش في كنفهم من أن يحيا الحياة التي تمنها لنفسه بوجوده المستمر بين أفراد الطبقة الارستقراطية ، وإعداده حولية عن أعمال الفروسية في عصره . ومع ذلك فقد يلتمس القارىء له العذر في صياغة تاريخه على النحو الذي يرضى من عاش في كنفهم لسببين أولهما أنه بدون الرعاية التي ينعم بها لدى من عاش تحت رعايتهم لما ظهرت الحوليات ، وأن تاريخا متأثرا بالموقف الشخصي خير من لا شيء . وثانيهما أن فرواسار لم يدع أنه كتب تاريخا متوازنا وصحيحا تماما عن عصره . فكان هدفه تسجيل المواقف والأحداث المترابطة المتعلقة بالطبقة الارستقراطية ، وطبقة الفرسان والحروب بين فرنسا وانجلترا وحلفائهما .

ويعتقد على وجه التعميم أن النص الأول للكتاب الأول يكشف عن بعض الانحياز الى انجلترا . وكان فرواسار قد كتب هذا الكتاب بناء على طلب روبرت من نامور Robert of Namur ، أحد أقارب الملكة فيليبيا Philippa ، التي مكث في قصرها بضع سنين وينسب جزء من هذا التعاطف مع الانجليز الى جين لوبل Jean Le Bel كاهن لياج Liege ، الذين اعتمد عليه فرواسار في كتابه مؤلفه الأول هذا الى حد كبير . ثم ظهرت نسخة منقحة للكتاب الأول عندما كان يعيش فرواسار في كنف جوى دى بلواه Guy de Blois تكشف عن استقلال أكثر في حين أن النسخة الثالثة التي ظهرت سنة ١٤٠٠ م أو ما يقرب من ذلك التاريخ كانت خالية تماما من أى انحياز للانجليز . ويبدو فرواسار متعاطفا مع الفرنسيين في الكتابين الثاني والثالث . ولا بد أن ذلك قد أرضى جوى دى بلواه الذي عاش فرواسار في كنفه في ذلك الحين بينما الكتاب الرابع نسخة فرواسار عندما كان يعيش في كنف وليم من أوسترفنت William of Ostrevant ، وفي هذا الكتاب ظهر قدر من الانحياز للبورجنديين Burgundian .

وعلى الرغم من أنه قد يتردد عندما يناقش مدى موضوعية فرواسار ، ما هو موجود عن انحيازه لكنه لا يكفي للتقليل من قيمة حولياته ، فان من الممتع أن نرى فرواسار نفسه ، وقد أثار القضية وفعل ذلك ابان وصفه لحادثة تعرض لها دوق بريتانى Brittany . حيث كتب يقول : « لا يصح أن يقال ، أنى حرفت كتابة التاريخ من قبيل محاباة جوى دى بلواه (الذى أقنعنى بالكتابة ، ودفع الى نفقات كتابة هذا التاريخ . . ارضاء لى) ، لأنه كان أحد أقارب دوق بريتانى الشرعى . . ان الأمر ليس كذلك . ودون أن أبدى مشاعر خاصة الى هذا الجانب أكثر من ذلك الجانب ، كما أن هذا الأمير الشهم ، الذى تفضل بتغطية نفقات كتابة هذا التاريخ لم يفرض على أبدا أن أكتب بأية طريقة أخرى » (١٥) .

ويجب على المرء أن يضع فى اعتباره أنه عندما أثار فرواسار قضية المحاباة المحتملة من جانبه أنه كان يفكر من منطلق قومى . اذ أن مفهوم القومية وفقا للعصر الحالى كان غريبا على عصر فرواسار . فمفهوم القومية هو نتاج للشورة الفرنسية الى حد كبير . فقبل نهاية القرن الثامن عشر يمكن للمرء أن يتحدث عن وعى قومى لا عن القومية ، وكلما رجع الانسان الى ما قبل سنة ١٨٠٠ م ، كلما كان نمو الوعى القومى أضعف . وفى عهد فرواسار لم تكن هناك أمة فرنسية أو أسبانية . واذا ما كانت انجلترا قد صارت دولة موحدة ، فان رجال معظم الطبقة الارستقراطية الانجليزية شعروا برباط أقوى مع زملائهم من النبلاء غير بحر المانش أكثر من رباطهم مع جيرانهم فى أرض الوطن . ويحكى فرواسار أن الطبقة الارستقراطية تلقت نبأ انتصار الفرنسيين على الفلمنكيين فى روزبيك Rosebecque بكل الرضا والارتياح . « لم يأسف نبلاء انجلترا عند سماع ذلك الخبر ، لأنهم قالوا ، اذا ما قدر للطبقة العامة من شعب الفلاندرز الانتصار على ملك فرنسا ، وقتلوا طبقة النبلاء فى فرنسا ، لازداد شعور طبقة العامة بالاعتداد بأنفسهم الى الحد الذى يجعل كل طبقة النبلاء تشعر بالحزن والأسى » (١٦) .

كان فرواسار أحد مواليد امارة هاينوت Hainaut ، وهى احدى مجموعة الامارات التى تقع بين فرنسا والمانيا ، وتمتعت بصلات قوية مع انجلترا . ولم توجد روح الحكم الذاتى فى أى مكان بأوروبا سوى فى شمال ايطاليا . وبالنسبة لفرواسار فان قدرا من التحرر من الأحقاد المحلية والاقليمية امتزج بحبه الى هاينوت . وهذا نتيحة لحبه الحقيقى للفرنسية أينما وجدت ، يضاف اليها اعجابه بانطبقة الارستقراطية فى كل البلاد دون تمييز .

وإذا ما استطاع القارىء المدقق للحوليات أن يتبين قدرا من تحول التعاطف مع الانجليز الى الفرنسيين ثم الى البورجونديين ، فإن هذا لدليل واضح على تلهف فرواسبار على اصفاء المديح على كل الرجال الشجعان ، مهما كان أصلهم ، والذين أظهروا شجاعة فى ساحة الوغى . ومن النادر وجود صفحة واحدة فى الحوليات لا يطلع عليها اسكتلندى ، أو انجليزى أو فرنسى ، أو قشتالى Castillian الا وشعر كلهم جميعا بقدر متساو من الرضا والارتياح . فالطريقة التى وصف بها فرواسبار القتال الشرس الذى دار ابان الحرب بين الانجليز والاسكتلنديين قبيل معركة أوتيبورن Ottebourne فى سنة ١٣٨٨ م توضح رغبته فى ارضاء كل الأطراف حيث دار القتال بين أتباع دوجلاس Douglas وعشائر بيرسى Percy ، والاثنان من ألمع الشخصيات فى تاريخ القتال الطويل الأمد على امتداد الحدود الفاصلة بين انجلترا واسكتلندا . ويؤكد فرواسبار للقارىء منذ البداية ، « لقد استقيت معلوماتى من كل من الطرفين » ثم قال « اتفق الطرفان على أنها كانت أشرس وأعنف معركة جرت بينهما . وأعتقد عن يقين فى ذلك لأن الانجليز والاسكتلنديين محاربون ممتازون ، ولا يرحم أحدهما الآخر اذا ما التقوا فى معركة ، ولا يعوق شجاعتهم شىء طالما كانت أسلحتهم قادرة على مواصلة القتال . وعندما يلحق كل منهما ضربات منهكة بالفريق الآخر ، وينتهى الأمر بانتصار أحد الفريقين ، يشعرون بالفخر الشديد لانتصارهم ويسارع الفريق المنهزم بافتداء أسراه على الفور . واعتادوا على معاملة الأسرى معاملة طيبة ، لدرجة أنه عند رحيلهم يعودون ثانية لتقديم الشكر . ومع ذلك فلا يعرفون سوى الجدية فى القتال اذا ما دارت رحى الحرب . ولا يتقاعسون عن خوض المعركة على الاطلاق . وسترى أعمالا بطولية ممتازة ذكرتها كما حدثت بكل دقة فى التفاصيل التى أوردتها عن تلك المعركة ، (١٧) .

وإذا كان فرواسبار موقفا فى الاحتفاظ بوضع مستقل بصفة عامة عند وصفه للمعارك بين الجيوش المختلفة ، فإن هذا لا يعنى أنه لم ير أن الشعوب المختلفة لها ملامح وسمات مختلفة . وانما وجد البرتغاليين « يميلون الى سرعة الانفعال ، والاستبداد ، أما الانجليز فوجدتهم يميلون الى اغاظة الآخرين والى الحقد والغطرسة » (١٨) . وعندما كتب فى أوائل عهده عن الانجليز الذين قابلهم ابان فترة اقامته المؤقتة فى بوردو Bordeaux ، وجد أنهم كانوا متكبرين أيضا « أنا ، مؤلف هذا التاريخ كنت فى بوردو وعندما تحرك أمير ويلز بجيشه الى أسبانيا ، وشاهدت كبرياء الانجليز الشديد ، الذين لم يتصرفوا بدماثة مع أى أمة سوى أنفسهم ، وكما ثم يستطع كبار الشخصيات فى جاسكونى أو أوكوتين

أن يحصلوا على منصب أو وظيفة في بلادهم ، برغم أنهم أفنوا أنفسهم في الحروب ، وذلك لأن الانجليز قالوا عنهم أنهم ليسوا في مستواهم ، وأنهم غير جديرين بالاندماج في مجتمعهم ، وهو الأمر الذي جعل أهالي جاسكوني في حالة سخط ونقمة « (١٩) » .

ونظرا للسنوات التي قضتها فرواسار في انجلترا ، فليس من المدهش أن بعضا من كراهية انجلترا للاسكتلنديين انتقلت اليه . ففي إحدى تعليقاته الأولى عن الاسكتلنديين صرح بأنهم « شعب تافه وفض » . وأعلن مرة ثانية ، « لن تجد رجلا جديرا بالاحترام . في اسكتلندا ، انهم مثل الحيوانات المتوحشة ، فهم لا يرغبون في التكيف الاجتماعي مع أى شخص . ويشعرون بالحسد من ثروة الآخرين الى حد كبير ، وغير آمنين على ما في أيديهم ، لأن بلادهم فقيرة جدا » (٢٠) . فذات مرة كتب عن قصة الجاسوس الانجليزى الذى سرق جواده عندما كان يقوم ببعض أعمال التجسس على امتداد الحدود الشمالية . فلاحظ فرواسار أن تلك الحادثة لا يصح اعتبارها غير عادية لأن الاسكتلنديين « كلهم لصوص » (٢١) .

ومن ناحية أخرى ، فانه امتدح الاسكتلنديين على بسالتهم في القتال بشكل مستمر : « ان الاسكتلنديين شعب جريء ومقدام ، وشديد الجلد ومتمرس على الحرب » (٢٢) . على أن الانطباع الذى أخذه عن بعض شعوب أسبانيا وإيطاليا كان مختلفا تماما . فكتب : « يتشابه القشتاليون Castillians والجاليكيان Galicians اللومباردين والإيطاليون الى حد كبير ، فهم جميعا مع الجانب الأقوى ، ويصيحون ، « المنتصر على الدوام ٠٠٠ ! » (٢٣) ويبدو من الأهمية بمكان عدم توجيه فرواسار كلمة نقد واحدة للفرنسيين .

وإذا ما وضع المرء في اعتباره رغبة فرواسار في التعبير عن نفسه باستخدامه عبارات الازدراء لتلك الشعوب المختلفة فمن المدهش أنه لم يذكر شيئا يحط من قدر اليهود . وأحدى المناسبات القليلة التى اهتم بهم فيها كانت متعلقة باضطهاد من الواضح أنه كان واسع الانتشار ، وعانوا منه سنة ١٣٤٩ . فكتب يقول : « وفى ذلك الحين ، تعرض اليهود في كل أنحاء العالم للقبض عليهم والموت حرقا ، وقام ساداتهم الاقطاعيون بالاستيلاء على ثرواتهم باستثناء مدينة أفينون Avignon ، وأراضى الكنيسة التابعة للبابا . واعتبر أى يهودى فقير نفسه آمنا اذا ما استطاع اخفاء نفسه ، والوصول الى تلك الأراضى » (٢٤) .

ونظرا لأن فرواسار كان مؤرخا حوليا للمعارك وللأعمال البطولية التى جرت في ساحة الوغى ، وإبان حصار المدن والقلاع ، أو المبارزات

الفروسية فحسب تقريبا ، فان المسألة المتعلقة بنوعية الفلسفة التاريخية التي أقرها وأيدها لم تثر اهتماما كبيرا . على أن فرواسار نفسه لم يقل سوى القليل الذي يمكن اعتباره وثيق الصلة بهذا الهدف كما أن كتاباته لا توحى بأى فعالية للمبادئ أو القوانين التي يمكن أن يكون لها تأثير أو توجيه على مجرى الأحداث . ولو أن فرواسار غطى السنوات الخمس والسبعين في وحدة كاملة موحدة وجعل لها بداية وخاتمة ، لأعطى الأحياء بافتراض وجود قوى كانت توجه سلوك الناس لكي تكشف عن بعض النماذج في الطريقة التي جرت بها الأحداث . وتتكون حوليات فرواسار من سلسلة مستمرة من الأحداث المترابطة في الحياة الواقعية والأحداث العرضية عرضها مرتبة وفقا لتسلسلها الزمني الى حد كبير ، وعلى ما يبدو فقد نالها في سياق غير متنوع ، وهو نفس الأسلوب الذي استمر بعد أن انتهى فرواسار من كتاباته .

ويشير فرواسار من حين لآخر الى طبيعة التعليق الفلسفي الشائع بين كثير من الكتاب مثل ، « لكل شيء في الوجود نهاية » (٢٥) وهناك العديد من المناسبات التي عزا فيها حادثة الى الصدفة أو الى حسن الحظ أو عدم حسنه ، « واذا ما شاء الله شيئا فلا راد لقضائه » (٢٦) ونسب هذه الملاحظة المهمة الى دوق لانكستر Lancaster عندما علم بغرق الأسطول الذي أرسله أرونديل Arundel لنجده دوق بريتاني في عاصفة . وهناك اشارة مشابهة منسوبة للقوى الخارقة للطبيعة ، وظهرت هذه القوة المتعلقة بالسحر والشعوذة في ارتباطها بنشوب القتال في بلاد الفلاندرز . فكتب فرواسار أن الايرل earl ، « الذي كان حكيما ومتبصرا بعواقب الأمور » حاول أن يحول دون نشوب هذه الحرب بيد أنه أخفق في ذلك . « ان هؤلاء الذين يقرأون هذا الكتاب أو يستمعون اليه ، سيقولون أنه من عمل الشيطان ، فأنت تعرف أن للعقلاء يعتقدون أن الشيطان الخبيث والمخادع يعمل ليلا ونهارا لاشعال نيران الحرب حيث يوجد سلام وتآلف ، ويسعى بالوسائل التي لا تخطر على بال لتحقيق أهدافه . وهكذا حدث في فلاندرز ، كما ستري بوضوح ، وتعلم من المفاوضات والمعاهدات والأوامر المجلبة ذات الصلة بتلك الأمور » (٢٧) .

ولا ريب أن الفكرة المطروحة هنا تعبر عن مسيحيين في العصور الوسطى ، علاوة على ما يتوقعه المرء من القسيس فرواسار . وعلى ذلك ربما افترض القارئ أن فرواسار اتفق في الرأي مع لورانس من فونجاس Lawrence of Fongasse ، الذي كان يعمل مرافقا في خدمة ملك البرتغال ، والذي نسب حسن حظ بلاده وملكها دون حنا Don John الى فضائل ذلك العاهل . اذ قال عن الملك أنه « يتقى الله ويعمل

ما يرضاه ، وقلبه معلق بالكنيسة ، التي عمل على علو شأنها بكل ما يملك من قوة ٠٠٠٠٠ وفوق كل ذلك ، عمت العدالة أرجاء دولته دون تحيز ، وحصل الفقراء على حقوقهم « (٢٨) » .

ومع ذلك فيجد القارئ المحب للصراع والأعمال الرياضية الكثير والذي يوافق ميوله ، مثل الملاحظة التي أبدتها فرواسار في سياق حديثه عن القصة المسلية عن أميريجوت مارسيل Amerigot Marcel ، قائد جماعة من الرفقاء الأحرار ٠٠ وتكون هؤلاء الرفقاء من الجنود المتعطلين الذين مارسوا عمليات العنف والسطو على المناطق الريفية إبان السنوات التي أعقبت انهيار فرنسا بعد معركة بواتيه Poitiers (سنة ١٣٥٦ م) . وانضم كثير من الجنود السابقين الى مارسيل الذي حقق قدرا من النجاح المتواصل في عمليات السلب والنهب . بل أنه نجح في الاستيلاء على قلعة لاروش دي فيندياس La Roche de Vendais ، التي اتخذها وأتباعه قاعدة انطلقوا منها لنهب المناطق الريفية المجاورة . بيد أن نجمه أخذ في الأفول في النهاية . فقد قويت المقاومة تدريجيا الى الحد الذي جعلته يخاف على نفسه من الاعتقال . وكانت غنظته الكبرى في طلبه العون من أحد أقاربه الذي أسلمه على الفور ، وأنهى فرواسار هذه الحادثة الواقعية بالتعليق التالي : « وهكذا تعاملت الهة الحظ عند الرومان أحبائها ، فتقوم بحملهم الى أعلى نقطة في عجلتها ، ثم تقذف بهم في الوحل فجأة . ويشهد على ذلك أميريجوت مارسيل فكان هذا الشخص الأحمق يمتلك أكثر من مائة ألف فرنك نقدا ، ثم خسرها وخسر نفسه في يوم واحد . ولذلك أقول أن السيدة الهة الحظ dame Fortune خدعته ، كما خدعت الكثيرين من قبله ، وستخدع الكثيرين من بعده » (٢٩) .

على أن طبيعة ومدى مصادر المعلومات التي رجع اليها المؤرخ ، عامل حاسم في تحديد مصداقيته . ويظهر هنا سجل فرواسار الذي يستحق الثناء كما أن كلماته باعثة على الاطمئنان . « ربما يسأل البعض عن كيفية المامي بالأحداث في هذا التاريخ ، وعن حديثي عنها بتفصيل دقيق وردى عليهم أنني بذلت جهودا مضنية وتحملت الجسام . وبحثت في الممالك والأقطار عن الحقيقة ، أو ما ذكر عنها : كما أن الله منحني النعمة والفرصة لأشاهد بنفسى ، وأكون معارف لي مع الغالبية العظمى من كبار السادة الاقطاعيين في فرنسا وفي انجلترا . ويجب أن يكون معلوما أنه سنة ١٣٩٠ م كنت قد قضيت سبعة وثلاثين عاما في كتابة هذا التاريخ . وفي ذلك الحين كنت قد بلغت السابعة والخمسين من عمري ، ولذلك كان يمكن للمرء أن يتعلم الكثير في تلك الفترة ، عندما كان في تمام الصحة والعافية وكان يمكن له أن يلتقى بكل الأطراف . وإبان شبابي ، كنت

على صلة مع ملك ومملكة انجلترا لمدة خمس سنوات ، وقضيت فترة طيبة في قصر حنا ملك فرنسا وابنه الملك شارل : ونتيجة لذلك كنت قادرا على أن أسمع الكثير في تلك الأوقات ، وبالتأكيد كانت متعتي كبيرة عندما تمكنت من الاستفسار عن كل شيء يتعلق بما يدور في هذا العالم ثم قمت بتسجيل كل ما سمعت وعرفت ، (٣٠) .

ولم يقتصر فرواسار على بذل الجهود المضنية في جمع المعلومات ، وإنما أدرك ادراكا كاملا أهمية الحصول على التفاصيل من طرفي أي نزاع . فقبل أن يبدأ وصفه للمعركة التي دارت بين الانجليز والاسكتلنديين في أوتربورن Otterburne سنة ١٣٨٨ م يحكى فرواسار عن جهوده في الحصول على المعلومات فيقول : « كنت على علم بكل تفاصيل هذه المعركة من الفرسان وحملة الدروع الذين اشتركوا فيها من كل من الجانبين . وكان مع الانجليز فارسان شجعان من أهالي فواه Foix ، وساعدني الحظ بمقابلتهم في أورثيه Orthès بعد انتهاء المعركة بعام . وعند عودتي من فواه ، قابلت في أفينون Avignon فارسا واثنين من حملة الدروع الاسكتلنديين من جماعة الايرل دوجلاس Earl Douglas وتعرفوا علي ، من خلال الذكريات التي ذكرتهم بها عن بلدهم ، لأنني في مرحلة شبابي ، أنا مؤلف هذا التاريخ ، تجولت في كل أنحاء اسكتلندا ، وقضيت خمسة عشر يوما كاملة مع وليام ايرل دوجلاس والد الايرل جيمز James ، اندي نتحدث عنه الآن في قلعته في ذاكيث Dalkeith التي تبعد خمسة أميال عن ادينبره Edinburgh وعلى ذلك قد حصلت على معلومات من الطرفين » (٣١) .

ولا بد أن فرواسار قد قام برحلات أقصر بهدف الحصول على معلومات مستقاة من مصدرها الأول عن الأحداث المختلفة التي عقد العزم على وصفها . وفي سنة ١٣٩٤ م قام فرواسار برحلة قصيرة الى أبيفيل Abbeville حيث اجتمع بها المفاوضون الانجليز والفرنسيون لبحث ترتيبات السلام ، وذهب فرواسار ، « ليعرف حقيقة ما يجري هناك » (٣٢) . وعندما حانت الفرصة جمع مؤرخنا بين العمل والمتعة . فقال أنه قام بزيارة قصيرة الى باريس سنة ١٣٨٩ م ، « ليكون على علم بتفاصيل المؤتمرات التي كانت منعقدة في ليولنجم Leulinghem بين الفرنسيين والانجليز ، وليحضر الولايم الرائعة بمناسبة دخول الملكة ايزابيلا Isabella باريس » (٣٣) . وتحقق هدفى فرواسار ، وحضر حفل زواج دوق بيري Berry في ذلك العام . « كان حفل الزواج رائعا جدا . . . واستمرت الولايم والمباريات أربعة أيام ، أما أنا ، كاتب هذا الكتاب ، فكنت مشاركا في كل ذلك » (٣٤) .

وإذا ما وضع المرء في اعتباره طبيعة مصادر معلومات فرواسار المتنوعة وغير الرسمية ، فإن القارئ الذي يسلم بصحة كل ما في حولياته على نحو مقبول يكون قارئاً سهلاً الانخداع ، وربما يشعر القارئ بالاطمئنان على نحو مقبول عندما يورد فرواسار مصادرة ، ويصبح أكثر يقيناً عندما يعلن مؤرخ الحوليات أنه استقى المعلومات من المصدر الأصلي . ولا يحتاج المرء إلى أنباء أكثر من قوله أن الملكة فيليبيا Philippa حققت إيرادات سنوياً قدره خمسة وعشرين ألفاً من النوبيلات nobles (*) ، من أكبر عزبة قدمت إليها كهدية ، وذلك لأنه « خدم تلك الملكة الطيبة الذكر . . وعمل سكرتيراً لها ، وسمع من السادة الاقطاعيين وزوجاتهم ، ومن الفرسان الذين حصلوا على نصيبهم من ريع تلك العزب » (٣٥) . وفيما يتعلق بزيارة دوق لانكستر وابنتها إلى ملك وملكة البرتغال سنة ١٣٨٦ م ، كتب فرواسار قائلاً : « ابتهج القصر كله ابتهاجا عظيماً عند وصول هاتين السيدتين ، بيد أنني لن أدعى لنفسى ذكر تفاصيل ما حدث لأنى لم أكن هناك ، فكل معلوماتى نقلاً عن الفارس الشهيم السير حنا فيرناندو بورتليت Sir John Fernando Portelet الذى كان هناك » (٣٦) .

وإذا لم يفترض القارئ صحة كل ما كتبه فرواسار من معلومات تاريخية ، فعليه أن يعلم أن الحالة سيجدها عندما يرجع إلى كل الكتاب الذين سبقوا عصر فرواسار تقريباً ، والذين أخذوا على عاتقهم القيام بدور المؤرخ . فيقول هيرودوت أن الجيش الفارسى الذى غزا أتيكا سنة ٤٩٢ ق م زاد على مليونين من الجنود . وهذا الرقم رفضه كل العلماء باعتباره مبالغ فيه إلى حد إثارة السخرية . وكثير مما تضمنه تاريخ المؤرخ الرومانى ليفى Livy لا بد وأن يدخل فى إطار الأساطير . ومن ناحية أخرى كان العلماء على استعداد لقبول الدقة الواقعية لوصف فرواسار لمعركة كرسى ، على سبيل المثال ، بل والاستشهاد بقوله بخصوص الأعداد التى ذكرها والتى اشتركت فى تلك المعركة . ويجب على القارئ أن يضع فى اعتباره أمرين عندما يقرأ ما كتبه فرواسار أولاً ، أن فرواسار عاش قبل العصر الذى أصبح فيه التاريخ علماً ، فهو لم يزر أماكن حفظ السجلات ، ولم يدرس أو يقارن بين المعلومات المتعارضة كما هو ضرورى فى عصرنا هذا (٣٧) . ثانياً ، أن هدفه لم يكن كتابة تاريخ متوازن عن الأحوال السائدة فى تلك الفترة وإنما أن يكتب سجلاً عن أعمال البطولة التى ظهرت فى الحروب بين فرنسا وإنجلترا وجيرانهما ، « وأن يقدم وصفاً دقيقاً » .

(*) noble هى قطعة نقد ذهبية انجليزية قديمة قيمتها ثمانية شلنات ونصف . المترجم .

عن كيفية مهاجمة القلاع والمدن وكيف تم الاستيلاء عليها • وبدلا من نقد فرواسار لعدم دقته ، « فاننا سنكون مندهشين الى حد ما للمصداقية العامة لتلك الحوليات أكثر مما بها من أخطاء خاصة » (٣٨) •

وقبل أن نعتبر فرواسار صاحب الدور الأعظم كمؤرخ للفروسية في غرب أوروبا في القرن الرابع عشر ، فمن المفيد أن نلقى نظرة على أنواع المعلومات الأخرى التي قدمها للقارىء في حولياته • وإذا كان العديد من العلماء قد ذهبوا بعيدا جدا في إعجابهم بفرواسار الى حد أنهم اعتبروه هيروودوت أواخر العصور الوسطى ، فان ذلك لم يكن من الواقع فى شيء • وإذا كانت الحروب هي موضوع الكتابة عند فرواسار وهيروودوت ، الا أنه فى الوقت الذى قدم فيه المؤرخ اليونانى كثيرا من المعلومات المتعلقة بالعرف والعادات والأنماط الاجتماعية للشعوب المختلفة التى ذكرها فى تاريخه ، فان فرواسار لم يذكر شيئا بالكامل تقريبا عن هذه النواحي • ومع ذلك فليس من الانصاف فى شيء أن نعيب على فرواسار لافتقاره الى الاهتمام بعامة الشعب ، وماذا يفعلون وكيف يعيشون حيث كان عامة الشعب لا يقعون فى مدى نطاق اهتماماته التى جعلها كل سبيله فى الحياة • وكان هدف فرواسار من تقديم وصفه للمعارك وأعمال البطولة ، استنادا الى خلفية من التاريخ السياسى ، من أجل المتعة والتسلية ورفع الروح المعنوية بين أسياده وأصدقائه من الطبقة الارستقراطية •

على أن فرواسار نظر الى الطبقة الأدنى من الطبقة الارستقراطية من حين الى آخر • فعند الكتابة عن المعارك لا بد أن يشمل ذلك بالطبع حملة الدروع والجنود • وهناك مناسبات عندما كانت الطبقات الدنيا مصدر ازعاج لمن هم أعلى منهم اجتماعيا • وكانت ثورة المزارعين فى انجلترا سنة ١٣٨١ م أشد تلك المناسبات خطورة • وكما يتوقع المرء تعاطف فرواسار مع هؤلاء الذين يمثلون الوضع السائد من أصحاب السلطة العليا ضد هؤلاء الذين يعكرون صفو الأوضاع ، على الرغم من أنه بذل جهدا فى تقديم الوقائع والحجج المؤيدة لموقف المزارعين • ولما كان لدى فرواسار أمل فى أن يكون تاريخه ، مثلا يحتذى به لكل البشر • لذلك فانه يستلقت القارىء باعتباره متوازنا بدرجة مقبولة •

« من المتعارف عليه فى انجلترا ، وفى العديد من البلدان الأخرى أيضا أن لطبقة النبلاء امتيازات كبيرة على طبقة العامة الذين ظلوا فى حالة استرقاق ، وأعنى بذلك ، أنهم كانوا ملزمين بحكم القانون والعرف أن يحرثوا أراضى الأغنياء ، ويحصلوا الحبوب ويحملونها الى مخزن الحبوب ، ويدرسونها ويقومون بتذريتها ، وكانوا ملزمين أيضا بجمع القش المستخدم كعلف للماشية ونقله الى المنزل • وكانت طبقة العامة

ملزمة بأداء كل تلك الخدمات لسادتهم الاقطاعيين ، وكان هذا الوضع أكثر شيوعا في انجلترا عنه في أى بلاد أخرى . وكانت هذه الخدمات تؤدي لصالح الأساقفة والأغنياء . وكانت هذه الخدمات ثقيلة الوطأة في كونتيات كينت ، واسكس ، وسكس ، وبدفورد ، عن أى منطقة أخرى في المملكة » .

« وبدأت عناصر السخط في تلك المناطق تعبر عن نفسها قائلة أنهم يتعرضون لظلم صارخ ، وأنه لم يكن هناك عيب عند بدء الخليقة ، ولا يصح أن يعامل أحد كعبد ، ما لم يكن قد اقترف خيانة ضد سيده الاقطاعي ، كما عصى ابليس ربه . غير أنهم لم يفعلوا مثل ذلك ، لأنهم ليسوا ملائكة أو أشباحا ، وإنما بشر مثل ساداتهم الاقطاعيين تماما بتمام ، ولكنهم عاملوهم كالأنعام . وأن هذا الأمر لن يسكتوا عليه فانهم عقدوا العزم على الحياة أحرارا ، وأنهم يجب أن ينالوا أجورهم على أعمالهم التي يقدمونها للسلادة الاقطاعيين » .

وجعل حنا بول « القس المخبول » (*) من نفسه متحدثا باسم هؤلاء المزارعين الذين كانوا يعانون من الشعور بالسخط والاستياء . اعتاد القاء خطاب عليهم بعد قداس الأحد في ساحة السوق عن المظالم التي يتعرضون لها على أيدي ساداتهم الاقطاعيين . وقال لهم : أصدقائي الكرام ، ان الأمور لا يمكن أن تستقيم ، ولن تستقيم ما لم يكن كل شيء مشتركا ، عندما لا يكون هناك تابع أو سيد اقطاعي ، وعندما تذوب كل الفوارق بين الطبقات . وعندما نكون والسلادة الاقطاعيون سواء بسواء . ألم يستغلونا ؟ وما هو السبب الذي يجعلهم يستعبدوننا ؟ ألسنا جميعا أبناء لآدم وحواء ؟ وما هو دليلهم ؟ وما هي مبرراتهم التي تجعل لهم السيادة علينا ؟ اللهم الا لاجبارنا على العمل بكل جد وكد من أجلهم لينعموا . انهم يرتدون الملابس الحريرية وكل ما هو غال وثمانين ، ويتزينون بفراء القاموم الأبيض (**) ، في الوقت الذي أجبرنا فيه على ارتداء الرديء من القماش . انهم ينعمون بالنبيذ ، والتوابل ، والخبز الفاخر ، في الوقت الذي لا يبقى فيه لنا سوى الخبز الأسمر المصنوع من دقيق الجوادار (***) ، ومن بقايا القش والتبن ، ولا نشرب سوى الماء . انهم يمتلكون القصور

(*) لا نعتقد أن حنا بول كان مخبولا ويرجع استخدام فرواسار لهذه الصفة الى محاولته ارضاء الطبقة التي كتب لها وعاش على مواثها . - المترجم .
(**) القاموم الأبيض ermine هو قراء القاموم الذي كان يرتديه الملوك والقضاة - المترجم .

(***) الجوادار rye ، هو نبات من الفصيلة الحبية يعطى حبا ، ودقيقه يعطى خبزا أسمر ، ويستخدم حبه في صناعة الخمور . - المترجم .

الفاخرة ، وعلينا نحن التعرض للرياح والأمطار ابان أعمالنا المفضية في الحقول . ويفضل نتاج جهدنا يعيشون في رفاهية وأبهة . ويطلقون علينا لفظ عبيد ، ويعتدون علينا بالضرب اذا ما لم نقم بأعمالنا ، وليس لنا سيد نشكو اليه ، بل لا يوجد من لديه الاستعداد للاستماع الينا وتحقيق العدل . هيا بنا الى الملك الشاب ، لنشكوا اليه حالنا ، واجبارنا على حياة العبودية ، ولنبلغه أننا لن نرضاها بعد اليوم ، وأننا سنبحث عن وسيلة شرعية لاسترداد حقوقنا » (٣٩) .

وأدان بعض النقاد فرواسار لاتخاذ موقف المتبلد المشاعر أمام معاناة الطبقات الدنيا . واستشهدوا بفقرة من حولياته ، لكى يبرهنوا على صحة دعواهم ، وتتعلق هذه الفقرة باستيلاء الأمير الأسود على بلدة ليموجيز Limoges ، واعدام كل سكانها بناء على أوامره . وكانت انباء انضمام تلك البلدة قد أثارت حنق ذلك الأمير الذى « أقسم بروح والده ، والذى لم يسبق له أن حنث فى ذلك القسم ، أن يعمل على استرداد تلك البلدة . . . وأن يجعل سكانها يدفعون ثمنا غاليا لخيانتهم » (٤٠) . وبعد أن حاصر الجيش البلدة من جميع الجهات ، شرع الحفارون فى حفر نفق تحت أسوار البلدة . وبعد مرور حوالى شهر أبلغوا الأمير الأسود بانتهاء مهمتهم « كان ذلك الخبر باعثا لسرور الأمير ، الذى رد عليهم قائلا : أتمنى أن يتحقق كلامكم غدا فى الساعة السادسة صباحا » . وأشعل الحفارون النيران فى المواد القابلة للاحتراق فى داخل الحفر ، وفى صباح اليوم التالى ، دمروا جزءا كبيرا من السور الذى ملأ الحفر .

وشاهد الانجليز ذلك وهم فى غاية السرور ، لأنهم كانوا جميعا مسلحين ، وعلى استعداد لدخول البلدة . وقام المشاة باقتحام بوابة البلدة ، بعد تحطيمها وتحطيم كل الحواجز حيث لم يكن هناك دفاعات غيرها ، وتم كل شىء على وجه السرعة الى الحد الذى لم يدع فرصة لسكان لابداء أى مقاومة .

واندفع الى داخل البلدة كل من الأمير ، ودوق لانكستر ، وايرلات كامبردج وبمبروك Pembroke ، والسير جوسكاردي أنجل Sir Guiscard d'Angle ، وآخرون ومعهم رجالهم . فقام الجميع بعمليات سلب ونهب ، والكل حريص على الحاق الأذى بمن فى البلدة ، ثم قاموا بقتل الرجال والنساء والأطفال ، وفقا للأوامر . لقد كانت مهمة جنونية تقريبا . فالجميع من كل الأعمار والأجناس ركعوا أمام الأمير ، طالبين الرحمة ، بيد أنه كان فى حالة غضب شديد ، ولم يستمع الى أحد منهم ، وأمر بأعمال السيف فى رقابهم ، أينما وجدوا حتى أولئك الذين لا ذنب لهم ، لأنى أعلم أن الفقراء تعرضوا لنفس المصير ، وهم

الذين لم يشاركوا في الخيانة ، بيد أنهم تعرضوا لنفس مصير قادة الخيانة .

وفي ذلك اليوم تعرضت بلدة ليموجيز الى أحداث مؤسفة جعلت أشد الناس قسوة ، أو من لديه أدنى احساس ديني ينفطر قلبه من هول الكارثة ذلك لأن أكثر من ثلاثة آلاف من الرجال والنساء والأطفال لقوا حتفهم . اللهم أرحمهم جميعا انهم شهداء بكل حق وصدق ، (٤٦) .

على أن الشيء الذي يصدم القارئ في أيامنا هذه عن العمل الوحشي الذين اقترفه الأمير الأسود أن عصره اعتبره مثالا للشهامة والفروسية . وربما كان من الأفضل اعتبار هذا التصرف أحد هفوات الأمير الأسود بدلا من ادانة فرواسار . حيث أوضح فرواسار بشكل لا ريب فيه أسفه الشديد للمأساة باعتبارها أمرا ليس له ما يبرر وجوده بهذه الصفة الكلية ، وبصفة خاصة ادانته لمقتل « الفقراء » . كما أنه اذا ما حاول الاشارة الى مذبح الجماهير بتعبير أكثر ألما وانزعاجا عن قوله « انه عمل مثير للاكتئاب » ، ربما عرضة لأن يفقد آسياده الذين عاش في كنفهم ، وجمهور القراء والمستمعين - وحولياته . وأنه أشار الى الضحايا الكعساء بوصفهم « شهداء بكل حق وصدق » .

وللسبب نفسه لم يذكر فرواسار المرأة الا في مناسبات قليلة ، اللهم باستثناء الحالات التي تدخل في نطاق ما أعد نفسه لوصفه . ولا يمكن تفسير صمته النسبي على أنه مبني عن شعور باللامبالاة تجاه العنصر النسائي أو أنه دلالة على التحيز التقليدي للذكور . وانما عندما تحين الفرصة ، كان يقوم بوصف العمل البطولي أو الجريء لأي شخص - سواء أكان نبيلاً ، أم مزارعاً أم امرأة . وكان يفعل ذلك دون ابداء معاني اضافية قد تثير استياء جماعة معينة . وهنا في روايته التاريخية يصف الطريقة التي سلكتها الكونتس Countess صالحة مونتفورت Montfort ، « التي امتلكت شجاعة الرجال ، وقلب الأسد » عندما هبت للدفاع عن مدينة هينيبيون Hennebon ، في اقليم بريتانى ضد الفرنسيين . وكان زوجها أسيراً في أيدي الفرنسيين . كما قام الفرنسيون بمحاصرة المدينة لعدة أيام تحت قيادة اللورد شارل دي بلوا Lord Charles de Blois . وكانت الكونتس من بين القلة الذين

غارضوا الاستسلام ، وسارعت في طلب النجدة من انجلترا . « وارتدت بذلة حربية كان يرتديها النبلاء في العصور الوسطى . وامتطت صهوة جواد حرب ، وأخذت تعدو مسرعة عبر شوارع المدينة ، تستحث المواطنين وتشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بكل قوة . وأمرت سيدات المدينة والنساء والأخريات أن يضعن العوائق في الشوارع ، وأن ينقلن

الأحجار الى الاستحكامات والمتاريس ، وأن تلقين الأحجار على الأعداء •
وأمرت بأعداد القذور التي بها جير حتى للغرض نفسه •

وفي اليوم نفسه قامت الكونتيس بعمل بطولي رائع : إذ صعدت
برجاً عالياً ، لترى كيف يتصرف شعبها وبعد أن شاهدت أن كل اللوردات
الآخرين في جيش العدو • وقد غادروا خيامهم ، وأوشكوا على شن الهجوم •
عند ذلك نزلت على الفور من البرج ، وامتنطت صهوة جوادها ، وهي في
كامل عدتها الحربية ، واصطحبت معها ثلاثمائة من الفرسان وشنوا هجوماً
مضاداً على معسكر العدو ، وهدموا ذلك المعسكر ، وأشعلوا فيه النيران
دون أن تحدث إصابات في قواتها ، لأن الخدم والفتية الذين كانوا بمعسكر
الأعداء كانوا قد لاذوا بالفرار بمجرد اقترابها منهم •

واستطاعت الكونتيس قيادة قواتها العسكرية الى بلدة بريست
Brest حيث استطاعت جمع خمسمائة رجل آخرين • ونجحت في
قيادتهم ثانية الى داخل مدينة هينيبيون في منتصف الليل دون أن يعلم
الفرنسيون بما جرى • وبرغم بطولتها فإن المدينة كانت قد قررت كلها
تقريباً الاستسلام للفرنسيين في اللحظة الحاسمة التي وصلت فيها نجدة
انجليزية تحت قيادة السير ولتر ماني Sir Walter Manny

ويمضي فرواسار في وصف كيف استطاع الانجليز شن هجوم غير متوقع
على برج كبير استخدمه الفرنسيون في السيطرة على أسوار المدينة ،
وقضوا على من فيه من المدافعين ، ودمروه ، ثم استطاعوا اجبار قوة
فرنسية على التراجع كانت قد حاولت مهاجمتهم • وعندما عادوا الى
القلعة ، ذهبت الكونتيس لمقابلتهم ، وقبلت السير ولتر ماني ، وكل
القوات المرافقة له ، واحداً بعد الآخر ، كما تفعل أي سيدة شجاعة من
طبقة النبلاء ، (٤٢) •

ويقدم فرواسار كونتيس أخرى أبدت شهامة من نوع مختلف •
وهذه السيدة هي زوجة إيرل ساليزبوري Salisbury الذي كان
سجيناً في فرنسا ، والتي عملت على طرد الاسكتلنديين الذين هاجموا قلعة
يارك Yark • واضطر الاسكتلنديون الى الانسحاب من المنطقة على أثر
انتشار نبأ قدوم ادوارد الثالث وجيشه • ثم ذهب الملك الى الكونتيس
ليعبر لها عن تحياته • « وذهبت السيدة لمقابلته ، وقد ارتدت أفخر أنواع
الثياب وأغلاها الى الحد الذي لم يتمكن فيه أي شخص من التحول عن النظر
اليها بدهشة واهجاب بسبب سلوكها الراقى ، وجمالها الساحر ، وخلقها
الدمث • وعندما اقتربت من الملك قدمت واجبات التحية له وهي ساجدة •
وشكرته على حضوره لمساعدتها ، ثم رافقته الى القلعة ، لاستضافته •
وتقدم واجبات الاحترام بكل ما في استطاعتها ، وكان الجميع مبتهجا
بالنظر اليها : ولم يستطع الملك أن يحول نظره عنها ، واعتقد أنه لم يسبق

له أن شاهد سيدة في مثل ذلك أنجمال والمرح والحيوية الى حد أن أصابته شرارة من الحب الجارف ، والتي استمرت لفترة من الوقت ، لأنه لم يصدق أن العالم كله به امرأة جديرة بالحب سواها ، .

واصطحبت الكونتيس الملك ادوارد الثالث الى حجرتة التي أعدتها خصيصا له ، ثم ذهبت لترحب بالوفد المرافق للملك ، وبعد أن صدرت الأوامر بأعداد الطعام وتزيين القاعة ، عادت الى ادوارد لتجده غارقا في بحر من الأفكار . وعندما حاولت ايقاظه من حالة الاستغراق في التفكير ، أبلغها أن أمرا قد استحوذ على قلبه لدرجة أنه لم يستطع أن يبعده عن أفكاره منذ أن قدم الى القلعة . وعندما أشارت عليه الكونتيس أن يوقف القلق بشأن الاسكتلنديين ، مفترضة أن ذلك هو السبب لحالة الاكتئاب التي يمر بها ، أفصح الملك لها عن شيء آخر تماما ، وقال لها أن هذا الشيء ليس سوى هيامه بها . وقال لها : « سعادتي متوقفة على ردك » .

فردت عليه الكونتيس : « مولاي العزيز ، لا تسلي نفسك باتخاذى مادة للتسلية ، أو بمحاولة تحريضي على الانحراف الخلقى ، لأنى لا أستطيع أن أصدق أنك تعنى ما قلته أو أن ملكا نبيلًا وشهيمًا مثلك قد يفكر فى تلويث سمعتى و سمعة زوجى ، وهو الفارس الشجاع ، الذى خدمك باخلاص ، والذى يعانى من الأسر الآن ، دفاعا عنك . سيدى ، ان ما قلته لن يضيف انيك أى مجد بكل تأكيد ، لو تكون أفضل مما أنت عليه . ان ما يجول بخاطرك لم يطرق بالى اطلاقا ، وأسأل الله الا يحدث لى مثل هذا الشيء فى المستقبل نحو أى رجل على وجه الأرض ، واذا ما كنت أستحق اللوم ، فان من حقدك أن توجه لى هذا اللوم ، وببيدك معاقبة جسدى بالعدل الكامل » .

وعندئذ تركت الكونتيس الملك ادوارد الثالث ، وهو يعانى من الشعور بالحجل ، وذهبت لمتابعة الاستعدادات النهائية ، ثم عادت الى ادوارد ونعها العديد من الفرسان لتدعوه لحضور طعام الغذاء . وابتان تناول الطعام ، « أكل الملك قليلا جدا ، وكان فى حالة استغراق فى التفكير طوال الوقت ، وملقيا ببصره تجاه الكونتيس كلما سنحت الفرصة له . » وبعد أن قضى الملك ليلة ، وهو فى حالة من القلق ، دعاها فى الصباح وطلب منها أن تقدم له ، اجابة مختلفة « فى المرة القادمة التى يراها فيها . فأجابت الكونتيس : « مولاي العزيز ، فليحفظك الله فى نعمة الصلاح الأبدى ، وليبعد عن قلبك تلك الأفكار البغيضة ، لأنى على استعداد لخدمتك فى الحاضر والمستقبل وعلى الدوام مع الاحتفاظ بشرفى وشرفك » (٤٣) .

غير أن هذا لم يمه المسألة فيحكى فرواسار كيف أن ادوارد نظم سلسلة من الولايم ، ومباريات سباق الفرسان ، بعد ذلك بوقت قصير ،

في لندن ، ودعا اليها اللوردات وأزواجهن في انجلترا وفرنسا . « وطلب ادوارد صراحة من ايرل ساليزبوري أن يحضر زوجته معه » . (كان الايرل قد عاد من الأسر) . « وظهرت زوجات كبار رجال الدولة وفتياتهن في أبهى مظاهر الزينة في الملابس والمظهر ، وفقا لدرجاتهن باستثناء كونتيس ساليزبوري ، التي حضرت مرتدية أبسط أنواع الملابس » (٤٤) . ونظرا لأن المؤرخ لم يكن لديه ما يمكن اضافته الى هذه القصة الرومانسية ، فيمكن للقارىء أن يفترض أن ادوارد قد أدرك الرد في النهاية .

تجنب فرواسار الى حد ما موضوعا مهما ، وهو موضوع الكنيسة والشئون الكنسية بصفة عامة . واذا ما كان قد اعتبر الدين قليل الأهمية ، وهو ما يخالف الواقع ، فما كان للقارىء أن يتوقع منه الكتابة كثيرا عن هذا الموضوع . ويتفق صمته هنا مع هدفه المحدد والمتعلق بالكتابة عن المعارك ، وعن الرجال الشجعان . واهتم فرواسار بالشقاق البابوي الى حد ما ، وذلك بسبب نتائجه السياسية بصفة أساسية ، بيد أنه تجنب تأييد فريق ضد آخر . وهذا ما كان يتوقعه المرء للمرة الثانية ، اذ أدخل فرواسار في حساباته أصدقاءه الارستقراطيين في كل من المعسكرين . وشايح الانجليز وكثير من سكان الأراضى الواطئة البابا الرومانى ، في الوقت الذى أيد فيه الفرنسيون والاسكتلنديون ، والأسبان البابا الموجود في أفينون . واذا ما حاول فرواسار التعاطف مع هذا البابا أو ذاك لعرض نفسه لفقدان بعض أصدقائه .

وعلى الرغم من أن فرواسار لم يوجه كلامه الى موضوع الايمان والدين بشكل مباشر فانه غالبا ما ذكر أن الملوك ، والجيوش ، والشعب قدموا صلواتهم لله وللعدراء . وهذا ما فعله دون جيولدرز الذى نجح فى الحاق هزيمة منكرة بجيش البرابنتيين Brabanters بعدد قليل من فرسانه . وأصر هذا اللوق ، بعد النصر أن يندره أولا ، مفضلا ذلك على الذهاب الفورى الى القبر المقدس ، ومعه ما غنمه من الأسرى . « لقد نذرت سيدتنا في نيمييجون Nimeguen ، عندما غادرت تلك المدينة ، وقمت بتجديد هذا النذر ، عندما بدأنا المعركة ، وامتنالا لهذا النذر ، فاني أمرت أن تعود بابتهاج ومرح الى نيمييجون ، وأن تقدم صلوات الشكر للعدراء المقدسة التى ساعدتنا على تحقيق النصر » . وتم تنفيذ هذا الأمر ، ولم يعترض أحد عليه ، وتوجهوا عند عودتهم الى نيمييجون ، بأقصى سرعة . وبلغت المسافة بين ميدان المعركة ومدينة نيمييجون فرسخين (*) طولاً ، بيد أنهم وصلوا اليها فى وقت قصير .

(*) الفرسخ خمسة كيلومترات أو ثلاثة أميال . - المترجم .

« وعبر سكان المدينة من كل من الجنسين عن فرحة كبرى ، واحتجاج شديد عند سماع هذا النبا السعيد ، وخرج رجال الدين المسيحي في مركب لمقابلة الدوق ، واستقبلوه بالتهليل ؛ ولم يلتفت الدوق ذات اليمين أو ذات الشمال ، وإنما اتجه على الفور ومعه فرسانه الى الكنيسة التي يوجد بها تمثال لسيدتنا ، والتي يؤمن بها ايماناً عميقاً . وعندما دخل مصلى الكنيسة ، جرد نفسه من كل سلاح حتى سترته الضيقة . ووضع بذلته الحربية على المذبح ، اجلالا لسيدتنا ، وقدم صلوات الشكر لانتصاره على أعدائه » (٤٥) .

وفي عصر كان يشار اليه عاطفياً « بعصر الايمان » يقرأ المرء دون اندهاش أن الانجليز كانوا يسيرون في مواكب ثلاث مرات في الأسبوع ، في حالة علمهم أن الفرنسيين على وشك مهاجمة بلادهم ، « ويتضرعون الى الله ، بكل ورع وتقوى ، أن يجنبهم هذا الخطر » . ويبدو أن فرواسار نسب الى الطبقة الارستقراطية الانجليزية ، ايماناً اقل من الايمان الذي أبدته الطبقة العسامة : اذ كتب أن البابا أوربان Urban وعد الناس « بمنحهم العفو والغفران من كل الخطايا » ، مقابل تصديهم للذين يؤيدون البابا الأفيونى Avignese Pope ، بيد أن المؤرخ علق على ذلك بأسلوب خاف : « كان من الضروري أن يكون تحت يد هذا البابا مبلغا كبيرا من المال ، اذا ما رغب أن يضع خططه موضع التنفيذ ، لأنه من المعروف تماما أن النبلاء الانجليز لن يقوموا بعمليات عسكرية ، ما لم تعرض عليهم الأموال مسبقا ، مهما كانت مغريات الغفران . كما أن الجنود لا يقتاتون الغفران ، ولا يبدون اهتماما شديدا به الا في لحظة الموت » (٤٦) .

كان فرواسار مؤرخا للفروسية في المقام الاول فكتب عن الطبقة الارستقراطية ، وعن المارك ، وعن مباريات سباق الفرسان ، وعن الزواج ، والأنشطة الأخرى المتعلقة بتلك الطبقة . ومع ذلك ، فإن حولياته لا تشكل تاريخا رسميا عن الطبقة العليا أو الحاكمة . لقد انتهى ما كان يعتبره جديرا بأن يذكر عن هذه الطبقة . فأغفل ذكر ادارة الاقطاعات ، وبنى القوانين ، بل وحتى صراع السلطة بين التاج والطبقة الارستقراطية . وربما سببت قراءة تلك الموضوعات شيئا من الملل ، أو ربما اعتبروها بالغة الدقة الى الحد الذي يصعب عليهم فيه تبادل الآراء حولها ، وفي الكتابة عن الارستقراطية ، قدم موضوعات عن القصص المعبرة عن الشهامة ، والبطولة ، والشجاعة ، وهي التي كان متأكدا من أنها ستتدخل السرور على القارئ أو المستمع .

ان صفيحات حوليات فرواسار تعج بالحوادث العارضة والقصص التي تدخل البهجة في قلوب معاصريه من بين الطبقة الارستقراطية ،

وجيشه كبير من المولعين بالقصص والمغامرات على عصره ، وكان فرواسار أحد المعجبين المتحمسين لمبادئ الفروسية والشهامة ، وهناك إحدى القصص التي تنضح بالفروسية المثالية بكل معنى الكلمة ، وهي تتحدث عن روبرت بروس Robert Bruce ، ملك اسكتلندا ، وهو على فراش الموت ، المكان الكئيب مهما تكن الظروف ، إلا أنه كان أشد كآبة بالنسبة إليه ، ذلك لأنه لم يتمكن من الوفاء بنذره ، « في الذهاب لمحاربة أعداء المسيح عيسى ، وأعداء الإيمان المسيحي » ، ولولا أن اضطراب الأحوال في مملكته شغلته ، بصفة مستمرة ، عن الذهاب بنفسه إلى الأرض المقدسة ، ونظرا لاستحالة تنفيذ هذا الأمر في ذلك الحين ، وهو على فراش الموت ، لذلك تمنى أن يذهب قلبه إلى هناك ، على الأقل ، « نيابة عن جسده للوفاء بالنذر ، ومن ثم طلب من السير جيمز دوجلاس Sir James Douglas ، أن يأخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة ، « لأنني واثق من شهامتك ، وولائك ، وأنتك إذا ما قمت بها فسيكون التوفيق حليفك » . وعندما قبل دوجلاس المهمة ، زوده الملك بالتعليمات التالية : « أوصيك بنزع قلبي من جسدي بمجرد وفاتي ، وبأن تحنطه بطريقة جيدة ، وأن تأخذ من خزانتي كل ما يكفيك من أموال لانجاز مهمتك ، وما يكفي أولئك الذين تختارهم لصاحبتك في مهمتك ، وأن تودع قلبي في القبر المقدس ، حيث دفن ربنا Our Lord ، نظرا لعدم استطاعة جسدي الذهاب إلى هناك . وأوصيك بعدم التفتير في الانفاق - واصطحب معك ما يتناسب مع منزلتك من الرجال ، والأشياء المناسبة - وفي أي مكان تمر به عليك بالاعلان أنك تحصل قلب روبرت ملك اسكتلندا ، وأنت حملته عبر البحار بناء على أمره ، نظرا لاستحالة ذهاب جسده إلى هناك » .

وبعد موت بروس ببضعة أيام ، أركب السير دوجلاس سفينة في ميناء مونتروز Montrose في مهمته المقدسة ، وأبحر صوب سلويس Sluys . ثم ظل بها اثني عشر يوما منتظارا للرياح المواتية : « أعد مائدة فخمة ، على أنغام الأبواق والطبول كلما لو كان هو ملك اسكتلندا بعينه » . وتكون الوفد المرافق له من فصيلة من الفرسان تحت قيادة فارس له مكانة عالية يتبعه فرسان يعملون تحت لوائه ، وسبعة آخرين من أكثر فرسان اسكتلندا شجاعة ، بالإضافة إلى حرسه الشخصي ، وأهل بيته . أما أدوات المائدة فكانت من الذهب والفضة ، وتتكون من القدور ، والطسوت ، والطواجن والكؤوس ، والزجاجات ، والبراميل ، وأشياء أخرى من هذا القبيل . ويضاف إلى الوفد المرافق ستة وعشرون مرشحا لرتبة فارس من أشجع شباب الأسر الاسكتلندية مكانة على خدمة دوجلاس .

وحظى كل من جاء لزيارة دوجلاس بحفاوة بالغة . اذ كان يقدم اليهم من الخمر نوعين ، ومن التوابل نوعين أيضا - وكان ذلك قاصرا على الطبقات العليا .

علم دوجلاس وهو في طريقه جنوبا من سلويس Sluys أن الفونسو Alphonso ، « ملك أسبانيا » ، كان يشن حربا ضد حاكم غرناطة المسلم ، ومن ثم قرر أن يقطع رحلته ويشارك في حملة صليبية في أسبانيا قبل مواصلة رحلته . وبعد ذلك بوقت قصير جاء اليوم الذي اصطف فيه الجيشان المسيحي والمسلم استعدادا للمعركة . « ولما لاحظ السير دوجلاس أن القوات المتحاربة في كل من الجانبين في حالة استعداد كامل ، وأن ملك أسبانيا في حالة حركة مستمرة ، تصور أنهم على وشك بدأ الهجوم ، وكان دائما يفضل أن يكون من بين الذين يبدأون الهجوم في مثل تلك المواقف ، لذلك انطلق ومعه كل رجاله بخيولهم ، حتى صاروا في وسط جيش ملك غرناطة ، وشنوا هجوما شرسا على المسلمين . وكان على ثقة من مساندة أبناء أسبانيا له ، بيد أن حساباته لم تكن صحيحة ، إذ لم يتساعده أحد من أبناء أسبانيا في ذلك اليوم . فأحاط الأعداء بالفارس الشجاع ورجاله ، وأظهروا أروع أمثلة البطولة ، بيد أن ذلك كان دون جدوى لأن المسلمين قضوا عليهم عن بكرة أبيهم . ان عدم مساعدة أبناء أسبانيا لهم أدت الى تلك الكارثة الفادحة » (٤٧) .

ولا بد أن هذه القصة أدخلت السرور على فرواسار بقدر ما أسعدت قلوب كل مستمعيه ، باستثناء أبناء أسبانيا . أما البنادرة المسلمية التالية فهي نموذج من الكثير في الحوليات التي تضيء الشرف والفخار على كل من السيادة الاقطاعيين والفرسان بل وحتى المرشحين لرتبة الفارس المبتدئين . وكان اللورد جيمز أودلي Lord James Audley أحد النبلاء الشجعان الذين ساعدوا الأمير الأسود في احراز النصر الساحق في معركة بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦ م . فبعد انتهاء المعركة ، « أخذه أربعة من الفرسان المساعدين المخلصين الى منطقة بها شياخ من الشجيرات ، لتهدأ نفسه ، ويلتقط أنفاسه اذ كان في حالة وهن شديد وبه جروح . وخلعوا سلابسه الحربية برقة متناهية ، لكن يتفحصوا جراحه ، وضمدوها ، وحاكوا الجراح الأكثر خطورة . » وعندما عاد الأمير الأسود الى معسكره ، سأل عن أودلي ، وعرف أنه « أصيب بجرح خطير وأنه يرقد على نقالة في مكان قريب جدا . » فأمر الأمير باحضاره اليه اذ كان ذلك ممكنا ، والا فانه سيذهب اليه بنفسه الى الفارس ليثني على بطولته . « وعندما حضر المرافقون أودلي ، امتدحه الأمير الأسود على شجاعته » وقال له ، « لقد تفوقت علينا جميعا ، بما أحرزته من مجد وشهرة ، وأثبتت بسالتك أنك

أشجع فارس ، ثم أعلن الأمير الأسود منح الفارس أودلي دخلا سنويا مقداره خمسمائة مارك كرمز مادي تقديرا له ، مع ضمه الى خدمته . وبعد ذهاب الأمير ، أرسل أودلي في طلب مساعديه الأربعة من الفرسان المساعدين ، والذين قاموا على خدمته وقال : « أيها السادة ، تفضل سيدي الأمير بمنحى خمسمائة مارك كمنحة سنوية ، وهذه الهبة مقابل خدمة جسدية تافهة قدمتها اليه . انكم ترون هنا هؤلاء الفرسان المساعدين ، الذين ساعدوني على الدوام باخلاص تام ، وبخاصة في معركة هذا اليوم . ان ما حققته من مجد كان بفضلهم ، وبفضل بسالتهم ، ولذلك أود أن أكافئهم . لذلك أعطيهم أو أضع تحت أيديهم الخمسمائة مارك التي تفضل سيدي الأمير الأسود بالانعام بها على شخصي ، (٤٨) .

وعندما علم الأمير الأسود بما فعله أودلي اثنى عليه على صنيعه ، وأصر على أن يقبل أودلي ستمائة مارك أخرى شريطة أن يحتفظ بهذا المبلغ الأخير لنفسه (٤٩) .

لم يحدث في أي وقت في تاريخ الحروب أن كانت تقاليد وقواعد اعلان الحرب بل والقتال الفعلي ملتزمة بالسير على نحو مفصل وبالحرص على المحافظة على الشكليات مثلما كان الحال ابان العصور الوسطى العاليه والمتأخرة . فعلى سبيل المثال ، عندما أرسل شارل الخامس ملك فرنسا انذارا باعلان الحرب الى ادوارد الثالث ملك انجلترا على يد خادم خاص مهمته العناية بملابس سيده كان ذلك أمرا مستهجنا لمخالفته للقواعد والأصول المتبعة في مثل ذلك الأمر اذ كان من الواجب عليه أن يعهد بهذه المهمة الى أحد كبار السادة الاقطاعيين ، أو الى أحد الأساقفة ، ويحكي فرواسار أنه ما أن شعر شارل بأنه على استعداد لاستئناف القتال حتى أرسل خادما مهمته العناية بملابس سيده Valet ، يحمل اعلان الحرب الى ادوارد . وعندما دخل الخادم على الملك الانجليزى . ومجلسه الاستشارى ، فحصوا الأوراق . وقاموا بفحص الأوراق جيدا ، وكذلك الشمع والختم ، واتضح لهم أن اعلان الحرب صحيح ولا ريب فيه . ثم أمروا الخادم بالانصراف ، وأخبروه أنه قد أدى مهمته على ما يرام ، وأنه فى استطاعته العودة بأمان ، ولن يصيبه مكروه فى عودته ، وعلى ذلك عاد الى فرنسا بأسرع السبل . . . ومن المهم للقول أن الملك ورجال مجلسه الاستشارى غضبوا بشدة لقيام خادم بتسليمهم اعلان الحرب ، وقالوا أنه ليس من اللائق أن يتم تبليغ وعلان الحرب بين عاهلين كبيرين مثل ملكى انجلترا وفرنسا على يد خادم عادى اذ كان من الواجب أن يتم ذلك على يد أحد الأساقفة ، أو أحد البارونات أو الفرسان الشجعان ، (٥٠) .

وتحرم قواعد الفروسية قتل الفارس الا بالوسائل الجديرة بالاحترام والتقدير ، وبلا ريب ليس عن طريق الطعن من الخلف . ولم يتم فرواسار

وحده بادانة القصة التالية ، وانما أدانها الفرنسيون والانجليز أيضا . وكان الضحية فارس من أهالي ويلز يدعى ايفان Evan ، وكان ايفان هذا يساعد الفرنسيين بتوفير كبير ضد الانجليز في أكواتين ، وكان في ذلك الحين يتولى أمر محاصرة قلعة مورتيان Mortain ، التي كانت تحت قيادة سولدتش دي لا استريد Souldich de L'Estrade وابان فترة الحصار جاء من انجلترا من حدود مقاطعة ويلز فارس مساعد من ويلز يدعى حنا لامب John Lambe ، الذي كان مجردا من الشهامة تقريبا . والواقع أنه أظهر ذلك ، اذ ليس من الشهامة في شيء أن يفعل الانسان ما فعله من ندالة حقيرة .

وذهب حنا لامب الى بواتوه Poitou ، وفاز بالحظوة عند ايفان بالحديث معه بلهجة ويلز ، وأخبره أن « كل المقاطعة (ويلز) تواقه الى وجوده سييدا اقطاعيا عليها . وحققت هذه المعلومة حب ايفان الجم لحنا (لأنه من الطبيعي أن يرغب المرء في العودة الى بلده) الى حد أن عينه ايفان حاجبا خاصا له على الفور . واستطرد فرواسار القول بأنه ثبت أن ما فعله ايفان كان خطأ فادحا .

كان من عادة ايفان الاستيقاظ مبكرا في الصباح ، واتخاذ مجلسه أمام قلعة مورتيان ويتناول مشطه ويمشط شعره ، وهو يستمتع بالمنظر الجميل . « وفي نهاية زيارته الأخيرة التي كانت في الصباح الباكر والجو صحو . ونظرا لعدم تمكنه من النوم ليلا لشدة الحرارة ، فانه ذهب الى المكان الذي اعتاد الذهاب اليه ، وأزرار ملابسه مفكوكة ، وارتدي صدرته وقميصه فحسب ، ووضع عباءته على كتفيه ، وقام حنا لامب بخدمته . وكان الجميع نائما ، ولا يوجد أحد يتولى الحراسة وبعد أن جلس ايفان على جذع شجرة قال لحنا لامب : « اذهب وأحضر مشطى ، لأنه سيجعلنى أشعر بالانتعاش قليلا » . فأجاب حنا ، « على الرحب والسعة يا سيدى » . وفي طريق حنا لاحضار المشط ، أو في طريق عودته لا بد وأن دخل الشيطان جسده ، لأنه أحضر مع المشط خنجرا اسبانيا قصيرا ذا نصل عريض ، لينفذ نواياه الشريرة ، اذ طعن هذا الخنجر في جسد ايفان الذي كان عاريا تقريبا ، وجعل الخنجر يغوص في الجسد حتى خر ايفان صريعا .

وبعد أن انتهى حنا لامب من فعلته ، اتجه الى القلعة ودخلها ، حيث قابل سولدتش Souldich ، وقص عليه ما فعله ، وقال لسولدتش : « سيدى ، لقد أتقذتك من ألد أعدائك » : « ممن ؟ » . « من ايفان الويلزى » ، أجاب حنا . وسأله سولدتش : « بأى الوسائل ؟ » فقال حنا : « بتلك الوسيلة » . ثم قص عليه الظروف التي سمعتموها منذ

قليل . وعندما سمع سولدتش رواية حنا ، نظر اليه بغضب شديد وأجاب : « انك قمت باغتياله بطريقة وحشية ، واسمع منى ، انه لولا أننا استفدنا كثيرا من جراء عملك الدنيء ، لأمرت بدق عنقك ، لأن ما فعلته لا يصح أن يحدث ، إذ أن تلك الفعلة لا تليق بالرجل الشهم ، وأنها تعرض من يفعلها الى اللوم أكثر من الشناء » (٥١) .

تطلب الصراع الاقطاعي تقاليدا تفوق في كثرتها أى عصر آخر . وفي الوقت نفسه ترك هذا الصراع مجالا لوجود القصص الطريفة التي غالبا ما تعمل على تخفيف حدة عملية القتل التي تثير الاشمئزاز مثل القصة التالية . وتصف هذه القصة مبارزة بين شخصين وهي احدى القصص العديدة التي أفرد لها فرواسار مكانا في حولياته . فطلب (فارس) مساعد فرنسي مبارزة أحد الانجليز ليبرهن لمحبوبته على اخلاصه لها . وفي أحد الأيام أثناء حصار قلعة في بريتانى ، خرج هذا الفرنسي من القلعة التي حاصرها الانجليز وتحدى أحد الأعداء أن يقبل مبارزته . وطلب قائلا : هل يوجد فارس بينكم على استعداد أن يجرب معى أحد أعمال الحرب البطولية من أجل حبه لسيدة . اذا كان هناك من بينكم من هو مثل وضعى ، فانى على استعداد تام أن أبارزه ، وأنا فى كامل عدتى الحربية وممتطيا صهوة جوادى ، على أن تكون المبارزة ثلاث مرات باستخدام الرمح ، وثلاث ضربات بفأس المعركة ، وثلاث طعنات بالخنجر . أيها الانجليز ابحثوا عن أى شخص فيما بينكم يعيش قصة حب . ويدعى هذا الفارس المساعد الفرنسي جوفيان ميكائيل **Gauvain Micaille** وذاع عرضه وطلبه بين الانجليز على الفور ، ثم تقدم فارس مساعد ، خبير فى مباريات السيوف يدعى جوشيم كاتور **Joachim Cator** وقال : « سوف أخلصه من العهد الذى أخذه على نفسه ، ودعوه يسرع بالخروج من القلعة » .

وعند ذلك ذهب اللورد فتزولتر **Fitzwalter** قائد الجيش الى الحدود وأبلغ السير جوى لوبافوى **Guy le Baveus** ، « دع فارسك المساعد يخرج : لقد وجد شخصا سيخلصه من قسمه على نحو سار ، وأنا بمنحه كل أمان » .

فشعر جوفيان ميكائيل بابتهاج شديد عند سماع تلك الكلمات ، واستعد فى تسليح نفسه على الفور ، وفقا للارشادات التي أسداها اللوردات اليه ، وارتدى قطعا عديدة من الدروع ، وامتطى صهوة جواد أعدوه له . ثم خرج جوفيان ميكائيل من القلعة فى صحبة اثنين من زملائه ، بالإضافة الى غلمانه الذين حملوا ثلاثة رماح ، وثلاثة فنوس حربية ، وثلاثة خناجر . ونظر الانجليز اليه بامعان وتفرس شديد لأنهم

لم يكونوا يتصورون أن الشخص الفرنسي على استعداد أن يقاتل فردا
لفرد . وأضيف ثلاث ضرباته بسيف . وأخضر جوفيان معه من كل أنواع
الأسلحة ثلاثة خشية أن ينكسر أحدها .

وعندما سمع إيرل بكنجهام عن هذه المباراة ، قرر مشاهدتها ،
وامتطى صهوة جواده ، وضججه إيرل ستافورد Stafford ، وإيرل
ديفونشاير Devonshire ولهذا السبب توقف الهجوم على توري Tury
وتقدم الانجليزى المستعد للمبارزة ، وهو فى كامل زدائه الحربى ،
وممتطيا صهوة جواد قوى . وعندما اتخذ كل منهما موقعه تسلم كل منهما
رمحا وبدأت المباراة ، ولكن لم يصب أحدهما الآخر بسبب شدة نشاط
جواديهما . وقاما بالهجوم الثانى ، بيد أنه انتهى بانطلاق رمحيهما فجأة
وبسرعة مما جعل إيرل بكنجهام يصيح قائلا « حسنا ! حسنا ! » ، حان
وقت الرحيل ، ثم أمر كبير الحراس : « عليك بايقاف هذه المباراة ،
اذ يكفى ما بذلوه هذا اليوم ، وسنجعلهم يكتفون بها عندما يكون لدينا وقتنا
أكثر مما نحن فيه الآن ، وعليك بالمحافظة التامة على حياة الفارس المساعد
الفرنسى محافظتك على فارسنا المساعد ، وعليك بأن تأمر أيا من أتباعك
بإبلاغ هؤلاء الذين بالقلعة الا يلقوا عليه . » لأننا سنأخذنا معنا ليكمل
هذه المباراة وليس كاستير ، وبعدها سترسله اليهم مضحوبا باجراءات أمن
مشددة ، اذا ما قدر له البقاء . »

وتفد القائد تعليمات الايرل وأبلغ الفارس المساعد الفرنسى ، « انك
ستكون معنا فى أمان ، وعندما يجين الوقت المناسب لسيدى ستعود الى
مهنسرك . »

فأجاب جوفيان « اللهم وفقنى وأعنى ! » ثم بعثوا برسول الى القلعة
لابلاغ الفرنسيين بها بما سمع .

« (وبعد ذلك بأيام قلائل) ، وفى عيد البشارة (فى الخامس
والعشرين من مارس) استعد كل من جوفيان ميكائيل وجوشيم كاتور
Joachim Cator ، لانهاء مبارزتهما . وبارز كل منهما الآخر بالحرب
بتحد شديد ، وبذل الفارس الفرنسى جهدا استحق ثناء إيرل بكنجهام ،
بيد أن الفارس المساعد الانجليزى سبب ضربة منخفضة جدا
بحرسته أصابت فخذ غريمه الفرنسى . وغضب إيرل بكنجهام لذلك كثيرا
وكذلك باقى اللوردات ووصفوا المباراة بأنها مشينة بيد أنه تلمس
العذر ، بالإعلان بأن ذلك لم يحدث الا نتيجة لجموح جواد الفارس المساعد
الفرنسى . ثم استعجلا السيف فى تسديد ضربات ثلاث ، وأهلن الايرل
أنهما قد بذلا ما يكفى ، ولا داع للاستمرار لأنه لاحظ أن الفارس المساعد

الفرنسي وكان يمزف بغزارة : ووافق اللوردات الآخرون الرأي وتمت عملية
تعمير جرح جوزفان بعد أن خلعوا عنه الرداء الحربي ثم منحه الايزل
مئة فرنك وأرسله الى قوته الفرنسية في أمان تام ، معلنا أنه راض تماما
عما بذله من جهد « (٥٢) » .

وشابهت المطاعنة بين فردين مباريات السيوف الجماعية على نحو
مصغر . في أواخر القرن الرابع عشر توقفت تلك المباريات التي كانت تمهد
للحرب و « تدهورت » حتى صارت لا تزيد عن مهرجان الا قليلا .
ويستطيع المرء أن يستخلص الكثير من وصف فرواسار للمبارزة بين
الفرسان التي عقدت في سميثفيلد Smithfield سنة ١٣٩٠ م ، التي
نظمها ريتشارد الثاني للاحتفال بدخول الملكة ايزابيلا فرنسا . فكتب
يقول : « وأقيمت المباريات الضخمة ، والأعياد الفخمة ، في مدينة
لندن ، وحضرها ستون من الفرسان وستون من السيدات من طبقة
النبلاء ، وتزين الجميع بأبهى وسائل الزينة والملابس وتبارز الفرسان
لمدة يومين ، وأعنى بذلك يوم الأحد بعد عيد القديس ميكايل ، كبير
الملائكة (٢٩ سبتمبر) ، ويوم الاثنين الذي تلاه ، سنة ١٣٩٠ م . وبدأ
الفرسان الستون ، ومعهم زوجاتهم في السير في موكب عبر الشوارع من
بورج لندن الى ميدان سميثفيلد . وكان على الفرسان الانتظار يوم الأحد
لاستقبال الفرسان الغرباء الذين لديهم الرغبة في المبارزة ، وأطلق على
احتفال يوم الأحد اسم « عيد المبارزين » وحدثت الاحتفالات نفسها يوم
الاثنين ، وكان الفرسان الستون على استعداد لمبارزة كل القادمين بلطف ،
ومستخدمين رماحا غير حادة ويمنح أمير الفرسان من بين المتنافسين
تاجا ذهبيا نفيسا ، ويمنح الباقون ميدالية ذهبية قيمة لكل منهم ، بناء
على قران السيدات اللاتي يحضرن في صحبة ملكة انجلترا ، وكبار
المستأجرين لأراضى التاج الذين حضروا كمتفرجين واستمرت المباريات
يوم الثلاثاء بين الفرسان المساعدين مع من ينافسهم من زملائهم . على أن
يحصل المتنافسون على جائزة كانت جوادا سريعا مسرجا ، وكامل العدة
أما أتباع حلبة المبارزة ، فكان يحصل الواحد منهم على مدفع صغير وتتم
عملية الاحتفال ، بعد ارسال المبلغين الذين يعلنون عنها ، في كل أنحاء
بريطانيا ، واسكتلندا ، وهانوت Hainaut ، وألمانيا ، وفلاندرز ،
وفرنسا ، وكان المجلس الملكي الاستشاري يحدد الأماكن التي سيذهب
اليها المبلغون ، قبل الاعداد بوقت كاف ، ويعلنون عنها في معظم البلاد
- واستعد كثير من الفرسان ، والفرسان المساعدين لحضور الاحتفال :
بعضهم لمعرفة طباع الانجليز والبعض الآخر للمشاركة في المباريات . وفي
الاحتفال الذي وصل خبره الى هيانوت ، صمم السير وليم دي هيانوت
كونت دي أوستريفانت Ostrevant والذي كان شابا شجاعا في ذلك

الحين ، ومفرما بالمبارزة ، أن يحضر ويتشرف بالتعرف على قريبه ، الملك ريتشارد وباقي أفراد أسرته ، الذين لم يرههم من قبل . ولذلك طلب من كثير من الفرسان ، والفرسان المساعدين أن يصحبوه .

« ولم يرض والده كونت هيانوت على ذهابه الى انجلترا ، وحاول أن يثنيه عن الذهاب بالاقناع خشية أن يؤثر عليه الانجليز ، ويعملوا على التحلل من الارتباطات الفرنسية ، بينما أصر الشاب على الذهاب . وفي الوقت المحدد كان موجودا في سميثفيلد ، في يوم الأحد حوالي الثالثة بعد الظهر . وتحرك الاستعراض من برج لندن وتقدم ستون فرسا من النوع السريع ، وعليها السروج المزركشة خصيصا للاستعراض ، وعلى كل فرس منها فارس شرف مساعد ، وسارت تلك الخيول الهويينا ، وبخطنوات موزونة ، ومن بعضهم ظهرت ستون سيدة من الطبقة الأرستقراطية يمتطين خيولا صغيرة . وقد ارتدين أفخر وأعلى الثياب ، وسارت السيدات واحدة خلف الأخرى ، وخلف كل سيدة يتبعها فارس في كامل غدته الحربية ، وجاب هذا الموكب شوارع لندن ، في صحبة أعداد من المغنين ، وحملة الأبواق حتى ميدان سميثفيلد . ووصلت ملكة انجلترا ومعها الوصيفات ، وفتيات الطبقة العليا ، وجلسن في غرفات مزينة على أكمل وجه . »

وشهد اليوم الأول للمباراة فرسانا من الأجانب تبارزوا حتى « أجبرهم الليل على التوقف » . وبعده ذهب كثير من الضيوف الى قصر أسقف لندن قرب كنيسة القديس بولس حيث أقامت هناك الملكة ، وتناولوا جميعا ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وفي اليوم التالي وصلت المباريات الى ذروتها .

« وفي الصباح التالي ، يوم الاثنين يمكنك أن ترى الفرسان المساعدين وغلمان الفرسان يعملون بهمة ونشاط ، في مناطق مختلفة من لندن ، يلعبون الدروع ، ويعنون الأسلحة ، والخيول لساداتهم الذين سيشاركون في المقارعات بالسيوف اظهارة للبراعة والشجاعة ، وطمعا في الحصول على جائزة . ودخل الملك ريتشارد ميدان سميثفيلد بعظمة وجلال بعد الظهر ، وفي صحبته الأدواق ، واللوزدات ، والفرسان لأنه سيدهم الاقطاعي الأعلى . واتخذت الملكة مكانها الذي كانت به في اليوم السابق في غرف أعدت خصيصا لذلك . . . »

« وبدأت المباراة في ذلك الحين ، وبذل كل فرد أقصى جهده ليزبز أقرانه : وتبارى الكثيرون دون استخدام خيولهم ، وفقيد الكثيرون خوزهم . واستمرت المقارعات بالسيوف بشجاعة ومثابرة كبرى حتى انتهت بحلول الظلام . ثم ذهب الجميع الى غرفهم أو مساكنهم وعندما حانت

ساعة تناول طعام العشاء ذهب اللوردات وزوجاتهم لتناولهن . وكان طعاما فاخرا ومعدا على أرقى مستوى . أما الجائزة الأولى فقد حصل عليها كونت أوستريفانت بناء على قرار السيدات واللوردات والمنادين اذ تفوق هذا الكونت على كل من تبارى في ذلك اليوم : أما الأراضي المستأجرة التابعة للتاج فقد أعطيت لفارس انجليزى شجاع يدعى السير هوج سبنسر Sir Hugh Spenser

وفي يوم الأربعاء التالى أقيمت مباريات أكثر وولائم أكثر فى الوقت الذى « استمرت فيه حفلات الرقص حتى مطلع الفجر » . وخصصت باقى أيام الأسبوع للتسلية ، والمتعة والمرح ، وكان آخرها الأعمال الرائعة التى قدمها الملك فى وندسور Windsor ، « وهى قلعة ضخمة ، متينة البناء ، ومزينة على أكمل وجه ، وتقع على نهر التيمز Thames وعلى بعد عشرين ميلا من لندن » . وبلغت تلك الاحتفالات الختامية ذروتها عندما عرض الملك ريتشارد على كونت أوستريفانت وسام العضوية فى فرسان ربطة الساق البريطانى The Knights of the Garter وكان قبوله لهذه العضوية ولهذا الشرف أثره على الفرسان الفرنسيين الحاضرين ، اذ جعلهم يتهامسون قائلين : « ان كونت أوستريفانت يظهر بلا أدنى ريب ان قلبه أكثر تعلقا بانجلترا عن فرنسا » .

ونظرا لاهتمام فرسان ربطة الساق بالحرب الاقطاعية ، فإن حولياته قدمت اسهامات مهمة فى معرفتنا عن فن الحرب فى أواخر القرن الرابع عشر ، وهنا نجد وصفه لجيش ادوارد الثالث عند تقدمه صوب باريس سنة ١٣٥٩ م . « يجب أن أبلغك أن ملك انجلترا ، وكبار الاقطاعيين التابعين له ، أحضروا معهم عربات محملة بالخيام الصغيرة ، والخيام الكبيرة ، ومطحنات الحبوب ، والأدوات اللازمة للحداثة لصناعة حدوات لحيولهم ، وكل شئ من هذا القبيل هم فى حاجة اليه . ونتيجة لذلك كان هناك ما يزيد على ستة آلاف عربة ، لكل واحدة منها أربعة من الخيول الجيدة والقوية ، نقلت جميعها من انجلترا . وعلى تلك العربات كثير من الأوعية والأنية والقوارب الصغيرة ، المصنوعة بطرق مدهشة من الجلد المدبوغ ويسخ القارب منها ثلاثة رجال تمكنهم من صيد الأسماك من أى بحيرة أو بركة ، مهما كان حجمها : وكانت تلك القوارب مهمة بالنسبة للوردات والبارونات ابان فترة الصوم الكبير ، بيد أن طبقة العامة استفادوا من الوسائل التى كانت متاحة لهم . وبالإضافة الى ذلك أحضر الملك ثلاثين من البازدارية التابعين له ، على ظهور الخيل ، ويحضرون من طيور البازستين زوجا ومثلهم من كلاب صيد الثعالب ، وعدد كبير من كلاب أخرى سريعة العدو ، وذلك لكى يستمتع يوميا بصيد الطيور والثعالب .

بورا أو بصيد السمك بحرا . وأحضر الكثيرون من اللوردات طيور الباز
التابعة لهم ، وكلاب الصيد أيضا .

« وظل جيشهم منقسما إلى أقسام ثلاثة ، ولازم كل فرد القسم
التابع له : وهناك طليعة لكل قسم من الأقسام الثلاثة ، وتبعد قيادة كل
قسم عن الأخرى مسافة فرسخ واحد . وكان الملك إدوارد الثالث على رأس
القسم الأكبر . وظل هذا التقسيم قائما منذ تحركهم من كاليه Calais
حتى وصولهم أمام بلدة شارتر Chartres » ، (٥٣) .

ويتناسب الوصف السابق مع الطريقة التي كان يتحرك بها جيش
مزود بالامكانيات المناسبة في عصر فرواسار . أما الشعب الاسكتلندي
فانه لم ينعم على الاطلاق بأسباب الرفاهية والترف نظرا لفقر أراضي
اسكتلندا ، وعادة الاقتصاد في الانفاق التي فرضت نفسها على الشعب :
« يتميز الاسكتلنديون بالاقدام ، وشدة المقدرة على التحمل والتمرس على
القتال ، فعندما يشنون غزواتهم على انجلترا كانوا يسرون ما بين عشرين
الى أربعة وعشرين فرسخا دون توقف ليلا ونهارا ، وهم على ظهور
خيولهم ، باستثناء خدام المعسكر الذين كانوا من المشاة . وكان الفرسان ،
والفرسان المساعدون يركبون خيولا كستنائية كبيرة ، ويركب باقي الجند
خيولا صغيرة قوية . ولم يحضروا معهم عربات بسبب الجبال التي يتحتم
عليهم اجتيازها ، في نورثمبرلاند ، أو يحملون معهم أي مؤن أو امدادات
من الخبز أو النبيذ ، اذ كان من عاداتهم في وقت الحرب ، الاعتدال في
الطعام ، وكانوا يعيشون فترة طويلة على اللحم المسلوق جزئيا مع عدم
تناول الخبز ، ويشربون ماء النهر دون حاجة الى الخمر . لذلك لم يكن
هناك داع لاحتفاظهم بالقدر أو أوعية اعداد الطعام ، لأنهم كانوا يسلقون
لحوم الماشية جزئيا في جلودها بعد نزع تلك الجلود ، ولم يحملوا معهم
ماشية لتأكدهم من الحصول على اعداد وافرة منها في البلاد التي يغزونها .
وحمل كل جندي منهم طبقا معدنيا عريضا تحت طرف سرج الحصان
وحقيبة صغيرة بها طحين الشوفان خلف السرج ، وعندما يكونون قد
أكلوا ما فيه الكفاية من اللحم المسلوق جزئيا ، وبدت معداتهم متعبدة
وخاوية ، وضع كل فرد منهم هذا الطبق على النار وخلط طحين الشوفان
بالماء ، وعندما يسخن الطبق يضع الفرد قليلا من العجينة عليه ، صانعا
بذلك كعكة رقيقة تشبه الشريحة للهشة أو البسكويت ، ويأكلونها لتدفئة
معداتهم . وليس من المستغرب أنهم يؤدون مسيرة يوم أطول من الجنود
الآخرين » ، (٥٤) .

تألفت الحرب في القرن الرابع عشر عادة من معارك عنيفة وقصيرة
الأمم يسبقها أو يتلوها الاستيلاء على مدن أو قلاع . بل أنه عندما بدأ

جيشن فتخيم في التحرك لا يتعدى ظموخه أكثر من الاستيلاء على الغنيمة ،
وسلب ونهب سكان المناطق الريفية . ذلك كان هدف ادوارد الثالث عندما
ذهب الى اقليم نورماندى في يوليو سنة ١٢٤٦ م . حيث قام بسلب ونهب
مدينة كاين Caen ، ثم قاد جيشه الى السين Seine ، عندما علم باقتراب
الفرنسيين . وحاول ادوارد تجنب مواجهتهم بقدر المستطاع ، نظرا لأن
قواته لا تزيد عن ثمن تعداد قوات ملك فرنسا . وأخيرا تراجع الى
كريسى Cracy حيث اختار « موقعا أفضل » الى الشمال من المدينة ،
وقسم قواته الى ثلاثة أقسام ، وانتظر الهجوم . ووصل الفرنسيون في
أواخر النهار ، واستمع فيليب ملك فرنسا الى نصيحة مستشاريه ،
وأصدر أوامره بالانتظار حتى الصباح نظرا لأنهم كانوا مرهقين من جراء
المسافات الطويلة التي قطعوها . بيد أن الأوامر التي أصدرها الملك بهذا
المعنى اما أنها لم تصل الى مؤخرة الجيش أو أنهم لم يستطيعوا إيقاف
حركتهم الى الأمام » .

« وتوقفت القوات الأمامية بيد أن القوات من خلفهم قالوا أنهم لم
يستطيعوا التوقف ، حتى صاروا متقدمين مع القوات الأمامية . وعندما
أدركت القوات الأمامية أن القوات الخلفية تضغط عليهم ، اندفعوا الى
الأمام ، ولم يستطع الملك أو قادته إيقافهم ، وتحركوا الى الأمام دون أى
أوامر ، حتى أصبحوا على مرمى بصر أعدائهم . وما أن شاهدت القوات
الأمامية العدو حتى تراجعت على الفور ، فى حالة من الفوضى الشديدة ،
التي أدت الى إصابة مؤخرة الجيش بحالة من الذعر لاعتقادهم أن القوات
الأمامية قد اشتبكت فى القتال مع العدو . وما زالت الفرصة أمامهم كافية
للتقدم الى الأمام ، لو أنهم كانت لديهم الرغبة ، وعلى أية حال فقد تقدم
البعض فى الوقت الذى تجنب ذلك الآخرون » .

« وكانت كل الطرق المؤدية بين أبيفيل Abbeville وكريسى مزدحمة
بالجماهير التي استلقت سيوفها ما أن أصبحت على مدى ثلاثة فراسخ
من أعدائهم ، وهم يهتفون بأعلى أصواتهم ، « أقتل ، أقتل » ، ومعهم
كثير من كبار السادة الإقطاعيين الذين كانوا تواقين الى اظهار شجاعتهم .
ولا يستطيع انسان أن يتصور ، أو يصف بدقة حالة الاضطراب فى ذلك
اليوم ما لم يكن موجودا هناك ، وبخاصة معالجة الفرنسيين للموقف
بطريقة سيئة وحالة الارتباك التي سيطرت عليهم ، برغم أن قواتهم كانت
كثيرة العدد » .

« وعندما لمح فيليب الانجليز « بدأ دمه يشور غضبا » وصاح على
قاداته ، « أصدروا الأوامر الى أهالى جنوه بالتقدم ، وابدأوا المعركة باسم
الله ، وببركة القديس دينيس St. Denis » . فقد كان هناك خمسة

عشر ألفا من الرامين بالقوس والنشاب من أهالي جنوه ، بيد أنهم وصلوا إلى حد الإعياء التام لأنهم قطعوا ستة فراسخ في ذلك اليوم سيرا على الأقدام ، وهم حاملون أسلحتهم ، ومعهم أقواسهم ونشابهم و . . . »

« وسقطت أمطار غزيرة في ذلك الحين ، مصحوبة بالرعد ، وكسوف للشمس مثير للرهبة جدا ، وقبل سقوط تلك الأمطار حامت أسراب عديدة من الغربان ، فوق تلك القوات محدثة ضجيجا مزعجا . وبعد ذلك بوقت قصير تحسن الجو ، وسطعت الشمس من جديد ، بيد أنها كانت في مواجهة الفرنسيين ، ومن خلف الانجليز » .

« وعندما كان أهالي جنوه في حالة من النظام إلى حد ما ، واقتربوا من الانجليز ، وأطلقوا صيحة عالية بهدف إثارة الرعب عند الانجليز ، فإن الآخرين ظلوا ساكنين ، ويبدو أنهم لم يعثوا بها . ثم أطلق أهالي جنوه صيحة أخرى . وتقدموا قليلا ، بيد أن الانجليز لم يتحركوا على الإطلاق . ثم أطلقوا الصيحة الثالثة ، وأيديهم على القوس والنشاب ، وبدأوا في الإطلاق . عند ذلك تقدم الرماة بالسهم من الانجليز خطوة إلى الأمام ، وأطلقوا سهامهم بقوة وسرعة جعلت الأمر يبدو وكأن السماء تمطر جليدا » .

« وعندما عانى الجنود المرتزقة ، من أهالي جنوه ، من شدة السهم التي اخترقت أسلحتهم ورؤوسهم ، ونفذت خلال دروعهم قطع بعضهم أسلاك وأوتار أقواسهم ونشابهم ، وألقى الآخرون بأسلحتهم أرضا ، وانقلبوا على أعقابهم ، وانسحبوا مدحورين تماما . وكان لدى الفرنسيين عدد كبير من الفرسان ، لمساندة المقاتلين من أهالي جنوه » .

« وعندما شاهدهم الملك الفرنسي يتقهقرون على هذا النحو صباح قائلا ، « أقتلوا هؤلاء الأوغاد ، لأنهم يعرقلوا مسارتنا ، دون أي سبب » . فقام الفرنسيون من حولهم بأعمال القتل في أولئك الفارين قدر استطاعتهم . واستمر الانجليز في إطلاق سهامهم بنشاط وقوة : وسقطت بعض سهامهم بين الفرسان الفرنسيين ، الذين كانوا مجهزين بالأسلحة على أعلى مستوى ، وسقط العديد منهم ما بين قتيل وجريح . وتساقطوا بين أهالي جنوه ، وأصبح من المستحيل على الفرنسيين لم شعشعهم من شدة حالة الارتباك التي وصلوا إليها . وكان هناك بعض من أهالي ويلز ، وأهالي كورنويل من المشاة الذين سلحوا أنفسهم بالسكاكين الطويلة ، وتقدم هؤلاء بين القوات ، بعد أن أفسح لهم الرامون بالسهم الطريق ، وانقضوا على الفرنسيين على حين غرة ، وقتلوا العديد من الأيرلات ، والبارونات ، والفرسان ، والفرسان المساعدين ، مما أثار غضب ملك انجلترا كثيرا فيما بعد » (٥٥) .

على أن ما أثار غضب ادوارد كان التفكير في كل أموال الفدية التي ضاعت عليه نتيجة لمقتل كبار الاقطاعيين والفرسان . وكان من الممكن أن يحصل ادوارد على أموال تكفي لتغطية نفقات الحملة كلها . ويوضح الوصف التالي عن أسر الملك حنا الطيب ملك فرنسا (١٣٥١ - ١٣٦٤ م) .

في معركة بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦م الأهمية الكبرى التي يحرص عليها الذين يأسرون للحصول على فدية الفرسان المعادين ويعرض الموقف الأمير الأسود ، وهو في حالة اجهاد شديد ، لكنه كان مبتهجا بالنصر الساحق ، ومستلقيا تحت علمه المرفوع على شجرة عالية ليتجمع حولها رجاله الذين انتشروا هنا وهناك ابان المعركة . وعندما حضر اليه قاداته سألهم واحدا بعد الآخر عن أي أبناء تتعلق بالملك حنا الطيب ، وعندما لم يصل إلى معلومات أكيدة ، أرسل اثنين من كبار رجاله لمعرفة ما في استطاعتهم الوصول اليه « وامتطى البارونان صهوة جواديهما ، وتركوا الأمير الأسود ، وسارعا تجاه تل صغير ، حتى يتمكنوا من رؤية ما حولهما : ومن ذلك المكان شاهدا مجموعة كبيرة من الفرسان وقد نزلوا من فوق خيولهم ، وبدأوا يتقدمون صوبهما ببطء شديد . وكان ملك فرنسا يقف وسطهم ، وفي خطر شديد ذلك لاستطاعة الانجليز ، والجاسكون Gascons أخذه بالقوة من السير دينيس دي موربيك Denys de Morbeque وكانوا يتنازعون على تحديد من له أحقية الاحتفاظ به الذي صاح فيه أقواهم بأعلى صوته ، « انى أنا الذى أسرته » ، فأجاب الآخرون « لا ، لا » ، اننا نحن الذين أسرناه » فقال لهم الملك محاولا تجنب الخطر المحقق به : « أيها السادة ، أيها السادة ، أرجوكم معاملتى ، ومعاملة ابنى معاملة طيبة لأن الأمير أحد أقاربي ، ولا داعى لهذه الجلبة والعراك من أجل أسرى ، فانا سيد اقطاعى كبير ، وفى استطاعتى تحويلكم جميعا الى أثرياء بالقدر الذى يكفيكم » . وكانت تلك الكلمات وغيرها التى صدرت عن الملك عاملا على تهدئتهم بعض الشيء ، بيد أن المنازعات ظلت تتجدد ، ولم يتحركوا خطوة واحدة الى الأمام دون مشاغبات . وعندما شاهد البارونان هذا الحشد من رجالهما ، نزلا من التل الصغير ، واتطلقا بجواديهما بسرعة صوبهم . وعند وصولهم عرفا حقيقة الأمر ، وهى أن ملك فرنسا وقع أسيرا ، وأن ما يزيد على عشرة من الفرسان ، والفرسان المساعدين يتنازعون بشأن أحقية كل منهم فى الحصول على نصيب من الفدية . ثم اندفع البارونان بين المختلفين ، وأمرهم بالتنحى جانبا وأمرهم باسم الأمير ، والتهديد بالتعرض لعقوبة القتل الفورى ، أن يظل كل فرد منهم بعيدا ، والا يقترب أحدهم قبل أن يصدر اليه أمر بذلك ، فترأجع الجميع بعيدا عن الملك ، ونزل البارونان من فوق جواديهما ، وتقدما نحو الملك فى أسنى مظاهر الاحترام

والتبجيل ، واصطحبناه في أمن وسلام الى أمير ويلز ، (٥٦) .

ساعدت إمكانية الحصول على مبالغ هائلة كفدية ، على الحد من اراقة الدماء ، ابان عصر الحروب الاقطاعية . وعلاوة على ذلك ، فقد ساعد استعداد الجيش الذي يحاصر أية مدينة لقبول استسلامها ، واستسلام حاميتها ، عندما يفقد هؤلاء الذين وقعوا تحت الحصار الأمل في وصول امدادات ، على الحد من الطابع الدموي للحرب في ذلك الحين . فقد اضطرت قلعة لارويل . La Reole إحدى القلاع الفرنسية الأخيرة في اقليم جاسكوني Gascony الى الاستسلام للانجليز ابان السنوات الأولى من الحرب . وهنا يقدم فرواسار الوصف التالي لاستسلام القلعة الفرنسية « لقد ضرب الانجليز المحصار حول قلعة لارويل La Reole واستمر ذلك الحصار أكثر من ثلاثة أسابيع ، وشيدوا برجين ضخمين من قطع ضخمة من الأخشاب الطويلة وكان ارتفاع كل برج ثلاثة طوابق ، وأقيم كل طابق على عجلات ، وغطى كل طابق بالجلد لحماية الأبراج من النار والسهم : وتجمع في كل طابق مائة من الرماة بالسهم الانجليز ويفضل عزم الرجال تم تحريك هذين البرجين بالقرب من أسوار المدينة ، ورددوا خنادق الدفاع عن المدينة ابان تقدمهم ، وتمكنوا من المرور فوقها . وبدأ الجنود الانجليز باطلاق سهامهم بسرعة ودقة ، لدرجة أنه لم يجرؤ أحد من الذين بالاستحكامات الفرنسية على الظهور الا اذا كان مسلحاً تسليحاً جيداً ، أو يحمل ترساً . ونجح مائة من الجنود الانجليز الذين كانوا في البرجين في أحداث فجوة بسور المدينة ، وانزاع الأحجار باستخدام المعاول والقضبان الحديدية وما أن بلغ إيرل ديرباي earl of Derby الموقف حتى أرسل كلا من السير ولتر ماني Sir Walter Manny ولورد ستافورد Lord Stafford اللذان وجدا سكان المدينة على استعداد للاستسلام ، شريطة تأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم . »

وقبل الانجليز شروط التسليم ، بيد أن السير أجوس دي بان Sir Agosde Bans قائد القلعة الفرنسية فضل الانسحاب الى داخل القلعة ومعه جنوده ، حيث « الكميات الهائلة من النيبذ والمؤن الأخرى » ، التي مكنتهم من مواصلة النضال تم تحرك الانجليز تجاه القلعة .

« ونصب الانجليز كل معداتهم الحربية تجاه القلعة ، بيد أنهم أحدثوا القليل من الأضرار لأن القلعة كانت عالية ، ومقامة في منطقة صخرية . وتلك القلعة بناها المسلمون منذ زمن بعيد . ووضعوا لها أساسات قوية جداً . وهي على قدر رائع من الصنع والتشييد لدرجة أنه لا يمكن مقارنتها بأى من المباني التي تشيد في أيامنا هذه . وعندما وجد الايرل أن آلاته الحربية لا مفعول لها ، أمر العاملين عليها بالكف

عن العمل ، وأمر الحفارين في جيشه بحفر خنادق الدفاع عن القلعة حتى يتمكنوا من المرور عن طريقهما ومع ذلك فان هذا الأمر لم يتم على وجه السرعة .

وبعد مرور أكثر من أحد عشر أسبوعا أحرز الحفارون بعض التقدم وحفروا تحت كل الأسوار ، باستثناء أسوار البرج المحصن ، « لأنه كان مبنيا على صخرة صلبة للغاية » . وعندما أدرك سكان المدينة خطورة موقفهم ، أقنعوا السير أجوس بمفاتيح الانجليز بشأن الاستسلام ، وبالفعل أخذ بمشورتهم ، بيد أن الانجليز رفضوا أية شروط ما عدا الاستسلام غير المشروط . ومع ذلك فان المفاوضات بين السير أجوس إيرل ديرباي تمخضت في نهاية الأمر عن انهاء الموقف المتأزم ، وسمح الانجليز للفرنسيين بمغادرة القلعة ومعهم أسلحتهم وخيولهم فحسب . « وسلاح الفرنسيون أنفسهم ووضعوا الاغطية المزركشة على سروج خيولهم ، التي لم يبق منها سوى ستة . واشترى بعضهم الخيول من الانجليز الذين تقاضوا منهم مبالغ باهظة ثمنها لها » .

ولم يحدث طوال تاريخ الحروب أن كان القتال شخصا وفرديا مثلما حدث في عصر الاقطاع . وتقتضى قواعد الحرب أن يكون الصراع الحربي بين اثنين من المتصارعين ، ولا يحدث أن يكون اثنان ضد واحد . وعلى سبيل المثال ، ما أن يتمكن أحد الحصنين من أن يضع غريمه تحت رحمته ، حتى يصبح الأخير أو هذا الغريم أسيره الجدير بالاحترام والتبجيل . وعمل تزويد جندي المشاة بالقوس والنشاب ، والقوس الطويل ، والمدية على تغيير هذه الحالة المقبولة ، وتحول الحرب تدريجيا حتى صارت أكثر وحشية ، على نحو يمكن ادراكه . وحتى عهد فرواسار ظل الشعور السائد التقليدي قائما ، وبخاصة بين الفرسان الذين كانوا يدخلون المعارك بحماس يقارب حماس فريق كرة القدم في عصرنا هذا . ويظهر من وصف فرواسار استعداد الجيش الانجليزي ، والجيش الفرنسي للمعركة قرب أيوراي Auray في اقليم بريتانى Brittany سنة ١٣٦٤ م . وأن كل المقاتلين في الجيشين كانوا يتألقون في ملابسهم الزاهية الألوان ، ويتلهفون في نشوة للقاء الخصوم لاطهار جلدتهم ، وقدرة تحملهم مصاعب القتال ، وهو الأمر الذي قد يختلف قليلا اذا ما حاول كاتب في عصرنا هذا أن يصف فريقى كرة القدم اللذين يستعدان للمباراة في يوم السبت بعد الظهر . ونما الى علم الانجليز أن اللورد شارل دي بلواه Charles de Blois يتقدم ، « ومعه قوات من المقاتلين المدربين أحسن تدريب ومزودين بالمعدات الضخمة ، وعلى أعلى قدر من الضبط والربط شهدته فرنسا » .

« وتلقى الانجليز نبأ قدوم الفرنسيين بابتهاج شديد ذلك لأنهم كانوا ينتظرون لقاء الفرنسيين بكل تلهف . لذلك قامت القوات الانجليزية بإعداد أسلحتها للقتال على الفور ، وقامت تلك القوات بإعادة صقل وتلميع رماحها ، وخنجرها ، وسيوفها ، وكل أنواع الأسلحة التي توقع الانجليز ضرورة استخدامها . » .

« ومرت تلك الليلة في هدوء وفي الصباح ، الذي كان يوم السبت ، انطلق الانجليز والبريتون Bretons من مواقعهم ، وتقدموا في ترتيب قتالي في مرجح وابتهاج ، الى مؤخرة قلعة أيوراي Auray ، حيث توقفوا ، واختاروا موقعا ، وأعلنوا أنهم سينتظرون قدوم أعدائهم » .

« وظهر اللورد شارل وجيشه بعد الفجر مباشرة . أما القوات . . فكانت في حالة انضباط شديد ، واصطف الجند في أروغ الأوضاع التي يمكن أن يراها الانسان أو يتصورها . وسار جنود شارل وكأنهم بنيان مرصوص اذ لا يمكن للمرء أن يلقي بكرة للتنس بينهم ، الا اذا اصطدمت بأسنة رماحهم ، والتي حملوها بقوة وثبات ، واستمتع الفرنسيون بالنظر اليهم . » .

« وفي يوم السبت الموافق الثامن من أكتوبر سنة ١٣٦٤ م ، اصطف الجيشان وجها لوجه في سهل منبسط بالقرب من أوراي Auray في اقليم بريتانى . ومن الواجب على القول أنه كان منظرا جميلا يستحق المشاهدة ، وأن يفكر المرء فيه مليا ، اذ كانت الأعلام التي يحملها المشاة ، والأعلام الطويلة المثلثة المعلقة على الرماح والتي حملها الفرنسيون ترفرف جميعها بين الاستعدادات الرائعة في كل من الجانبين » (٥٧) .

وإذا كان قيام فرواسار بوصف هذا الجانب عن الحرب أمرا ممتعا له الا أنه لم يغب عن باله ما له من جوانب تفتقر الى المتعة ، بل ويصعب على النفس تحملها . وفيما يلي يقدم فرواسار وصفه للاستعدادات الضخمة التي قام بها الفرنسيون سنة ١٣٨٦ م لمشروع غزوهم لانجلترا . « حشدت فرنسا قوات حربية تفوق مثيلتها في أى وقت مضى . وفرضت ضرائب باهظة على كل المدن ، والمناطق الريفية ، وأجرت استعدادات في البر والبحر ، وكل ذلك لم تشهده فرنسا منذ قرن مضى . وانقضى الصيف كله ، وحتى شهر سبتمبر ، في طحن الغلال وفي اعداد الخبز الجاف .

وأجبرت الدولة الكثيرين من أغنياء فرنسا على دفع ثلث أو ربع ثروة كل منهم لبناء سفن مناسبة ، وفرضت ضرائب على من دونهم من أجل الانفاق على المحاربين .

« ولم تترك سفينة مهما كان حجمها من ميناء سفيل **Seville** الى بروسيا **Prussia** الا ووضعت فرنسا يدها عليها ، وتم ذلك بناء على أمر ملك فرنسا سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة . ووصلت المؤن من كل الجهات . وأرسل اقليم فلاندرز كميات كبيرة جدا من النبيذ ، واللحوم المقددة ، والشوفان ، والأعلاف ، والبصل ، وعصير الفاكهة ، والخبز الجاف ، والطحين ، والزبد ، ومسحوق صفار البيض المحفوظ في براميل ، وكل الأشياء الضرورية الأخرى . » .

« وبعث ملك فرنسا الرسائل الى اللوردات والفرسان في الأماكن النائبة يطلب منهم مصاحبته في هذه الحملة . » .

« ولم يحدث منذ أن خلق الله العالم أن تم حشد مثل هذا العدد الضخم من السفن التي ملأت موانئ سلويز **Sluys** وبلانكينبورج **Blanchenburgh** لأن عددهم في شهر سبتمبر في ذلك العام بلغ ألفا ومائتين وثمان وسبعين وسبعين سفينة . وظهرت صواريخها وكأنها غابة كثيفة . » .

« ان أي شخص كان موجودا في دام **Damme** ، أو بروج **Bruges** أو سلويز **Sluys** كان معرضا للاصابة بالدهشة الشديدة في ذلك الوقت ، عند رؤية الجميع وهم يعملون على قدم وساق في شحن القوارب والسفن بحزم الأعلاف ، والثوم ، والبصل ، وآنية الجبن ، والشعير ، والشوفان ، والجوادار ، والقمح ، والشموع ، ولوازم البيت ، والأحذية القصيرة ، والأحذية الطويلة ، والخوذات ، والمهمازات ، والسكاكين ، والبلطات الصغيرة ، والأوتاد ، والمعاول ، والخطاطيف ، والأوتاد الخشبية ، والصناديق المملوءة بالمراهم ، والأقمشة ، وأربطة العلاج ، والبطاطين ، ومسامير حدوات الخيل ، وزجاجات عصير الفواكه ، والخل ، والآنية المصنوعة من الصلصال ، والآنية المعدنية ، والقدر الخشبية ، والأطباق والشمعدانات ، والطسوت ، والأوعية الطويلة ، والخنازير المكتنزة ، وأدوات اعداد الطعام ، والآنية اللازمة لحفظ الخمور ، واللازمة للأغراض الأخرى ، وكل سلعة ضرورية ، ولازمة للانسان أو الحيوان ، (٥٨) .

وكانت القصة التي حكها فرواسار في حولياته ذات الطابع المسلي هي الأخيرة التي يمكن أن نودعه بها عن برتراند دي جوزكلين **Bertrand du Guesclin** البطل الفرنسي الذي أنقذ فرنسا بعد الكارثة في بواتيه **Poitiers** - وكيف عمل على الحصول على حريته . وكان برتراند من بين الأسرى الذين وقعوا بين يدي الأمير الأسود في القتال في أسبانيا ، في ربيع سنة ١٣٦٧ م . وسيتضح من هذه القصة أنه لم يكن

مجرد شخصية بارعة في فن التكتيك الحربى ، وانما كان يتمتع بقسط وافر من الذكاء والدهاء .

« حدث ذات يوم (كما بلغنى ذلك) أن الأمير الأسود كان في حالة ابتهاج شديد ، واستدعى السير برتراند دوجيوزكلين ، وسأله عن حاله ، فأجاب السير برتراند « لم أكن في مثل السعادة التي بها حاليا ، ولا يمكن الا أن أكون سعيدا ، لأنه برغم وجودى في الأسر ، فانى أعظم فارس فى العالم » . فرد عليه الأمير ، « كيف ذلك ؟ » فأجاب السير برتراند ، « انهم يقولون فى فرنسا وفى بلاد أخرى ، انك شديد الخوف منى وانك تشعر بالفرح من اطلاق سراحى ، ولا تجرى على ذلك ، ولهذا السبب أفكر فى أهميتى الكبرى وسمعتى العالية » . فأجاب الأمير ، « ماذا تقول ! يا سيد برتراند ، هل تتصور أننا نحتفظ بك أسيرا خشية مسالتك . أقسم بالقديس جورج St. George ، أن الأمر بالنسبة اليينا غير ما تقوله ، وأنه اذا ما دفعت مائة ألف فرنك فدية ، سنطلق صراحك يا عزيزى » .

ونظرا لأن السير برتراند كان حريصا على الحصول على حريته لذلك فانه ما أن سمع شروط الأمير التي استطاع تنفيذها تمسك بما قاله الأمير ، ورد قائلا : « سيدى بمشيئة الله لن أدفع أقل من هذا المبلغ » . وعندما سمع الأمير ذلك ، بدأ يشعر بالندم على ما فعله . ويقال ان بعض مستشاريه قالوا له : « سيدى ، لقد تصرفت تصرفا خاطئا بمنحه حق دفع الفدية بمثل تلك السهولة » . وأراد مستشاروه أن يعملوا على عرقلة تنفيذ ذلك الاتفاق . بيد أن الأمير الأسود ، الذي كان فارسا نبيلًا ووفيا أجاب : « طالما أننا منحناه حق دفع الفدية ، فيجب علينا الوفاء بهذا العهد وألا نتصرف غير ذلك ، لأن ذلك سيكون مصدر خزي وعار ، وسيلومنا كل فرد لعدم موافقتنا على قبول فديته ، فى الوقت الذي عرض علينا مبلغا ضخما » .

« ومنذ هذه المحادثة بذل السير برتراند جهودا مضنية للبحث عن المال ، وكان فى غاية النشاط لدرجة أنه استطاع الحصول على مساعدة ملك فرنسا ، ودوق أنجو Angou ، الذي كان شديد الحب له ، وبذلك استطاع سداد مبلغ مائة ألف فرنك فى أقل من شهر ، وذهب لمساعدة دوق أنجو ، ومعه الفين من المقاتلين فى مقاطعة بروفانس Provence (٥٩) .



المفتدين

ابن خلدون

ولد ابن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢ م ، وقد وصف أرنولد توينبى Arnold Toynbee مقدمة ابن خلدون قائلاً : « انها أروع كتاب من نوعه ولم يحدث حتى الآن أن جاد فكر أى مفكر بمثيل له فى أى زمان أو مكان ، (١) . ولقد حقق أسلافه من ناحية والده شهرة لعدة قرون . واليمن هى الموطن الأصيلى لأسرته التى انتقلت منها الى أسبانيا فى القرن الثامن الميلادى ، ثم أصبحت احدها السلالات الحاكمة فى اشبيلية Seville فى أواخر القرن العاشر الميلادى . ولمع اسم بعض الشخصيات من أجداد ابن خلدون فى السياسة والعلم فى كل من اشبيلية وشمال افريقيا ، حيث انتقلت أسرته اليها قبل احتلال فرديناند الثالث Ferdinand III لتلك المدينة سنة ١٢٤٨ م ، بوقت قصير . ومن شمال غرب أفريقيا اتجهت أسرة ابن خلدون الى تونس وهناك تم اعدام الجده الأكبر لابن خلدون ، ربما بسبب مخالفات مالية فى خزانة بيت المال ، اذ كان هو المسئول الأول عنها . ذلك المصير المؤلم بالنسبة لأفراد عائلة ابن خلدون كان غير عادى . فسواء بمحض حسن الحظ أم بفضل الحنكة السياسية ، فقد عملوا على أن يكونوا مع الكفة الرابحة فى أى ثورة سياسية .

أما والد ابن خلدون فقد تحاشى الاشتغال بالسياسة ، وهياً لابنه الفرصة للحصول على أكبر قدر من التعليم القائم على دراسة القرآن الكريم ، والحديث (النبوى الشريف) واللغة العربية ، والأدب ، والفقه . والواقع أن ابن خلدون لم يتوقف على الاطلاق على تلقى العلم والمعرفة ، اذ استمر طوال حياته يزود نفسه بكل فرع للمعرفة استطاع الحصول عليه ، بما فى ذلك المذاهب الصوفية ، فلسفة الاغريق (وفقاً لتفسيرات

المفسرين العرب) . وآينما ذهب ابن خلدون فكان من عاداته بذل قصارى جهده فى التعرف على العلماء الذين يقدمون له شيئا مفيدا ، فى الوقت الذى قام فيه بمشاركة الآخرين معلوماً به بعد أن جذبتهم اليه شهرته فى المعرفة . وحقق ابن خلدون تفوقا ساحقا لمقدرته على عرض وجهات نظر متعمقة بشأن القوى والعوامل التى أثرت على مجرى الحضارة ، ونعنى بذلك ، « العلم الجديد » الذى كشف عنه فى مقدمته . « وتظهر المقدمة بكل وضوح أن ابن خلدون لم تكن لديه الرغبة أو الوسيلة لتقديم اسهامات جديدة لها أهمية عن أى فرع من فروع المعرفة القائمة آنذاك » (٢) .

يبدو أن والد ووالدة ابن خلدون قد توفيا ابان حدوث الوباء الأسود ، وكان ابن خلدون فى السابعة عشرة من عمره فى ذلك الحين . فاضطر للعمل ليكسب قوت يومه فى تونس . ثم رحل الى فاس فى المغرب حيث عمل وزيرا للسلطان هناك ، وتدل السرعة والسهولة التى أنجز بها تلك التنقلات على نمط حياته لمدة خمسين عاما . وبين الاضطرابات السياسية التى لا علاقة لطموحاته بها ظل ابن خلدون حبيسا فى شرك السياسة ، واستمرت حياته كسلسلة متعاقبة من شغل المناصب العليا والحصول على مظاهر التشرىف ، والطرده من العمل فى الحكومة والنكبات ، ولم تنته تلك السلسلة الا بوفاة سنة ١٤٠٦ م .

وقضى ابن خلدون الجزء الأكبر من الفترة ما بين ١٣٥٧ - ١٣٥٨ م ، فى السجن بجاية Bougie ، حيث كان من الممكن أن يظل سجينا مدة أطول لولا وفاة السلطان الذى سجنه لتأمره . وضمه السلطان الجديد إلى ديوانه ، بيد أن الاحساس بعدم الأمن دفع ابن خلدون الى الاستئذان فى الذهاب الى غرناطة ، التى كانت فى ذلك الحين المملكة الاسلامية الوحيدة التى نجت من حركة الاسترداد التى قام بها المسيحيون . واستقبله سلطان غرناطة استقبالا وديا ، لوجود صداقة قديمة بينهما منذ فترة نفى السلطان فى فاس ، حيث تقابلا هناك . وفى سنة ١٣٦٤ م أرسله السلطان فى مهمة لاجراء مباحثات سلام مع بدرو السفاح Pedro the Cruel حاكم قشتالة Castile . ونظرا للانطباع القوى الذى تركه أسلوب ابن خلدون المهدب ، ومستواه الثقافى الرفيع ، والذكاء الدبلوماسى الفائق ، فى نفس بدرو ، عرض عليه أن يبقى فى مملكته ، مقابل اعداء أملاك أسرته فى اشبيلية . Seville اليها . بيد أن ابن خلدون عاد الى غرناطة برغم أنه لم يستثمر بها فترة طويلة . اذ رحل الى بجاية Bougie ، حيث شغل وظيفة كبير رجال القصر ، أو الوزير الأول عند حاكمها الحفصى الجديد . واستمرت المتاعب السياسية تلاحقه لمدة

الثمان أو السبع سنوات التالية ، حينما في فاس ، وآخر في غرناطة ، ثم في تلمسان Tlemcen ، بعد أن أجبر على مغادرة غرناطة .

وارتاح ابن خلدون من متاعب السياسة في الفترة ما بين ١٣٧٥ - ١٣٧٨ م عندما لجأ الى قرية قلعة ابن سلامة في اقليم أوران Oran ونعم بحماسة القبائل العربية المجاورة لمدة أربع سنوات . ولا بد أن تلك السنوات كانت من أمتع سنين حياته . إذ حصل على فترات نادرة من الراحة ، وتمتع بصحبة زوجته وأطفاله ، وفوق كل ذلك ، وجد الوقت الذي خصصه للكتابة وفي تلك الفترة كتب مقدمته ، وهي مقدمة لتاريخه العلي .

وكانت الرغبة في الحصول على الوثائق اللازمة لاعداد هذا التاريخ دافعه للذهاب الى تونس سنة ١٣٧٨ م . وظل يدرس ويكتب - وينفعل مع الأحداث التاريخية لمدة أربع سنوات إذ لم يقتصر عمله على اكمال كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وانما حدث سنة ١٣٨٢ م أن طلب من السلطان أن يأذن له بأداء فريضة الحج ، بعد أن شعر بالخوف على حياته أو حرته ، وطلب أداء فريضة الحج ، لا يمكن أن يرفضه السلطان .

ومع ذلك ، فيبدو أن السلطان احتفظ بزوجة وأطفال ابن خلدون كرهائن ربما لضمان ولاء ابن خلدون في فترة غيابه ، أو لاجباره على العودة الى تونس . وما أن وصل ابن خلدون الى الاسكندرية حتى ذهب الى القاهرة حيث قضى بها اثنتين وعشرين عاما الى أن وافته المنية . ولم ير أسرته ثانية . وكان السلطان برقوق ، حاكم مصر قد بذل مساعيه الحميدة في اقناع حاكم تونس بضرورة ارسال زوجة وبنات ابن خلدون الى القاهرة . غير أن السفينة التي كانت تحملهم غرقت ابان احدى العواصف . وبقيت بنتان على قيد الحياة لم يقدر لهما الوجود بالسفينة ، غير أننا لا نعلم شيئا عنهما . إذ تعمد ابن خلدون التزام الصمت في المسائل الأسرية .

وبالنسبة لابن خلدون ، فلم تكن حياته في مصر أكثر استقرارا عما كانت عليه في تونس وشمال أفريقيا برغم ما يبدو على أنها لم تتعرض للخطر على الاطلاق في مصر . ففي العادة استطاع ابن خلدون الاعتماد على عطف وتأيد السلطان . بيد أن حاكم البلاد اضطرت الى عزل هذا العالم من المناصب التي أسندها اليه تحت الحاح بعض الأمراء وأصحاب النفوذ في الدولة إذ تقلد منصب قاضي القضاة للمذهب المالكي خمس مرات برغم تعرضه للعزل من هذا المنصب . ثم تولى هذا المنصب للمرة السادسة في فبراير سنة ١٤٠٦ م ، قبل وفاته ببضعة أسابيع .

وربما تفسر ظروف عديدة سلسلة المتاعب المتصلة التي تعرض لها ابن خلدون . ومن الجائز أن المعاناة المريرة التي تعرض لها في سنيته الأولى لم تقيد كلية ميله للكيد السياسى ولا شك أن اعتباره « شخصا أجنبيا » وهى صفة عملت على زيادة اثارها تمسك ابن خلدون بزيه المغربى ، جعل نيران الحقد والحسد تشتعل فى قلوب رجال السياسة فى مصر ضده ، ومن ثم اتهموه بالتزمت الشديد عند تفسير وتطبيق الشريعة . ولا ريب أنه اعتبر مصر فى حالة من التدهور والتخلف برغم ازدهار ثقافتها ، وليس هناك أدنى شك فى أنه رفض التغاضى عن التجاوزات ، التى ربما كانت أمرا تقليديا فى مصر (*) ، التى تعارضت مع ما تميز به من مستوى رفيع فى الكياسة والأدب .

وكانت فترة اقامة ابن خلدون فى القاهرة من أروع فترات حياته . وفى أواخر سنة ١٤٠٠ خلف فرج والده برقوق على عرش البلاد ، وأرسله فرج فى صحبة الجيش الذى ذهب الى دمشق للتصدى لتيمور الأعرج الذى كان يتجه صوب المدينة من الشمال . وما أن وصلوا دمشق حتى عاد فرج والأمراء الى القاهرة على وجه السرعة على أثر انطلاق شائعة بحدوث انقلاب وشيك . وظل ابن خلدون فى دمشق لأسباب ليست معروفة ، على الرغم من أنه حاول اتخاذ موقف الحياد إبان المناقشات التى أجراها مختلف القادة بشأن قبول مطالب تيمور أو تحمل معاناة الحصار (٣) . ومهما يكن من أمر ، فيبدو أن تيمور طلب مقابلة اعالم الشهير . ونظرا لأن جماعة من الجيش رفضت اجراء مفاوضات مع تيمور وكانت تحرس بوابات المدينة ، لذلك ذهب ابن خلدون الى معسكر المغول ، بعد أن تسلق سور المدينة ، مستعينا بسلم مصنوع من الحبال .

وظل ابن خلدون حرا فى التنقل بين معسكر المغول ودمشق لمدة خمس وثلاثين يوما . وأجرى ابن خلدون عدة مقابلات مع تيمور الأعرج . وعاون المترجمون فى انجاح المباحثات التى شملت موضوعات مختلفة وتضمنت ذكر أشهر الشخصيات فى التاريخ ونظريات ابن خلدون عن التاريخ . وأبدى تيمور اهتماما خاصا بمصر وشمال أفريقيا وأمر العالم أن يقدم له تقريرا عن بلاد المغرب . ولو صح الاعتقاد بأن ابن خلدون تعمد تقديم دراسة غير مشجعة الى شخص مولع بالفتوحات ، فيكون له حق الشناء عليه لتحويله اهتمام تيمور عن مصر وتحويله تجاه الصين . وعلى أية حال ، نجح ابن خلدون فى الحصول على تصريح من تيمور للسماح له وأصدقائه بالعودة الى مصر . وعند عودة ابن خلدون الى مصر

(*) كانت مصر آنذاك تترج تحت حكم المماليك الجراكسة الذين أفسدوا الحياة الاقتصادية والسياسية والأمن بصراعاتهم الداخلية (المترجم) .

لا بد أنه قد نجح في اقناع فرج أنه لم يساوم على مصالحه إبان مقابلاته مع تيمور الأعرج . وتم إعادة تعيين ابن خلدون قاضيا للقضاة المالكيين ، وشغل هذه الوظيفة ، بين فترة وأخرى حتى وفاته . ولولا صدور مقدمة ابن خلدون ، والتي جعلها مقدمة لتاريخه العالمي ، لما اعتبره الباحثون المحدثون الا مجرد أحد المؤرخين العرب في أواخر العصور الوسطى ، وألف ابن خلدون العديد من القطع الأدبية الصغيرة ، وبحثا في علم الحساب ، على سبيل المثال ، وموجزا في علم المنطق ، بيد أن قليلا منها قدر له البقاء . وكتاب « التعريف » هو كتاب قليل الأهمية لأنه تحدث فيه عن سيرته الذاتية ، وكان قد أعده في أواخر أيامه ، وكان كتاب السيرة الذاتية معروفا في العالم الاسلامي كنوع من الأدب وعلى أنه ليس الانتاج الوحيد لابن خلدون . أما من وجهة النظر الغربية فالكتاب مخيب للآمال . ولم يتضمن الكتاب معلومات شخصية عن ابن خلدون تشبع فضول القارئ ، وأغفل الإشارة الى كتابات ابن خلدون باستثناء التقرير الذي أعده عن تيمور الأعرج ، وتضمن الكتاب استطرادات عن موضوعات تاريخية وأخرى مختلفة ومتنوعة وكلها ليس بها سوى القليل عن حياته . بيد أن الكتاب يترك الانطباع الذي أراد ابن خلدون أن تأخذه الأجيال القادمة عنه (٤) .

أعد ابن خلدون مسودة « المقدمة » إبان فترة اقامته في قلعة بن سلامة . ويرجع بعض أجزاء من تاريخه الى هذه الفترة برغم أنه أكمل معظم تاريخه وراجع تلك الأجزاء إبان سنينه الأخيرة في القاهرة . ويحمل مؤلف ابن خلدون عنوان « كتاب العبر » ، ويتكون من سبعة أجزاء ، وتمثل المقدمة الجزء الأول . وتحدث الأجزاء من الثاني الى الخامس عن تاريخ العالم قبيل ظهور الاسلام وعن العرب والمسلمين بالشرق ، أما الجزءان السادس والسابع فيتحدثان عن المسلمين في الغرب . على أن غزارة المادة التاريخية التي جاءت في « المقدمة » ، ونوعيتها الفريدة ، أفضت الى الاعتراف بأنها دراسة قائمة بذاتها ، إبان حياة ابن خلدون نفسه .

ومع ذلك ، فقد تمخض التاريخ العالمي لابن خلدون عن شيء من خيبة الأمل والاحباط بالنسبة للباحثين . واذا ما أدخل المرء في اعتباره الصفات المميزة الفريدة ، « للمقدمة » وبعد النظر المدرك في تفسير ظهور الحضارات وتدهورها ، فللقارئ أن يتوقع وجود سرد تاريخي للأحداث أشمل وأعم من أي مصدر ظهر قبل ذلك . فعلى سبيل المثال ، يتطلع القارئ للاطلاع على التفسير الذي سيقدمه مثل هذا المحلل القدير لسقوط الامبراطوريتين الآشورية والكلدانية . بيد أنه يصاب بالاحباط .

ولم يحاول ابن خلدون تطبيق آرائه الاجتماعية الفلسفية فيما يتعلق بتاريخ شعب سوى في حالة اليهود فحسب . ويدور تاريخه عن مصر حول التطورات في داخل مصر السلطان ، وينحصر في ذكر الأحداث العسكرية والسياسية . بل أن ابن خلدون أغفل ذكر مجاعة داهمت مصر إبان وجوده بها . وفي حالة الأخبار المتضاربة المتعلقة بحياة زرادشت ، لم يبذل ابن خلدون جهدا في التوفيق بينها ، وإنما اكتفى بمجرد ذكرها ، كما يفعل كتاب الحوليات .

ومع ذلك فبهدف التخفيف من حدة نواحي الضعف تلك ، استطاع ابن خلدون الإشارة إلى القصور الموجود في المصادر التاريخية التي كانت في متناوله . على أن اعتباره كتاب الداعية المسيحية أوريوس Orosius أهم المصادر التاريخية عن الشعوب غير القريبة قبل ظهور الإسلام ، يشير إلى حالة القصور المؤسفة التي كان يعاني منها وعلى ذلك ، فبرغم أن دراسته عن التاريخ المصري وعن العالم الإسلامي في المشرق لا تفوق ما كتبه أي من المؤرخين الآخرين ، فإن ما كتبه عن المغرب ، وبخاصة البربر ، أفضل مما جاء عند أي مؤرخ آخر . ومع ذلك ، فربما اضطر المرء إلى الاعتراف ، بأنه من الممكن أن نعزو تفوق تاريخه عن المغرب إلى معرفته الشخصية لهذا الجزء من العالم ، أنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي ذكرها . على أن ما بيديه من عدم اهتمام بالتواريخ الدقيقة هو أمر يتوقعه المرء من فيلسوف في التاريخ ، ويفسر تحفظه الفكري عدم الترابط المنتشر هنا وهناك في كتابه بشأن تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وفقا لتسلسلها الزمني .

وكما سبق ذكره ، لم يحاول ابن خلدون أن يطبق وجهات نظره الاجتماعية الفلسفية المتعلقة بتاريخ شعب سوى في حالة اليهود فحسب . واحدى نظرياته عن السلالة الحاكمة هي أنها لا يمكن لها البقاء في العادة سوى لمدة ثلاثة أجيال أو أربعة . ولكي يقيم ابن خلدون الدليل على هذه النظرية ، قدم سجلا للنجاح الذي أحرزه اليهود في عهد الآباء إبراهيم ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوسف الذين خلف أحدهم الآخر ، وعن التدهور الذي حدث بعد ذلك . ووجد ابن خلدون أيضا ، في « كتاب العهد القديم » كيف أن بنى إسرائيل قضوا أربعين عاما في سنياء قبل دخولهم أرض كنعان ، وهي الفترة التي حددها لحياة جيل . وبناء على ما ورد عند ابن خلدون ، كان من الضروري على بنى إسرائيل قضاء أربعين عاما ، وأعنى بذلك ، فترة حياة جيل كامل حتى تتكون « عصبيتهم » ، من بعد المعاناة إبان فترة العبودية في مصر (5) .

ومهما كانت نواحي الضعف الموجودة في تاريخ ابن خلدون ، فإنها لا يمكن أن تقلل من روعة « المقدمة » بأي شكل من الأشكال . فما زالت « المقدمة » أكثر الدراسات تقدما في الحضارة وفلسفة التاريخ ، قبل العصر الحديث ، وفقا لكل الاعتبارات . وتفسر ظروف عديدة تفوق هذه المقدمة . فلمرة الأولى ، أبدى المؤلف مقدرة على قوة الملاحظة في مجال الفكر ، وهو أمر لم يسبق له أن بحث فيه . وعملت معرفة ابن خلدون لمجموعة متنوعة من الثقافات ، التي كشفت كل واحدة منها عن مستوى مختلف للثقافة الرفيعة ، على امداده بقاعدة أساسية رائعة لدراسته . وتراوحت تلك الحضارات ، على طول الخط ، من العادات والتقاليد البدائية لقبائل البربر في المغرب ، الى العالم المزدهر في غرناطة ، الى الحضارة المصرية التي كانت تعاني من التدهور ، برغم احتفاظها ، بكل عناصر القوة والتأثير . وقضى ابن خلدون سنوات في بلاد كثيرة مختلفة ، ومارس دورا فعالا في الشئون السياسية حيثما ذهب ، وكان على دراية تامة بالانجازات الفكرية للشعوب التي عاش بينها . ولا بد أن عالما له اهتمام ابن خلدون بالمجتمع الانساني قد عرف الحالة النسبية لتلك الشعوب بالنسبة للنضج الثقافي سواء قريبا منه أو بعدا عنه . وأخيرا ، كان لافتنان ابن خلدون بالتصوف أثرا كبيرا في دوره كفيلسوف اجتماعي .

ويبدو ان ابن خلدون اعتمد على مؤلفات علماء مثل المسعودي (ت ٩٥٦ م) ، بشأن الأفكار التي عبروا عنها عند تحليلهم للظواهر الاجتماعية أو عند تفسيرهم للتاريخ ولكن لا يمكن للعلماء الا أن يخمّنوا مدى هذا الاعتماد . ومن هؤلاء الكتاب الأول ، كان المسعودي ، بلا ريب ، أكثرهم انتاجا ، وربما أوسعهم معرفة ، بيد أن ما قدر له البقاء من أعماله ليس سوى مجرد شذرات . ونظرا لعدم وجود محاولات سابقة لعهد ابن خلدون ، ترقى لمستوى تفسيراته عن المجتمع والتاريخ ، لذلك كان العلماء على اتفاق ، في العادة ، على أن ينسبوا اليه الأفكار التي عبر عنها في « المقدمة » . واتفقوا على أنه ليس في استطاعة أحد أن يجد تفسيرا وافيا لنضج أفكاره المبكرة المتمخضة عن قدرات عقلية فائقة في الحكم على الطبيعة البشرية وفي حسن حظه في الحياة النشطة وسط بيئات ثقافية متباينة . فعلى سبيل المثال ، لو قدر لابن خلدون تأليف « المقدمة » قبل زيارته الى مدينة غرناطة التي كانت تزخر بثقافة الألوان الثقافية ، لما ظهرت المقدمة على هذا النحو وكانت أقل تأثيرا . ولهذا السبب قد يأسف القارئ لأن ابن خلدون لم تكن لديه سوى معلومات ضحلة عن العالم المسيحي في بيزنطة وأوروبا اللاتينية . وربما كانت له

ملاحظات رائعة عن المقارنة بين أثر ضرورة الاحتفاظ بزوجة واحدة في المسيحية على التطور الثقافي في أوروبا ، وأثر تعدد الزوجات في العالم الاسلامي ، على سبيل المثال .

واختلف العلماء في الرأي عند تقديرهم لمدى تأثير العلوم الميتافيزيقية على فكر ابن خلدون . فيصر محسن مهدي على أنه لم يقدّم أحد من المفكرين قبل ابن خلدون أو أي معاصر له يربط تاريخ المجتمع بالفلسفة السياسية ، أو حاول أن يطور علم المجتمع في إطار الفلسفة التقليدية . وبناء على رأي مهدي ، فإن « العلم الجديد » عن المجتمع الذي قدمه ابن خلدون كان ثمرة جهوده في تطبيق مبادئ الفلسفة اليونانية في دراسته للظواهر الاجتماعية في مواجهة التفسيرات الدينية عن العالم (٦) .

ومن ناحية أخرى ، يؤكد فرانز روثال ، على أن ابن خلدون ارتاب في التفكير التأملية برغم معرفته الواسعة للفلسفة اليونانية والعرب الذين قاموا بتفسيرها . واعتقد فرانز أن ابن خلدون أقام مبادئ علمه الجديد على الملاحظة وليس على التفسيرات التي استمدت مبرراتها من الفلسفة ، وأنه عقد العزم على الوصول الى معرفة سبب تقدم الأمم والحضارات وتدهور أحوالها على أساس أن ذلك يتم بتأثير عوامل اجتماعية واقتصادية وليس بفعل القوى الميتافيزيقية ، فالمبدأ الاجتماعي الذي يبدو أن ابن خلدون نسب اليه التأثير الأكبر على ظهور وسقوط الحضارات هو « العصبية » أو « الشعور الجماعي » Group Feeling وهو مبدأ لم يسبق لأحد من الفلاسفة الإشارة اليه (٧) والواقع أنه وفقا لما ورد في رأي روزنتال ، قد يميل المرء الى اعتبار ابن خلدون رائدا في التاريخ الوسيط للمذهب المادي الحديث لو لم يكن قد نسب كثيرا من التأثير على تطور الحضارات الى تلك القوى النفسية كالدين .

ومهما يكن من أمر ، فيبدو أن ابن خلدون ترك تأثيرا قليلا أو ربما لم يترك تأثيرا على معاصريه في مجالات الفلسفة السياسية وعلم الاجتماع ، أو لعدة قرون تلت عصره . ولو أن ابن خلدون قد عاش قبل قرنين من عصره عندما كان العلماء الغربيون يترجمون المؤلفات العربية على قدم وساق ، لترك سمة مثيرة للانتباه على الفكر الغربي . وكالعادة ، فلم يهتم به معاصروه الى حد كبير ، واعتبروه مؤرخا عتيقا ، الى أن اكتشف الغرب أهمية أعماله .

وافتح ابن خلدون « مقدمته » بتضرع الى الله . فكتب يقول :
بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا

(*) أثر المترجم أن يعيد صياغة الاستشهادات المقتبسة من ابن خلدون بلغة عصرية تيسيرا على القارئ غير المتخصص .

محمد وعلى آله وصحبه وسلم . عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، عبد الله والفقير الى الله الغني الذي وسعت رحمته كل شيء . الحمد لله . ولا حول ولا قوة الا بالله . بيده الملك وهو على كل شيء قدير . له الأسماء الحسنى . وسع علمه كل شيء . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء (٨) .

وهناك المزيد من تلك الابتهالات . وعلى الرغم من أن هذا النوع من المقدمات الدينية كان شائعا بين الكتاب المسلمين ، ففي حالة ابن خلدون ، ومن خلال التناسق الذي نسبه الى الله عالم الأسرار والقوى في علاه ، يستطيع المرء أن يستنتج أن الورع الصادق هو الدافع الى التعبير عن تلك المشاعر الوجدانية .

ثم واصل ابن خلدون بذكر تقديم للكتاب . فحدد معنى التاريخ ، وعلق على عيوب من سبقه من المؤرخين ، وقدم صورة مجملة لمحتويات تاريخه وتنسيقه العام . وبدأت الفقرات الأولى من تقديمه بما يلي :

« التاريخ فرع من فروع المعرفة تهتم به الأمم والأجناس . ويجد في طلبه بكل تلهف وشوق . فيتوق رجل الشارح والعامه لمعرفة التاريخ ويتنافس الملوك والقادة على الحصول على المعلومات التاريخية .

فالمثقفون والأميون قادرون على فهم التاريخ . فمن الناحية السطحية ، ليس التاريخ سوى مجرد معلومات عن الأحداث السياسية ، وتاريخ الأسر الحاكمة ، وأحداث الماضي البعيد ، وكلها تقدم على نحو شيق ويضاف اليها بعض الأمثلة الشعبية والحكم . ويساعد التاريخ على جلب المتعة والتسلية للجماهير العريضة ، ويجعلنا نقف على فهم أحوال البشر . ويوضح لنا كيف تؤثر الظروف المتغيرة على شئون البشر ، وكيف تستطيع أسرة حاكمة معينة قادرة على احتلال أجزاء شاسعة من العالم وتمكن من الأرض الى أن تصبح أثرا بعد عين .

ومن ناحية أخرى ، فالمعنى الباطني للتاريخ ، هو أنه يثير التفكير والتأمل وهو محاولة للوصول الى الحقيقة ، وتفسير دقيق للأسباب والجدور التاريخية للأحوال القائمة ، ومعرفة وافية عن كيفية وقوع الأحداث وأسبابها . ولذلك تمتد جذور التاريخ بعمق في الفلسفة . ويستحق التاريخ أن يعتبر أحد فروع الفلسفة ، (٩) .

ويعدد لنا ابن خلدون عيوب من سبقه من المؤرخين ذاكرا الشائعات والأخبار الكاذبة ، والافتقار الى الروح النقدية ، والثقة العمياء في صحة العادات والتقاليد وقبول كل ما هو مكتوب دون تفحص أو تمحيص . وبالإضافة الى ذلك ، فكتابات كثير من المؤرخين مملّة ، « أو (على أية

حال) لم يحاولوا الا تكون مملة « . واتهم ابن خلدون بعض المؤرخين بعدم الاهتمام بالتغيرات التي طرأت على الأحوال والعادات للأمم والأجناس والتي حدثت بمرور الوقت . . « لقد أهملوا أهمية التغير عبر الأجيال عند معالجتهم للمادة التاريخية لأنهم لم يجدوا الشخص الذي يفسر لهم تلك التغيرات « (١٠) . وكان يأمل في علاج كل تلك العيوب ، برغم احتواء التقديم الموجز لكتابه على اعتراف بما لديه من قصور ، وربما كان ذلك ادعاء تقليديا بعدم الكمال . « وبرغم كل ما قيل فاني أشعر بالنقص عندما أتصفح كتب العلماء القدامى والمعاصرين . وأعترف بعدم مقدرتي على التعمق في موضوع شائك جدا كهذا « (١١) .

وفي المقدمة المطولة ، التي تلت التقديم المختصر ، بحث ابن خلدون في قيمة علم تدوين التاريخ *Historiography* ، وفي الطرق المختلفة التي يستعملها المؤرخون والأخطاء التي ارتكبوها . فكتب يقول : « يجب أن يكون معلوما أن التاريخ فرع من فروع المعرفة وله طرق كثيرة في كتابته . فمظاهره النافعة كثيرة . وهدفه نبيل . ويجعلنا على معرفة بالأمم الماضية . ويطلعنا على سير الأنبياء ، والأسر الحاكمة ، وسياسات الحكام . وبذلك يستطيع المرء أن يحصل على النتائج النافعة اذا ما حاول تقليد القدوة التاريخية في الأمور الدينية والدنيوية « (١٢) .

هذا هو كل ما قدمه ابن خلدون بغية ذكر المبررات لدراسة التاريخ ، ويبدو أنه قد أفاض في ذلك بعد أن أعطى « لمقدمته » طابع التحليل النفسي . ثم انتقل مباشرة الى الحديث عن مواطن ضعف معينة تعرض لها المؤرخون . منها عدم مراعاتهم الدقة عند ذكر الاحصاءات . فأشار قائلا : « ذكر المسعودي وكثير من المؤرخين أن موسى (عليه السلام) أحصى جيش بني اسرائيل في الصحراء . وأخذ معه كل قادر على حمل السلاح ، وبخاصة أنه اعتبر كل من جاوز الثانية والعشرين مناسبا . ووصل عدد هذا الجيش الى ما يزيد على ستمائة ألف مقاتل . وبذلك يكون (المسعودي) قد نسي أن يضع في اعتباره اذا ما كان في استطاعة مصر وسوريا حشد جيش بهذا العدد . فمن الممكن أن تحشد كل مملكة أكبر قدر من قوات المقاومة الشعبية militia ولكن في حدود امكانياتها البشرية والمادية . وتؤكد العادات المعروفة والأحوال المألوفة على صحة هذه الحقيقة . ويضاف الى ذلك ، عدم استطاعة جيش في مثل هذا الحجم ، التحرك لملاقاة العدو وخوض المعركة كمجموعة متكاملة . وستكون كل أراضى الحدود التي يمكن استغلالها غير كافية لمثل هذا الجيش . واذا ما اتخذ مثل هذا الجيش وضع استعداد للمعركة فسيشغل مساحات

تفوق نطاق الرؤية . واذا كان الحال كذلك ، فكيف يتقاتل جيشان ،
أو ينتصر أحد أجنحة جيش في الوقت الذي لا يعرف فيه جناح ماذا يفعل
الجناح الآخر ! ، (١٣) .

وانتقد ابن خلدون المؤرخين العرب على الخطأ الشنيع الذي وقعوا
فيه والمتعلق بقصة العباسية شقيقة هارون الرشيد ، وجعفر رقيقه في المرح
والسمر . واعتمد في هذه القصة على رواية الطبري الى حد كبير ،
وحدثت لرغبة الخليفة في قضاء ساعات المرح والسمر بصحبة جعفر
وشقيقته العباسية ، لذلك زوج شقيقته لجعفر حتى لا يجد جعفر حرجا في
الجلوس مع الخليفة وشقيقته . ومع ذلك فمن المفهوم أن هذا الزواج لم
يكن مقدرا له أن يتم بدخول جعفر على العباسية . بيد أن العباسية هامت
حبا في جعفر ، الذي نجح في مباشرة حقه الشرعي معها بعد أن
لعبت الخمر بلبه . وعندما علم هارون بأن زواجهما الشرعي أثمر عن
طفل ، «استشاط غضبا» ثم أمر بعد ذلك بدق عنق جعفر .

ورفض ابن خلدون أن تكون هذه القصة مجرد شائعة قصد بها
الاساءة الى العباسية . اذ يرى أنه من المستحيل الاعتقاد في أن امرأة مثل
العباسية ، وهي صاحبة الحسب والنسب ، أن تفعل ذلك « ان العباسية
ابنة خليفة وشقيقة خليفة . وولدت في بيت الخلافة ، وهي من سلالة
بيت النبوة ، ومن ذرية أهل محمد (صلى الله عليه وسلم) (★) ، وأعمامه
وأقاربه . وهي مرتبطة بالرعييل الأول من الصحابة بحكم أصلها ومولدها ،
وبنور الوحي المنزل ، وبالمكان الذي هبط فيه جبريل (عليه السلام) (★)
وكانت العباسية تعيش وفقا للمشاعر والتقاليد العربية الصادقة ، ووفقا
لمبادئ الاسلام السمحة التي ظلت بعيدة عن مظاهر الرفاهية والترف
وعن مواطن انتشار الرذيلة . وأين يجد المرء الطهارة والعفة والحياء اذا
لم يجدهم عند العباسية ؟ وأين توجد العفة والشرف اذا لم يعد لهما وجود
في ذلك البيت ؟ وكيف تستطيع العباسية أن تربط شجرة نسبها العريقة
بشجرة جعفر بن يحيى وتلطخ أصلها العربي العريق بأصل ذلك الفارسي
التابع ؟ » (١٤) .

واذا ظل القارئ الحديث غير مقتنع ، فعلى الأقل سيتفق مع
ابن خلدون في أن هذه الفرية ، حتى ولو حدثت ، ربما لم تكن الدافع
الذي حرك هارون للقضاء على جعفر ، ووالده وشقيقه ، وكل أفراد أسرة
البرامكة . وقد يشك المرء في أن ابن خلدون كان يدرك أن شجبه لقصة

(★) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

انحراف العباسية الخلقى قد يدخل البهجة والسرور على قراء القصر بنفس قدر ادائه للفرية الزاعمة بأن هارون كان « مدمنا للخمر » . على أن الأسلوب الجاف الذي عبر به ابن خلدون عن عدم اعتقاده في صحة قصة العباسية وجعفر يقدم لنا مثلا رائعا عن مدى الخطأ الذي يمكن أن يقع فيه كبار العلماء عندما يسمحون للأفكار أن تحجب عنهم حقيقة أهواء أو تقلبات الطبيعة البشرية .

وبحث ابن خلدون بالتفصيل في قصص مشابهة تتعلق بسوء السلوك الأخلاقي لبعض الخلفاء الأول ثم قدم تفسيراً يمكن أن ينطبق على كل عصر .

« وهناك قصص كثيرة من هذا القبيل . وهي تبرز دائما على نحو غير متوقع في كتب المؤرخين . ويبدو أن الدافع على تليفق هذه القصص وذكرها وجود رغبة عامة في المتع المحظورة وتشويه سمعة الآخرين بضروب الاتهامات والافتراءات . ويبرر الناس خضوعهم للملذات بذكرهم الرجال والنساء الذين سبقوهم (والذين فعلوا نفس الأفعال التي يفعلونها ، حسب زعمهم . ومن ثم ، فعابا ما يبدو متلهفين جدا لمعرفة تلك المعلومات ويشمرون عن سواعد الجهد في البحث عنها بين طيات صفحات الكتب المنشورة » (١٥) .

وعلاج هذه الآفة هو العمل على ايجاد المؤرخ المدرب والمستول . ويكتب ابن خلدون عن هذا المؤرخ فيقول يجب أن يعرف هذا المؤرخ مبادئ السياسة ، وطبيعة الكائنات الموجودة ، والفروق بين الأمم ، والأماكن ، والعصور ، مع الأخذ في الاعتبار بضرورة معرفة أساليب الحياة ، والمميزات الشخصية ، والعادات ، والمذاهب والمدارس ، وأي شيء آخر . ويجب أن يكون لديه المام تام بالأحوال الحاضرة في كل تلك المجالات المذكورة . ويجب عليه أن يقارن بين أوجه التشابه أو الاختلاف بالنسبة للأحوال في الحاضر والماضي . ويجب عليه أن يعرف أسباب التشابه في بعض الحالات ، وأسباب الاختلاف في الحالات الأخرى . ويجب أن يكون على معرفة بأصول السلالات الحاكمة والفرق الدينية وجذورها التاريخية بالإضافة إلى الأسباب والدوافع التي دفعت بهم إلى الوجود وظروف وتاريخ الشخصيات التي ساندتها . وأن يكون هدفه الوقوف على المعرفة التامة لأسباب كل حادثة ، وأن يكون على دراية تامة بالجزور التاريخية لكل حدث تاريخي . ثم يجب عليه مراجعة المعلومات المنقولة وفقا للمبادئ الأساسية التي يعرفها » (١٦) .

ويقول ابن خلدون أن كتابه الأول « المقدمة » يتحدث عن الحضارة وخصائصها الأساسية . ويتضمن ذلك « السلطة الحاكمة ، والادارة ،

والأعمال المريحة ، وفرص العمل ، والحرف ، والعلوم ، والمعارف ، (١٧) .
وأعلن ابن خلدون أن غايته كتابة تاريخ واقعي ، ويقصد بذلك ، أن يكتب
تاريخاً يقارب أو يناهز ، « أي علم فائم بفاته » ، واعتمد ابن خلدون
على المعلومات المستقاة من البحث العلمي الدقيق ، ولم يعتمد على الأساليب
البلاغية ، إلا فيما يتعلق بدراسة أساليب السياسة ، وذلك عند اعداده
لهذا التاريخ الجديد (١٨) . وأعلن ابن خلدون أن دراسته هذه يمكن أن
ينظر إليها على أنها « علم مبتكر بكل ما في الكلمة من معنى » ، ورغم
أنه حريص على قبول احتمال أن المؤرخين الذين سبقوه ، ومن بينهم بعض
الفرس والكلدانيين ، على سبيل المثال ، قد ساهموا بجهد مماثل للأفكار
التي عرضها في هذه الدراسة ، وعلى الرغم من اعلانه بأن كتابه فريد
في نوعه وأنه « اشتمل على معلومات تخالف ما كان شائعاً ومألوفاً » ،
فانه اعترف « بعدم مقدرته على التعمق في موضوع شديد الصعوبة » .
ورجا ابن خلدون الباحثين « أن يتفحصوا الكتاب بعين الناقد وليس بعين
المجامل ، وأن يصححوا في هدوء ويتفاوضوا عن الأخطاء التي تقابلهم » (١٩) .
وهنا يستعد ابن خلدون للبدء في بحثه عن الصفات المميزة
للحضارة في مظاهرها المختلفة ، وهي دراسة من الممكن أن تزودنا
بالأسس والمبادئ الخاصة بتاريخنا العثماني . ويتفق ابن خلدون مع
الآخرين في أن الانسان اجتماعي بطبيعته وعلى ذلك فهو في حاجة الى
عون بني جنسه كي يعيش منسجماً مع طبيعته . فكتب ابن خلدون :
« ان قدرة الفرد من بني البشر لا تكفيه للحصول على الطعام الذي يحتاج
اليه ، ولا تمده بالكمية اللازمة كي يعيش . وحتى لو افترضنا الحد
الأدنى من الطعام - ونعني بذلك قوت يومه ، (حبة) من القمح ، على
سبيل المثال - فان هذا القدر من الطعام لا يمكن الحصول عليه الا بعد
اعداد كثير مثل الطحن ، والعجن ، والحبز . وكل من تلك العمليات
الثلاث تحتاج الى آنية ، وأدوات وكلها لا يمكن أن تتوفر دون مساعدة
العديد من أصحاب الحرف ، مثل أصحاب حرف الحدادة ، والنجارة ،
وصناع الفخار . واذا ما افترضنا أن في استطاعة الانسان أكل القمح
قبل أن يصير خبزاً ، فمن الضروري أن تمر حبات القمح بعمليات عديدة :
منها بذر الحب ، وحصد القمح ، ودرس الحنطة لفصلها عن سنابل القمح .
وتتطلب كل عملية من تلك العمليات السابقة عدداً من الآلات وعدداً يزيد
على عدد الحرفيين الذين سبق ذكرهم . وهي عمليات تفوق طاقة شخص
بمفرده ، بل انه لن يستطيع القيام بجزء منها ، وحده » (٢٠) .

وأشار ابن خلدون الى ظروف أخرى لا يمكن فيها الاستغناء عن
مساعدة الجماعة من أجل صالح الفرد . فالفرد يحتاج للمساعدة عندما

يشعر بضرورة الدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة ، على سبيل المثال ، أو ضد عنوان من داخل الجماعة . وفي الحالة الأخيرة فمن الواجب على الحاكم أن يقدم المساعدة . « ومن ثم فمن الواضح أن سلطة الحاكم لازمة طبيعية للانسان وضرورية للجنس البشرى بلا أدنى ريب ، » (٢١) .
ويعلن ابن خلدون بحزم واصرار على أن اعتلاء الحاكم للسلطة لا يستلزم بالضرورة أن مشيئة الله هي التي أرادت ذلك ، وأعلن أيضا أن الحاكم لا يستمد سلطته من الله ، كما كان يدعى بعض الفلاسفة .

ثم اعتقد ابن خلدون أن الأرض ، « عنقود من العنب يطفو فوق ماء » (٢٢) ، البحار ، والمحيطات ، والأنهار ، وكتب عن نهر النيل ، فقال ان منبعه عند سفح جبل ضخيم على بعد ست عشرة درجة خلف خط الاستواء : « ولا يعرف جبل أعلى منه في العالم » (٢٣) . وقدم للقارئ خريطة تمكنه من متابعة بحثه عن المناطق السبع التي تحتويها الأرض . وقدم ابن خلدون معلومات جغرافية تشابه تلك التي تم التسليم بصحتها ، على وجه التعميم ، في عصره . وكما أوضح ابن خلدون نفسه ، فان كثيرا من تلك المعلومات « مأخوذة عن كتاب مثل بطليموس Potlemy في الجغرافيا ، ومن بعده مؤلف كتاب روجر The Book of Roger (بواسطة الإدريسي) » (٢٤) .

وركز ابن خلدون معظم اهتمامه على المناطق الثلاثة ، والرابعة ، والخامسة ، والتي تشكل جميعها المناطق المعتدلة : وأن الشعوب التي تعيش في تلك الأقاليم المعتدلة هي أكثر الشعوب تحضرا . ثم قال : « ان سكان تلك المناطق أكثر اعتدالا واتزاناً (وفي تناسب جيد) بالنسبة لأجسادهم ، ولونهم ، وصفاتهم الشخصية ، وأحوالهم العامة . واتضح أنهم يميلون الى الاعتدال الى حد كبير في مساكنهم ، وملابسهم ، وأطعمتهم ، وحرفهم . ويسكنون بيوتا مصنوعة من الأحجار ومزينة بأيدي العمال المهرة . وينافسون بعضهم بعضا في إنتاج أفضل الأدوات والآلات . ويجد المرء عندهم المعادن الطبيعية ، مثل الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والقصدير . ويستعملون المعدين النفيسين (الذهب والفضة) في معاملاتهم المالية . وغالبا ما يتجنبون الاسراف في كل أحوالهم . تلك كانت أحوال سكان المغرب ، وسوريا ، والعراق ، وغرب الهند (السند) ، والصين ، بالإضافة الى إسبانيا ، وأيضا المسيحيين الأوربيين المجاورين » (٢٥) .

وكان ابن خلدون يرى أن الأحوال الصحية لسكان الصحارى أفضل من مثيلتها عند سكان التلال ونسب ذلك الى تقشفهم في نظامهم الغذائي .

وأضاف أن الناس الذين يكتفون بالقليل من الطعام دون تقييرهم أكثر الناس تمسكا بتعاليم الاسلام كقاعدة عامة ، ويعمرون أكثر من غيرهم . وكانت هذه الصفات الحميدة نتاجا لبيئتهم المحيطة بهم . بيد أن الله يهب بعضا من خلقه قدرات خارقة من نفاذ البصيرة كما فعل مع الأنبياء . وأقر ابن خلدون ، دون ريب ، بصحة تلك القدرات ، كما آمن بقدرة بعض الناس على تفسير الأحلام و « الرؤى » التي يراها النائم ، « فى منامه » . واعتقد ابن خلدون أن بعض الناس لديهم القدرة على التنبؤ بالغيب بالنظر بتركيز لفترة من الوقت فى المرايات أو الأنية التى بها ماء ، وبالإضافة الى ذلك ، « تلك العبارات المتعلقة بأمور الغيب التى ترد على السنة المتخلفين عقليا » (٢٦) .

وقد يندهش القارىء الذى لديه فكرة عن المكانة العالية التى يحظى بها ابن خلدون لعمق تفكيره ، عند سماعه لتلك المفاجآت الأخيرة ، الا أنه سيجد ما يعيد الطمأنينة الى نفسه فى الفصل الثانى من الكتاب الأول لابن خلدون حيث يؤكد هذا العالم على أنه يتمتع بمكانة مرموقة . وهنا يقدم ابن خلدون تحليلا علميا عن حضارة البدو والشعوب المتنقلة بصفة عامة . وتصور الفقرات الأولى نمط الحياة وتطورها من حياة القبيلة البدائية الى أرقى المراحل الحضارية . « اتخذ بعض الناس الزراعة كوسيلة لكسب عيشهم وزرعوا الحضروات والبقول . واتخذ البعض الآخر تربية الحيوانات الداجنة من الأغنام ، والماشية ، والماعز ، ونحل العسل ، ودود القز ، للاستفادة منها ومن نتاجها ولا يستطيع أولئك الذين يعيشون على الزراعة أو تربية الحيوانات العمل دون استغلال الصحراء لأنها دون غيرها هى التى تتيح لهم فرصة الحقول الشاسعة ، والأراضى الزراعية ، والمراعى ، وكل شئ غير متيسر الحصول عليه فى المناطق المأهولة بالسكان . لذلك كان من المحتم عليهم المعيشة فى نطاق الصحراء . ولم يتوصلوا فى معيشتهم الا الى حد الكفاف لعدم مقدرتهم على الحصول على غير ما تحت أيديهم ، وصار نظامهم الاجتماعى والتعاونى قائما على سد متطلبات الحياة من مآكل ، ومأوى ، ودفء . وساعدت أحوالهم الأخذة فى التحسن على التوالى . وزيادة ثروتهم عن حاجتهم ، على تزايد شعورهم بالطمأنينة وتقبل الأمور فى يسر . ثم تعاونوا من أجل أمور خارج نطاق الضروريات فبنوا المساكن الضخمة ، وشيدوا القرى والمدن لحماية أنفسهم . وتبع ذلك مزيدا من الرفاهية وسهولة فى سبل العيش ، مما أدى الى تكوين عادات متطورة قائمة على الرفاهية ورغد العيش . وبدأوا يفاخرون بأعداد الطعام ومطابخ اعداد الطعام الفاخر ، وباستعمال الثياب الفاخرة المصنوعة من الحرير ، والقماش المطرز ، والمنسوجات الأخرى الفاخرة ، وبتشديد

المباني العالية والأبراج ، والأثاث الفاخر في مبانيهم . وتقدموا في أساليب الزراعة . وبنوا القلاع والقصور ، وزودوها بالمياه الجارية . وزادوا في علو ارتفاع قلاعهم ، وتنافسوا في تزويدها بكل المتطلبات اللازمة . واختلفوا في أنواع ملابسهم ، وسررهم ، ومركباتهم ، والأدوات النافعة التي يستخدمونها في أغراضهم . والآن ننتقل الى « الناس الذين يعملون وهم جالسون » ونعني بهم سكان المدن والريف ، الذين يعملون في الحرف الفنية كوسيلة لكسب عيشهم ، وبعضهم يشتغل بالتجارة . وهم يكسبون أكثر من البدو ، ويعيشون في رغد من العيش ، وتعتبر حياتهم على ثرائهم ، (٢٧) .

ويرى ابن خلدون أن معظم أصحاب الحرف كانوا في الأصل من البدو ، وعاشوا في مستوى حضارى بدوى . ونظرا لأن البدو كانوا ملزمين بانتهاج حياة قائمة على ضروريات الحياة ، دون رفاهية أو ملذات ، « فان عاداتهم الذميمة ، وصفاتهم المستحقة للوم تكون طفيفة . ويكونون أكثر قربا من حالتهم الأولى ، وأكثر بعدا عن العادات الذميمة التي أثرت على أصحاب الحرف من خلال العادات القبيحة والذميمة » (٢٨) .

شكل إصدار التشريعات والاعتماد عليها لتحقيق الحماية علامة كبرى في تدهور الحضارة . فقبل تلك المرحلة كانت الفضائل الفطرية كافية لحماية الانسان وعندما ظهرت القوانين عملت على الاقلال من قدرة الانسان على الثبات والجلد والمقدرة على التحمل . ولو سئل ابن خلدون اذا ما كان هذا الرأي ينطبق على التشريعات التي وردت في القرآن الكريم ، لبادر بالقول ان القيود التي فرضتها الشرائع الدينية جاءت من الناس وليس كنتيجة لمعرفة فنية أو ثقافية علمية . . وطلوا محتفظين بشباتهم وجلدهم دون أن يصيبه الوهن ، ولم يعتره الضلأ سواء بالتعليم أم على يد السلطة الحاكمة . . . الى أن تضائل أثر الدين بينهم ، فوضعوا التشريعات الملزمة (٢٩) . وبمعنى آخر ، فان التشريعات المستمدة من الحكومة أو التعليم تؤدي الى القضاء على القدرة الذاتية على الجلد والثبات لأن أثرها المقيد والملزم يأتي من خارج ضمير الفرد . ومن ناحية ثانية ، فان تطبيق التشريعات الدينية لا يعمل على اضعاف القدرة الذاتية على الجلد والثبات لأن قوتها الملزمة أمر فطرى .

وكتب ابن خلدون عن مبدأ الشعور الجماعى « العصبية » وهو مفهوم أعطاه معناه واشتهر به فالشعور الجماعى هو الذى يمكن القبائل البدوية من الدفاع عن نفسها ضد الأعداء ودون انتظار تحريضات أو

أوامر من شيوخها . « ولا يكتب التوفيق لهم فى الدفاع وحماية أنفسهم
إلا إذا كانوا مجموعة مترابطة على الحب ووحدة الأصل . وذلك يقوى من
قدرتهم على التحمل ، ويجعل أعداءهم يعملون لهم ألف حساب ، طالما
كان حب الفرد منهم وتعلقه بأسرته وعشيرته يفوق أى شىء آخر . فالله
(سبحانه وتعالى) وضع فى قلب الانسان المودة والرحمة لذوى القربى ،
ولبنى البشر ، ويعمل هذا على التراحم ، والتعاطف ، ويجعل الأعداء
يخشون بأسهم » (٣٠) .

وتمتد العصبية لتشمل الأتباع والحلفاء أيضا لأنها « تؤدى الى
الاتصالات الحميمة تماما ، أو تفعل كما يفعل الأصل المشترك على وجه
التقريب » (٣١) وكل هؤلاء الناس ، الذين انحدروا من جد واحد على
استعداد ان يعترفوا ومعهم الأتباع والحلفاء بقيادة أحدهم عن طيب خاطر .
وكل ذلك بفضل الشعور المشترك .

بيد أن شعبا وحدثه العصبية ذات مرة ، من الممكن أن يفقدها عندما
يرتبط بشعوب أخرى أو عندما يركن هذا الشعب الى حياة الدعة
والاستقرار . وهناك بعض الناس يجمعهم معا شعور جماعى زائف .
وينطبق ذلك على بنى اسرائيل . فكتب ابن خلدون ان بنى اسرائيل
هم أشد الناس تمسكا بهذا الشعور الجماعى . وفى الأصل كان لبنى
اسرائيل « أسرة » من أشهر الأسر فى العالم لسببين ، أولهما : ظهور
عدد كبير من الأنبياء والرسل من بين أجدادهم ، وأهمهم ابراهيم وموسى
الذى وضع تعاليمهم الدينية ، وثانيهما : شدة تمسكهم بشعورهم الجماعى
واعتمادهم بأنهم شعب الله المختار . ثم تم تجريدهم من كل ذلك ، وكتبت
عليهم الذلة والمسكنة وتعرضوا للفقر والفاقة . وعاشوا مشقتين فى أنحاء
المعمورة . وظلوا لعدة آلاف من السنين لا يعرفون سوى حياة الاستعباد
والارتياح فى أمرهم . ومع ذلك سيطر عليهم الاعتقاد الزائف بأنهم شعب
الله المختار . وردد الفرد منهم القول : « بأنه من أتباع هارون ، ومن
سلالة يشوع ، ومن قبيلة يهوذا » ، (٣٢)

ان الشعور الجماعى قوة مؤثرة بالغة الحساسية . انها ترفض
قيادة أى أسرة خارج نطاق الجيل الرابع . وقدم اليهود المثل الواقعى
على تلك الظاهرة أيضا . اذ قبلوا حكم أسرة واحدة - ابراهيم ، واسحق ،
ويعقوب ، ويوسف - لمدة أربعة أجيال . « ويعلم الفرد الذى حقق المجد
والشهرة لأسرته الثمن الذى دفعه مقابل ذلك العمل ، ويظل محافظا على
الخصائص التى أوجدت هذا المجد وعملت على استمراره . ويتعلم الابن
من والده هذه الأمور بحكم الصلة الشخصية . ومع ذلك فهو أقل خبرة

في هذا المجال عن والده ، بنفس قدر تبعية المرء الذي يتلقى معرفة الأفكار من خلال الدراسة النظرية على يد شخص عرفها عن طريق الممارسة العملية . أما الجيل الثالث فلا بد أن يكون قانعا بالالتزام بالمحاكاة والتقليد ، ومعتمدا على العرف والتقاليد على وجه الخصوص . وهذا الجيل أقل مرتبة من الجيل الثاني وهو يشبه الفرد الذي يعتمد كلية على التقاليد ويكون في مرتبة أدنى من الذي يمارس رأيا مستقلا .

وحيث أن يكون الجيل الرابع أقل مرتبة من الأجيال الثلاثة السابقة من كافة النواحي ولا بد أن هذا الجيل قد فقد الخصائص التي حفظت بناء المجد الضخم . ومن الناحية العملية فهو يحتقر تلك الخصائص . ويتصور الجيل الرابع أن هذا البناء الضخم لم يتم من خلال العمل والجهد . إذ يعتقد أن هذا المجد إنما هو محصلة ما فعله الأجداد وليس نتيجة الجهد الجماعي والخصائص الفردية . ذلك لأنه يدرك مدى الاحترام الكبير الذي يحظى به أمام الناس ، بيد أنه لا يعلم كيف نشأ هذا الاحترام وسبب ظهوره . وهو يتصور أن ذلك كله مرجعه إلى أصله ولا شيء سواه . ويتباعد عن الذين يشاركونهم الشعور الجماعي معتقدا أنه خير منهم . ويشق أنهم سيطيعونه لأنه ولد ليكون مطاعا بينهم ، برغم أنه يعرف الخصائص التي تجعل الطاعة أمرا ضروريا . ومن بين تلك الخصائص التواضع عند التعامل مع أولئك الناس واحترام مشاعرهم . ومن ثم فهو يعتبرهم جديرين بالازدراء ، وهم بدورهم ، يثورون ضده ويحتقرونه . وينتزعون القيادة السياسية منه ومن ذريته ويسلمونها إلى أحد أقاربه ، أمثالا لشعورهم الجماعي كما سبق أن ذكرنا ، (٣٣) .

إن الاحساس بالولاء للجماعة إلى زوال ، كحال أي شيء في الوجود . فالإنسان والحيوان ، والنبات والجماد ، وكل المخلوقات الأخرى تنشأ ثم تفتنى ، وهذا هو ما يستطيع المرء ملاحظته بنفسه . وتنطبق الحالة نفسها على الأحوال التي تأثر على سائر المخلوقات . « (٣٤) وعلى الرغم من غاية الاحساس بالولاء الجماعي هو تحقيق التفوق على الشعوب الأخرى ، فإنه ما أن يتم التوصل إلى تلك الحالة ، حتى يكون التدهور أمرا حتميا لا محالة . إذ إن السبب الأساسي في حدوث هذا التدهور هو حياة الثراء والترف التي حققتها الأمة عن طريق توطيد دعائم تفوقها على الشعوب الأخرى . وعندما تأخذ خشونة حياة البداوة في الانحسار ، يبدأ الاحساس بالولاء للجماعة ، والشجاعة ، في الفتور . ثم تحل الهزيمة ، ويليهما . الخضوع لحكم أمة أخرى ، وأخيرا مرحلة الاندساس .»

أمد الأعراب ابن خلدون بمعظم المادة العلمية الثقافية التي
بنى عليها تفسيراته . ويشكل ادراكه لأحوال الأعراب وتحليله لسماتهم
ومميزاتهم الطابع العام المسيطر على ما كتبه . واعتبرهم ابن خلدون غير
متمدنين بطبيعتهم ، ويميلون الى السلب والنهب والتخريب والتدمير .
وهم أعداء للتمدن . اذ قال : « ويرجع السبب في ذلك الى أن البدو أمة
غير متمدنة ، واعتادت على التصرف بهمجية وعلى الأمور التي تدل عليها .
وصارت الهمجية طبيعتهم الميزة والمعبرة عن شخصيتهم . فاسلوبهم
الهمجي يعنى التحرر من قيود السلطة وعدم الخضوع للقيادة . ومثل
هذا الميل الفطري انما هو بمثابة رفض للتمدن وتقيض له . وتبجه كل
أنشطة البدو المألوف لديهم الى السفر والانتقال . واذا كان الاستقرار
يؤدى الى التمدن فان تلك الأنشطة القنائة على الترحال فى تناقض
وتعارض مع التحضر . فعلى سبيل المثال ، يحتاج البدو الى الأحجار
لاستخدامها كدعائم يضعون عليها قدور الطبخ . ولذلك ينتزعونها
من المباني التي يهدمونها للحصول على تلك الأحجار لاستعمالها فى ذلك
الغرض . ويحتاجون للخشب أيضا لاستخدامه كدعائم لحيامهم ، وكأعمدة
للخيام التي يسكنونها . وطبيعة هذه الحياة فى تعارض تام مع اقامة
المباني التي تشكل القاعدة الأساسية للتحضر . » (٣٥)

وما زالت هناك سمات أخرى لدى الأعراب جعلتهم معادين للتحضر .
فقد أهملوا تشجيع تطوير الحرف والمهارات ، وكان ينقصهم الاهتمام
بالتشريعات التي تكبح جماح الذين مالوا الى فعل الشر ، وكل العرب كان
لديهم الطموح فى أن يكونوا قادة . ولذلك فمن حسن الطالع أن ظهرت
قوة بمرور الوقت عملت على تهذيب الفرد العربى البدائى ومكنته من
اقامة حضارة مزدهرة . وكان الدين هو تلك القوة التي تعمل على
القضاء على الفظاظ والغلظة ، ويكبح جماح الحقد والحسد فيما بينهم .
وبالإضافة الى ذلك فلا يوجد شعب فى مثل سرعة العرب فى تقبل
الحقائق الدينية والدعوات الحقّة ذلك لأن طباعهم ظلت بعيدة عن العادات
السيئة ولم تتأثر أخلاقهم بالصفات الشخصية الوضيعة . وتكمن
المشكلة الوحيدة فى نوعية الغلظة ، ومع ذلك فمن الممكن العمل على
التخفيف من حدتها طالما ظل الفرد على نسجته الأولى وبعيدا عن التقاليد
الذميمة والعادات القبيحة التي تترك أثرها فى النفوس (٣٦) .

واعترى ابن خلدون السلطة الحاكمة فى تعارض مع مشيخة القبيلة ،
وفى علاقاتها بالشعور بالولاء الجماعى . وبرغم أن أى دولة تتألف من
عدد من القبائل قد تكون من الضخامة الى الحد الذى يقلل من وضوح

عوامل العصبية بها ، فان هذا الشعور الجماعي يظل قائما كقوة بين الأسر التي تتنافس على القيادة . وما أن تحقق أسرة معينة تفوقها حتى تنسى الظروف التي حققت لها النجاح للوصول الى مركز القيادة . ثم يصبح أمرا متعارف عليه أمام كل أفراد القبيلة أن تخضع لتوجيهاتها . وعندما تتحقق هذه الفكرة تستطيع الأسرة أن تتجاهل ، بأمان ، أي اهتمامات أخرى تتعلق بالشعور الجماعي ، لأن الدين يعمل بقوة فعالة على أن يشد الشعب أزر بعضه البعض .

واعتقد ابن خلدون أن انجازات أي أسرة حاكمة ، وعلى وجه الخصوص الآثار المادية التي تركتها الى الأجيال القادمة ، كانت تتناسب مع قوتها الأصلية . فعلى سبيل المثال كانت الانجازات الكبرى للخليفة المأمون تعبيرا عن اتساع رقعة الدولة في عهده ، وعن الثروة الهائلة التي كانت تحت يد السلطة الحاكمة ، والأعداد الغفيرة من الأيدي العاملة التي سخرتها الدولة لصالحها . وخشية أن يصل القارىء أبناء الانجازات التي لن يجد لها نظير يماثلها في عصر حكى ابن خلدون كيف أن وزير سلطان ميرينيد Merinid أجاب على إشكاه فيما يتعلق بمدى صحة ما ذكره ابن بطوطة : « يجب ألا ترفض تلك المعلومات عن أحوال الأسرة الحاكمة لأنك لم تر تلك الأشياء بنفسك . والا فانك ستكون على مثال ابن الوزير الذي تربى في السجن . وكان هذا الوزير مسجوننا لعدة سنوات بأمر حاكم البلاد . وتربى ابنه معه في السجن . وعندما شب الفتى بدأ يسأل والده عن اللحم الذي يأكله . فأخبره والده أنه لحم الضأن . فسأله ابنه عن لحم الضأن وعندما وصف له والده الحمل بالتفصيل ، قال الابن : « انك يا والدي تعنى أنه يشبه الفأر » فغضب والده منه وقال : « وما هي العلاقة بين الحمل والفأر ؟ » وحدث الشيء نفسه بين لحم البقر ولحم الجمل فيما بعد . واعتقد الابن أن كل الحيوانات من صنف الفأر لأنه لم ير سوى الفأر في السجن » (٣٧) .

وبعد تقديم ابن خلدون لدراسة عامة عن الحكام المسلمين قدم وصفا موجزا عن الكنيسة النصرانية . وذكر أن الله أرسل عيسى الى بنى اسرائيل ، وألقى بعض التشريعات التي وردت في التوراة ، « وجرت على يديه بعض المعجزات ، مثل شفاء المرضى ، وإحياء الموتى » (٣٨) . وذكر أن عيسى أرسل الحواريين الى أنحاء العالم ، وبذلك أثار حقد هيرود Hreod عليه ، ومن ثم أقنع الأخير الامبراطور أوغسطس بضرورة صلب المسيح .

ووصف ابن خلدون السياسة التي انتهجها الرومان تجاه النصرانية على أنها كانت متناقضة ، تارة عدائية وأخرى محايدة ، الى أن جاء قسطنطين الذي اعترف بالنصرانية كأحدى الديانات الشرعية بالامبراطورية . وكتب عن الخلافات حول العقيدة. والتي مزقت المجتمع النصراني وأوقعت الفوضى في داخله ، وعن مجمع نيقية الأول ، وعن ظهور البابوية . واذا كانت معرفته لتاريخ الكنيسة النصرانية صحيحة تماما ، فان تفسيره للعلاقة بين البابا والامبراطور الروماني المقدس تكشف عن نقص مروع في معلوماته عن هذين العاهلين وما كتبه عنهما من الممكن قبوله في بعض المناسبات في أوائل العصور الوسطى ، بيد أن الحالة اختلفت على عصره بكل تأكيد . ان من عادة البابا فيما يتعلق بالنصارى في أوروبا مطالبتهم بالخضوع لحاكم واحد وأن يلتمسوا منه العون عند اختلافهم في الرأي وعند اتفاقهم حتى يتجنبوا التعرض للتفرق شيعا وأحزابا . وهدفه من ذلك أن يسود بينهم الشعور الجماعي وأن يكون أقوى المشاعر بينهم ، ومركزا في حاكم واحد ، حتى يتمكن هذا الحاكم من فرض سيطرته عليهم . وأطلق على هذا الحاكم لفظ « امبراطور » واعتباد البابا على أن يقوم بنفسه بوضع التاج على رأس الامبراطور حتى ينال البركة في احتفال مهيب . ومن ثم أطلق على الامبراطور « المتوج » وربما كان ذلك يعنى كلمة « امبراطور » . (٣٩)

ثم انتقل ابن خلدون الى كبار الموظفين الذين يعملون في الحكومة ، والى مسئولياتهم والقضاياهم . ودرجة أهميتهم ، محددا من يعمل في الوظائف الحربية ومن يعمل في الوظائف المدنية . ومهما كان عدد هؤلاء الموظفين ، وكانت درجة كفايتهم فان العبء الأساسي للحكم الناجح يقع على عاتق الحاكم . « فيجب على هذا الحاكم أن يمارس سلطة القيادة السياسية وأن يخضع الشعب لارادته ، مذكرا اياهم أنه الوحيد الذي له حق السيادة العليا . ويتطلب ذلك قدرا كبيرا من معرفة نفسية الشعب . ولذلك قال أحد الحكماء : « ان تحريك الجبال من أماكنها أهون على من التأثير على الشعب نفسيا . » (٤٠)

وفي مناقشة ابن خلدون للحرب . قام بالتفريق بين الصراع العادل والصراع غير العادل . ويبدو أنه وافق على الحروب العادلة ، والتي تصفها التشريعات الدينية باسم « الجهاد » (٤١) وكذلك الحرب ضد (المرتدين) . ودرس الطرق الحربية التي تستخدمها الشعوب المختلفة . وكان تحليله للعوامل التي تحقق النصر الحاسم في أي حرب يستحق التفكير بامعان على يد كل أولئك الذين يحاولون تحقيق مصائرهم بتلك

« الوسيلة » . « ليس هناك ثقة كاملة لتحقيق النصر في الحرب حتى لو وجدت المعدات والقوة العددية التي تحقق النصر في الظروف العادية » .
 إذ يلعب الحظ والصدفة دورهما في النصر والتفوق في الحرب . ويفسر ذلك حقيقة أن أسباب التفوق كقاعدة ، هي مجموعة من العوامل المتعددة وهناك عوامل ظاهرية مثل عدد الجند ، وصلاحية السلاح للاستعمال ، وجودة نوعيته ، وعدد الرجال الشجعان ، والمهارة في ترتيب صفوف الجند ، واستيعاب فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها ، وما شابه ذلك . وهناك العوامل الخفية . وقد تكون تلك العوامل الخفية نتيجة للحيل والخداع الذي يمارسه الانسان ، كإطلاق الأخبار المثيرة للذعر والشائعات بهدف خفض الروح المعنوية بين صفوف الأعداء ، وكاحتلال المواقع المرتفعة ، التي يمكن الانقضاض منها ومفاجأة العدو وتشستيت شمله ، والاختفاء في الأدغال أو المنخفضات وإخفاء أنفسهم من العدو في المناطق الصخرية ، وبذلك يكون الطرف غير المختفى في موقف محفوف بالمخاطر ، ومن ثم يلوذ بالفرار طلبا للسلامة بدلا من الدفاع عن نفسه .
 وقد تكون العوامل الداخلية مسائل الهية لا دخل للانسان فيها . وتؤثر هذه العوامل الخفية في الناس من الناحية النفسية وتزرع في قلوبهم الخوف وتحدث الأسباب الخافية الفوضى والارتباك في مراكز الجيش ثم تحل الهزيمة المنكرة . إن الهزائم المنكرة هي في غالب الأحوال نتيجة للأسباب الخافية ويعمل كل من الجيشين المتحاربين على اغتنام الفرصة من أجل استخدامها على أحسن وجه في احراز النصر . (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) (*) « الحرب خدعة » ، (٤٢)

وقد يرفض القارىء قبول اشارة ابن خلدون التي لا تتفق مع العلم بشأن العوامل « الالهية » المؤثرة على نتيجة المعارك ، في حين قد ينظر بعين العطف الى ما عرضه هذا العلامة فيما يتعلق بموضوع المواد المالية العامة . إذ ذكر ابن خلدون أن الأسرة الحاكمة في أوائل عهدها اكتفت بفرض ضرائب متواضعة لأن الموارد المالية التي حددتها التشريعات الدينية كانت كافية لسد الاحتياجات . وإبان الفترة التي كانت فيها الضرائب منخفضة كان لدى الناس الحافز على العمل بكل جهد وكد ، والانطلاق ومزاولة الأعمال التجارية الجريئة . ونتيجة ارتفاع المستوى الثقافي في عهد تلك الأسر الحاكمة . غير أنه بمرور السنين بدأت مظاهر الرفاهية من جانب الأسر الحاكمة ، وتمخض عنها زيادة الأعباء الضريبية ، التي أدت بدورها الى انخفاض في النمو الاقتصادي والثقافي . « وعندما

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

تستمر الأسرة الحاكمة في السلطة ويتبع حكامها بعضهم بعضا على التوالي يزدادون حنكة . وبدأت طريقه ابداء المشاعر والسلوك انبديويه تفقد اهميتها ومغزاها ، واختفت صفات الاعتدال والالتزام ، وبدأ ظهور انسلطة الحاكمة بما بها من حكم استبدادي ، وكذلك الثقافة المستمرة التي تشخذ الحنكة . وحينئذ اكتسب شعب الأسرة الحاكمة صفات شخصية تنم عن الذكاء . وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم واحتياجاتهم أكثر تفاوتا نتيجة لحياة الازدهار الاقتصادي والرفاهية والترفيه التي انفسوا فيها . وكننتيجة لذلك ازدادت الرسوم والضرائب المفروضة على رعايا الدولة ، من الزراعيين والفلاحين ، وكل الذين كانوا يدفعون الضرائب . وازدادت الرسوم والضرائب على الأفراد الى حد كبير لتحصيل أكبر قدر ممكن من الدخل الحكومي الضريبي . وتحددت الرسوم الجمركية على السلع التجارية وتم جبايتها عند بوابات المدن ، كما سنذكر فيما بعد . ثم تبع ذلك زيادة تدريجية في النسب الضريبية على نحو منتظم ، وفقا للزيادة التدريجية ونتيجة لذلك ، فرضت ضرائب باهظة على رعايا الدولة وأثقلت كاهلهم . وأصبحت الضرائب الباهظة أمرا ملزما وعادة متعارف عليها ، لأن الزيادة حدثت تدريجيا ، ولم يعرف أحد على وجه التخصيص المسئول عن زيادتها أو فرضها . وأثقلت كاهل الرعايا كالأمر الملزمة والعادات المتعارف عليها . ، (٤٣)

وقد يخامر القارئ الشك في النتيجة النهائية التي من الممكن أن تتمخض عن الارتفاع المستمر في تقدير الضرائب . فعندما تتخطى القيم الضريبية المقدره حدود العدالة والانصاف يفقد رعايا الدولة الرغبة في مزاولة المشروعات الصناعية . ويصبح من الممكن أن تكون النتيجة الحتمية هي الدخل الحكومي الأقل ، والذي بدوره يؤدي الى ارتفاع الرسوم الضريبية في المستقبل كما حدث في الماضي مما يشكل نواحي الضعف في الدولة . وتكون المحصلة النهائية هي القضاء التام على الحضارة .

« واذا ما استوعب القارئ ذلك ، فسيذكر أن أقوى الدوافع لزيادة النشاط الثقافي يمكن أن يتحقق بتحصيل أدنى قدر ممكن من الضرائب والرسوم من الشخصيات القادرة على مزاولة الأعمال الثقيفية . وفي هذه الحالة ، تكون تلك الشخصيات ميالة الى مزاولة عملها الثقيفي ، لأنهم يكونون على ثقة من أنها ستدر عليهم أرباحا . » (٤٤)

ومن ناحية أخرى ، فإن الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الشعب عملت على اضعاف وخمود الحافز على زيادة حجم الملكية رويدا رويدا .

وما أن توصل الشعب الى أن الزيادة التي يحققونها في مقدار دخلهم،
ستمتصها خزانة الدولة بكل وضوح ، حتى فقدوا الدافع على نشر
انجازاتهم الثقافية .

وفي الفصل الرابع من الكتاب الثاني اعتمد ابن خلدون أن إقامة
المدن وما بها من آثار ضخمة ومباني فخمة ليست سوى نتاج حضارة-
راسخة . وأن تلك الانجازات لم تظهر الى حيز الوجود الا بعد ظهور
سلطة قوية ورسوخ أركان أسرة حاكمة . « ان تفسير ذلك هو أن تخطيط
المبنى وإقامة المدينة وما هو الا علامات للحضارة الراسخة المنبثقة عن
الرفاهية والاستقرار ، كما ذكرنا آنفا . وجاءت مظاهر الاستقرار
الحضارى بعد انتهاء الحياة البدوية ومظاهرها . وبالإضافة الى ذلك فان
المدن الصغرى والكبرى بما بها من انجازات معمارية ضخمة كلها أقيمت
من أجل الجماهير وليست من أجل الأقلية . ومن ثم تضافت الجهود
من أجل انجازها . ولذلك فان الأسر الحاكمة والسلطة القوية كلها
من الأمور الضرورية عند انشاء المدن وتخطيطها . » (٤٥)

وفي الفصل الخامس من المقدمة بدأ ابن خلدون يكتب عن الوظائف
المختلفة وعن درجات العمال وفقا لمهاراتهم وعن الحرفيين أنفسهم . أما
عن التجارة فكانت في رأيه وسيلة طبيعية لتحقيق الربح .
ومع ذلك فمعظم خطواتها وأساليبها تعتمد على المهارة والحداع للحصول
على الربح وهو الفرق بين ثمن الشراء و ثمن البيع . وهذا الفائض هو
الربح . لذلك فالعرف يسمح بالدهاء والمكر في التجارة ذلك لأن التجارة
تحتاج الى المغامرة . ومع ذلك فليس معناها أن يستولى المرء على ممتلكات
الآخرين دون مقابل . ولذلك فهي مشروعة (٤٦) .

ويقول ابن خلدون ان العرب أقل الشعوب مهارة في الأعمال
الحرفية . ويفسر ذلك قائلا ان السبب في ذلك هو أن العرب أكثر
التصاقا بالصحراء وأبعد الناس عن الاستقرار والحرف والأمور الأخرى
التي تتطلبها الحضارة المستقرة . ومن ناحية أخرى فالشعوب غير العربية
في الشرق والأمم النصرانية على امتداد شواطئ البحر المتوسط لهم جميعا
بإعطاف طويل في الأعمال الحرفية لأن لهم حضاراتهم العريقة وهم أكثر بعدا
عن الحياة البدوية (٤٧) .

ثم أورد ابن خلدون ذكر الحرف المختلفة ، بيد أنه لم يذكرها
جميعها ، إذ أن ذلك من الأمور المستحيلة . « فهذه الحرف من الكثرة
مما يجعلها تفوق الحصر » (٤٨) . ووجد أن الزراعة هي أقدم الحرف
جميعها . ويعتقد ابن خلدون أن حرفة النجارة أدخلها نوح (عليه

السلام) . طبقا لما ذكرته كتب التراث . « وبفضل حرفة النجارة
بنى نوح فلكه . » (٤٩) وقدم ابن خلدون وصفا مفصلا عن « حرفة
القبالة . » وعند حديث ابن خلدون عن « مهنة الطب » ذكر الحديث
النبي الشريف الذي وصف الطعام بأنه أصل الداء . وقال ابن خلدون:
« ان المعدة بيت الداء ، وان الحمية هي الدواء . وان ملء البطن بالطعام
أساس كل داء . » (٥٠) واعتبر ابن خلدون حرفة كتابة الخط الجيد ،
حرفة سامية ، اذ انها احدي الصفات الخاصة التي يمكن من خلالها ان
يميز الانسان نفسه عن الحيوان . « (٥١) وكانت حرفة نسخ الكتب
قاصرة على المدن التي لها ماضى ثقافى عميق ، أما الموسيقى فكانت حرفة ،
« لها ارتباط وثيق بقرض الشعر » (٥٢)

ثم انتقل ابن خلدون الى دراسة العلوم ، مستعملا كلمة علم بمعنى
المعرفة التي يحصل عليها الانسان من خلال الملاحظة ، والدراسة ،
والتجربة . ويدخل ضمن نطاق العلوم دراسة الملائكة ، والأنبياء والرسل
والشريعة ، والفقه ، والتصوف ، وتفسير الأحلام ، وعلم العروض ،
والفلك ، والفيزياء ، والسحر ، والكيمياء « ولا نعرف أحدا في العالم
استطاع التوصل الى الغاية من علم الكيمياء . » (٥٣) أو استخلص أى
نتيجة مرغوبة منه ، وأخيرا علم التنجيم . وشجب ابن خلدون التنجيم
لأسباب دينية وطبيعية ولأن المنجم يمكن أن يشجع أعداء الأسرة الحاكمة
على الثورة اذا ما ظهرت علامات التنجيم المبشرة بنجاح مثل تلك المغامرة .
وكتب أيضا عن تربية التلاميذ وطريقة التعليم المتبعة في المدن
الاسلامية . وبالرغم من أنه رأى أن العلماء هم صناع الحضارة فانه أعلن
أنهم غير موفقين في الحقل السياسى :

« ويرجع السبب في ذلك الى تعود العلماء على التأمل الفكرى
والدراسة الدقيقة للآراء التي يستخلصونها من الدراسات الحسية ،
ويعتبرونها كالقضايا العامة ، حتى يتمكنوا من تطبيقها على بعض الأمور
بصفة عامة وليس على أمر بعينه ، وعلى الفرد ، والجنس ، والأمة ، أو
جماعة من الناس . ويستخلص هؤلاء العلماء تلك القضايا العامة في
التاكيد على صحة الحقائق عن العالم الخارجى .

ومن ثم فقد اعتاد العلماء على معالجة الأمور بالفكر والأفكار في كل
أنشطتهم الفكرية . ولا يعرفون سوى ذلك . ومن ناحية أخرى ، فلا بد
للعاملين في السياسة من ابداء الاهتمام البالغ بحقائق العالم الخارجى

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

والأحوال المرتبطة بالسياسة والقائمة عليها . (وتلك الحقائق والأحوال)
يشوبها الغموض . . والأحوال الموجودة في الحضارة لا يمكن أن تقارن
بعضها ببعض على الدوام . فقد تشابه من ناحية في الوقت الذي قد
تختلف فيه من نواحي أخرى . . .

والآن فقد اعتاد العلماء على التعميم والنتائج القياسية . وعندما
يبدون آرائهم في الأمور السياسية ، يخضعون ملاحظاتهم للفحص
والتمحيص ولأساليبهم في استخلاص النتائج . ومن ثم ، يقعون في
كثير من الخطأ . أو على الأقل لا يمكن الاطمئنان الى عدم وقوعهم في
الخطأ . . .

ولا يملك الشخص العادي صاحب العقل السليم ، والذكاء
المتوسط ، القدرة العقلية التي تمكنه من التأمل أو مجرد التفكير فيه .
ولذلك فهو يقتصر على قبول كل شيء كما هو ، والحكم على كل موقف
وكل فرد وفقا لظروفه الخاصة . ولا يتأثر رأيه بالقياس والتعميم .
ويتوقف معظم تأمله عند الأمور التي تدركها الحواس ولا يخرج عن
نطاقها في التفكير . . .

ولذلك فمثل هذا الرجل يمكن الاعتماد عليه عندما يفكر مليا
في المجالات السياسية . إذ لديه النظرة الثابتة عند التعامل مع
بني جنسه . ، (٥٤)

ومن هنا قدم ابن خلدون بحثا مستفيضا عن علم النحو والصرف
والأدب واختتم به كتابه المعروف باسم « المقدمة » ويمكن للمرء القول
بأنه في نطاق أوسع المعاني للتاريخ فحسب يستطيع العالم الحديث أن
يبرر وجود تلك الأفكار في مقدمة تاريخية .

وذكر الأسانيد للمؤرخين السابقين ، فيما يتعلق بالجنود .
التاريخية لكتابة التاريخ الاسلامي ، وذكر سلسلة من المصادر ، لاقامة
الدليل على أصالة ومصداقية كل ما حاول اثبات صدقه وصحته . واهتم
المؤرخون الأول بذلك عن طريق التأكيد على صحة الأحاديث النبوية
الشريفة ، وما فعله المؤرخون فيما بعد لاثبات صحة الأحداث التاريخية
السابقة . وعرض ابن خلدون في مقدمته تفسيراً رائعا لسلسلة من
الأسانيد التي تتعلق بقصة المهدي المنتظر ، والذي اعتقد كثير من
المسلمين أنه سيظهر في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا وسلاما . (٥٥)

التعريف

ومما لا شك فيه كانت مقابلة ابن خلدون لتييمور الأعرج أخطر حادثة مثيرة في حياته المليئة بالمفاجآت المثيرة ، ولا سيما أن اسم هذا القائد المغولي أثار الذعر في قلوب حكام أوروبا وآسيا بعد أن استطاع ، بمرور الوقت ، إقامة واحدة من أكبر الامبراطوريات في العالم . وبصفة عامة صارت واقعة مقابلة ابن خلدون مع تييمور مسألة مسلم بها عند الجميع ، بيد أن ظهور السيرة الذاتية لابن خلدون (التعريف) أكد على صحة هذه الواقعة وأمدنا بوصف مفصل وناض بالحياة والحيوية عن هذا اللقاء غير المتوقع وغير العادي . وفيما يلي نعرض جزءا يسيرا اقتبسناه من كتاب التعاريف ، « عندما وصلت الأنباء الى مصر بأن الأمير تييمور قد غزا آسيا الصغرى ، وحرب سيواس ، ثم اتجه الى سوريا ، حشد السلطان فرج جيوشه ، وفتح خزانة الدولة ، وأمر الجند بالتحرك الى مسوريا .

وفي ذلك الحين كنت خارج دائرة الحكم ، بيد أن يشبك ، دويدار السلطان استدعاني ، وطلب مني الذهاب معه في الحملة السلطانية . وعندما أبدت عدم رغبتى في ذلك ، حدثني بحزم ، برغم رقة حديثه وكرم أخلاقه الشديد .

ومن ثم ذهبت معهم في صباح اليوم التالي ووصلنا الى غزة ، واسترحنا هناك لعدة أيام انتظارا للأخبار . ثم اتجهنا صوب دمشق كي نصلها قبل أن يصلها التتار ، وعسكرنا في شقب ، ثم بدأنا المسير ليلا حتى وصلنا دمشق في الصباح .

ونصب السلطان فسطاطه وخيامه والانشاءات الأخرى في سهل قبة يلغا . ولما يش الأمير تييمور من عدم المقدرة على الاستيلاء على المدينة بالقوة ، ظل لمدة تزيد على الشهر على رابية فوق قبة يلغا ، ينظر إلينا بكل حذر ، في الوقت الذي كنا فيه نراقب تحركاته أولا بأول . واشتبك الجيشان ثلاث أو أربع مرات خلال تلك الفترة مع تحقيق انتصارات متفاوتة .

ثم علم السلطان وكبار الأمراء الموالين له أن بعضا من الأمراء الآخرين - يدبرون مؤامرة للاستيلاء على السلطة ، ويعدون العدة للعودة سريعا الى مصر لاعلان الثورة هناك . ومن ثم عادوا جميعا الى القاهرة . . .

وفي صباح اليوم التالي كان أهالي دمشق في حيرة من أمرهم لأن أنباء ما حدث كانت غامضة بالنسبة اليهم . وقابلني القضاة ورجال الشريعة . . . واتفقنا على أن نطلب من الأمير تيمور الأمان على ديارنا وأسرنا . . . وذهب القاضي وشيخ الصوفية لمقابلة تيمور خارج أسوار المدينة . ووافق تيمور على منح الأمان وأرسلهما لاستدعاء علية القوم والقضاة الآخرين .

وأبلغني القاضي أن تيمور استفسر عما اذا كنت قد ذهبت مع الجيش الى مصر أو مازلت داخل المدينة . فأجابه القاضي أنني مازلت موجودا في المدرسة التي أعمل بها . وبناء على ذلك قضينا الليل في الاعداد لمقابلة تيمور .

ثم دب نزاع بين بعض الشخصيات في المسجد الكبير ، لأن بعضهم رفض الثقة فيما قيل بشأن ترتيبات الاستسلام . ووصلني خبر ذلك في وقت متأخر من الليل وخشيت من حدوث محاولة اعتداء طائشة قد تودي بحياتي . ولذلك استيقظت عند الفجر وذهبت الى جماعة من القضاة الذين كانوا عند بوابة المدينة . وطلبت منهم السماح لي بالخروج من المدينة من بابها ، أو الموافقة على أن أتسلق السور الى الخارج . . . وفي بداية الأمر رفضوا ، ثم سمحوا لي بتسلق السور في الصباح .

وبالقرب من بوابة المدينة وجدت بعض ماشية تيمور . . . ثم أحضروا عطية ركبته وأرسلوا معي أحد حاشية السلطان تيمور ، الذي أوصلني اليه . . . وعندما نطقوا اسمي مصحوبا بلقب « القاضي المالكى المغربى » ، استدعاني تيمور ، وعندما دخلت خيمة المقابلات ، وجدته متكئا على مرفقه في الوقت الذي كانت تمر فيه أطباق كبيرة مملوءة بالطعام من أمامه والتي كان يأمر بتقديمها لمجموعات المغول التي كانت جالسة في حلقات أمام خيمته .

وعند دخولي قلت : « السلام عليكم » ، وأبدت مظاهر التواضع . ثم نظر الى ومد يده وقبلتها . وأشار على بالجلوس : وجلست حيث كنت ، وطلب من أحد حاشيته احضار أحد قضاة الحنفية الكبار . . . ليقوم بدور المترجم بيننا .

وسألني عن مسقط رأسي في بلاد المغرب وعن سبب قدومي من هناك . فأجبت « انى غادرت بلادى لأداء فريضة الحج . . »

ثم سألتني : « وأين ولدت ؟ » فأجبت : « فى أعماق المغرب حيث كنت أعمل مستشارا للملك هناك » .

فقال : « ما معنى « فى أعماق » عند وصفى للمغرب ؟ » (ويبدو وصفى لم يرضه) فقال : « انى لست مقتنعا » واننى أرغب فى أن تكتب وصفا عن كل بلاد المغرب – أقسامها البعيدة ، والقريبة ، وعن جبالها وأنهارها ، وقراها ، ومدنها – بطريقة مفصلة تجعلنى وكأنى شاهدها . »

فقلت : « سيتم ذلك تحت رعايتكم » . ثم طلب من خدمه أن يحضروا الى خيمته بعضا من الطعام يطلقون عليه « ريشتا » وكانت لديهم مهارة فائقة فى صنعه . وأحضروا بعض الأطباق بها الطعام ، ثم امرهم بوضعه أمامى . ثم تناولت الطعام الذى أعجبنى مذاقه ، وبلغ به السرور قدرا كبيرا لذلك .

ثم وصف ابن خلدون محادثاته مع تيمور ، وعودته الى محل اقامته فى دمشق ، وقرار تيمور بمهاجمة المدينة .

ثم شدد تيمور الحصار حول القلعة بكل عزم وجهد ، فأقام المنجنقات أمامها ، وقاذفات النفط ، وأدوات ذلك الأسوار ، وما شابه ذلك من آلات الحرب وتم ذلك فى غضون ستين يوما . واشتدت ضراوة الحصار الى أن انهار مبنى القلعة من كل الجوانب . . .

وحرم تيمور سكان دمشق من أرطال من الأموال التى استولى عليها تحت التعذيب بعد أن سلبهم كل الممتلكات ، والخيول ، والخيام التى تركها حاكم مصر خلفه . ثم اذن تيمور لجنوده بالسطو على بيوت أهالى دمشق ، واستولى هؤلاء الجند على كل ما فيها من أثاث ومتاع . وأضرم الجند النيران فى أثاث المنازل وكل مستلزماتها وفى الآنية وأدوات المطبخ التى لا قيمة لها وامتدت النيران الى جدران المنازل التى كانت تحمل عروق السقوف الخشبية واستمرت النيران فى الاشتعال الى أن وصلت الى المسجد الكبير ، وامتد اللهب حتى وصل الى سقف المسجد ، واذاب ما به من رصاص الى أن انهار السقف والجدار . ولا ريب أن ما فعله تيمور وجنوده كان عملا يدل على الحسة والغدر ، وإن كان تبدل الأحوال بيد الله وحده – يفعل فى عباده ما يشاء ، وله الملك وحده . . .

وكان أحد أصدقائى الذى كان على معرفة بعادات المغول قد لصحنى بأن أقدم لتيمور بعض الهدايا عندما ذهبت اليه عبر سور المدينة كما

ذكرت من قبل ٠٠٠ وعلى ذلك أخذت معي نسخة من القرآن الكريم كان
نجليدها فاخرا للغاية ٠٠ وسجادة ، ونسخة من قصيدة نهج البردة
للبوصيري ٠٠ وأربع علب مملوءة بالحلوى المصرية اللذيذة . وكان تيمور
جالسا في قاعة الاستقبال في قصر الابلق عندما أخذت معي تلك
الهدايا .

ووقف تيمور عندما شاهدني وأشار على بالجلوس عن يمينه ،
وعندما جلست اصطف بعض قادته على الجانبين . وبعد أن جلست هناك
نقرة قصيرة من الوقت وقفت أمام تيمور وأشارت الى الهدايا التي ذكرتها
والتي حملها خدمي . ثم وضعت الهدايا على الأرض ونظر تيمور اليها .
وفتحت القرآن الكريم ، وعندما رآه تيمور وقف على عجل ووضع المصحف
على رأسه ثم قدمت اليه كتاب نهج البردة . وسألني عنه وعن مؤلفه ،
فأخبرته عن كل ما أعرفه عن ذلك الكتاب . ثم سلمته السجادة ،
فأخذها وقبلها . ثم وضعت أمامه علب الحلوى ، وأخذت قطعة من الحلوى
وتناولها ، وبناء على عادة المجاملة ، وقام تيمور بتوزيع الحلوى على أعضاء
مجلسه . وقبل كل الهدايا وعبر عن امتنانه بها .

وعندما حان موعد رحيل تيمور وقرر أن يغادر دمشق ، ذهبت
لمقابلته في أحد الأيام وبعد أن انتهينا من تبادل التحيات المألوفة ، نظر
تيمور الى وقال : « هل لديك بغل الآن ؟ » فقلت : « نعم » . فقال :
« هل هو من النوع الجيد ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « هل من الممكن أن
تبيعه لي ؟ لأنني أرغب في شرائه منك . » فأجبت : « وفقك الله - ان
شخصاً مثلي لا يبيع لشخص مثلك ، بيد أنني سأقدمه لكم من باب الولاء
والطاعة ، بل وأقدم غيره اذا ما كان تحت يدي . » فقال تيمور : « لقد
قصدت من ذلك أن أقدم لك مكافأة مقابل كرمك . » (وكان تيمور صادق
الوعد مع نفسه وسمح لابن خلدون بالعودة سالماً الى مصر) .

« عهد السلطان أبو سعيد وأبو ثابت ابنا عبد الرحمن

و حفيدا أبي يحيى »

كان أسلوب ابن خلدون في « المقدمة » مشحوناً بعنصري التشويق
وإثارة الاهتمام الى الحد الذي يجعل القارئ عادة ما ينسى أن المؤرخ
لم يستهدف من هذا الجزء سوى مجرد أن يكون مدخلا لتاريخه العالمي .
ومع ذلك يستحق أحد أجزاء التاريخ العالمي ، أن يقرأ بعناية ، وهو
الجزء الخاص بالمغرب ، في شمال أفريقيا غرب مصر تقريبا . كما أن

كتبه ابن خلدون عن فبائل البربر يفوق ما ورد في أى مصدر موجود حالياً ، من ناحية التفاصيل الدقيقة والرقعة المكانية . ويستطيع المرء من خلال اطلاعه على الجزء التالى المقتطف من التاريخ العالمى لابن خلدون . أن يتوصل الى معرفة نوعية الحرب المتواصلة التى ميزت الحياة بطابع خاص فى ذلك الجزء من افريقيا لعدة قرون ، بل وحتى القرن الحالى . « ويشبه كل منهما القمر الذى يضىء فى كبد سماء امبراطورية عبد الرحمن ، فكل منهما بمثابة نجم يتلألأ شهامة ومهابة ، وكل منهما بطل لا يقهر ، ويسعى الناس اليهما للحصول على الأمن والأمان . فكان الأول مثلاً يحتذى فى الوفاء والورع ، أما الثانى فكان كالليث الذى ينقض على فريسته ، اذا ما دارت رحى الحرب . وكان الأول ينبوعاً للعدل ، أما الثانى فكان بحراً فى الجود والكرم ، ومصدراً لخير المملكة بعد أن كانت محرومة منه . واستطاع كل منهما معالجة مواقف صعبة بدت وكأنها مستعصية ، وكرس كل منهما نفسه من أجل العمل على اصلاح ما تهدم . واعادة بناء أسوار العاصمة ، واستعادة شهرة الامبراطورية .

ونجح كل منهما فى جمع شمل أفراد عائلتهم التى أجبرت على المعيشة فى المنفى فى أراضى غير صحية لا تصلح سوى لرعى المشية والاعنام . لقد قادوا أفراد عشيرتهم الى طريق المجد . وتسابق كل منهما فى الجهود الرامية الى تحقيق الرخاء والرفاهية لهذه الامبراطورية العظيمة ، وفى ارساء القواعد السليمة فى مجالى السياسية والادارة . وعمل كل منهما بكل حرص وجد ، أحدهما انشغل فى مواصلة الحرب ، والآخر فى تطبيق مبادئ التقوى والورع ، وادارة الشؤون الداخلية ، أما الآخر فظل يطارد العرب الى المناطق الجبلية التى يعيشون بها . وكان كل منهما مثلاً يحتذى فى القوة والفضيلة . وحافظ كل منهما على العلاقات الودية مع الآخر ، ونجحا فى اغلاق باب الخلاف . وتكلفت انجازتهما بالنجاح ، وكانت لهما اليد العليا فى صراعاتهما مع الأعداء ، وأصلحا كل ما تهدم ، وانتهجا سياسة ادارية حكيمة ، ونشرا العدل فى ربوع الامبراطورية .

ويبالأسف ! ان الأيام كفيلة بالقضاء على أروع الانجازات . اذ جاء اليوم الذى رفض فيه الحديد أن يطلق شرراً ، وذلك عندما صار أحد سيف غير ماض . الا يأتى اليوم الذى تنتهى فيه كل الشخصيات التى لا تهزم؟ ألا يحل الشقاء محل السعادة ؟ ان الملك لله وحده ، ملك الملوك .

واستطاع هذان الملكان الاستيلاء على تلمسان Tlemcen فى يوم الأربعاء فى الثانى والعشرين من جمادى الثانية سنة ٧٤٩ هـ (سبتمبر

١٣٤٨ م) ، كما أشرنا سابقا . وفي صباح اليوم التالي أعلنت قبيلة
بنى عبد الواد السلطان أبو سعيد ملكا - رحمة الله ! وقد أجبرته
المقتضيات السياسية على القاء القبض على عثمان بن يحيى بن جرير ،
الذي مات في السجن في رمضان في العام نفسه (نوفمبر - ديسمبر
١٣٤٨ م) .

واختار الباهلان أبو سعيد وأبو ثابت وزيرا لهما يدعى يحيى
ابن داود بن علي الماجن ، واختار مستشارا لهما يدعى عبد الواحد بن محمد
الدواق ، الذي طرده من الخدمة فيما بعد ، لادانته في أمور خلقية -
عينوا مكانه علي بن محمد بن مسعود بعد عودته من تونس ، كما سنرى
ذلك فيما بعد ، ان شاء الله تعالى .

وللقضاء علي سلطة القاضي تم تعيين الفقيه أبو العباس أحمد
ابن أحمد بن علي القيسي ، والمعروف باسم الوشاوش ثم أبو العباس
أحمد بن الحسن بن سعيد .

وبعد ذلك ، حمل كل منهما شارات السلطة ، وتلقى كل منهما
التأييد الشعبي ، وأصدرا الأوامر للتعين في الوظائف ، وأعلنا الأوامر
الخاصة بزيادة الضرائب . بيد أن الحكم كان في يد أبو سعيد الذي كان
يذكر اسمه مقرونا بالدعاء له في صلاة الجمعة ، وكان اسمه منقوشا على
العملة ، في الوقت الذي كان فيه أبو ثابت مسئولاً عن الشؤون العسكرية
والأمور الإدارية الخاصة بالأقاليم والحرب . وكان هذا النظام المذكور
دليلا على مشاعر المودة والمحبة بين الأخوين . وحظي هذا التنظيم لإدارة
دفة الأمور بموافقة شقيقهما الأكبر الذي ظل معتكفا في نيدروما Nedroma
حتى يتفرغ للعبادات .

وعلى الشاطيء (في إقليم كوميا Koumiya الواقع بين تلمسان
وراشجون Rachgoun) شق إبراهيم بن عبد الملك الكومي عصا الطاعة ،
بقصد استرداد عرش عبد المؤمن بن علي لصالحه الشخصي ، وتحرك
السلطان أبو ثابت - سامحه الله ! للقضاء على الثورة ، في العاشر من
رجب (أكتوبر ١٣٤٨ م) ، وانطلق على وجه السرعة وأخضع كل الاقليم
على امتداد الساحل (وهو اقليم ترارا Trara حاليا) ، حاصدا الأرواح
وجامعا الأسرى . واستولى على مدينة نيدروما ، وهونيان Honain وحاصر
وهران Oran بقواته التي كانت تحت قيادة عبد بن سعيد بن أجانا .
وأحكم أبو ثابت الحصار حول المدينة لعدة أيام ، غير أن بني راشد
ارتدوا ووعدوا ابن أجانا بالمساعدة في الصراع ضد بني عبد الواد . ثم

شن حاكم وهران Oran هجوما مضادا على القوات الضاربة للحصار حول المدينة ، فاضطر بنو راشد الى التراجع . وقتل في هذا الهجوم محمد ابن يوسف بن عنان بن فارس بن زيان بن ثابت بن محمد وتعرض معسكر عائلة عبد الواد للسلب والنهب ، غير أن السلطان أبو ثابت تمكن من النجاة ولاذ بالفرار بفضل سرعة جواده .

واستعد للقيام بحملة ثانية ضد وهران ، بيد أن أنباء وصول الناصر ، ابن السلطان أبو الحسن ، حاكم تونس ، على رأس القبائل العربية من السويدية ، بالاضافة الى الديلم ، والعطاف ، والحركان ، منعه من ذلك . وأرسل ملك تلمسين تحذيرا الى السلطان أبو عنان أو صرف النظر عن مشروعة لمهاجمة وهران ، واستعد لملاقاة جيش أعدائه القدامى والأقوياء الذين يقتربون من المدينة .

وفي بداية شهر المحرم ٧٥٠ هـ (مارس - ابريل ١٣٤٩ م) ، ذهب كل أفراد عائلة عبد الواد الى المغرب ، ووصلوا الى تلمسان باسم السلطان أبو عنان لكي يؤيدوا جهود ملك هذه المدينة ضد الناصر . ووجد أبو ثابت بينهم ابن أخيه زيان ، ابن السلطان أبو سعيد - رحمه الله ! وكان هذا الأمير قد لجأ الى فارس بموافقة والده ، عند رحيل الأخير الى افريقيا مع السلطان أبو الحسن .

ثم ذهب السلطان أبو ثابت - رحمه الله ! للقاء الناصر وجيش الأعداء ابان العشرة أيام الثانية من شهر المحرم . وبعث برسول الى المغاربة ليذكّرهم بضرورة الانضمام اليه بناء على شروط المعاهدة المبرمة بينهما ، بيد أنهم رفضوا الاستجابة الى طلبه .

وواصل أبو ثابت مسيره (تجاه الشرق بانقرب من سهل خلف (Chelif) ، وقابل جماعات العدو بين جانبي وادي أورك Ourk في أواخر ربيع الأول (يونية ١٣٤٩ م) . والحق بهم هزيمة نكراء ، وأطلق سراح الفقيه أبو الحسن علي بن مسعود الذي كان مسجوناً في ذلك الحين . ثم عاد السلطان عبد الواد الى عاصمته التي دخلها في أواخر شهر ربيع الثاني من السنة نفسها (يوليو ١٣٤٩ م) . وحمل في أعماق قلبه الضغينة ضد المغاربة ، الذي رفضوا تقديم مساعدتهم ضد عدو مشترك ، وبذلك نقضوا شروط المعاهدة (التي وهدت بينهم) .

ونظرا لتزايد حدة كراهيته واستيائه من المغاربة ، خرج أبو ثابت لمهاجمتهم في يوم الأحد في الثالث والعشرين من شوال ٧٥٠ هـ (أول يناير ١٣٥٠ م) . وكان اللقاء مع العدو وبين جانبي وادي الرحي Rihou في يوم الجمعة في السادس والعشرين من ذي القعد . وكانت المعركة

شرسة واستمر القتال الى آن منى المغاربة بهزيمة شنيعة وضارت جموعهم
أثرا بعد عين . وانسحبت الفلول المهزومة الى قمم الجبال والى سفوح
الوديان . واعترفت مدينة مازونا Mazouna بسيادة السلطان أبو سعيد .

وفى أوائل سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ - ١٣٥١ م) تلقى السلطان
أبو ثابت أنباء قنوم السلطان أبو الحسن الى الجزائر ومساندة الشيخ
وغيرهم . ثم عقد ملك تلمسين - رحمه الله - معاهدة سلام مع المغاربة
واستعد لمحاربة حشود العدو الجديد . وبعد أن عبر هضبه المنداس
Mundas توقف عند المديرسة El-Modairisa فى سيرسو Sersou
فى أوائل ربيع الأول (مايو ١٣٥٠ م) . وأجبر الشيخ ونزمار عارف
والقوات التى تحت قيادته على الهروب من أمامه . وظل السلطان ثابت
هناك عندما انضم اليه يحيى بن راحوى Roh'ou (بن تشفين
ابن معاطى) على رأس جماعة من الجند الذين أرسلهم السلطان أبو عنان
لمساعدته . ثم اتجه شرقا ، سابقا خصومه ، وتوقف امام ميديا Medea
التي احتلها . وهاجم المناطق الجبلية التي تحصن بها الأعداء وجمع
الرهائن . ثم فرض سيطرته على أراضى حمزة ، وأخضع الاقليم لحكمه .
وقضى على النورات ، وهدم الحصون ، وسلك طريق الغرب للعودة الى
عاصمته . ووصل الى المكان المعروف باسم الأشبور El-Achbour وهناك
قابل عيسى بن يعقوب بن عبد الحجاج الذي كان قد أرسله السلطان
أبو عنان ليرأس الجند . ومن هناك أسرع السلطان فى العودة الى عاصمته
فى السادس من رجب من السنة نفسها (٧٥١ هـ) الموافق العاشر من
سبتمبر ١٣٥٠ م .

وبعد ذلك بوقت قليل وصلت الأخبار بأن الناصر بن السلطان
أبو الحسن ، قد قتل عمران بن موسى الجينى ، واستولى على ميديا
Medea ميايانا Milyana وتيمزورات Timzourat وأن السلطان
أبا الحسين يسير تجاه الغرب على رأس عدد كبير من المحاربين ضدهم
من بين الديلم وغيرهم . ثم علم بعد ذلك ان على بن رشيد قد هرب مع
قبيلته الى بلاد عبد الودود . .

وغادر السلطان أبو ثابت تلمسين وهو فى حالة من الشجاعة تفوق
الوصف ، وعلى الرغم من أنه كان يفكر فى النتائج المفجعة للمعركة ،
فانه لم يفكر فى الهروب على الاطلاق . اذ كان فى منتهى الشجاعة كالجبل
الشامخ ، وكان يتدفق حماسا . تأثرت به قواته ، ويفيض وطنيته
تشبع بها جنوده ، عند تقدمهم . واستولى على تاجه أو تقيف

Taghit-ou-Nfif حيث انضم اليه على بن رشيد وقبيلته . وبعد أن تبادل العاهلان التحية وهما على ظهور الخيل ، تباحثا بالتفصيل في الطريقة التي يهاجمون بها العدو . وألقى السلطان أبو ثابت المسئولية على السلطان أبو الحسن ، عندما هاجم على بن رشيد بن أبو الحسن ومن معه . وفي يوم الأربعاء في العاشر من شعبان (١٤ أكتوبر ١٣٥٠ م) ، دارت المعركة في مكان يدعى نزييرين **Tizizin** في المنطقة المجاورة لخليف **Chelif** وكان القتال شرسا على كل الجبهات ، وتشيب له الولدان . ومنى المغربي وقبيلته بهزيمة نكراء ، وأحرز السلطان أبو ثابت نصرا ساحقا على أعدائه .

وكان أبو الحسن وجيشه قد تعرض لهزيمة منكرة عند قدوم الليل . ولقى عدد كبير من قواته حتفهم ، كان من بينهم ابنه الناصر . ومحمد ابن علي بن العزفي ، قائد جيشه ، وبركات بن حوفن بن البواق ، رئيس الشرطة ، وعلي بن القبلي ، مستشاره الخاص وكاتب العلامة . واستولى المنتصرون على ثروات ابي الحسن ، وأمتعته ، وزوجاته ، وبناته . والواقع أن العالم يتغير ، وأن الحرب مليئة المصادفات ، وأن لا حول ولا قوة الا بالله !

وصار أبو الحسن مدينا بغيانه لسرعة جواده . اذ هرب وانزمار **Wanzamar** بن عارف بالقرب من أراضي قبيلة السوايد . ومن هناك ذهب السلطان المهزوم تجاه الغرب ، وعبر الصحراء ، مقتريا من ملكه السابق في المغرب . ثم عاد السلطان أبو ثابت - رحمه الله - إلى عاصمته التي غطتها أكاليل الغار ، ومعه غنائم نفيسة ولا مثيل لها ثم دخل تلمسان في أول شوال من العام نفسه . (أكتوبر ١٣٥٠ م) .

مكتبة التراث الإسلامي

المصادر :

القائمة :

Procopius. H. B. Dewing. Trans., 7 vols. (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1914-1940), vol. II, p. 21. Hereafter, volumes I-IV will be cited as *Wars*, vol. VI as *Secret History*, and volume VIII as *Buildings*..... ١

Alfred Bel, ed. and trans., *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen Jusqu' au Regne D'Abou H'Ammou Mousa II* par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khaldoun. (Algiers : P. Fontana, 1903), p. 211. ٢

Sir John Froissart's *Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries*, 5 vols., Thomas Johnes, trans. (London : The Haford Press, 1803-10), vol. I, p. 517. ٣

Chronique De Abou-Djafar-Mohammed-Ben-Hjarirben Yezid Tabari, Hermann Zotenberg, trans. (Paris : Imprimerie Imperiale, 1958), vol. I, p. 9. ٤

Bel, *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Llemcen*, p. 213. ٥

Procopius, vol. IV. p. 221. ٦

Matthew Paris, <i>Mattheu Paris's English History</i> , J. A. Giles, trans. (London : H. G. Bohn, 1854), vol. III, p. 115.	- ٧
Paris, Mathew Paris's English History, vol. I, p. 487.	- ٨

الفصل الأول :

<i>Secret History</i> , pp. 97, 99.	- ١
<i>Wars</i> , vol. IV. pp. 71-72.	- ٢
<i>Buildings</i> , p. 3.	- ٣
J. A. S. Evans. <i>Procopius</i> (New York, Twayne Publishers, 1972), p. 78.	- ٤
<i>Buildings</i> , pp. 25, 27 29.	- ٥
<i>Wars</i> , vol. I, pp. 3, 5.	- ٦
<i>Wars</i> , vol. II, p. 95.	- ٧
<i>Wars</i> , vol. I, p. 3.	- ٨
<i>Wars</i> , vol. I, p. 5.	- ٩
<i>Buildings</i> , p. 3.	- ١٠
<i>Secret History</i> , p. 3.	- ١١
<i>Secret History</i> , pp. 5, 7.	- ١٢
	- ١٣ المعماريون
<i>Buildings</i> , pp. 29, 31.	- ١٤
<i>Wars</i> , vol. II, p. 43.	- ١٥
<i>Wars</i> , vol. IV p. 191.	- ١٦
<i>Wars</i> , vol. II, pp. 3, 5.	- ١٧
<i>Secret History</i> , p. 5.	- ١٨
H. B. Dewing, <i>Secret History</i> , p. ix.	- ١٩
<i>Secret History</i> , p. 105.	- ٢٠
<i>Secret History</i> , p. 149, 151.	- ٢١

* <i>Secret History</i> , pp. 97, 99, 101.	- ٢٥
So writes (I. A. Williamson, <i>Procopius, The Secret History</i> (Baltimore : Penguin Books, 1966), p. 29.	- ٢٢
<i>Wars</i> . vol. III, pp. 41, 43.	- ٢٤
<i>Secret History</i> , pp. 189, 191.	- ٢٥
See <i>Wars</i> . vol. I, p. 291.	- ٢٦
<i>Secret History</i> , pp. 75, 77.	- ٢٧
<i>Wars</i> , vol. IV. p. 419.	- ٢٨
<i>Secret History</i> , p. 199.	- ٢٩
From the Greek word for goat.	- ٣٠
<i>Wars</i> . vol. IV, pp. 11, 13, 15.	- ٣١
<i>Wars</i> , vol. III, p. 317, 319.	- ٣٢
<i>Wars</i> , vol. III pp. 317-319.	- ٣٣
<i>Wars</i> , vol. I, p. 3.	- ٣٤
<i>Secret History</i> , pp. 21, 23.	- ٣٥
<i>Wars</i> . vol. II, pp. 95, 97.	- ٣٦
<i>Wars</i> , vol. III, pp. 89, 91.	- ٣٦
<i>Wars</i> , vol. I, p. 223.	- ٣٧
<i>Wars</i> , vol. III pp. 253 255 257.	- ٣٨
<i>Wars</i> vol. III, pp. 201, 203, 205 207.	- ٣٩
<i>Wars</i> vol. I, pp. 109, III, 113.	- ٤٠
<i>Wars</i> , vol. II, p. 21.	- ٤١
ضابط في جيش نرسييس	- ٤٢
<i>Wars</i> . vol. V, p. 397.	- ٤٣
<i>Wars</i> , vol V, pp. 385, 387.	- ٤٤
<i>Wars</i> , vol. I. 453.	- ٤٥
<i>Wars</i> , vol. I, p. 341.	- ٤٦
" <i>Wars</i> , vol. I, p. 343.	- ٤٧

<i>Wars</i> , vol. II, p. 115.	- ٤٨
<i>Wars</i> , vol. I, p. 287.	- ٤٩
<i>Wars</i> , vol. IV, p. 405.	- ٥٠
تقع على الساحل بين روما و نابولي	- ٥١
<i>Wars</i> , vol. III, p. 109.	- ٥٢
<i>Wars</i> . vol. V, p. 61.	- ٥٣
<i>Wars</i> . vol. I, pp. 51, 53.	- ٥٤
<i>Buildings</i> , p. 69.	- ٥٥
رأى حلفاء بطرس أنهم قد ورثوا مكانته المتفوقة نظرا لأنه وهو أول حوارى المسيح كان أول أسقف لروما .	- ٥٦
<i>Wars</i> , vol. III, p. 25.	- ٥٨
<i>Wars</i> . vol. III, p. 221.	- ٥٩

الفصل الثانى

S. J. Crawford, <i>Anglo-Saxon Influence on Western Christendom, 600-800</i> (New York : Barnes and Noble. 1966), p. 103.	- ١
<i>Bede's Ecclesiastical History of the English People</i> , Bertram Colgrave and R.A.B. Mynors (Oxford : Clarendon Press, 1969), p. xxiii.	- ٢
<i>Bede's History</i> . p. 567 (v. 24). The v. indicates the twenty fourth chapter of the fifth book.	- ٣
See Behe's <i>History</i> , p. 595.	- ٤
اعتقد البعض أن اشارة فيرجيل الشاعر اللاتينى الأشهر فى العصور الوسطى لمولد طفل يستهل عصرا ذهبيا اشارة الى ظهور المسيح .	- ٥
He was "authoritatively recognized as saint" only in 1889. See Butler's <i>lives of the Saints</i> , ed. Herbert Thurston and Donald Attwater (New York : Kenedy, 1956), Vol. II, p. 404.	- ٦

Charles W. Jones <i>Beda's Pseudepigrapha : Scientific Writings Falsely Attributed to Bede</i> (Ithaca : Cornell University Press, 1939), p. 1.	- ٧
Bede's <i>History</i> , p. xix.	- ٨
Bede's "System of dating by the year of grace ... is his main contribution to historical writing."	
بعد أربع سنوات وستة أشهر من تولى يوليوس قيصر الحكم تأير على حياته نحو ستين نبيلاً من أعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان لأنه أمعن في الصلف والغرور .	- ٩
<i>Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi</i> , éd. Theodor Mommsen (Berlin : Hildebrand, 1061), vol. XIII, p. 280.	
Crawford, <i>Anglo-Saxon Influence</i> , p. 103.	- ١٠
<i>Bede's History</i> , p. 3, Preface.	- ١١
Ibid.	- ١٢
Ibid., pp. 3, 5, 7, Preface.	- ١٣
Ibid. p. 7, preface.	- ١٤
Ibid.	- ١٥
Ibid., pp. 133, 135 (ii. 1).	- ١٦
كانت جازو تقع على بعد أميال قليلة شرق سور هديران .	- ١٧
أحد الأقاليم الفرنسية التي هاجر إليها البريتون بأعداد كبيرة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين .	- ١٨
Bede's <i>History</i> , pp. 15, 17 (i).	- ١٩
20. Ibid., pp. 19, 21 (i. 1).	- ٢٠
شن يوليوس قيصر حملتين في عامي ٥٥ ، ٥٤ ق م .	- ٢١
<i>Bede's History</i> , pp. 21, 23 (i. 2).	- ٢٢
Ibid., pp. 29, 31, 33 (i. 7).	- ٢٣
Ibid., p. 39 (i. 10).	- ٢٤
Ibid., p. 45 (i. 12).	- ٢٥
Ibid., pp. 55, 57 (i. 17).	- ٢٦
Ibid., pp. 63, 65 (i. 20).	- ٢٧
Ibid., p. 69 (i. 22).	- ٢٨
Ibid., p. 107 (i. 30).	- ٢٩

Ibid., pp. 77, 79 (i. 26).	- ٣٠
Ibid., pp. 127, 129 (ii. 1)	- ٣١
Ibid., p. 165 (ii. 9).	- ٣٢
33. Ibid., p. 183 (ii. 13).	- ٣٣
34. Ibid., p. 183 (ii. 13).	- ٣٤
35. Ibid., p. 185 (ii. 13).	- ٣٥
Ibid., pp. 185, 187 (ii. 13),	- ٣٦
37. Ibid., p. 215 (iii. 1).	- ٣٧
See <i>Venerabilis Bedae Historiam Ecclesiasticam Gentis Anglorum ... Recognivit ... Instruxit Carolus Plummer</i> (Oxford : Clarendon Press, 1961), pp. lxiv-lxv.	- ٣٨
<i>Bede's History</i> , pp. 243, 245 (iii. 9).	- ٣٩
دعى الملك أوزلد ايدان للتبشير بالمسيحية *	- ٤٠
<i>Bede's History</i> , pp. TLS, TLF, 261 (iii. 14).	- ٤١
Ibid., pp. 265, 267 (iii. 17).	- ٤٢
Ibid., pp. 299, 301 (iii. 25).	- ٤٣
Ibid., p. 301 (iii. 25).	- ٤٤
Ibid., pp. 307, 309 (iii. 25).	- ٤٥
Ibid., p. 309 (iii. 26).	- ٤٦
Ibid., pp. 333, 335 (iv. 2).	- ٤٧
Ibid., p. 189 (iv. 18).	- ٤٨
Ibid., p. 415 (iv. 24).	- ٤٦
Ibid., p. 417 (iv. 24).	- ٥٠
Ibid., p. 419 (iv. 24).	- ٥١
Ibid., p. 513 (v. 17).	- ٥٢
Ibid., p. 515 (v. 18).	- ٥٣
Ibid., p. 557 (v. 23).	- ٥٤
<i>Bede's History</i> , p. 571 (v. 24).	- ٥٥

الفصل الثالث

<http://www.al-maktabeh.com>

- Muhsin Mahdi, *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (Chicago : University of Chicago Press, 1964), p. 135. — ١
- أقوال وأعمال النبي (صلعب) — ٢
- Selections from the Annals of Tabari*, ed. M. J. De Geoje (Leiden : E. J. Brill, 1902), p. ix. — ٣
- D. S. Margoliouth, *Lectures on Arabic Historians* (Calcutta : University of Calcutta, 1930), p. 116. — ٤
- A. J. Butler, *The Treaty of Misr in Tabari* (Oxford : Clarendon Press, 1931, pp. 8-11. — ٥
- Mahdi, *Khaldun's Philosophy*, p. 136. — ٦
- See *The Reign of Al-Mu'tisam*, trans. Elma Marin (New Haven: American Oriental Society, 1951), p. xvi. — ٧
- From Ibn Khaldun's *Ta'rif*. See Walter J. Fischel *Ibn Khaldun and Tomerlane* (Berkeley : University of California Press, 1952), p. 37. — ٨
- Chronique de Abou-Hjafar-Mohammed Ben-Djarirben *vezid Tabari*, trans. Hermann Zotenberg (Paris : Imprimerie Impdriale, 1958). vol. I, pp. 9-11. Translation by author. — ١٠
- Geschichte Der Perser Und Araber Zur Zeit Der Sasaniden Aus Der Arabischen Chronik Des Tabari*, trans. Th Noldek (Leyden : E. J. Brill, 1879), pp. 151-72, 238-53, 386-99. English translation by the author. — ١١
- E. W. Brooks, *English Historical Review* (London, 1900). vol. XV, pp. 736-47. — ١٢
- As quoted in *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire* by Edward Gibbon (Philadelphia : John D. Morris & Co., 1845), vol. V, pp. 446-47. — ١٣
- Ibid.*, p. 447. — ١٤

الفصل الرابع

<i>The Deeds of Frederick Barbarossa by Otto of Freising.</i>	- ١
trans. C. C. Mierow (New York : Columbia University Press, 1953), p. 5. Hereafter, this work will be cited as <i>Deeds</i> .	
Ibid., p. 79.	- ٢
Ibid., pp. 246-47.	- ٣
The edition used in this study is that translated by C. C. Mierow, entitled <i>The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A.D. by Otto, Bishop of Freising</i> (New York : Columbia University Press, 1928). Hereafter, this volume will be cited as <i>Two Cities</i> .	- ٤
Deed, p. 28.	- ٥
Two Cities, p. 205.	- ٦
Ibid., p. 172.	- ٧
Ibid., pp. 93-94.	- ٨
Ibid., p. 96.	- ٩
Ibid., p. 191.	- ١٠
<i>Deeds</i> , p. 24.	- ١١
<i>Two Cities</i> , pp. 87-88.	- ١٢
Ibid., pp. 88-89.	- ١٣
Ibid., p. 89 .	- ١٤
Ibid., p. 93.	- ١٥
Ibid., pp. 95-96.	- ١٦
Ibid., p. 187.	- ١٧
Ibid., p. 160.	- ١٨
<i>Deeds</i> , p. 159.	- ١٩
<i>Two Cities</i> , p. 417.	- ٢٠
Ibid. p. 394.	- ٢١

<i>Deeds</i> , p. 101.	٢٢
<i>Two Cities</i> , pp. 279-80.	٢٣
• وصف أوتو غير دقيق	٢٤
• يشير أوتو دائما الى الألب باعتبارها البرانس	٢٥
٢٦ - يشتم من كتابة أوتو تحيزا للكنيسة حيث حور اسم عدو الأبا من كلمت الى « دمنت » التي تعنى معتوه	
<i>Deeds</i> , pp. 28-30.	٢٧
<i>Two Cities</i> , pp. 90-91.	٢٨
<i>Deeds</i> , p. 51 and note 89.	٢٩
<i>Two Cities</i> . p. 96.	٣٠
<i>Ibid.</i> , pp. 443-44.	٣١
<i>Ibid.</i> , pp. 411-12.	٣٢
<i>ibid.</i> , p. 378.	٣٣
<i>Deeds</i> , pp. 124-25.	٣٤
<i>Two Cities</i> , p. 382.	٣٥
<i>Ibid.</i> , p. 283.	٣٦
<i>Ibid.</i> , pp. 240-41.	٣٧
<i>Deeds</i> , pp. 120-22.	٣٨
<i>Two Cities</i> , p. 435.	٣٩
<i>Ibid.</i> , pp. 428-29.	٤٠
<i>Ibid.</i> , pp. 120-22.	٤١
<i>Ibid.</i> , pp. 167-28.	٤٢
<i>Ibid.</i> , p. 91.	٤٣
<i>Ibid.</i> , p. 93.	٤٤
<i>Ibid.</i> , pp. 323-24.	٤٥
<i>Ibid.</i> , p. 462.	٤٦
<i>Ibid.</i> , p. 462.	٤٧

<i>Ibid.</i> , pp. 478-79.	- 28
<i>Ibid.</i> , p. 514.	- 29
<i>Ibid.</i> , p. 141.	- 30
<i>Ibid.</i> , p. 196.	- 31
<i>Ibid.</i> , pp. 271-82.	- 32
<i>Deeds</i> , pp. 80-81.	- 33
<i>Two Cities</i> , p. 429.	- 34
<i>Ibid.</i> , p. 349.	- 35
<i>Ibid.</i> , pp. 156-57.	- 36
<i>Ibid.</i> , p. 146.	- 37
<i>Deeds</i> , pp. 142-43.	- 38
	- 39
<i>Two Cities</i> , pp. 272-73.	- 40
<i>Ibid.</i> , p. 274.	- 41
<i>Ibid.</i> , p. 274.	- 42
<i>Ibid.</i> , p. 95.	- 43
<i>Two Cities</i> , pp. 193-94.	- 44
<i>Deeds</i> , pp. 67-70.	- 45
<i>Two Cities</i> , pK 277.	- 46
<i>Deeds</i> , pp. 118-23.	- 47
<i>Ibid.</i> , p. 79.	- 48
<i>Ibid.</i> , p. I 43.	- 49
<i>Ibid.</i> , p. 83.	- 50

مكتبة الرواق للدراسات الإسلامية ومقتل الأحياء

See Richard Vaughan, *Mathew Paris* (Cambridge : University Press, 1958), p. 5. — ١

See Vaughan, 1958, Paris, p. 7 and plate I : see also *Mathew Paris*. p. 7 and plate I ; see also *Matthaei Parisiensis, Monachi Albani Chronica Majora*, ed. Henry Richards Luard (London : Longman and Co., 1880). vol. V. p. 748 and note. — ٢

Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages (London : Public Record Office, 1858-1896). — ٣

Chronica Majora, vol. III, p. 199. — ٤

Ibid., vol. III, p. 194. — ٥

Matthaei Parisiensis, Monachi Sancti Albani, Historia Anglorum, ed. Frederick Madden (London : Longmans, Green, Reader and Dyer, 1869), vol. III. pp. 51-52, and and note 3. See also Vaughan, *Mathew Paris*, pp. 121-22. — ٦

Ibid. — ٧

Mathew Paris's English History trans. J. A. Giles (London : H.G. Bohn, 1954), vol III, p. 220. — ٨

Chronica Majora, vol. IV. pp. 644-45. — ٩

Mathew Paris's English History, vol. II, p. 415. — ١٠

Chronica Majora, vol. II, p. 466. — ١١

Mathew Paris's English History, vol. II, p. 502. — ١٢

Ibid., vol. III, p. 231. — ١٣

Ibid., vol. II, p. 242. — ١٤

Ibid., pp. 467-68. — ١٥

Ibid., vol. I, p. 344. — ١٦

Ibid., vol. III, p. 251. — ١٧

Ibid., vol. I, p. 312.	- 18
Ibid., pp. 268-71.	- 19
Ibid., vol. III, pp. 166-67.	- 20
Ibid., vol. I, p. 38.	- 21
Ibid., vol. I, pp. 38-39.	- 22
Ibid., p. 332.	- 23
Ibid., pp. 277-78.	- 24
Ibid., vol. II, pp. 196-97.	- 25
Ibid., p. 433.	- 26
Ibid., p. 247.	- 27
ibid., vol. I, pp. 67-68.	- 28
Ibid., vol. I, pp. 155-56.	- 29
Ibid., vol. III, pp. 115-16.	- 30
يشكك متى في صحة رقم الامبراطور	- 31
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. I, pp. 93-95.	- 32
Ibid., pp. 137-38.	- 33
Ibid., vol. II, p. 22.	- 34
Ibid., p. 54.	- 35
Ibid., vol. I, p. 47.	- 36
Ibid., pp. 335-36.	- 37
كان بونيفس يدين باختياره الى تاني الملك هنري	- 38
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. I, p. 459.	- 39
Ibid., vol. III, p. 305.	- 40
حرم الجمع في اجتماعه الرابع ١٢١٥ انشاء نظم جديدة	- 41
<i>Mathew Paris's English History</i> , vol. II, p. 35.	- 42
الرهبان الفرنسيين والادومنيكان	- 43

<i>Matthew Paris's English History</i> vol. I, pp. 475-76.	- ٤٦
Ibid., vol. III, p. 140.	- ٤٥
Ibid., pp. 163-64.	- ٤٦
Ibid., p. 76.	- ٤٧
See <i>ibid.</i> , vol. I, pp. 314-15; also <i>ibid.</i> , pp. 15-20.	- ٤٨
Ibid., vol. II, p. 278.	- ٤٩
Ibid., pp. 401-2.	- ٥٠
Ibid., vol. I, p. 388.	- ٥١
Ibid., p. 193.	- ٥٢
Ibid., p. 451.	- ٥٢
Ibid. vol. II. p. 251.	- ٥٤
Ibid., vol. III, pp. 312-13; see also pp. 265 and 283.	- ٥٥
Ibid., p. 115.	- ٥٦
Ibid.	- ٥٧
Ibid., vol. II, p. 42.	- ٥٨
Ibid., p. 405.	- ٥٩
Ibid., pp. 405-10.	- ٦٠
Ibid., vol. III, p. 1.	- ٦١
Ibid., vol. I, p. 481.	- ٦٢
Ibid., vol. III, p. 257.	- ٦٣
Ibid., vol. I, p. 461.	- ٦٤
Ibid., vol. III, p. 183.	- ٦٥
Ibid., vol. II, p. 410.	- ٦٦
<i>Matthew Paris's English History</i> , vol. III, p. 244.	- ٦٧
Ibid., vol. III, p. 100.	- ٦٨

الفصل السادس

The edition of Froissart's chronicles used in this study is *Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries*, trans. Thomas Johnes, 5 vols., London : The Haford Press, 1803-1801). Hereafter cited as *Chronicles*.....

Charles Dunn, "Introduction6 in *The Chronicles of England. France Spain* by Sir John Froissart (New York : Dutton, 1961, p. p. v.....

Chronicles, vol. I, p. 2. - ٣

Ibid., vol. IV, p. 13. - ٤

Ibid., p. 300. - ٥

Ibid., p. 426. - ٦

Ibid., p. 409. - ٧

Ibid., p. 368. - ٨

Ibid., vol. III, p. 72. - ٩

Ibid., vol. I, p. 1. - ١٠

Ibid., vol. III, p. 414. - ١١

Ibid., p. 475. - ١٢

Ibid., p. 475. - ١٣

Ibid., p. 642. - ١٤

Ibid., p. 414. For a study in support of Froissart's reliability, see Leonard Manyon, "An Examination of the Historical Reliability of Froissart's Account of the Campaign and Battle of Crecy," *Papers of the Michigan Academy of Science, Arts and Letters*, VII (1927), pp. 207-24. - ١٥

Chronicles, vol. II, p. 649. - ١٦

Ibid., vol. IV, p. 13. - ١٧

Ibid., vol. III, p. 503. - ١٨

Ibid., p. 209.	— ٢٩
Ibid., p. 10.	— ٣٠
Ibid., vol. IV, p. ٤.	— ٣١
Ibid., vol. I, p. 31.	— ٣٢
Ibid., vol. III, p. 593.	— ٣٣
Ibid., vol. I, p. 392.	— ٣٤
Ibid., p. 613.	— ٣٥
Ibid., vol. II, p. 361.	— ٣٦
Ibid., p. 308.	— ٣٧
Ibid., vol. III, pp. 364-65.	— ٣٨
Ibid., vol. IV, p. 202.	— ٣٩
Ibid., vol. III, p. 452.	— ٤٠
Ibid., vol. IV, pp. 12-13	— ٤١
Ibid., p. 390.	— ٤٢
Ibid., p. 73.	— ٤٣
Ibid., p. 69.	— ٤٤
Ibid., vol. II, p. 400.	— ٤٥
Ibid., vol. III, p. 383.	— ٤٦
Ibid., vol. I, p. 572.	— ٤٧
<i>The Chronicles of Froissart</i> , trans. John Bouchier, Lord Bernes (London : D. Nutt, 1903), p. v.	— ٤٨
<i>Chronicles, vol. II, pp. 459-60.</i>	— ٤٩
Ibid., p. 61.	— ٥٠
Ibid., pp. 66-67.	— ٥١
Ibid., vol. I, 205-10.	— ٥٢
Ibid., pp. 199-201.	— ٥٣
Ibid., pp. 226-27.	— ٥٤

Ibid., vol. III, p. 643.	٤٥
Ibid., vol. II, p. 663.	٤٦
Ibid., vol. I, pp. 49-51.	٤٧
Ibid., pp. 443-44.	٤٨
Ibid., pp. 448-49.	٤٩
Ibid., pp., 791-92.	٥٠
Ibid., vol. II, pp. 247-49.	٥١
Ibid., pp. 382-85.	٥٢
Ibid., vol. IV, pp. 229-43.	٥٣
Ibid., vol. I, pp. 549-50.	٥٤
Ibid., pp. 31-32.	٥٥
Ibid., pp. 323-25.	٥٦
Ibid., p. 440.	٥٧
Ibid., pp. 269-74.	٥٨
Ibid., pp. 647-51.	٥٩
Ibid., vol. III, pp. 286-87.	٦٠
Ibid., vol. I, pp. 753-54.	٦١

الفصل السابع

Arnold Toynbee, *The Study of History* (Oxford : Oxford University Press 1934), vol. III, p. 322. — ١

Ibn Khaldun : The Muqaddimah ; An Introduction to History, trans. Franz Rosenthal (New York : Pantheon Books, 1958), vol. I, p. xliii. Hereafter cited as *Ibn Khaldun*. — ٢

See Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun and Tamerlane* (Berkeley : University of California Press 1952 , p. 69, n. 48, Timur the Lame is also known as Tamberlane. — ٣

Ibn Khaldun, vol. I, p. txix. — ٤

عن تناول ابن خلدون لليهود في تاريخه انظر : — ٥

Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun in Egypt* (Berkeley : University of California Press, 1967 , pp. 152-55. — ٦

See Muhsin Mahdi, <i>Ibn Khaldun's Philosophy of History</i> . (Chicago : University of Chicago Press, 1957-, chaps. 2 and 3, See also m. m. Sharif, ed. <i>A History of Muslim Philosophy</i> (Wiesbaden : Harrassowitz, 1966 , vol. II, <i>Political Thought</i> , chap. 49.	-
See <i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. lxxvii.	- ٧
<i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. 3.	- ٨
<i>Ibid.</i> p. 6.	- ٩
<i>Ibid.</i> , p. 9.	- ١٠
<i>Ibid.</i> , p. 14.	- ١٢
<i>Ibid.</i> , p. 15.	- ١٣
<i>Ibid.</i> , pp. 16-17.	- ١٤
<i>Ibid.</i> , p. 29.	- ١٤
<i>Ibid.</i> , p. 40.	- ١٥
<i>Ibid.</i> , pp. 55-56.	- ١٦
<i>Ibid.</i> , p. 11.	- ١٧
يرتقى أن كتاب أرسطو عز هذا الموضوع يعتريه النقص .	- ١٨
<i>Ibn Khaldun</i> , vol. I, p. 14.	- ١٩
<i>Ibid.</i> , p. 89.	- ٢٠
<i>Ibid.</i> , p. 92.	- ٢١
<i>Ibid.</i> , p. 94.	- ٢٢
<i>Ibid.</i> , p. 101.	- ٢٣
<i>Ibid.</i> , p. 97.	- ٢٤
<i>Ibid.</i> , pp. 168-68.	- ٢٥
<i>Ibid.</i> , p. 214.	- ٢٦
<i>Ibid.</i> , pp. 249-50.	- ٢٧
<i>Ibid.</i> , p. 254.	- ٢٨
<i>Ibid.</i> , p. 260.	- ٢٩

Ibid., p. 263.	— ٤٠
Ibid., p. 264.	— ٤١
Ibid., p. 275.	— ٤٢
Ibid., pp. 279-80.	— ٤٣
Ibid., p. 278.	— ٤٤
Ibid., pp. 302-3.	— ٤٥
Ibid., pp. 305-6.	— ٤٦
Ibid., p. 371.	— ٤٧
Ibid., p. 476.	— ٤٨
Ibid., p. 381.	— ٤٩
Ibid., vol. II, p. 3.	— ٥٠
Ibid., p. 47.	— ٥١
Ibid., pp. 85-86.	— ٥٢
Ibid., p. 90.	— ٥٣
Ibid., p. 91.	— ٥٤
Ibid., p. 235.	— ٥٥
Ibid., p. 317.	— ٥٦
Ibid., p. 353.	— ٥٧
Ibid., p. 356.	— ٥٨
Ibid., p. 365.	— ٥٩
Ibid., p. 373.	— ٦٠
Ibid., p. 377.	— ٦١
Ibid., p. 395.	— ٦٢
Ibid., vol. III, p. 271.	— ٦٣
Ibid., pp. 308-10.	— ٦٤
Ibid., vol II, pp. 157-62.	— ٦٥

Ibn Khaldun and Tamerlane : Their Historic Meeting in Damascus, 1401 A.D.. (309 A.H.) : A study based on Arabic munscripsts of Ibn Khaldun's Autobiography with a translation into English and a commentary by Walter 1952), pp. 29-43.

٥٦
<http://www.al-maktabeh.com>

Hitorie Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen Jusqu'au Regne D'Abou H'Ammou Mousa II par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khadloun. Ed. and tr. Alfred Bel (Algiers : p. Fontana Pupblishers, 1903-, pp. 199-208. English translation by the author.

٥٧



مراجع وبعوث مختارة

Anderson, Gillian, and William Anderson, eds. *The Chronicles of Jean Froissart*, Carbondale : Southern Illinois University Press, 1963.

An Arab Philosophy of History : Selection from the Prolegomena of Ibn Khaldun of Tunis. Translated by Charles Issawi. London : John Murray, 1950.

Archambault, Paul. *Seven French Chroniclers*. Syracuse : Syracuse University Press, 1974.

Barnes, Harry Elmer. *A History of Historical Writing*, 2d. rev. ed. New York : Dover, 1962.

Blair, Peter. *The World of Bede*. New York : St. Martin's Press, 1971.

Bonner, Gerald. *Famulus Christi : Essays in Commemoration of the Thirteenth Centenary of the Birth of the Venerable Bede*. London : S.P.C.K. 1967.

Brown, G. F. *The Venerable Bede, His Life and Writings*. New York : Macmillan, 1930.

Butler, A. J. *The Treaty of Misr in Tabari*. Oxford : Clarendon Press, 1913.

Colgrave, Bertram, and R.A.B. Mynors, eds. *Bede's Ecclesiastical History of English People*. Oxford : Clarendon Press, 1969.

- Coulton, G. G. *The Chronicler of European Chivalry*. London : The Studio. Ltd., 1930.
- Crawford, S. J. *Anglo-Saxon Influence on Western Christendom, 600-800*. New York : Barnes and Noble, 1966.
- The *Chronicles of Froissart*. 6 vols. Translated by John Bouchier, Lord Berners, with an introduction by W. P. Ker. London : D. Nutt, 1901-1903.
- Dunn, Charles W. "Introduction". In *The Chronicles of England, France, and Spain*. H. P. Hunster's condensation of the Thomas Jones translation. New York : Dutton, 1961.
- Evans, J.A.S. *Procopius*. New York : Twayne Publishers, 1972.
- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*. Berkeley : University of California Press, 1952.
- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*. Berkeley : University of California Press, 1967.
- Gillett, H. M. *Saint Bede the Venerable*. London : Burns, Oates, and Washbourne, Ltd., 1935.
- Grandsen, Antonia. *Historical Writing in England, c. 550 to c. 1307*. Ithaca : Cornell University Press, 1974.
- von Gruenbaum, G. E. *Medieval Islam, 275-87*. Chicago : University of Chicago Press, 1946.
- Ibn Khaldun, The Muqaddimah : An Introduction to History*. Translated by Franz Rosenthal. New York : Pantheon Books, 1958.
- Jolliffe, John, ed. and trans. *Froissart's Chronicles*. London : Harvill Press, 1957.
- Ker, W. P. *Essays on Medieval Literature*. London : Macmillan, 1905.
- Knowles, David. "Introduction". In *Bede's Ecclesiastical History of the English Nation*, rev. ed. New York : Dutton, 1970.

- Lewis, B., and P. M. Holt, eds. *Historians of the Middle East*. Oxford : Oxford University Press, 1962.
- Mahdi, Muhsin. *Ibn Khaldun's Philosophy of History*. Chicago : University of Chicago Press, 1964.
- Margoliouth, D. S. *Lectures on Arabic Historians*. Calcutta : University of Calcutta, 1930.
- Otto of Freising. *The Deeds of Frederick Barbarossa*. Translated by C.C. Mierow. Records of Civilization. New York : Columbia University Press, 1953.
- Otto of Freising. *The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1124 A.D.* Translated by C. C. Mierow. Records of Civilization. New York : Columbia University Press, 1928.
- Paris, Matthew. *Matthew Paris's English History*. Translated by J. A. London : H. G. Bohn, 1854.
- Patow, L. J. *A Guide to the Study of Medieval History*, rev. ed. Millwood, N.Y. : Krauss Reprint Co., 1973.
- Procopius. 7 vols. Translated by H. B. Dewing. Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1914-1940.
- Procopius. *Secret History*. Translated by Richard Atwater, foreword by Arthur Boak. Ann Arbor : University of Michigan Press, 1961.
- Rabi, Muhammad Mahmūd. *The Political Theory of Ibn Khaldun*. Leiden : E. J. Brill, 1967.
- The Regin of Al-Mu'tasim*. Translated by Elma Marin. New Haven : American Oriental Society, 1951.
- Rosenthal, E. I. J. *Political Thought in Medieval Islam*. Cambridge : University Press, 1958.
- Rosenthal, Franz. *A History of Muslim Historiography*, rev. ed. Leiden : E. J. Brill, 1968.
- Sauvaget, J., and C. Cahen. *Introduction to the History of the Muslim East : A Bibliographic Guide*. Berkeley : University of California Press, 1965.

- Schmidt, N. *Ibn Khaldun, Historian, Sociologist, and Philosopher*. New York : Columbia University Press, 1930.
- Sherley-Price, Lee, ed. and trans. *Bede : A History of theEnglish Church and People*. Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books, 1955.
- Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries* 5, vols. Translated by Thomas Johnes. London : The Haford Press, 1803-1810.
- Smalley, Beryl. *Historians in the Middle Ages* New York : Charles Scribner's Sons, 1974.
- Thompson, A. Mamilton, ed. *Bede, His Life, Times and Writings Essay in Commemoration of the Twelfth Centenary of his Death* Oxford : Clarendon Press, 1985.
- Thompson, J. W., and B. J. Holm. *A Historical Writing*, 7 vols. New York : Macmillan, 1967.
- Thurston, Herbert, and Donald Attwater, eds. *Butler's Lives of the Saints*. New York : Kenedy, 1956.
- Vaughan, Richard *Matthew Paris*. Cambridge : University Press, 1958.
- Vryonis, Speros, ed. *Readings in Medieval Historiography*. Boston : Houghton Mifflin Co., 1968.
- Williamson, G. A. "Introduction". In *Procopius, The Secret ...History*. Baltimore : Penguin Books, 1966.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٥	١ - بروكوبيوس
٤٩	٢ - بيله المبجل
٨٧	٣ - الطبرى
١٢١	٤ - اتوا الفريزنجى
١٥٣	٥ - متى بارس
١٨٩	٦ - حنا فرواسار
٢٢٩	٧ - ابن خلدون
٢٥٥	التعريف
٢٨٥	مراجع وبعوث مختارة



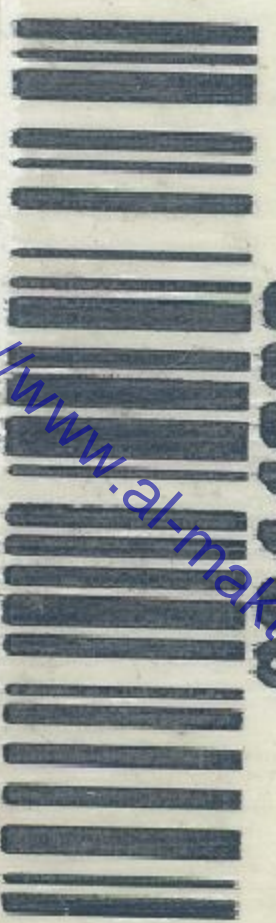
يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبعة مؤرخين من أشهر
المؤرخين في العصور الوسطى .

والكتاب جديد في فكرته . ألفه الأستاذ جوزيف داهموس
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بالولايات المتحدة الأمريكية .
ويتيح هذا الكتاب الفرصة للباحث والقارئ المثقف لمعرفة
أهم المؤرخين الذين كتبوا عن التاريخ الإسلامي وحضارته ،
والتاريخ البيزنطي وحضارته ، وتاريخ أوروبا في العصور
الوسطى وحضارته ، ويتميز أسلوب المؤلف بالعمق
والموضوعية والتدقيق والنقد العلمي القائم على الصدق
والأمانة .

٣٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية

Bibliotheca Alexandrina



0244306

<http://www.almaktabeh.com>